الكتب

وجهات نظر

في الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Issue 11 - Decemher 1999

مجلة شهرية . العدد الحادى عشر . السنة الأولى . ديسمبر ١٩٩٩ . الثمن عشرة جنيهات



نظرة على القرن العشرين

- من ينهى "الجمود على الموجود"؟!
الحالة الإسلامية على مشارف ألفية جديدة
- كيف انتقلت الثروة والقوة من الحكومات إلى الناس؟
- بعد مرور ١٠٠ عام على كتاب قاسم أمين..
السؤال الآن: متى يتحرر الجميع رجالاً ونساءً؟!
- الإبداع الأدبى العربى.. كيفما تكونوا يكون إبداعكم!
- كابوس الصفرين.. آخر قنابل القرن!



دماء على بوابات القدس

٩٠٠ عام بعد

الحملة الصليبية الأولى

"غسيل المخ" .. باسم السلام!!

غزو أم فتح.. ١٤ قرناً من الإسلام فى مصر!

ماذا ينتظر الإنسان العربى فى قرن قادم؟!

وصفات مجربة

من مطبخ الخليفة العباسى



هل تعرف طعم السيكباج؟!

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

السنة الأولى
العدد الحادي عشر
ديسمبر ١٩٩٩

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

«كل المقالات المنشورة في هذه المجلة تعبر بالضرورة عن رأى أصحابها طالما عليها توقيعاتهم.. وعندما تكون للمجلة «وجهة نظر» تمثل سياستها فسوف يكون توقيع المقال باسمها.»

محتويات العدد:

كتاب العدد:

- أحمد كمال أبو المجد .. أستاذ القانون الدستوري بكلية الحقوق - جامعة القاهرة
- أشرف البيومي .. أستاذ الكيمياء الطبيعية بجامعة الإسكندرية وجامعة ولاية ميشيجان الأمريكية سابقا
- جيمس فالوز .. صحفى
- حسن حبشي .. أستاذ التاريخ الوسيط والإسلامي بجامعة عين شمس
- دايفيد وينز .. أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة لانكستر
- رضوى عاشور .. كاتبة من مصر. أستاذة الأدب الإنجليزي بكلية الآداب جامعة عين شمس
- زياد منى .. باحث في التاريخ القديم والدراسات الكتابية
- سيمون ليز .. كاتب يعيش في أستراليا
- عبد العزيز الشربيني .. أستاذ متفرغ بتجارة الإسكندرية
- قاسم عبده قاسم .. أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الزقازيق
- محمد سيد أحمد .. كاتب صحفى
- هدى الصدة .. أستاذة مساعدة بكلية الآداب جامعة القاهرة. ومنسقة ملتقى المرأة والذاكرة.
- وليد خدورى .. خبير في شئون النفط من العراق ورئيس تحرير نشرة ميس Middle East Economic Survy

رسوم العدد للفنانين: محمد حجي - نبيل تاج - سيد القماش

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٢٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولاراً أمريكياً - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكياً - أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكياً - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة اشتراكات الأهرام - مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - ت: ٣٣٩١٠٩٠

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهماً - البحرين دينارات - قطر ١٥ ريالاً - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا دينار واحد - الجزائر ١٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهماً - تونس ٤ دنانير.
France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

إهـــداء ٢٠١٠
الأستاذ الدكتور / احمد ثابت
جمهورية مصر العربية

كلمـــة ..

ابتســامة آخـــر القـــرن!

لايريد القرن فيما يبدو أن يتركنا دون أن يشغلنا بمعركة أخرى إضافية. وحتى وهو يقترب من اللحظات الأخيرة للوقت بدل الضائع من عمره، وجد الكثيرون أنفسهم مطالبين بالإجابة على السؤال الغريب : متى ينتهى القرن العشرون؟ .. ومتى تبدأ الألفية الثالثة؟

.. والذين يرون أنه لم يبق للقرن سوى أسابيع تبدأ بعدها الألفية الثالثة عندهم عشرات الحجج التى يرد عليها - بحجج مضادة لها نفس الوجاهة - من يتبنون فكرة أن القرن الحادى والعشرين سيبدأ فى يناير ٢٠٠١.. والحجج على الجانبين كلها لفظية أو رقمية وكلها تطرح بحماس من يرى بعينيه أن هذه آخر الدنيا، أو كأن النتيجة يمكن أن تغير شيئا، أو تجعل لحياتهم معنى أفضل!

.. وآخر رصاصة أطلقت فى غمرة هذا التراشق صاحبها روبرت كابلان مؤلف كتاب «التاريخ الطبيعى للصفر» ، والذى كتب قبل أيام مقالا فى «النيويورك تايمز» يطالب فيه الطرفين (أنصار ٢٠٠٠ ومؤيدو ٢٠٠١) بعدم الانشغال بالمسألة. ورغم انبهاره بالجمال الذى يشعه تجمع الأصفار الثلاثة معا فى الرقم «٢٠٠٠» ! فإنه يطرح حلا بديلا وبسيطا لحسم الجدل: «فلنحتفل بسنة ٢٠٠٠ و بسنة ٢٠٠١!.. ولنحتفل كلما استطعنا .. فهذا أفضل!».

وأيا كان الرأى فى اقتراحه فإن المعركة ستظل ساخنة فى عقول الكثيرين، حتى بعد أن يعود عشرات الآلاف بابتسامة آخر القرن من شاتهام فى أقصى الشرق النيوزيلاندى ، و ينهى الغرب احتفالاته عند قبة الألفية فى لندن مع اللحظة الأولى لأول يوم فى يناير ٢٠٠٠ (بتوقيت جرينتش طبعا). والمؤكد أن البعض سيجد أسبابا للغضب لأن رأيهم لم يؤخذ فى الاعتبار، أو لأن المعسكر الآخر هو الذى انتصر.. مع أن «الحكاية» كلها من أولها إلى آخرها - اللحظات والأيام والشهور والسنين والقرون - مجرد تسميات من اختراع البشر.

وكل هذا الانشغال بالأخذ والرد فى «قضية» بداية الألفية الجديدة يساوى بالضبط محاولة التأكد بإلحاح من موعد آخر رحلة دون اهتمام مواز بتحضير الحقائب، ودون التحقق من وجود إجابات مطمئنة على أسئلة أكثر أهمية وصعوبة: هل هناك مبرر أساسا - فى عالمنا الثالث والعربى - للاحتفال بقدوم قرن جديد (أيا كانت لحظة بدايته بعد شهر أو ١٢ شهرا)؟ هل استعددنا له كما ينبغى ؟ كيف سيكون حالنا فيه.. وهل سننهيه - كعرب ومسلمين وعالم ثالث - ونحن أكثر قوة؟ ثم إلى أى مدى سننجح خلاله فى حسم أسئلة الحرية والعلم والثروة والهوية؟

ومهما كانت الإجابة فإن المهم فى كل الأحوال ألا نتراجع أكثر أو نخسر القرن المقبل هو الآخر، أو يكون الوقت الضائع فيه أطول من زمن المباراة نفسها!

فى هذا العدد من «وجهات نظر» نقف بالضبط عند هذه النقطة الفارقة بين قرنين . ومن خلال ملف كامل حول حال الحركات الإسلامية والاقتصاد والإبداع والمرأة بأقلام كمال أبو المجد ووليد خدورى وفاروق عبدالقادر وهدى الصدة، نلقى نظرة جديدة على بعض قضايا السنوات المائة الماضية، ونراجع بصوت عال فصولا من دروسها، ثم نحاول فيما بقى من موضوعات استشراف ما ينتظرنا فى مستقبل بدأ بالفعل.

وفى مقاله عن «الحالة الإسلامية على مشارف ألفية جديدة» يدعو المفكر الإسلامى الدكتور كمال أبوالمجد إلى إنهاء الجمود على الموجود إذا كنا نريد نهضة حقيقية لمجتمعاتنا الإسلامية، بينما يرصد الدكتور وليد خدورى تحولات الاقتصاد العالمى فى النصف الثانى من القرن العشرين ويرسم سيناريو المعارك المقبلة بين الحكومات والأسواق للسيطرة على العالم الجديد. وفى حين يلقى الناقد المخضرم فاروق عبد القادر نظرة طائر على ساحة الإبداع الفنى والفكرى العربية طوال مائة عام، تطرح الدكتورة هدى الصدة سؤال قاسم أمين القديم بصياغة جديدة: متى يتحرر الجميع .. رجالا ونساء؟!

وباقى صفحات العدد يتسع بعد ذلك لأكثر من قضية - أو هم - وفى المقدمة منها: مرض السير فى المكان أو الحركة دون تقدم.. المشكلة الحقيقية التى تعطل عربة العرب فى عصر العلم والتكنولوجيا والتى يرى الدكتور أشرف البيومى فى العرض الذى يقدمه لكتاب أنطوان زحلان: «العرب وتحديات العلم والثقافة» - أنه ليست لدى الأمة العربية خطة جادة للتصدى لها.

وفى المقابل فإن كتاب بيل جيتس الجديد «البيزنس بسرعة التفكير» والذى يستعرضه الدكتور عبدا لعزيز الشربينى ، يفتح الباب لمقارنة تثير الغيظ - وربما الحسد - مع عالم شديد التقدم يبدو بعيدا وصعب التقليد .. عالم ترك دفته لثورة التكنولوجيا الرقمية التى أحالت الحياة فيه إلى شبكة معلومات هائلة تربط الدنيا والبشر فى حزمة واحدة.. دون أن يقول لنا أحد هل سنصبح أكثر سعادة!

والانشغال بالغد لايمنعنا من العودة فى التاريخ ٩ قرون كاملة إلى الوراء لنتوقف مع دراسة مهمة للدكتور حسن حبشى عند أبواب القدس يوم اجتاحتها جحافل الصليبيين فى حملتهم الأولى مختبئة خلف لافتات براقة تغطى رغبات ثأر وجشع تجار وأوهام مغامرين . ليبدأ بعدها مسلسل ضياع القدس وغيرها.

إلا أن ذلك لا يعنى أن يضيع المستقبل أيضا، وهو ما تحذر منه الدكتورة رضوى عاشور فى مقال عن غسيل المخ باسم السلام. تكشف فيه الهدف الحقيقى للجماعات التى أنشئت بعيدا عن العيون تحت راية السلام لكن هدفها البعيد هو زراعة بذور جيل جديد ينسى ثوابت الحقوق العربية أو على الأقل يكون مستعدا للمساومة على غده.

على أن واحدا من موضوعات العدد - على الأقل - يجرب أن يدخل إلى العقل عن طريق المعدة ويقدم دراسة طريفة عن المطبخ العباسى يذكرنا فيها بوصفات مجربة لأطباق كانت تملأ الموائد فى بيوت ذلك العصر الذهبى . والقائمة طويلة لأسماء لم تعد مألوفة: التنورية والاسفيذباجة والمضيرة والسيكباج، لكن أحدا - الآن - لا يدعى أنه يعرف طعمها!

ويستطيع أى منا أن يجد بعد ذلك مبررات للتفاؤل وللاحتفال بقرن مقبل، بصرف النظر عن الظلال القاتمة فى الصورة. وهو ما يؤكد رئيس التحرير فى مقاله على الصفحة الأخيرة أنه ممكن بشرط أن ينجح الإنسان العربى فى تضييق الهوة السحيقة التى تفصل بينه وبين إنسان الغرب.. وساعتها فقط سيكون من حقه هو الآخر أن يبتسم بلا قلق أو يضحك من الأعماق ويرقص فى الميادين حتى الصباح إذا أراد عندما يبدأ قرن آخر فى ألفية جديدة!

وجهات نظر

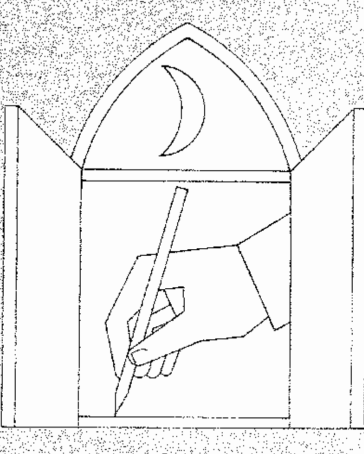
في الرحلات الطويلة يحتاج المرء من وقت لآخر إلى وقفة لالتقاط الأنفاس وتجديد الهمة والتزود بالوقود. وقد يتطلب الأمر من البعض التقليب في خرائطه للتأكد من تواقع ومراجعة الاتجاهات .. قبل أن يدير البصر حوله ليحسب ما قطعه من مسافات أو يتخطره من مراحل !

هذا الملف . الذي يلقي نظرة على بعض ما فعله القرن العشرون لنا وبنا . يشبه بالضبط محاولة لاهثة للتحقق من الكلمات المكتوبة بخط صغير على اللافتات التي تتتابع بلا توقف على الطرق السريعة (كأنها هي التي تتحرك) تنبه إلى حدود السرعة أو أخطاء القيادة أو تحذر من منعطف قادم يتطلب التمهل بعد لحظات.

الفارق الوحيد هو أنه . بعكس علامات المرور . ليست هناك إشارة واحدة مؤكدة تستطيع أن تدلنا على ما بقى من زمن في الرحلة.. لا إلى أين يمكن أن تأخذنا عندما يكمل الكون دورة أخرى كاملة مع نهاية رحلة طويلة لقرن جديد!

المحــــرر

من ينهى الجمود على الوجود؟



صـورة الحالة الإسلامية على مشارف ألفية جديدة

أحمـد كمـال أبو المجـد

هذه السطور ليست مقالا مرسلا أفرغت معانيه على الورق في انطلاق واسترسال، ولكنها ثمرة معاناة طويلة مع التردد، وإخلاف وعود عديدة بالكتابة طال أمدها منذ عقد صاحب هذا القلم عزمه منذ ما يقرب من عام على أن يسجل لنفسه، وللقراء، بعض الخواطر والتأملات حول مسيرة الفكر الإسلامي المعاصر، ومسيرة الحركات التي تستمد منه أو ترفع شعاراته أو تقوم عليه. فهذه السطور إذن ليست إلا قطوفا وخواطر متفرقة من فكر يعانيه كاتبها في مراجعات متواصلة وصبر وأناة طويلين، لا يتحكم فيهما الاستعجال الذي فرض نفسه على هذه السطور، وقد وعد صاحبها أن يفرغ من كتابتها في أيام معدودات، قبل أن يدق اليوم الأول من القرن الجديد أبوابنا وأبواب جميع الناس.

ويحتاج القارئ قبل أن ندخل به إلى صميم الموضوع أن ننبهه إلى أمور ثلاثة مهمة تعينه على فهم الحدود التي رسمناها لمناقشة هذا الموضوع:

الأمر الأول: أن الحركات الإسلامية التي نطل معه عليها من خلال هذه السطور ليست هي «الجماعات» أو «جماعات التطرف والعنف» التي امتلأت الصحف ووسائل الإعلام بالحديث المعاد عنها، وتتبع أخبارها، وإدانة الفكر الذي تقوم عليه، والسلوك الاجتماعي والسياسي الذي تمارسه، واصفة إياها بالحق والدقة أحيانا، وبالتعميم الفاسد أحيانا أخرى، بأنها جماعات التكفير أو جماعات الإرهاب أو جماعات الإسلام السياسي!!

وقد آثرنا من جانبنا أن نسميها جماعات الغلو في الفكر والانحراف عن مبادئ الإسلام وضوابط السلوك الجائر في الحركة والنشاط. ذلك أن هذه الجماعات على ما شغلته - ولاتزال تشغله - من اهتمام الناس والحكومات، فإنها لا تمثل - عند التأمل الهادئ والرصد الموضوعي، إلا هامشا ضئيلا، وإن يكن عالي الصوت شديد الضجيج - على جانبي تيار واسع عريض هو تيار الفكر الإسلامي والسلوك الذي تحكمه عقائد الإسلام وشرائعه وآدابه.. والذي هو فكر وسلوك مئات الملايين من المسلمين الذين أقاموا حضارة الإسلام، وعاشوا ثقافته عبر القرون، والذين تستقر عقولهم وقلوبهم في هذا الزمان على مبادئ الإسلام الإنسانية السمحة التي جاء بها خاتم النبيين لتكون رحمة للناس، تحررهم من الجوع والخوف وتدفع عنهم أسباب القلق ودواعي العسر والحرج.. وتضبط علاقات بعضهم ببعض على دعائم من العدل، والتكافل، وتبادل الفضل والعطاء.. ولقد وقع ظلم هائل لا يغتفر لحضارة الإسلام وثقافته ومسيرة أهله كلهم، حين اختزلت تلك المسيرة - عن نقص في العلم والوعي، أو نقص في روح العدل والإنصاف - إلى أن تكون هي مسيرة تلك الحفنة من الغاضبين الذين يخرجون على الأمة كلها بين الحين والحين، يكفرون مؤمنها، ويفسقون صالحها، وتمتد أيديهم بالعدوان والأذى إلى برها وفاجرها.. ولقد آن الأوان - فيما نرى - لاستنقاذ «الثقافة الإسلامية»، ومعها الكثرة الغالبة من الحركات الإسلامية المعاصرة، من آثار هذا الاختزال الظالم، ومن آثار الخطيئة الكبرى التي وقع فيها بعض المثقفين والمؤرخين، حين فوتوا على أنفسهم وعلى الناس فرصة التأمل الموضوعي المنصف في مسيرة «التيار الإسلامي العام»، الذي تمثله جموع المسلمين الذين لا تربطهم رابطة بتلك «الجماعات» التي أوشك الحديث المتواصل المعاد عنها أن يكون «عقبة» حقيقية في طريق التاريخ الهادئ لمسيرة المسلمين، والتأمل الجاد فيما يمكن أن يكون للمسلمين وحضارتهم من مكان أو مكانة على خريطة المستقبل القريب الذي يمثله هذا القرن الحادي والعشرين..

الأمر الثاني: أننا في هذه الإطلالة لا نطيل التوقف عند ما جرى في القرن العشرين. بقدر ما نشد الانتباه إلى ما ينتظر تلك الحركات، وينتظر المسلمين جميعا في القرن الحادي والعشرين. لذلك فإن هذه السطور لا تقدم تسجيلا تحليليا للحركات الإسلامية التي ظهرت في القرن المنصرم، أولا: لأن كاتبها ليس من المؤرخين المتخصصين. وثانيا: لأن تقديم مثل هذا التسجيل يحتاج إلى قاعدة معلومات كاملة وإلى نظام توثيق دقيق لا يملكهما الكاتب ولا تتسع لهما هذه السطور. ثم إن شاغلنا الشاغل عند هذا المنعطف التاريخي بين قرنين ليس تقييم الحركات الإسلامية التي ظهرت خلال المائة عام الأخيرة. أيا كانت معايير ذلك التقييم. بقدر ما هو التنبيه إلى شروط النهضة ومتطلبات الانبعاث، وإلى ما نراه المنهج السليم في فهم الإسلام كله وفهم رسالته ومنهج الدعوة إليه، وتوظيف مبادئه وشرائعه لخدمة المجتمع، ومعالجة همومه وشئونه على نحو يحقق التواصل مع الناس، ويضع نهاية لمرحلة «الجمود على الموجود» التي طبعت فكر كثير من المثقفين المسلمين، كما طبعت جوانب عديدة من حياة جموع المسلمين، وألقت ظلالا قاتمة وسحبا عقيمة على أوضاعهم السياسية والاجتماعية.

الأمر الثالث: أننا نكتب هذه السطور في وعي كامل بالتغيرات التي طرأت على حياة الناس جميعا، مسلمين وغير مسلمين، شرقيين وغربيين، نتيجة الآثار الهائلة التي تركتها على حياة أولئك الناس ثورات العلم والتقنية في جميع المجالات، وعلى رأسها مجالات الحركة والاتصال والمعلومات.. ذلك أن المسلمين لا يمكن أن يكونوا بمعزل عن شيء من هذه التغيرات، بعد أن سقطت الحواجز وانهارت السدود، والتقى ماء الحضارات والثقافات على أمر قد قدر.. ومسلمو هذا الزمان لا يملكون أبدا أن يصوغوا لأنفسهم تاريخا منفصلا عن تاريخ العالم الذين يعيشون فيه. كما لا يملكون أن يدخلوا القرن الجديد، كما يتوهم البعض من باب خاص بهم لا يدخل منه أحد سواهم، أو أن يصنعوا لأنفسهم مستقبلا منعزلا عن مستقبل سائر الشعوب. ذلك أنهم وإن لم يدرك بعضهم ذلك. جزء من عالم «سائر الناس» متأثر به ومؤثر فيه، إذ الناس في منطق الإسلام كلهم «عيال الله» تجرى عليهم القوانين والسنن

١ - بين الإسلام والعروبة
طارق البشري
دار الشروق، ص ١٠٤، ١٩٩٨
٢ - رؤية إسلامية معاصرة
د. أحمد كمال أبو المجد
دار الشروق، ص ١٨، ١٩٩٢

الإلهية الثابتة التي تجري على سائر الناس، وإله المسلمين الذي يعبدونه هو رب الناس .. ملك الناس.. إله الناس. ورسولهم الذي يصدقونه ويتبعون سنته ويهتدون بهديه هو بشر مثلهم يوحى إليه. وقد علمهم أنه وسائر الأنبياء من قبله «أبناء علات، أمهاتهم شتى وأبوهم واحد» .. والمسلمون جميعا في المنطق الإلهي، أمة من الأمم، إلا أنها صارت بما تحمله من دعوة الحق والخير والعدل والسلام، «خير أمة أخرجت للناس»، ولهذا فإن تاريخ المسلمين، قديمه وحديثه، ليس إلا جزءا حيا من تاريخ سائر الناس، تتفاعل في ظله ثقافة المسلمين وأفكارهم وثمرات إبداعهم وأنماط سلوكهم، مع كل ما يحيط بهم من ألوان العقائد والأفكار والرؤى والثقافات.. لهذا يحتاج المسلمون، عند هذا المنعطف التاريخي الخطير، إلى أن يدركوا أنهم حين يعبرون إلى القرن الحادي والعشرين، فسوف يعبرون في موكب واحد تجتمع معهم فيه سائر الأمم والشعوب.. وهو موكب تحيط به مشكلات وهموم مشتركة، وتجمع السائرين فيه أشواق مشتركة تتطلع إلى تزكية ما حملته الثورات العلمية من خير «ينفع الناس»، وإلى مقاومة الآثار الجانبية المدمرة التي حملتها للإنسانية كلها رؤى حضارية توشك أن تقدم الشيء «على الإنسان»، ولا تكاد تعرف للسعادة طريقا إلا طريق حيازة الثروة، ومزاحمة الآخرين عليها مزاحمة تستحل فيها جميع الوسائل، ويستباح من أجل تحقيقها الجور على حقوق الآخرين واستئصالهم إذا لزم الأمر وتطلبته ملابسات الصراع.

في إطار هذه المقدمات الطويلة التي لم يكن من عرضها بد، ننتقل إلى استعراض أمور ثلاثة:

أولها: نظرة سريعة إلى مجمل الحركات الإسلامية التي ظهرت خلال القرن العشرين، وإلى موقف سائر الناس منها.

الثاني: الدعوة إلى تصحيح العلاقة بين تلك الحركات وبين الأنظمة الحاكمة في تلك المجتمعات، وفض الاشتباك العدائي القائم بين طرفي تلك العلاقة.

الثالث: تصور التوجهات الأساسية للحركات الإسلامية، كما تحددها روح الإسلام، في إطار الظروف الموضوعية للواقع الإنساني الذي نستطيع استشراف معالمه في القرن الحادي والعشرين.

١ـ وأول ما يلفت النظر ويستوقف الباحث والمؤرخ أن الحركات الإسلامية التي ظهرت في مطلع القرن العشرين وحتى أواسطه قد كانت لها أهداف سياسية متطابقة تماما مع الأهداف السائدة في المجتمع، حتى تكاد تكون موضع إجماع من جماهير الناس، فأهداف هذه الحركات لم تكن بهذا المعنى أهدافا خارجة على التوجهات السياسية للمجتمع، ولا مخالفة لها أو متناقضة معها.. كما يلفت النظر أن هذه الأهداف قد كانت في الغالب الأكثر منها أهداف تحرير وطني ومقاومة للنفوذ والتسلط الأجنبي، وبهذا وبسببه دخلت جميع تلك الحركات تاريخ

> لقد وقع ظلم
> هائل لا يغتفر
> لحضارة الإسلام
> وثقافته ومسيرة أهله
> كلهم حين اختزلت تلك
> المسيرة إلى أن تكون هي
> مسيرة تلك الحفنة من
> الغاضبين الذين يخرجون
> على الأمة كلها بين الحين
> والحين يكفرون مؤمنها
> ويفسقون صالحها

بلادها السياسي، باعتبارها حركات تحرير وطني وقومي وثقافي. وعلى سبيل المثال، فإن حركة دينية سياسية كالحركة السنوسية التي ظهرت في ليبيا على يد محمد بن علي السنوسي المتوفى ١٨٦٠م، خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر والتي امتد تأثيرها وتعاظم مدها خلال النصف الأول من القرن العشرين، قد كانت إلى جانب طابعها الصوفي والدعوي المعروف حركة تحرر جهادي من الاستعمار الإيطالي، كذلك كانت الحركة المهدية التي أسسها محمد أحمد المهدي في السودان حركة تحرر من النفوذ الاستعماري البريطاني، وحتى حركة «الجماعة الإسلامية» في باكستان، كانت إلى جانب معالمها الفكرية المحافظة في قراءتها للنصوص الإسلامية المقدسة، حركة تستهدف تمكين المسلمين في شبه القارة الهندية من ممارسة حقهم في تقرير مصيرهم السياسي والثقافي، و بهذا المعنى ـ وفي حدوده ـ كانت تلك الحركة واحدة من حركات التحرير الوطني.. وفي مصر فإن حركة الإخوان المسلمين التي أسسها حسن البنا عليه رحمة الله، كانت عند نشأتها حركة ذات طبيعة مركبة، فيها قدر من التوجه الصوفي عبر عنه مؤسسها في مناسبات عديدة من خلال إشادته بالطريقة الصوفية الشاذلية، وفيها قدر كبير من التوجه السلفي (في أمور العقائد التي عرضها حسن البنا، عرضا واضحا شديد البساطة، ولكنه دائر في فلك النظرة السلفية التي يعتنها الفكر الأشعري، وكان فيها توجه للإصلاح السياسي والاجتماعي الداخلي على أسس ومنطلقات إسلامية..كما كان فيها أخيرا ـ وهو ما يعنينا هنا ـ جانب سياسي تمثل في شقه الخارجي في تحرير مصر من الاستعمار

> إن المسلمين
> لا يمكن أن
> يكونوا بمعزل عن
> التغيرات التي طرأت
> على حياة الناس بعد
> أن سقطت الحواجز
> وانهارت السدود
> والتقى ساء
> الحضارات والثقافات
> على أمر
> قد قدر

الإنجليزي، كما تمثل بعد عام ١٩٤٧ في العمل على تحرير فلسطين من الاغتصاب اليهودي.. وفي إطار هذا التوجه السياسي كان اشتراك أعداد غير قليلة من شباب تلك الجماعة في الأعمال الفدائية الموجهة ضد المعسكرات البريطانية في ضواحي القاهرة، وفي منطقة قناة السويس، كما كان اشتراكهم عام ١٩٤٨ في كتائب المتطوعين التي دخلت الأراضي الفلسطينية تحت قيادة القائمقام أحمد عبدالعزيز، ولعلنا نلاحظ هنا أن قيام التنظيم شبه العسكري الخاص لجماعة الإخوان المسلمين في مصر بعدد من أعمال العنف داخل مصر، وهو ما ورطهم في النهاية في صدام مباشر مع القانون ومع الشرعية القائمة.. هذا التوجه الخاطئ قد كان في بدايته الأولى موجها ضد المصالح الأجنبية واليهودية في مصر، وكان في نظر أصحابه ـ أيا كان الرأي في شرعيته ومدى جوازه ـ عملا من أعمال التحرير الوطني والمقاومة الشعبية يشتركون فيه مع جماعات أخرى عديدة خارج التيار الإسلامي.

والذي نصل إليه من هذه الملاحظة هو ما انتهى إليه مؤرخ معاصر ثقة من أنه « قبل ظهور الدعوات العلمانية المتأثرة بالغرب، كانت الدعوات الإسلامية مندمجة في حركات التحرير الوطني عامة، وفي الدعوات العامة للإصلاح والنهوض، فلما انفرزت حركة وطنية علمانية تدعو للاستقلال بصورة للمجتمع المستقل مستعارة من نماذج الغرب وأسسه الشرعية، لما حدث ذلك ظهرت الدعوة الإسلامية تؤكد أن الإسلام دين ودولة معا.(الأستاذ طارق البشري، «بين الإسلام والعروبة» دار الشروق، ١٩٩٨، ص ١٧٨).

وعلى الصعيد الفكري لا يملك الباحث إلا أن يلاحظ التوجه التحرري الواضح في أفكار كثير من رواد حركة الانبعاث الإسلامي خلال النصف الأول من القرن العشرين.. ومن أوضح الأمثلة على هذا الاندماج الفكري بين الرؤية الإسلامية، والموقف الوطني التحرري، ما نقرؤه في كتابات السيد جمال الدين الأفغاني، وإن كان الفكر عند الأفغاني قد كان مصاحبا ومواكبا طول الوقت للعمل السياسي وللحركة النضالية.. كذلك يلاحظ الباحث مدى الارتباط الوثيق بين دعوة ابن باديس وجمعية العلماء الجزائريين إلى بعث تعاليم الإسلام والدعوة إلى التمسك بالثقافة العربية واللغة العربية في مواجهة الاستعمار الفرنسي، الذي أخذ يعمل بهمة ونشاط وإصرار على طمس الهوية الثقافية للشعب الجزائري، سعيا إلى تيسير خضوعه للنفوذ السياسي والثقافي الفرنسي.. وبذلك كان لجمعية العلماء الجزائريين وجهها الوطني التحريري، إلى جانب وجهها الإسلامي الإصلاحي.. وشبيه بهذا ما قام به الثعالبي في تونس، جامعا في دعوته وفي أفكاره بين التوجه الإسلامي الواضح، والتوجه القومي إلى الاستقلال عن النفوذ الغربي الذي مثلته فرنسا. وهو ما انتهى عام ١٩٢٠ إلى تأسيس الحزب الحر التونسي على أسس إسلامية وعربية في ذات الوقت.

بل إن الثنائية التي ظهرت في المواقف الفكرية لعدد من رواد الفكر الإسلامي تجاه الدولة العثمانية تكشف عن أمر بالغ الأهمية. وهو أن كثيرا من تلك القيادات رغم توجهها الإسلامي الواضح، فإنها قاومت السيطرة العثمانية على العالم العربي من منطلق تحرري وإسلامي في آن واحد. فبالإضافة إلى استفزاز حركة التتريك وإحياء القومية الطورانية للمشاعر العربية، فإن هذه القيادات الإسلامية قد استقر لديها الإحساس بأن الدولة العثمانية قد تراخت قبضتها وترهل بنيانها ولم تعد بسبب جمودها وتخلفها النسبي، قادرة على حماية المسلمين في مواجهة النفوذ السياسي والعسكري المتعاظم للقوى الكبرى في أوروبا. وهو ما يعني أن الموقف الفكري لهذه القيادات الإسلامية قد كان في جانبه السياسي موقف مقاومة، وسعيا للتحرر، حتى حين تتوجه تلك المقاومة إلى دولة ترفع شعارات الإسلام والخلافة الإسلامية.

وإلى جانب هذا الموقف التحرري تميز الرواد والعلماء في تلك الفترة بانتباههم إلى دور العقل في تحقيق النهضة.. ولم يكن هذا موقفا جديدا بقدر ما كان عودة إلى الأصول الثقافية الإسلامية، بعد أن طرأ عليها جمود مؤقت.. وحسبنا إثباتا لهذه الحقيقة أن نشير إلى قول كاتب سياسي شهير ينتمي إلى القرن الخامس الهجري هو أبو الحسن الماوردي، إذ يقول في كتابه «أدب الدنيا والدين» : اعلم أن لكل فضيلة أساسا ولكل أدب ينبوعا.. وأساس الفضائل وينبوع الأدب هو العقل الذي جعله الله تعالى للدين أصلا وعمادا، فأوجب التكليف بكماله وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه، وألف بين خلقه مع اختلاف مذاهبهم ومآربهم وتباين أغراضهم ومقاصدهم، وجعل ما تعبدهم به قسمين: قسما وجب بالعقل فوكده الشرع، وقسما جاز في

العقل فاوجبه الشرع. فكان العقل لهما عمادا (تحقيق مصطفى السقا ـ القاهرة ١٩٥٥، ص١). ثم يقول: «اعلم أن الله سبحانه جعل ما تعبدهم به (أى الناس) مأخوذا من عقل متبوع وشرع مسموع. فالعقل متبوع فيما لايمنع منه الشرع والشرع مسموع فيما لايمنع منه العقل، لأن الشرع لا يرد بما لايمنع منه عقل، والعقل لايتبع فيما يمنع منه الشرع. فلذلك توجه التكليف إلى من كمل عقله» (المرجع السابق ص٧٨).

أما محمد عبده فقد كان ـ فيما نرى ـ مجدد هذا القرن بما انتهى إليه وما عبر عنه فى مؤلفاته وفتاواه من ضرورة الاجتهاد العقلى، وهو اجتهاد مارسه بنفسه حين قام بتفسير ما تيسر له تفسيره من القرآن الكريم وفى دعوته القوية لإصلاح مناهج التعليم فى الأزهر الشريف.

على أن هذا الموقف السياسى التحررى للفكر الإسلامى وللحركات الإسلامية لم يلبث أن تغير مع بداية النصف الثانى للقرن العشرين.. متجها بتلك الحركات إلى موقف المعارضة الحادة للنظم السياسية وللحكومات القائمة.. ودافعا بالطرفين إلى مواجهات ومصادمات غير مسبوقة وإلى اتجاه كثير من حكومات الدول العربية والإسلامية إلى السعى لتصفية تلك الحركات تصفية سياسية أول الأمر، وجسدية إذا اقتضت الظروف والملابسات، وهو اتجاه قابله اتجاه من جانب بعض تلك الحركات يسعى لزعزعة الاستقرار السياسى النسبى الذى تتمتع به تلك الحكومات.. ورغم التأييد الشعبى الذى تمتعت به بعض تلك الحركات، فإن طول فترة المواجهة مع الحكومات واتصال حلقاتها، وتصاعد موجات العنف المتبادل بين طرفى المواجهة، وما دفعته الجماهير من ثمن باهظ من دمائها وأمنها وحريتها بسبب ذلك كله.. قد نقل كثيرا من الحركات الإسلامية إلى موقف جديد هو موقف العمل «خارج» الإطار السياسى وخارج «الشرعية القانونية»، وانتهى الأمر إلى اختفاء تدريجى للخطوط الفاصلة بين الروافد المختلفة للعمل الإسلامى.. وسعت دوائر عديدة بعضها داخل المجتمعات الإسلامية، وبعضها خارج تلك المجتمعات إلى تثبيت هذا الخلط، وإشاعة الاعتقاد باستحالة التمييز بين تلك الروافد استنادا إلى مقولة مؤداها أن تلك الجماعات جميعها تحمل بذور العنف والتطرف، وأنها جماعات إرهاب.. تشكل فى الحال أو فى المآل خطرا شديدا على أمن المجتمع واستقراره وعلى مسيرة التنمية المتواصلة التى هى القضية الأولى لجميع الدول العربية والإسلامية النامية.

وهكذا، وفى مفارقة تاريخية مؤسفة، تحول العمل الإسلامى المنظم كما تحول الفكر الإسلامى كله فى نظر أكثر الحكومات من قوة تبعث على النهضة ويضاف جهدها إلى جهد الحكومات فى تحقيق تلك النهضة وفى تحرير الشعوب وتوكيد استقلالها فى مواجهة القوى الأجنبية، إلى مصدر خطر داهم على استقرار المجتمع، وإلى عقبة تبدد مسيرته نحو النمو والرخاء.. وإلى مشكلة أمنية مزمنة يكاد حلها يستعصى على العقلاء والحكماء وبسيادة هذه النظرة



> إن صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان لاتعنى تجميد نصوصه ومبادئه وإنما تعنى توظيف الأدوات التى اشتمل عليها لتحقيق الاستجابة مع تغير الأمكنة والأزمنة والأحوال

الأمنية إلى مشكلة سياسية وثقافية بالغة التعقيد وتحت أضرار جسيمة وفات على الأمة بكل طوائفها خير كثير.

وأهم مايعنينا فى هذه السطور أن نكتشف الأسباب التى أدت إلى هذا التحول، وما إذا كانت هذه الصورة الجديدة للحركات الإسلامية صورة نهائية لارجعة فيها وعلينا أن نتعامل معها على هذا الأساس أم أنها مرحلة «عارضة» أدت إليها أسباب طارئة، ومن ثم ينبغى العمل على إنهائها فى أقرب وقت والعودة إلى السياق الطبيعى الذى تتفاعل فيه الأفكار والمذاهب والرؤى المختلفة تفاعلا عضويا صحيا يوظف فى النهاية لمصلحة المجتمع كله.

وفى تقديرنا أن أسبابا رئيسية قد ساهمت فى حدوث هذا التحول:

١ ـ أولها أن الحوار الفكرى الخلاق الذى كان دائرا داخل المجتمعات العربية والذى كان حوارا وطنيا داخليا بين مناهج مختلفة فى الإصلاح وتحقيق النهضة قد تسللت إليه قوى وتأثيرات خارجية رأى بعضها فى التيار الإسلامى خطرا داهما يهدد مصالحه، ويقف فى إصرار ضد محاولات التغريب التى تفقد الأمة هويتها الحضارية وتيسر دخولها بعد ذلك فى مجال التبعية والانقياد لتلك القوى الأجنبية. وقد عبر عن هذا التحول باحث معاصر محقق منبها إلى أن دخول هذا الطرف الأجنبى فى دائرة هذا الحوار قد غير طبيعة الحوار، وأخل بالتوازن الذى كان قائما بين أطرافه. فلم تعد النخبة العلمانية وحدها فى مواجهة مع المشروع الإسلامى ونخبته وجماهيره، ولم تعد مؤسسات الدولة القطرية هى التى تحمل وحدها عبء مواجهة الحركات الإسلامية وإنما دخلت التبعية التى تشد الدول القُطرية إلى الغرب فى هذا الصراع الأمر الذى زاد من حدة الاستقطاب بين العلمانيين وبين الإسلاميين على نحو غير مسبوق.. وخلال السنوات العشر الأخيرة من القرن العشرين، وبسبب انتشار ظاهرة الإرهاب العالمى من ناحية وفى أعقاب انهيار المعسكر الاشتراكى فكريا وسياسيا وعسكريا، ارتفعت فجأة فى الأدبيات السياسية الغربية نغمة أن الإسلام هو العدو الجديد، وحدث تداع مؤسف فى الفكر وفى السلوك السياسى للغرب، بين محاربة الإرهاب وهو هدف مشروع تماما، ولا خلاف عليه داخل المجتمعات العربية والإسلامية، وبين مقاومة التيار الإسلامى بكل صوره وروافده وعلى اختلاف منطلقاته.. وكان من ثمرة هذه الملابسات المعقدة أن وقع التقاء بين جبهات ثلاث لكل منها رؤيتها وأهدافها الخاصة.. الجبهة الأولى هى جبهة القوى الخارجية الغربية التى ترى فى نمو التيار الإسلامى، ونمو روافده المعتدلة بصفة خاصة خطرا يهدد المصالح الغربية ويقف فى طريق تحقيق تبعية العرب والمسلمين للغرب.. فضلا عما يمثله ذلك التيار نظريا على الأقل من القدرة على تقديم بديل حضارى منافس لحضارة الغرب.

أما الجبهة الثانية، فهى جبهة الحكومات التى سيطرت على أكثرها رؤية أمنية خالصة ألقت ظلالها الكثيفة على فكر كثير من الساسة العقلاء والحكماء.. فرأت بسبب ذلك أن التعامل غير الأمنى مع روافد التيار الإسلامى أمر غير مجد وغير ممكن وغير مأمون.. وأن الإجراءات الأمنية والعقابية هى الطريق الوحيد الصالح للتعامل مع تلك الروافد.. وبعبارة موجزة قررت تلك الحكومات أن التصفية النهائية الشاملة هى الحل. وقد أدى هذا الموقف من جانب كثير من الحكومات العربية والإسلامية إلى إجهاض الحوار الخلاق الذى كان يمكن أن يتم داخل التيار الإسلامى، ذلك أن سوء الظن العام الذى استولى على تلك الحكومات بجميع روافد التيار الإسلامى، قد أدى إلى وضعها عمليا فى سلة الخطرين على أمن المجتمع واستقراره وإلى وضع علامة شك وسوء ظن فوق رءوس جميع العناصر النشطة فكريا أو اجتماعيا أو سياسيا داخل هذا التيار، فحيل بين أكثر العناصر اعتدالا وتحررا وإيمانا بالتعددية والديمقراطية وحقوق الآخرين وبين ممارسة دورها التاريخى فى ترشيد الفكر وإصلاح العوج. وتأخرت بذلك كله تحولات أساسية بالغة الأهمية والأثر كان يمكن وقوعها داخل تلك الحركات ابتعادا حاسما عن التطرف والغلو، واستردادا للفهم السوى المعتدل لمهمة الفرد المسلم والجماعة المسلمة، وإرساء لعلاقة حميمة بين تلك الحركات وبين المجتمعات التى تعمل فيها..

ولما كان تحقيق مثل هذه التحولات هو الضامن الحقيقى لأمن المجتمع واستقراره، والضامن كذلك لانتفاع المجتمع بكل تيارات الفكر والعمل العام على اختلاف توجهاتها فإننا لانتردد من خلال هذه الإطلالة التى أردناها عامة موجزة، فإذا بها تتسع وتتشعب على النحو الذى نرى، لانتردد فى تقديم تصور إجمالى لوسائل إنهاء هذه الحالة التى ترفع درجة التوتر والقلق فى حياتنا السياسية والاجتماعية.. وهذا التصور يقوم على مجموعة من المطالب نتوجه بها إلى النخبة القائدة أو المثقفة الرائدة داخل التيار الإسلامى أو التى تتحدث عن مشروع إسلامى للنهضة العامة، كما يقوم على مجموعة مقابلة من المطالب والتوصيات نتوجه بها إلى الحكومات وإلى النخبة المثقفة داخل التيار العلمانى للإصلاح السياسى والاجتماعى.

أما الجبهة الثالثة: فهى النخبة من الكتاب والمثقفين العلمانيين الذين يرون أن إقحام الإسلام فى أمور المجتمع ونظمه السياسية والاقتصادية شر خالص.. وأن النضال للحيلولة دون ذلك التدخل بين الدين والمجتمع نضال مقدس لاينبغى أن يتوقف حتى تتم التصفية النهائية لجميع الحركات الإسلامية.. ومن المؤسف أن بعض هؤلاء قد وضع نفسه، من حيث لايدرى، فى خندق واحد مع الطرف الأجنبى الذى لازال تأثيره على مجريات الأمور فى العالمين العربى والإسلامى يتعاظم سنة بعد سنة.. وذلك مع تباين المنطلقات والبواعث بين الفريقين.. إن دخول الطرف الأجنبى فى محاولة الصراع الثقافى والحوار الوطنى قد عقّد الصورة تعقيدا شديدا.. بحيث لم يعد ممكنا فى ظل هذا الدخول تصور مستقبل الحوار بين التيارين الإسلامى والعلمانى بعيدا عن رصد وفهم حقيقة الدور الأجنبى ومدى تأثيره على ذلك الحوار.

٢ ـ وإذا كنا لانغفل عن حقيقة الخلاف القائم منذ بدايات القرن العشرين بين التيارين «الإسلامى» والعلمانى داخل المجتمعات العربية والإسلامية، فإن الذى يحزننا على المستويين الشخصى والموضوعى أن نرى هذا الخلاف وقد تحول إلى «حرب أهلية ثقافية» هدفها الأوحد تصفية الفكر «الآخر» تصفية كاملة، والتعاون من أجل تحقيق هذا الهدف، مع قوى ومؤسسات ودوائر وطنية وأخرى خارجية.. على نحو يشتت الكيان الفكرى للنخبة المثقفة. ويبدد قواها، ويغلق ـ إلى أمد بعيد فى المستقبل ـ فرص التعاون بينها.. رغم أن «الفرز الموضوعى» لمحتويات موقف كل من الفريقين من شأنه أن يؤدى إلى تبين عناصر الاشتراك والاتفاق بين مجمل تلك المحتويات.. مما يفسح المجال لتعاون حقيقى، يخدم القضايا الكبرى للأمة بدلا من استهلاك طاقة النخب المثقفة فى أتون «حرب الاستئصال الثقافى» التى قد تؤدى فى مستقبل غير بعيد إلى استئصال الفريقين جميعا من جانب قوى أخرى تستخدم أحدهما ضد الآخر، ثم تعود فتصفى هذا الذى استخدمته لتخلو لها الساحة كلها، وخصوصا أنها منذ البداية، لاتنحاز انحيازا حقيقيا لأى قوة وطنية يمكن أن تقف فى وجه امتداد نفوذها وبسط هيمنتها.

إن مما يبعث على الدهشة والأسف معا أن هذه الرؤية الموضوعية لحقيقة الخلاف بين التيارين الإسلامى والعلمانى قد حجبت عن «النخبة» داخل التيارين رؤية «الملحمة» الفكرية القائمة داخل كل من التيارين، بين عناصر

من ينهي الجمود على الموجود؟

التطرف والغلو من ناحية، وعناصر الاعتدال والتسامح والوعي بحق الآخرين في الوجود والممارسة من ناحية أخرى.. وعلى سبيل المثال، فإن «التيار الإسلامي» يشهد في داخله صراعا حقيقيا بين قوى التطرف والجمود والذهول عن رؤية الواقع وحركة التاريخ، والانقطاع الاختياري عن مسيرة ذلك التاريخ.. وبين قوى الاعتدال التي تنظر إلى مقاصد النصوص والأحكام الدينية وإلى ترتيب الأولويات في إطارها، كما تؤمن بالتعددية وتحترم حقوق الآخرين، وتمد بصرها وبصيرتها عبر كل الحدود لتنتفع بتجارب أولئك الآخرين.. وقد كان المتوقع والمنطقي أن تنحاز «النخبة العلمانية» إلى هذا الرافد من روافد الفكر الإسلامي، وأن ترى في هذا الانحياز ما يشد قوى الاعتدال والتنوير داخل ذلك التيار.. وبدلا من هذا الموقف المنطقي وجدنا كثيرا من الأقلام والألسنة التي تتحدث باسم تيار «العلمانية» والتنوير وقد نذرت نفسها لتخص تيار «التنوير الإسلامي» بالنصيب الأوفى من سهام النقد واللوم والاعتراض والتجريح.. وهي سهام قد تؤدي - لا قدر الله - إلى هزيمة العلم في مواجهة الجهل، وتراجع الاعتدال لحساب الغلو والشطط.. ليتراجع بذلك إسلام النهضة والعقلانية وتحرير العقول والتسامح الفكري والسلوكي تجاه الآخرين.. ولترتفع في ساحة الحرب الأهلية القائمة بين «النخب الثقافية» أعلام الجمود والانتكاس والانغلاق.

وعلى الجانب الآخر جانب التيار الإسلامي، عجزت كثير من القيادات الفكرية داخل هذا التيار عن «رؤية» المشترك بين التيارين، وعن إعادة ترتيب أولوياتها بما ييسر «العمل المشترك» بينها وبيسر الصمود الوطني في مواجهة قوى الجمود والتراجع داخليا، كما تجاهلت بدورها، تعدد الروافد داخل ذلك التيار العلماني، ومنها روافد عديدة ذات وزن وتأثير لاترى بينها وبين التيار الإسلامي في عمومه تناقضا أساسيا يتعذر تجاوزه. بل انها تجاهلت ان ذلك التيار شأنه في ذلك شأن كل تجمع فكري يحمل في داخله رؤى متباينة وانه تتم داخله تحولات وتطورات فكرية حقيقية جديرة بالانتباه والملاحظة.

لهذا فإن في مقدمة المهام التي تواجه النخب الثقافية في مطلع القرن الجديد مهمة البحث الموضوعي الهادئ عن صيغة للتعايش والتبادل الفكري بين التيار الإسلامي وتيار «التنوير «العلماني».. حتى تعود العلاقة بين النخب الثقافية إلى ماكانت عليه، علاقة حوار وعلى تستفيد منه التجربة المصرية وتجارب العالمين العربي والإسلامي وسط الظروف الإقليمية والعالمية المعقدة التي تحيط بها.

٣ - وأخيرا فإن تعدد الجماعات الإسلامية التي ترفض مجتمعاتها وتتهمها بالكفر والجاهلية ولا ترى في الغرب إلا شرا خالصا يتآمر على العرب والمسلمين، وترفض الأخذ منه والاستفادة من تجاربه، وما تورطت فيه بعض تلك الجماعات من ممارسات طابعها العنف والاستعداد بالعدوان والأذى إلى بعض رموز المجتمع السياسية والثقافية، فضلا عن تورط بعضها في صور من العنف العشوائي الذي ينزع الأمن عن المجتمع كله بما فيه ومن فيه، ويضع تلك الجماعات في مواجهة مع سائر عناصر تلك المجتمعات.. هذا كله قد ساهم في تثبيت الصورة التي حرصت على تثبيتها دوائر عديدة خارج العالم الإسلامي وداخله، والتي مؤداها أن التوجه الإسلامي في العمل الاجتماعي والسياسي يحمل في داخله بذور عنف كامن واستبداد أصيل، وأن كل تعاظم لتأثير هذا التيار مهما كان هذا التعاظم منسوبا إلى أكثر الروافد اعتدالا وسماحة وعقلانية، يمثل خطرا داهما على حريات الآخرين وحقوقهم، كما يمثل تهديدا للمسيرة الديمقراطية، وعقبة كبرى في وجه جهود التنوير وإشاعة العقلانية.

وصاحب تلك النماذج من السلوك العدواني لبعض تلك الجماعات، ذيوع خطاب ديني إسلامي شديد الانغلاق، مسرف في التفسير «الحرفي» لنصوص القرآن والسنة، غافل عن مقاصد الإسلام وقيمه الكبرى المهيمنة على الشريعة.. وتزامن ارتفاع نبرة هذا الفكر «الحرفي» مع موجة معاكسة تماما بدأت تنتشر في العالم كله وهي موجة الإيمان بالتعددية الثقافية أو الدعوة النشطة إلى حوار الحضارات والأديان.. والسعي الدءوب لاكتشاف القواسم المشتركة بين الثقافات.. سعيا إلى ممارسة جهد مشترك يحفظ على مسيرة الشعوب قيم وأخلاقيات العلاقات الإنسانية التي تقوم على الاحترام المتبادل للخصوصيات الثقافية والالتزام الصارم بقيم العدل والمساواة واحترام حقوق الإنسان.

لهذا كله لم يكن غريبا أن تقع المفارقة المؤسفة التي أشرنا إليها بين ما رأيناه خلال النصف الأخير من القرن العشرين وبين ما ساد خلال النصف الأول منه، من اعتبار الحركات الإسلامية جزءا عضويا أساسيا من أجزاء حركة التحرر الوطني ومقاومة النفوذ الأجنبي الذي يحمل طابع الهيمنة السياسية والاقتصادية والثقافية..

ومن خلال هذا الرصد لما وقع عند نهاية القرن العشرين ننتقل إلى ما نراه منهجا أساسيا لفض الاشتباك المعقد القائم بين الحكومات والحركات الإسلامية من ناحية وبين التيار الإسلامي وتيار التنوير العلماني، من ناحية أخرى، والمنهج الذي نقترحه يقوم على تقديم مجموعة من المطالب والتوصيات نتوجه بها إلى القيادات والنخب الواعية والمؤثرة داخل التيار الإسلامي أو تلك التي تتحدث عن مشروع أو مشروعات إسلامية للنهضة. كما يقوم على مجموعة مقابلة من المطالب والتوصيات نتوجه بها إلى الحكومات وإلى النخبة المثقفة الرائدة داخل التيار العلماني في الإصلاح السياسي والاجتماعي.

أما القيادات الفكرية الواعية والتي تنشط في مجال العمل الإسلامي فإنها فيما نرى مطالبة عند هذا المنعطف التاريخي بعدة أمور:



منهج للمستقبل..
إن فقه العبادات
وفقه الحدود والجنايات
ينبغي أن يعودا إلى حجمهما
الطبيعي داخل مجمل الفقه
الإسلامي.. والاجتهاد
الفقهي يحتاج إلى
ممارسة نشطة وجريئة
اعتمادا على مبدأ
التيسير في التقوى
ومبدأ مراعاة الأولويات

١ - أن تحدد بحسم وبوضوح كاملين، وبنبرة عالية لاتردد فيها موقفها من أفكار وتصرفات الجماعات المنظمة التي تجمعها روح العزلة عن المجتمع، وإدانتها لسائر الناس، وللدولة ومؤسساتها، كما يجمعها التفسير الحرفي للنصوص الدينية، وقلة الاحتفال بالديمقراطية، وغياب الإيمان بالتعددية الفكرية والسياسية واستباحة الوسائل الانقلابية في الوصول إلى مواقع التأثير وممارسة السلطة في المجتمع.. وبغض النظر عن المحاولة المشروعة لفهم البواعث الحقيقية التي تحرك تلك الجماعات أو الأسباب المجتمعية لنشأة هذا النموذج المنحرف من نماذج الفكر والسلوك، فإن محاولة التفهم هذه لا يجوز أبدا أن تحول دون إعلان موقف واضح وصريح من هذه الجماعات.. حتى لا تختلط الأوراق، وتتداخل المواقف، وتتميع الحدود الفارقة بين التيار العريض للفكر الإسلامي وبين فكر هذه الجماعات، وهو اختلاط من شأنه أن يمنح فرصة ذهبية للذين يحرصون على إدانة التيار الإسلامي بروافده كلها، كما يمنح عذرا ظالما لمن يصرون على وضع الفكر المعتدل مع الفكر المتطرف والمنحرف في سلة واحدة.

٢ - أن تعلن رأيا واضحا وصريحا ومفصلا وموثقا في عدد من القضايا الأساسية التي يحتاج الناس حكاما ومحكومين خاصة وعامة، إلى استجلاء الرأي في شأنها:

أ) وعلى رأسها الموقف من الديمقراطية في أسلوب الحكم، دون تعقيد للقضية بالإلحاح على اختلاف الرؤى الإسلامية عن الديمقراطية الغربية، إذ إن الإلحاح على هذا الاختلاف يفضي عملا إلى الابتعاد عن الشورى الإسلامية وعن الديمقراطية بجميع صورها لصالح أنظمة استبدادية ظالمة يضيق عنها صدر الإسلام، كما لا يتسع لها صدر الديمقراطية الحديثة.

ب) ومن أهمها كذلك قضايا الحرية وحقوق الإنسان وبصفة خاصة الحقوق الثلاثة الآتية:

١ - حقوق الأقليات السياسية والدينية وحرية أصحاب الأديان الأخرى وبصفة خاصة الإخوة المسيحيين في ممارسة شعائرهم الدينية والتمتع بمساواة حقيقية قانونية وفعلية مع المسلمين، ورفض جميع صور التفرقة في الحقوق المدنية والشخصية والسياسية وفي الوظائف العامة، وفرص العمل والترقي فيه إلى أعلى مواقع القيادة.

٢ - حق التعبير عن الرأي في المسائل السياسية والاجتماعية وممارسة ذلك التعبير في أمان من الملاحقة القضائية أو السياسية، ورفض المسلك الفاسد الذي تفشى أخيرا، والذي يصادر حق الناس في التفكير والتعبير، عن طريق ممارسة القسر والإكراه، بسوق المخالفين في الرأي إلى القضاء، بتهم غامضة، يصعب معها دفاعهم عن حقوقهم وحرياتهم، كما تتراجع - في ظلالها القاتمة - فرص انتعاش الفكر والإبداع.. وهو تراجع يهدد أمل الأمة في أن يكون لها إسهام حقيقي في صنع حضارة القرن المقبل كما يهدد أمنها في تحقيق نهضة داخلية حقيقية لايقدر على تحقيقها إلا أصحاب الرءوس المرفوعة، والقلوب الآمنة، والعقول المتفتحة.

٣ - حق المرأة في مشاركة الرجل أعباء الحياة العامة، إلى جانب قيامها بدورها الأساسي في بناء الأسرة ورعايتها. وهي مشاركة لاتزال تقف في طريقها رؤى بعض القيادات الفكرية الإسلامية التي انطبع فكرها ومزاجها بأعراف محلية فاسدة لاتزال سائدة في كثير من المجتمعات، فإذا بهذه الأعراف تقدم للأمة العربية والإسلامية كما تقدم للدنيا كلها كما لو كانت «حكم الإسلام» في هذه القضية ذات التأثير الحاسم على مستقبل التنمية الشاملة في مجتمعات العرب والمسلمين.

جـ) أن يعلنوا - في وضوح كامل كذلك - إدانتهم للعنف الذي تمارسه جماعات التطرف والغلو، والتزامهم الكامل بأسلوب العمل الديمقراطي، وبقواعد النظام الدستوري والقانوني القائم في ممارسة دعوتهم لتغيير أوضاع المجتمع توجها نحو برنامج الإصلاح الذي يتبنونه.. كذلك لابد أن تؤكد ممارساتهم اليومية صدق هذا الالتزام باعتباره موقفا مبدئيا نابعا من إيمان حقيقي، وليس موقفا تكتيكيا أو مرحليا يتخذونه انتظارا لفرصة سانحة يتخلون فيها عنه حين يكون هذا التخلي خادما لصالحهم وتطلعاتهم السياسية في صراعهم مع سائر القوى السياسية والاجتماعية التي تزاحمهم ساحة العمل العام.

د) ألا يتعجلوا الأمور في مطالبتهم بتطبيق الشريعة، وأن يدركوا طبيعة العمل الاجتماعي وشروط الإصلاح التشريعي.. حتى لاتكون الدعوة إلى تطبيق الشريعة نوعا من إكراه الجماعة السياسية على أمر لا تريده، أو لا ترى تطبيقه تطبيقا فوريا شاملا معجلا.. ذلك أن الأوضاع الاجتماعية والسياسية السائدة في كثير من المجتمعات الإسلامية تجعل من الضروري البدء بإصلاح سياسي عام.. يسترد

به الشعب سلطته في اختيار حكامه ونظمه وشرائعه، وتمارس فيه الحقوق والحريات ممارسة حقيقية لاشكلية. وحين يتحقق ذلك ويجري الحوار الوطني في جو من الحرية والموضوعية وتقبل الآراء المخالفة، فسوف تجد الدعوة لتطبيق الشريعة الإسلامية فرصة حقيقية نابعة من اختيار الجماعة. كما سوف يطمئن الجميع الموافق منهم والمخالف، إلى أن تطبيق الشريعة إنما يعني تحقيق الانسجام بين الاستقلال الوطني والسياسي من ناحية وبين الاستقلال الثقافي من ناحية أخرى.. كما يطمئن الجميع إلى أن القصد النهائي من تطبيق الشريعة إنما هو تحقيق المصالح وحماية الحقوق وإشاعة العدل وليس إدخال العسر والحرج باسم الدين على المجتمع وأفراده.. ولايتم ذلك إلا بعد دراسات علمية واسعة واجتهاد فقهي جسور.. ترصد فيه الحاجات الاجتماعية والسياسية للجماعة.. ويمارس فيه الاجتهاد الفقهي بوعي من ضرورة استجابة ذلك الفقه لهذه الحاجات إيمانا بأن الفتوى لابد أن تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال.

أما الحكومات.. فإنها مطالبة بأمور ثلاثة من شأن الالتزام بها أن يفتح أبوابا واسعة لتحقيق «تصفية حقيقية دائمة» لظواهر العنف والإرهاب الذي يرفع أصحابه رايات وشعارات إسلامية وأن يرد التيار الإسلامي العريض إلى مكانه ومكانته اللتين كان عليهما خلال النصف الأول من القرن العشرين.. رافدا أصيلا مندمجا في مجمل حركة المجتمع نحو التحرر الوطني والاستقلال السياسي والثقافي..

الأمر الأول: التعامل مع ظواهر العنف والتطرف بسلطان القانون. إذ لا يتصور أن يوجه اللوم أو الانتقاد إلى حكومات تحارب الخارجين على القانون بسيف القانون وسلطانه. ولا يجادل أحد في أن من خرج على الجماعة يضرب بسيفه برها وفاجرها، ويروع أهلها، وينزع الأمن من حياتهم فهو مستحق للعقوبة بلا هوادة ولا التماس للأعذار.. ولكن فاعلية هذا الأسلوب وشرعيته تتوقفان جميعا على التزام أجهزة الدولة بسيادة القانون، وسلامة إجراءات المحاكمات أمام قضاء طبيعي مستقل، يوقع الجزاء المستحق على الخارجين على القانون.. بلا ترخص ولا تجاوز للحدود.. وسيظل الخيط الرفيع الذي يفصل بين السيادة الحقيقية للقانون.. وبين رفع شعار تلك السيادة والخروج عليها في الممارسات.. سيظل ذلك الخيط فاصلا حاسما بين الشرعية ومخالفة الشرعية.. فالشرعية هي وحدها التي تكفل لسلطة الدولة ولقراراتها وأفعالها تأييد الجماهير. أما مخالفة الشرعية من جانب الدولة فإنها تمنح الخارجين على القانون تعاطفا لا يستحقونه، وقد تصور لبعضهم أنه في معركة بين فصائل متحاربة متساوية في نصيبها من الشرعية.. لا أنه يقف في خندق الخروج على القانون في مواجهة الشرعية الحقيقية التي تمثلها الدولة وأجهزتها الأمنية والقضائية.

محمد عبده كان فيما نرى مجدد هذا القرن بما انتهى إليه وما عبر عنه في مؤلفاته وفتاواه من ضرورة الاجتهاد العقلي وهو اجتهاد مارسه بنفسه حين قام بتفسير ما تيسر له من القرآن الكريم وفي دعوته القوية لإصلاح مناهج التعليم في الأزهر الشريف

الأمر الثاني: الانتباه إلى أن تعقب المداخل الفكرية والثقافية للتطرف الديني هو السبيل الحقيقي إلى تصفية الروافد المنحرفة في تيار الفكر الديني.. والتعقب الذي نتحدث عنه عمل سياسي وثقافي في آن واحد.. والحوار هو أداته الوحيدة الفعالة.. ومهما بذلت أجهزة الأمن من جهود في محاربة التطرف فستظل المنابع الثقافية للفكر الديني المنحرف تزود المجتمع بأجيال من حملة البذور الأولى لهذا الفكر المنحرف.

وأعجب العجب وأدعاه للدهشة والأسف أن يعترض البعض على هذه الدعوة للحوار احتجاجا بأن الحوار مع المتطرفين الخارجين على القانون أمر لايجوز، ولايتصور أن تقبله دولة تحرص على هيبتها وسلطان القانون فيها.. وموضع العجب في هذا الاحتجاج أن أحدا لايدعو إلى كف يد القانون عن الخارجين عليه، اكتفاء بإدارة حوار فكري معهم رغم تورطهم في العدوان على المجتمع وأفراده ومؤسساته!! هذه دعوة لم يقل بها أحد، ولا يتصور أن يقول بها أحد.. وإنما الحوار الذي نقول به ونلح عليه هو الحوار مع أولئك الذين لم يتورطوا في الخروج على القانون، وهو حوار يهدف إلى إصلاح العوج الفكري الذي زودوا به وإلى كشف عورات التصور الديني الفاسد الذي ألقي في روعهم وإلى ردهم من جديد إلى صحيح الإسلام.. كما يهدف بما يتاح له من علانية إلى توقي دخول أبرياء جدد في دائرة هذا الفكر المنحرف.. وتطعيم عامة الشباب بما يحصنهم عن مزالق الدخول في دوامة الغلو والتطرف ومعاداة المجتمع.

الأمر الثالث: تجنب الوقوع في وهم الاعتقاد بأن روافد الفكر والعمل الإسلامي كلها سواء وأنها - علمت أو لم تعلم - تحمل بذور العوج والتطرف والعنف، ذلك تبسيط شديد للأمور، وذهول عن أبسط الحقائق المتصلة بالفكر وتطوره، وتقلب الأفراد بين المعتقدات والأفكار المختلفة.. كما أنه تجاهل لا عذر لأحد فيه لما هو واضح وضوح الشمس من وجود فوارق جذرية بين تيارات الغلو والتطرف والعنف. وبين روافد للفكر الإسلامي تحمل سماحة الإسلام، وأدب النبي ﷺ وتظللها روح الرفق والرحمة بالناس كل الناس.. وتتوحد بمشاعرها الصادقة مع هموم الأمة ومشاكلها، وآمالها.. وتؤمن بالديمقراطية إيمانا نابعا عن يقين علمي والتزام ديني وتقدس حقوق الإنسان وحريته، وتعلم علم اليقين أن المسلم لايستحق هذا الوصف إلا إذا فهم مهمته بين الناس على أنها الدعوة بالكلمة الطيبة، وبالرفق الذي لايعرف العنف، والمواساة عند الشدائد، وبذل النفس والجهد والمال تخفيفا عن الأمة وافتداء لها من آلامها. إن الذين يصرون على تجاهل هذه الحقيقة الكبرى - أيا كانت مواقعهم - يساهمون من حيث لايعلمون في استمرار ظواهر الغلو والتطرف، ويحولون دون ما يتطلع إليه حملة الفكر الإسلامي السمح المستنير من أداء دورهم التاريخي، في اجتثاث هذه الظاهرة وتصفية منابعها الفكرية التي تسيء إلى الإسلام قبل أن تصيب المجتمع بما شاهدناه جميعا من اهتزاز الأمن وتهديد الاستقرار، وتعويق مسيرة النمو.

وبعد، فهذه صورة الفكر الإسلامي والحركات الإسلامية كما نراها عند نقطة العبور من قرن إلى قرن. وإذا كان فيما قررناه كثير من التعميم والتبسيط فعذرنا أن جوهر ما قصدنا إليه هو ألا ندخل القرن الجديد. وفي حياتنا هذه الحرب الأهلية الثقافية التي طال أمدها. وألا تشرق علينا سنواته الأولى ونحن في حيرة من أمرنا تحارب ثقافتنا الخاصة لأننا لا نرضى عن رافد من روافدها وينخلع بعضنا عن حضارته العربية والإسلامية لأن بعض حملتها ورافعي شعاراتها قد أساءوا الفهم وأساءوا التصرف وعرضونا جميعا لحملة تشويه واتهام لانريد أن ندخل القرن الجديد ونحن بعد متعرضون لها مشغولون بأمرها.

متطلبات المستقبل:

فإذا تم لنا ما نرجوه ونلح في رجائه وهو فض الاشتباك الطارئ بين الروافد المختلفة لجماعات المثقفين. وفض الاشتباك الآخر الطارئ كذلك بين الحركات الإسلامية والحكومات.. كان علينا أن نبني تصورا لشروط الانبعاث العربي الإسلامي كما تتطلبها حقائق القرن الجديد.. وكان علينا - في سبيل ذلك - أن نستعلي على «الانحصار» في إطار كثير من الأفكار وأساليب العمل التي سادت خلال قرن مضى وانقضى وكانت له - هو الآخر - حقائقه وملابساته ومتطلبات التكيف مع تلك الحقائق والملابسات.

وفي هذا الجزء الأخير من هذا البحث أكتفي بسرد قائمة بما أتصوره شروطا أساسية لهذا الانبعاث، وللتكيف المحسوب مع حقائق العصر تكيفا محكوما بالثوابت الأخلاقية المستمدة من أصول الثقافة العربية الإسلامية..

فعلى صعيد الفكر الإسلامي، يحتاج الفكر الجديد إلى إبراز الحقائق التالية:

١ - إن الإسلام دعوة ونداء، وأنهما تحددا موضوعيا وتاريخيا من خلال خطاب إلهي يتوجه إلى عقول قادرة وإرادات حرة، والدعاء والنداء لايفرضان على الناس فرضا، ولايكره عليهما أحد ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ (الكهف - ٢٩)، ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ (يونس - ٩٩)، ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ (العنكبوت - ١٨).

٢ - إن المسلمين وإن كانوا أمة متميزة بمعالمها وبعقيدتها وثوابت شريعتها، وبالمنظومة الأخلاقية المهيمنة على ذلك كله، فهم حلقة في سلسلة الأمم المؤمنة، وبينهم وبين سائر الناس وشائج وروابط وثقى، والحاحهم على التميز الكامل قد كان مفهوما حين كان «صراع الاستئصال» يهددهم في وجودهم الثقافي والديني والسياسي، أما في القرن المقبل فإن الإلحاح على ماهو مشترك بينهم وبين سائر الناس يغدو أمرا لازما، لزوما لايقل عن لزوم التمسك بثوابت حضارتهم الدينية، ويترتب على هذا الاعتقاد تصحيح علاقة المسلمين بسائر الأمم والشعوب وتواصلهم مع سائر الحضارات والثقافات.

٣ - إن صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان لاتعني تجميد نصوصه ومبادئه. وإنما تعني توظيف الأدوات التي اشتمل عليها لتحقيق الاستجابة مع تغير الأمكنة والأزمنة والأحوال. ولعل كتابات عبدالعزيز جاويش (المتوفى عام ١٩٢٩) تقدم نموذجا فذا لإدراك هذه الحقيقة. وكذلك كتابات موكب موصول الحلقات من مفكري ومنظري الفكر الإسلامي خلال النصف الأول من القرن العشرين، نذكر منهم علال الفاسي، وعبدالحميد بن باديس، ومحمد كرد علي، وعبدالحميد الزهراوي، ورفيق العظم، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، ومنصور فهمي، ومحمد حسين هيكل (في السنوات الأخيرة من عمره) وعبدالرزاق السنهوري وكثيرين غيرهم.

٤ - إن فقه العبادات وفقه الحدود والجنايات ينبغي أن يعودا إلى حجمهما الطبيعي داخل مجمل الفقه الإسلامي.. ذلك أن العبادات وإن كانت «جوهر الالتزام الديني» وقاعدة الأساس فيه، فإن الفقه الخادم لها قد تحددت معالمه وأكثر أحكامه منذ قرون عديدة، وإذا استثنينا مباحث الزكاة، فإن أركان وسنن الصلاة والصوم والحج قد صارت معلومة للكافة، متفقا على أكثرها بين عامة العلماء.. أما فقه الجنايات فهو على ضرورته جزء صغير من أجزاء الفقه الإسلامي لارتباطه بظاهرة مرضية طارئة على المجتمعات الإنسانية وإن كانت ملازمة لها. وهي الخروج على سلطانها وشريعتها والعدوان على حقوق أفرادها وجماعتها، وأكثر المؤمنين يولدون ويعيشون ويموتون دون أن يتعاملوا - بوجه أو آخر - مع فقه الحدود والجنايات. أما الذي يحتاج إلى اجتهاد واسع وإلى منهج علمي لممارسة الاجتهاد فهو فقه المعاملات التي استحدث الناس منها ألوانا وصورا لم تكن معروفة للفقهاء الأوائل، أو كانت أصولها معروفة لديهم ولكن صورها المعاصرة قد صارت تحتاج إلى فقه جديد.

٥ ـ إن الاجتـهـاد الفـقـهى ينبـغى أن يكون محكوما بمبادئ قال بها الفقهاء القدامى، ولكننا تحـتـاج الآن إلى ممارسـة نشـطة وجريئـة لهـا.. أشير إلى مبدأين اثنين هامين منها:

أ) مبدأ التـيسـير فى الفتوى.. تخفيفـا عن الناس فى عصر معقد تراكمت فيه الأعباء النفسية والمادية على الناس، وفقه التيسـيـر باب واسع يحتاج إلى بحث مستقل حسبنا أن نشير فيه إلى مبدأ أن الأصل فى الأشياء الإباحة وإلى ضرورة التضـيـيق من قاعدة «سد الذرائع» حـتى لاننتهى بالناس إلى منع ما هو جائز وتحريم ما لم يقم دليل يقينى على تحـريمـه.. هذا فضـلا عن أن التيسير فى الفتوى قد كان منهج رسول الله ﷺ، ومنهج التـشـريع الإسـلامى كله كـمـا كـان من وصاياه لسفرائه ومبعوثيه للقضاء فى الأمصار المختلفة.

ب) مبدأ مراعاة الأولويات عند مخـاطبـة الناس ووضع النظم والتشريعات .. وليس فى هذه المراعاة خروج على ما هو مقرر ومسلم به من أنه لاتعـديل ولا نسخ بعـد انقطاع الوحى وكمال الدين.. إذ الأمر فى هذا ليس أمر تدرج فى التشريع ، وإنما هو أمر تدرج فى البيان والتنفيذ مراعاة لأحوال الناس وانتباها لأوضاعهم وحفزا لهم على احـتـرام التـشـريع والرضـا به، إذ ليس للجماعة مصلحـة فى إصدار أوامر ونواهى يتفنن الناس فى الخروج عليها. وهو خروج تدعو إليه أحيانا المفارقة الكبيرة بين حاجات الناس وبين استجابة التشريع لها.

جـ) الاسـتـئناس بتـجـارب الأمم الأخـرى قديما وحديثا فى التشريع، اطمئنانا إلى أنه ليس فى أصول الإسلام ومـبـادئ شريعتـه مـا يحـول دون ذلك، مـادام ذلك الاسـتـئـنـاس والاقتباس يتم فى إطار المبادئ الكلية الحاكمة للتشريع الإسلامى. ولعل من أحسن مايقال فى هذا المجال ما يذكره أحد مفكرى القرن العشرين (خير الدين التونسى) من ضرورة «تحذير ذوى الغفلات من عوام المسلمين عن تماديهم فى الإعراض عما يحمد من سيرة الغير الموافقة لشرعنا لمجرد ما انتعش فى عقولهم من أن جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراكيب ينبـغى أن يهـجـر» ، وأوضح منه قـول أحـد متأخرى المالكية (الشيخ المواق): «إن مانهينا عنه عن أعمال غيرنا هو ما كان على خلاف مقتضى شرعنا أما مافعلوه على وفق الندب أو الإيجاب أو الإباحة فإنا لانتركه لأجل تعاطيهم إياه» ، وأوجز العلامة الحنفى ابن عابدين هذا الأمر كله بقوله: «إن صورة المشابهة فيما تعلق به صلاح العباد لاتضر».

٦ ـ الالتفات إلى قيمة الحرية فى الحيـاتين السياسية والثقافية، ويستوقف النظر أن عددا كـبـيـرا من رواد الفكر الإسـلامى فى بداية القـرن العشرين وحتى منتصفه كانوا شديدى العناية بقضية الحرية ودورها فى ترشيد المجتمع، كما كانوا شديدى النقد لكل صور الاستبداد السياسى والاجتماعى.. وحسبنا أن نشير إلى ماقدمه عبدالرحمن الكواكبى (المتوفى سنة ١٩٠٢) للفقه السياسى الإسلامى والفقه السياسى بصفة عامة فى قضية الحرية، فهو يرد انهيار المجتمعات وتردى أوضاعها إلى غياب الحرية وانتـشـار الاستبداد.. فيقول: «وقائل آخر يقول:

الشرق مريض وسببه فقد التمسك بالدين، ثم يقف. مع أنه لو تتبع الأسباب لبلغ إلى الحكم بأن التهـاون فى الدين ناشئ من الاستبداد ، وأن العافية المفقودة هى الحرية السياسية» (من كتابه طبائع الاستبداد) ويقول: «قد تمحص عندى أن أصل هذا الداء (الانحطاط) هو الاستـبـداد السيـاسى، ودواؤه دفعه بالشورى الدستورية».

٧ ـ الكف عن تصـور «الخـلافة الإسـلاميـة» صـورة محددة من صور الحكم . غابت بسقوط الخلافة العثمانية، ويحتاج الأمر إلى بعثها من جديد ليتصلح حال الأمة، وليتم تطبيق الشريعة فى مـيـدان هام من مـيـادينهـا، والصـحـيح أن الخلافة لفظ أطلق تاريخيا على أشكال مختلفة من أشكال الحكم، وأنه ليس للإسـلام «نظام سياسى واحد مخصوص متفرد بمعالم خاصة ينبـغى بسبب وجودها رفض جميع أشكال النظم والترتيبات السـيـاسيـة القـائمـة فى عصرنا»..

والصـحـيح الذى توصل إليـه وقـال به المحققون فى هذا الفن من فنون العلم أن الإسلام أوجب الالتـزام بعدد من المبـادئ الأسـاسـيـة المتصلة بإقامة الحكومة وسياسة الرعية ، على رأسها مبدأ الشورى، ومبدأ العدل فى الحكم، ومبدأ مسـئولية الحكام وتقييدهم بحدود النظام القانونى المعمول به، واستمداد التشريعات والحكم فى الأقضـيـة من مبـادئ الشـريعـة الإسـلامية وأحكامها الجزئية، واحترام حقوق الإنسان وحريته التى منحها له الله، أما ما عدا ذلك فترتيبات وتراكيب يجتهد المسلمون لإقامتها بمثل ما يجتهد به غيرهم، وليس بعضها بأولى من بعض، ولاهو أقرب إلى حكم الإسـلام فى هذا الشأن السيـاسى.. وإنما تتفاضل الترتيبات والتراكيب بمدى تحقيقها للهدف أو الأهداف المرجوة، وبذلك تتسع دائرة الاجتـهـاد الجـائز والواجب فى أمر النظام الدستورى والسياسى للدولة الإسلامية ، ويتحرر الفكر الإسلامى من أسر بعض الصيغ التى طال الحديث حولها فى كتب «الأحكام السلطانية».

وبعد فهذه مداخل نراها ضرورية لينطلق الفكر الإسلامى مع مطلع القرن القادم، انطلاقا يعين المجتـمـعـات الإسـلاميـة على إصـلاح أوضـاعـهـا، وإحـداث نهضة شاملة وانبعـاث حقيقى . كما يعين «الحركات الإسلامية» على إعـادة النظر إعادة شاملة فى منهج تفكيرها وأسلوب حركتها.

فإذا تيسر شىء من ذلك فهو يشير خير يؤذن بمكان ومكانة جديدتين يحتلهما العرب المسلمون بين شعوب الدنيا، أما إذا ركنت الأمة إلى الجمود على الموجود، وظلت الحـركـات الإسـلامية فى صراعها العقيم مع الحكومات وبقى الفكر العربى السائد أسير الحرب الثقافية بين جمـاعـات المثقفين فى عـالمنا العربى والإسلامى ، فإن الحديث عن مستقبل أكثر إشراقا يكون ضربا من التمنى والخيال لا تتحقق به نهضة، ولا يتغير به حال ﴿ولايظلم ربك أحدا﴾ (الكهف ـ ٤٩).

كـتـــاب
الـزاويــة



من أجمل قصائد الحب الإلهى

● «تعاظمنى ذنبى» للإمام الشافعى

ـ الإمام أبو عبدالله محمد بن إدريس بن العباس ، يتصل نسبه بالرسول الكريم . ولد بغزة وارتحل إلى مكة والمدينة واليمن والعراق . ثم جاء إلى مصر سنة ١٩٩ هجرية وصنف فيها مذهبه وألف علم الأصول ، وصار أحد الأئمة الأربعة . توفى بمصر سنة ٢٠٤ هجرية عن أربع وخمسين سنة .

إليك إله الخلق أرفعُ رغـبـتـى
وإن كنتُ يا ذا المن والجود مجرما
ولما قسـا قلبى وضاقت مذاهبى
جعلتُ الرجا منى لعفوك سُلّما
تعاظمنى ذنبى فلما قرنتُه
بعفوك ربى كان عفوكَ أعظما
ومازلتَ ذا عفوٍ عن الذنب لم تزل
تجود وتعفو منة وتكرما
ولولاك ما يقوى بإبليس عابدٌ
وكيف وقد أغوى صفيك آدما
فإن تعفُ عنى تعفُ عن متمرد
ظلومٍ غشومٍ لايزايلُ مأثما
وإن تنتقمْ منى فلستُ بآيس
ولو أدخلتَ نفسى بجُرمى جهنما
فجرمى عظيم من قديم وحادث
وعفوك يأتى العبدَ أعلى وأجسما
تعاظمنى ذنبى ، فأقبلت خاشعا
ولولا الرضا ما كنت يارب منعما
أصون ودادى أن يدنسه الهوى
وأحفظ عهد الحب أن يتثلّما
ففى يقظتى شوق وفى غفوتى مُنّى
تلاحق خطوى نشوة وترنما
ومن يعتصم بالله يسلم من الورى
ومن يرجُه هيهات أن يتندما
إليك إله الخلق، أرفع رغبتى
وإن كنتُ ياذا المن والجود مجرما

تحولات الاقتصاد العالمي في الخمسين سنة الأخيرة

كيف انتقلت الثروة والقوة من الحكومة إلى القطاع الخاص؟

وليد خدوري

يحتار المرء في فهم ما يجري حوله من تغييرات أساسية في نظم الحياة العامة السياسية والاقتصادية والاجتماعية خلال النصف الأخير من القرن الماضي، وبالذات في العقدين الماضيين.

فالذي يميز هذه الحقبة التاريخية هو أولا سرعة تدفق المتغيرات الواحدة تلو الأخرى وبالذات المتعلقة بالقضايا الاقتصادية والمعلوماتية ووسائل الاتصالات. وثانيا هو الطبيعة المسالمة نسبيا لهذا المسلسل من المتغيرات مقارنة بما رافق المتغيرات السابقة من حروب عالمية ودمار واسع ونزاعات مسلحة، وبالذات في النصف الأول من هذا القرن. وثالثا هو عولمة هذا المسلسل المتغير الذي وإن كان يختلف شكلا ونوعا من قطر إلى آخر ومن منطقة إلى أخرى، إلا أنه في نهاية المطاف يصب في بوتقة واحدة من العلوم والأفكار والاتجاهات الاجتماعية المتجانسة.

ومن نافل القول، فإنه ليس من السهل حصر المتغيرات الاقتصادية العالمية على مدى نصف قرن في كتاب واحد، كما أنه ليس من المعتاد تحليل مادة بهذه الصعوبة والتشابك في كتاب سلس القراءة وموجه أساسا للقارئ العام وليس فقط للمتخصصين والباحثين.

The Commanding Heights: The Battle Between Government and The Marketplace that is Remaking the Modern World

(القوى محاكمة: الصراع ما بين الحكومة والسوق في صياغة العالم الجديد)

Danial Yergin and Joseph Stanislaw. New York: Simon and Schuster, 1998, pp.457

وأخيرا، فإنه من الصعب عادة الاتفاق مع مؤلفين كتاب كهذا في الفرضيات والتحليل، بل وحتى السرد الذي يقدمونه نظرا لتوسع الموضوع وتشعبه، إلا أن مؤلفي هذا الكتاب، دانيال يرجن (صاحب كتاب الجائزة حول تاريخ النفط في القرن العشرين والذي فاز بجوائز عالمية وتم تصويره على شكل مسلسلات تليفزيونية)، وزميله جوزيف ستانسلو (الذي يعمل مع يرجن في مؤسسة سيرا لأبحاث الطاقة)، استطاعا تحقيق الكثير في عملهما المهم هذا. فقد تطرقا إلى موضوع حيوي معتمدين على فرضيات وأسئلة محددة حاولا الإجابة عنها من خلال إلمامهما الواسع بالاقتصاد والسياسة الدولية.

لقد نجح الكاتبان في تغطية موضوعهما بجدارة واستحقاق عن خلال التركيز المشترك، وفي آن واحد، على الأشخاص والأفكار والصراعات السياسية والتجارب المتعددة التي غيرت الاقتصاد العالمي في العقود الخمسة الماضية. ورغم تطرقهما إلى المتغيرات الاقتصادية في الدول الصناعية، فضلاً عن أقطار العالم الثالث، إلا أنهما انطلقا في تحليلهما من ثلاثة أحداث سياسية واقتصادية مهمة في بريطانيا واستعملوها كمؤشرات لتحولات جذرية عالمية.

هذه المنطلقات البريطانية الثلاثة هي فوز حزب العمال بقيادة كليمانت آتلي في انتخابات عام ١٩٤٥، وبدء سياسة الاقتصاد المختلط، وفوز حزب المحافظين بقيادة مارجريت تاتشر في انتخابات عام ١٩٧٩، وتنفيذها سياسة تفكيك الشركات الحكومية وكسر نفوذ نقابات العمال، وأخيرا فوز حزب العمال بقيادة توني بلير في انتخابات عام ١٩٩٧، وتبنيه سياسة الطريق الثالث الذي يحتضن الفكر التاتشري، لكن مع التركيز على دور الدولة في دفع عملية النمو الاقتصادي إلى الأمام من خلال الاهتمام بالتجارة الدولية والتعليم والخدمات الصحية والتأهيل المهني.

لم يترك الكاتبان حدثا تاريخيا اقتصاديا مهما في النصف الثاني من القرن العشرين إلا عالجاه في هذا الكتاب. فيبدأ التحليل أولا في استعراض الأسباب والعوامل وراء صعود أحزاب وزعامات جديدة إلى مقاليد الحكم بعد الحرب العالمية الثانية في الأقطار الأوروبية نتيجة لردود الفعل في فشل النظام الاقتصادي المحافظ في منع الحروب ولجم البطالة والتضخم في الثلاثينيات. وينتقل التحليل بعدها إلى أول هجوم مضاد ضد الاقتصاد المختلط، حدث هذا في بريطانيا بعد ثلاثة عقود من جانب زعيمة حزب المحافظين، مارجريت تاتشر، والثورة الاقتصادية لصالح الاقتصاد الحر التي قادتها في الثمانينيات ـ جنبا إلى جنب مع زميلها في الجانب الآخر من المحيط الأطلسي الرئيس الأمريكي رونالد ريجان.

إلا أن الكتاب لا يقف عند سرد الأحداث ووضعها في موقعها التاريخي المناسب والملائم، إذ يبحث المؤلفان أيضا في الأسباب التي أقنعت الرأي العام العالمي بضرورة التغييرات التي طرحتها القوى المحافظة والشعور المتنامي بضرورة تقليص دور الحكومات في الاقتصاد لصالح الخصخصة والأسواق المفتوحة، مع التركيز المستمر على الأخطاء القاتلة التي أنهكت الاقتصاد المركزي والموجه.

كما أن الكتاب لا يحصر شرحه في الدول الصناعية، فهو يعالج أيضا المعجزة الاقتصادية الآسيوية ـ كما عرفناها في الثمانينيات وحتى عام ١٩٩٧، كذلك التحول الكبير والمهم جدا الحاصل في الصين والهند، إلى جانب الزلزال في الكتلة الشيوعية والنقلة المهمة في أمريكا اللاتينية والوحدة الاقتصادية الأوروبية، وأخيرا، وليس آخرا التحولات المهمة في تقليص دور رقابة الدولة في الاقتصاد الأمريكي والتغيير الحاصل هناك في إدارة شئون الميزانية العامة والضرائب.

وفي النهاية، يتطرق الكتاب إلى المستقبل وبالذات التركيز على أهم الظواهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يتوجب التعامل معها في السنوات القادمة. ويتم التساؤل حول ماهية العوامل الأساسية التي هي معنا في الوقت الحاضر، وهل ستتغير، وفي أي اتجاه، وكيف سيتغير ميزان القوى ما بين الحكومات والأسواق في ضوء التطورات المستقبلية.

من اللافت للنظر أنه رغم كون كل من يرجن وستانسلو من الخبراء النفطيين المشهود لهما عالميا، ومن الملمين بسياسات واقتصاديات الشرق الأوسط، إلا أنهما لم يتطرقا إلى العرب ودورهم في الاقتصاد العالمي، وكأنه لا دور لمنطقة الشرق الأوسط في الاقتصاد العالمي (ما عدا النفط، طبعا)، أو أن الأحداث الاقتصادية في منطقتنا بطيئة بشكل ومهمشة كونيا بشكل آخر، بحيث أن تطوراتها المحلية والإقليمية لا تؤثر من قريب أو بعيد في الأحداث الدولية، أو أنه لا وزن لها على صعيد الأسواق الدولية. هذا

رغم كون كل من يرجن وستانسلو من الخبراء النفطيين المشهود لهما عالميا، ومن الملمين بسياسات واقتصاديات الشرق الأوسط، إلا أنهما لم يتطرقا إلى العرب ودورهم في الاقتصاد العالمي، وكأنه لا دور لمنطقة الشرق الأوسط في الاقتصاد العالمي، أو أن الأحداث الاقتصادية في منطقتنا بطيئة بشكل ومهمشة كونيا بشكل آخر، أو أنه لا وزن لها على صعيد الأسواق الدولية

في الوقت الذي منحوا فيه فصلا لأمريكا اللاتينية وفصلا آخر لآسيا.. إلخ.

لماذا تعبير القوى الحاكمة؟

في الحقيقة، إن التعبير مقتبس من خطاب القائد فلاديمير لينين في نوفمبر ١٩٢٢ في بتروغراد أثناء انعقاد الكونجرس الرابع للأممية الدولية. فقد حاول لينين أن يشرح ويبرر لرفاقه أهمية الاستمرار في سياسة الاقتصاد الجديدة التي تبناها الحزب الشيوعي في السنة السابقة، وضرورة السماح ببعض التجارة الصغيرة الحجم والمزارع الخاصة، وذلك تلافيا للانهيار الكبير الذي حصل في اقتصاد الاتحاد السوفيتي في تلك الفترة. لقد أكد لينين لزملائه أن المهم في الأمر هو ليس السماح لعوامل السوق بالاستمرار في العمل، فهذا قرار سياسي يمكن تغييره في أي لحظة وفي ظل الظروف المناسبة، إلا أن الأهم هو بقاء الحزب مسيطرا على مقاليد الدولة والاقتصاد الوطني، ومن ثم تواصله كقوى مسيطرة تستطيع أن تتخذ القرارات الحاسمة في الوقت المناسب، أي أن تكون طوال الوقت في مواقع حاكمة تتيح لها السيطرة على الأمور والتطورات.

في الظاهر، فإن الفكرة وراء كتاب القوى الحاكمة بسيطة ومعروفة، ألا وهي كيفية انتقال الغنى والقوة من يد الحكومات إلى يد القطاع الخاص في السنوات الماضية، وبالذات كيف تغير الاقتصاد العالمي نتيجة لخصخصة الشركات الحكومية العملاقة، وكيف أصبح يسيرا انتقال رأس المال من دولة إلى أخرى، وكيف تفكك نفوذ نقابات العمال لصالح أصحاب المال من مستثمرين ومضاربين. وأخيرا وليس آخرا، كيف أن مجرد حيازة حفنة من الدولارات عند مواطن سوفيتي قبل سنوات قليلة كانت تؤدي بصاحبها إلى السجن، بينما يعتبر الدولار اليوم سيد الموقف في موسكو.

بمعنى آخر، يعالج الكتاب المسيرة التاريخية والفكرية والسياسية عبر نصف القرن الماضي في كيفية تغيير الاقتصاد العالمي لكي يتمكن رأس المال الخاص، بتكوينه الجديد ومؤسساته الحديثة، من أن يسحب القوة والموارد والسلطة من يد الحكومات ويحولها لصالحه، وكيف استطاع رأس المال الخاص أن يسيطر على آلاف المليارات من الدولارات ويتعامل بها يوميا ويحولها في دقائق من بنك إلى آخر ومن قارة إلى أخرى، ويجبر الحكومات في بعض الأحيان على أن تلهث وراءه من أجل تصحيح ما يحدث ومن أجل منع حدوث كوارث اقتصادية عالمية دون التمكن من وضع القوانين المناسبة لردع مثل هذه العمليات في المستقبل.

لكن الفكرة ليست بتلك البساطة، فالمسألة ليست محصورة فقط بأمور الخصخصة والتغييرات الاقتصادية الهيكلية هنا وهناك، بل هي تشمل أيضا النقلة الكبيرة في الأفكار والسطوة الكبيرة عند أصحاب المال الجديد، والمخاطر التي يخوضها هؤلاء الذين يخلقون الأسواق الحديثة والمكاسب التي يتوقعونها نتيجة لمجازفاتهم والانعكاسات الاجتماعية الكبرى التي تنشأ نتيجة لهذه المتغيرات في الاقتصاد الدولي والوطني، وكيفية معالجة آثارها السلبية قبل أن تستفحل المشاكل الناتجة عنها.

إن الفرضية الأساسية وراء الكتاب هي أن الفكر الاقتصادي المحافظ استطاع أن يسترد قوته مرة أخرى ويأخذ زمام المبادرة في نهاية القرن العشرين. والسبب في هذا التحول الجذري من الاقتصاد المختلط إلى الاقتصاد الحر في الأقطار الصناعية الغربية هو إخفاق الدولة في إدارة دفة الاقتصاد الوطني ومجتمع الرفاهية سواسية وفي آن واحد، وبالذات في مجال أداء الشركات العامة والنتائج المترتبة على الخدمات التعليمية والصحية والتأهيلية وبقية الأمور المتعلقة بالرفاه الاجتماعي، ناهيك عن الثمن الباهظ الذي تم دفعه من أجل محاولة تحقيق هذه المتطلبات الاجتماعية، والتي نتج عنها ارتفاع العجز المالي في هذه الدول إلى مستويات مخيفة، والذي يتحمل وزره المواطن من خلال الضرائب المفروضة عليه الآن ومستقبلا، ومن خلال المستوى المتدني من الخدمات في الكثير من الأحيان مقارنة بما استطاع القطاع الخاص تقديمه في نفس المجال.

أما في دول المعسكر الاشتراكي والعالم الثالث، فقد اتسعت الفجوة بين الطموحات المتوقعة من الدولة وبين ما تم تحقيقه فعلا، أو بالأصح ما كان يمكن تحقيقه في ظل اقتصاد آخر، وبالذات إذا منحت الفرصة للمقارنة. وهذا ما حصل فعلا مع الانهيار الكامل للاتحاد السوفيتي وتراكم الديون الهائلة في دول العالم الثالث وإخفاق هذه الأقطار في تلبية حاجات المواطنين الأولية من سلع أساسية وجيدة. كما صاحب هذه الظاهرة الفرق الشاسع والواضح في طموحات المواطنين في أقطار الاقتصاد المركزي والموجه، مقارنة بما كان متوفرا للمواطنين في ظل الاقتصاد الرأسمالي.

يعتبر الكتاب بداية التاريخ الاقتصادي المعاصر هي الفترة التي تلت مباشرة نهاية الحرب العالمية الثانية، انطلاقا من فوز حزب العمال البريطاني بالانتخابات البرلمانية في يوليو ١٩٤٥، ووصول السيد كليمنت آتلي إلى رئاسة الوزارة، خلفا لونستون تشرشل الذي قاد الحرب ضد الهجوم النازي ولكنه فشل في الانتخابات.

كانت الفروقات بين آتلي وتشرشل كبيرة جدا، ولم تكن محصورة في التصرفات الفردية فقط، بل عكست خلافات اجتماعية وسياسية مهمة. فآتلي - على عكس تشرشل وبقية رؤساء الحكومات البريطانيين المتمرسين في السياسة والمحاماة والجندية - كان قد قضى السنوات الأربعة عشر الأولى من حياته المهنية في ممارسة الخدمة الاجتماعية في ضواحي لندن الفقيرة، ومن ثم راقب بكثب الفروقات الاجتماعية في البلاد ومعاناة شريحة كبيرة من الشعب البريطاني التي كانت تفتقر إلى المتطلبات الأساسية، والتي كانت متوفرة دون جهد يذكر لدى الطبقة الأرستقراطية ذات النفوذ. كما تبنى آتلي الفكر الاشتراكي الإصلاحي، حاله حال زملائه في الحزب من أساتذة في جامعة أكسفورد ومن مسئولين في نقابات العمال. وكان الهم الأساسي لحزب العمال في حينه سيطرة الدولة على المؤسسات الاقتصادية ومنها تكوين قوى نافذة جديدة في بريطانيا تخدم الحاجات الأساسية للمواطنين بعد سنوات الحرب القاسية.

لقد نجح حزب العمال البريطاني عندئذ في تأسيس نموذج للاقتصاد المختلط وإعطائه الشرعية اللازمة ليتم تبنيه كذلك - مع بعض الفروق - في بقية الدول الصناعية الأخرى. وقد اتصف هذا النموذج بالتدخل المباشر والقوي للحكومة في الاقتصاد - إما من خلال السياسة المالية والضريبية، أو من خلال إنشاء الشركات العامة العاملة بمفردها أو سواسية مع القطاع الخاص، بالإضافة إلى تأسيس شبكة واسعة من الخدمات الاجتماعية الحكومية والمجانية في مجال التعليم والصحة والرفاه الاجتماعي والتأهيل المهني والتقاعد وحقوق العمال.

وطبعا، لم ينبع هذا النموذج من فراغ، لا في بريطانيا ولا في بقية الدول الأوروبية. لقد نجحت فكرة الاقتصاد المختلط نتيجة لتفاعل عدة عوامل جبارة في حينه. أول هذه العوامل وأهمها هو الخراب الذي حصل في أوروبا بأكملها نتيجة للحرب العالمية الثانية. وثانيا: هناك التجربة القاسية لإخفاق النظام الاقتصادي الحر في الثلاثينيات والمتمثل في انهيار البورصات وتفشي البطالة والتضخم والفقر. ومن ثم، فرغم انتصار الحلفاء في الحرب ضد النازية، فقد فشلت الرأسمالية في إقناع الناس بأنها المثال الذي يجب أن يحتذى به. وثالثا: هو تمكن الشيوعية من خلال الاقتصاد المركزي في تفعيل موارد الاتحاد السوفيتي ومساعدته في الصمود أمام ألمانيا ودحرها عن أراضيه، وفي الوقت نفسه توفير فرص العمل لجميع المواطنين وإنتاج الأعداد الكافية من الأسلحة والآلات لأغراض السلم والحرب.

وكما تنوعت التجارب، فقد تنوعت المصادر الفكرية وراء تجربة الاقتصاد المختلط. فهناك المدرسة الفابية في بريطانيا والتي أسسها في نهاية القرن التاسع عشر كل من بياتريز وسدني ويب وجورج برنارد شو. وهناك السياسة الديناميكية والفعالة التي تبناها الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت في الثلاثينيات، والمتمثلة في تدخل الدولة المباشر في الاقتصاد على نمط ما اقترحه جون مينارد كينز، وذلك من أجل إنقاذ البلاد من الكساد الاقتصادي الذي عم هناك بعد انهيار بورصة نيويورك في عام ١٩٢٩. وهناك أيضا التجربة الشيوعية في الاتحاد السوفيتي التي ساعدت الدولة في التعامل مع السلم والحرب سواسية.

منذ الأجواء المشجعة بدور الدولة في الاقتصاد، رغم الاختلاف الكبير في الثقافات والمذاهب والمناهج، هي التي أعطت الحكومات الصناعية بعيد الحرب العالمية الثانية، الزخم اللازم لتبني سياسة الاقتصاد المختلط والاستمرار بهذا المنهج لمدة ثلاثة عقود، أي حتى نهاية السبعينيات، مع التأكيد على اختلاف تفاصيل تجربة الولايات المتحدة عن اليابان وعن ألمانيا وعن فرنسا وعن بريطانيا والتي يشرحها الكتاب بدقة وعناية.

أما في دول العالم الثالث، فالوضع كان يختلف كليا عن تجربة الدول الصناعية، فالهم الأول والأساسي للدول الحديثة بعد الحرب العالمية الثانية هو تحقيق الاستقلال السياسي وتوطيد دعائمه. أما فيما يتعلق بالاقتصاد، فكانت الخيارات المتوافرة محدودة جدا، نظرا للتركة الثقيلة التي ورثتها تلك الدول بعد عقود من الاحتلال والاستعمار والإهمال. لذا انصب الاهتمام تلقائيا على دور الدولة في قيادة وإدارة عملية التنمية وفي بناء البنى التحتية والمدارس والمستشفيات من خلال برامج المعونات الاقتصادية والقروض الميسرة - كان هذا بمجمله هو الخيار الأول والأخير، ولم يعترض عليه أحد في حينه.

كانت تلك الفترة مرحلة خطط السنوات الخمس وبناء قواعد الانطلاق الاقتصادي انطلاقا من نظريات التنمية لألبرت هيرشمان وبول روزنشتين رودان ويان تنبرغن والكسندر غرشنكرون، ناهيك عن فلسفة البنك الدولي. لكن ومع الأسف، صاحب هذه التجربة بناء بيروقراطيات واسعة لا حدود لها وفشل ذريع في وضع الأسس لبناء اقتصاد حديث يستطيع أن يصمد دوليا. ويدعي الكتاب أن هذه المرحلة من نظريات التنمية والمساعدات والقروض انتهت مع حرب رمضان في عام ١٩٧٣، والانقلاب الكبير الذي حصل في العلاقات الاقتصادية الدولية في حينه، نتيجة لارتفاع أسعار النفط الخام.

لقد كرست فترة منتصف السبعينيات مرحلة الحوار ما بين دول الشمال والجنوب الذي استمر عدة سنوات، لكن دون أي نتيجة تذكر، إلا أن هذا الحوار وفر من ناحية جرعة من الثقة لدى دول العالم الثالث، كما أنه كشف من ناحية أخرى مدى الفساد الذي بدأ يعم البلاد والقليل الذي تم إنجازه فعلا على مستوى الصناعة والزراعة والتجارة الخارجية في دول العالم الثالث.

انتهت تجربة الاقتصاد المختلط بالتداعي مع نهاية السبعينيات. فقد فشلت الحكومات الغربية رغم تدخلها المستمر والواسع عن طريق التحكم بالأسعار والأجور، في لجم عامل التضخم وتشجيع البطالة. ومما زاد الطين بلة في

الثـــروة والقـــوة

الفكرة وراء كتاب القوى الحاكمة بسيطة ومعروفة، ألا وهي كيفية انتقال الغنى والقوة من يد الحكومات إلى يد القطاع الخاص في السنوات الماضية، وبالذات كيف تغير الاقتصاد العالمي نتيجة لخصخصة الشركات الحكومية العملاقة، وكيف أصبح يسيرا انتقال رأس المال من دولة إلى أخرى، وكيف تفكك نفوذ نقابات العمال لصالح أصحاب المال من مستثمرين ومضاربين

حينئذ ـ وحسب رأي يرجن وستانسيلو ـ الارتفاع المفاجئ لأسعار النفط الخام، مما أدى لارتفاع معدل التضخم في الولايات المتحدة، مثلا إلى أعلى مستوى سنوي له منذ نهاية الحرب العالمية الأولى. كما وصل معدل البطالة في الولايات المتحدة إلى ٩,٢٪، وهو أعلى معدل لها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

بعدها عم الخوف المجتمعات الغربية نتيجة عودة ظهور عوامل التضخم والبطالة ـ هذا الخوف الذي لانزال نراه متجسدا في هذه الدول حتى يومنا هذا، وكل ذلك بسبب الويلات السياسية التي تجرها هذه الصعاب الاقتصادية بالذات ومخاطر بروز الفاشية كنتيجة حتمية لها. كما فقد المواطن الثقة في حكوماته نتيجة للأخطاء القاتلة في حرب ڤيتنام التي هيمنت على عقد السبعينيات ـ في الولايات المتحدة بالذات وأيضا في بقية الدول الغربية التي بقيت ساكتة على هذه الحرب.

وكل هذه العوامل السياسية والاقتصادية ألقت بظلالها على التيارات الفكرية، وتشكك المواطن الأمريكي وبقية المجتمعات الغربية في جدوى تغلغل الدولة في مختلف أوجه الحياة العامة، وفي مدى قدرة الحكومات على معالجة المشاكل الاجتماعية الكبرى بالطرق الرشيدة والفعالة، رغم الضرائب العالية التي تجبى من المواطنين. وساعد على توطيد هذه الشكوك في دور الدولة في المجتمع، بروز مدارس فكرية اقتصادية محافظة متأثرة بأفكار وكتابات ميلتون فريدمان وفريدريك ڤون هايك وذلك على حساب مدرسة جون مينرد كينز.

ووفقا لتشخيص المفكر آرثر لويس فإن خطأين قاتلين أصابا تجربة الاقتصاد المختلط. الخطأ الأول هو طمس دور التجارة الدولية في عملية النمو الاقتصادي. أما الثاني فهو إعطاء الأهمية لتخطيط الوزراء بدلا من الأسعار في حركة الأسواق.

مرة أخرى، وحسب رأي يرجن وستانسلو، لعبت السياسة الداخلية البريطانية دور المحرك الأساسي وراء تغيير ميزان القوى وتحويل قوى السيطرة من مجموعة إلى أخرى. فقد شكل معهد الشئون الاقتصادية في لندن القاعدة الفكرية المناسبة لبروز مارجريت تاتشر في الثمانينيات، ودفعها إلى شن حملة عنيفة وشرسة لتفكيك الشركات العامة في قطاعات الكهرباء والهاتف والمياه والمواصلات، وتحويلها إلى القطاع الخاص وكذلك في دحر نفوذ وسطوة نقابات العمال. وامتدت هذه التجربة التاتشرية تدريجيا إلى مختلف أرجاء العالم لتصبح اليوم مرجعية الاقتصاد الدولي الحديث.

لقد انطلقت تاتشر في برنامجها السياسي والاقتصادي من فرضية أن اقتصاد ما بعد الحرب العالمية الثانية كان مبنيا على تراث الماضي ومحاولا معالجة مشاكله ومصائبه، ومن ثم فقد كان مشبعا بعوامل الخوف والحذر. لكن قد آن الأوان ـ وبعد ثلاثة عقود من الزمن ـ للانطلاق إلى عالم جديد يتجاوز هذه المخاوف ولا يعيرها وزنا يذكر. والتركيز بدلا عن ذلك على احترام أولئك الرأسماليين والمبدعين الذين يخلقون فرص العمل الجديدة والذين يوظفون أموالهم من أجل فتح أسواق غير مطروقة سابقا. كما أنه من الواجب التعامل مع هذه المجموعات الجديدة من أصحاب العمل بإيجابية؛ لأن هؤلاء هم الذين يخاطرون بالأموال المتوافرة لديهم من أجل بناء اقتصاد المستقبل.

ومن الواجب لفت النظر هنا إلى أن هذه الأفكار التي بدأت تنتشر بشكل واسع منذ النصف الثاني من السبعينيات وجدت بيئة مناسبة لها في بريطانيا، التي كانت تمر في ضائقة مالية شديدة في تلك الفترة، مما اضطرها إلى الاقتراض من صندوق النقد الدولي لحماية قيمة الباوند الاسترليني من الانهيار. ومما ساعد رئيسة الوزراء تاتشر في دعم سياساتها الاقتصادية الجديدة، الانتصار العسكري الذي حققته بريطانيا ضد الأرجنتين في جزر الفوكلاند، مما أعطاها الدعم السياسي الداخلي للمضي قدما ـ ودون معارضة تذكر ـ ببرنامجها الاقتصادي المثير للجدل في تلك الفترة.

جنبا إلى جنب مع هذه التغييرات المتواصلة في المعسكر الغربي، سقط جدار برلين في نوفمبر ١٩٨٩، وسقطت معه جميع الرموز التي كان يمثلها بالنسبة للفاصل ما بين المعسكرين الغربي والشرقي، الذي تحكم بالسياسة الدولية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. والتغيير الذي حصل هنا لم يكن ابن يومه، فقد فشل الاتحاد السوڤيتي على مدى هذه السنوات في اللحاق بتنسيق القائم مع الولايات المتحدة، وفي مواءمة اقتصاده مع المتطلبات المادية والمالية الكونية على الصعيدين المدني والعسكري سواسية. وأصبح واضحا لاحقا أن عملية الفشل هذه هي عملية تراكمية ترعرعت على مدى عقود من الزمن، وعكست الإخفاق في الوصول إلى نفس المستوى الاجتماعي والاستهلاكي في الجانب الآخر من الجدار. وكانت النتيجة التي فاجأت العالم بأجمعه قبل عقد من الزمن بالضبط ـ والتي تسارعت أحداثها وكأنها فيلم سريالي يصعب تصديقه أو اللحاق به ـ هي تعرية النظام الاشتراكي الأوروبي رغم الهالة الضخمة التي كانت تحيط بقشرته الخارجية.

أما بالنسبة لوضع العالم الثالث، فقد تحولت عملية التنمية إلى التسابق في تعيين الآلاف من الموظفين سنويا في دوائر الدولة ومؤسساتها دون الحاجة إلى عملية التوظيف هذه. كما أصبحت عملية التنمية وسيلة لإغتناء طبقات جديدة على حساب طبقات قديمة دون نتائج اقتصادية تذكر لهذا الغنى الجديد على عكس تجربة الأقطار الأوروبية مثلا، في العصر الصناعي. وتمثلت عملية التنمية في تراكم أعباء الديون المالية والاعتماد المتزايد على المساعدات المشروطة والهجرة الكبيرة للشباب، ناهيك عن فضائح صفقات الأسلحة والرشاوى، التي يعلم عنها القاصي والداني، ولكن الحديث عنها ممنوع داخل البلاد نفسها. وأخيرا، تميزت عملية التنمية بإنشاء مصانع حكومية تنتج لتلبية أرقام الخطط الخمسية وأهدافها المطروحة، دون الأخذ بنظر الاعتبار جودة البضاعة المنشودة أو حاجة السوق المحلية لها أو إمكانية تصديرها إلى الخارج.

لقد طفت جميع هذه الأحكام المكبوتة على السطح في الفترة ما بين انهيار جدار برلين في عام ١٩٨٩، وسقوط الاتحاد السوڤيتي في عام ١٩٩١، وتدفق السيل وراءها ولم يقف حتى الآن. ومع هذين الحدثين، انتهت تجربة ٣٥ عاما من الأحلام والمخططات الاقتصادية ونفوذ قوى مسيطرة لصالح قوى أخرى.

كما برزت في نفس الفترة ظاهرة النمور الآسيوية والانتعاش الاقتصادي في الدول الآسيوية في الثمانينيات وحتى منتصف عام ١٩٩٧، هذه الظاهرة التي تميزت بمعدلات تضخم منخفضة وميزانيات عامة متوازنة، ونسب توفير عالية، وتأسيس الأسواق المالية، والتفاعل مع الاقتصاد الدولي. وكما في تغطيته لأوروبا، يشرح الكتاب التجارب الاقتصادية المختلفة في آسيا سواء تلك المتعلقة بالنمور الآسيوية، أو ذات الصلة باليابان والهند والصين. إلا أن الكتاب لا يشرح بما فيه الكفاية الأسباب وراء انهيار تجربة النمور الآسيوية، ولربما يعود السبب في ذلك إلى أن عملية تحرير الكتاب كانت قد أشرفت على نهايتها عند حدوث هذه الأزمة في النصف الثاني من عام ١٩٩٧.

.. ولكن ماذا عن المستقبل، وبالذات بعد أن انتشرت أفكار وأعمال تاتشر على صعيد العالم برمته؟

هنا أيضا يعود يرجن وستانسلو إلى بريطانيا من جديد، ولكن هذه المرة مع فوز حزب العمال بقيادة توني بلير في الانتخابات البرلمانية في مايو ١٩٩٧. لقد فاز الحزب بنسبة كبيرة ووعد بتغييرات اقتصادية واجتماعية واسعة. لكن دون نبذ التاتشرية هذه المرة ـ كما فعل آتلي مع تجربة الاقتصاد الحر. وكما فعلت تاتشر مع برنامج الاقتصاد المختلط. والسبب في ذلك أن خسارة حزب المحافظين كانت نتيجة فشلهم في تنفيذ برنامجهم وليس في معاداة الناخبين لأفكارهم ومعتقداتهم.

فقد انقسم المحافظون على أنفسهم بعد غياب تاتشر، وفقدوا الزعامة الكاريزماتية وعمت في قيادة حزبهم الفضائح الجنسية والمالية الواحدة تلو الأخرى. أما حزب العمال، فقد استطاع بقيادة توني بلير أن يغلق صفحات الماضي اليساري للحزب، ويهمش دور النقابات ويتناسى دور الدولة في المرافق الاقتصادية الأساسية. وهذه النقلة النوعية في تفكير وبرنامج حزب العمال، المتمثلة بدحر حزب المحافظين مع التمسك بالتاتشرية، لا تختلف كثيرا عما تحقق في الولايات المتحدة على يد الرئيس بيل كلينتون من تبني مجموعة كبيرة من أفكار وبرامج الحزب الجمهوري الاقتصادية والاجتماعية المحافظة ورفع رايتها باسمه، وعلى حساب الحزب الجمهوري نفسه.

ما هي الخيارات المفتوحة في المرحلة الجديدة أمام الأحزاب العمالية والليبرالية واليسارية التي تحكم معظم الأقطار الأوروبية اليوم؟ هل هي العودة إلى الاقتصاد المختلط؟ الجواب الواضح هو لا. فما هو إذن الاقتصاد الجديد ـ أو الطريق الثالث ـ كما أخذوا يسمونه الآن؟

تتمحور الأفكار الجديدة في نبذ آراء كينز والإدارة الحكومية المباشرة والشاملة للاقتصاد، مع الاعتراف الصريح بصعوبة حماية أي اقتصاد وطني من المؤثرات الدولية. والبديل المطروح هو تقنين دور الدولة في الاقتصاد إلى أقل مستوى ممكن، وتحسين أدائها في المجالات المحدودة المتبقية لها، والتركيز بدلا عن ذلك على خلق الفرص المتساوية أمام عموم أبناء البلاد من تحسين للتعليم والخدمات الطبية والتأهيل المهني وإيجاد طرق أنجع لتجنب المشاكل المالية الناجمة عن ازدياد أعداد المسنين والمتقاعدين التي تطرق أبواب الدول الصناعية، وتنشيط دور التجارة الخارجية في الاقتصاد الوطني.

لذا نجد أن الحوار منصب الآن على تحديد ماهية دور الدولة والمواطن: مسئوليات كل جهة وواجبات كل طرف ضمن الأطر التي أقيمت في الثمانينيات والتسعينيات. بمعنى آخر إصلاح الاقتصاد التاتشري بدلا من الثورة عليه.

ولكن هل هناك إجماع على الوضع الجديد؟

يعتمد العالم اليوم على التواصل فيما بينه بعد أن فرقته المسافات والحروب والثورات

الثــــروة والقـــــوة

والكوارث الاقتصادية. ويلعب الكمبيوتر دورا أساسيا في عملية الاتصال هذه سواء كان ذلك من خلال كمية المعلومات التي يتم إيصالها وإرسالها، أو من خلال السرعة في الإرسال. وما يميز الاقتصاد الجديد عن السابق هو سرعة التنقل والحركة مقارنة بالماضي. كان ذلك حركة رأس المال أو المهنيين والعمال أو الموارد الطبيعية والسلع التجارية. وفي خضم هذا التحول الذي نشهده ونقرأ عنه يوميا، يحاول القطاع الخاص الولوج تدريجيا في القطاعات الاقتصادية الضخمة التي كانت الدولة مسيطرة عليها سابقا، مثل الطاقة والمواصلات والاتصالات والبنى التحتية، إلى جانب ترويج ثورة المعلومات التي تتحكم الآن بالاقتصاد الجديد وتدير دفته وتقوده إلى الألفية الجديدة.

هذا النفوذ الجديد والواسع للأسواق يضع دور الشركات أمام اختبار، وبالذات الحدود التي تواجهها والمسئوليات الجديدة الملقاة عليها. والحقيقة أنه مع عمليات الدمج القائمة حاليا ما بين الشركات العالمية الكبرى، لم يعد ممكنا معرفة هوية هذه الشركة أو تلك

فعلى سبيل المثال، عندما نذكر شركة بريتش بتروليوم نعتقد لأول وهلة أننا نتكلم عن شركة بريطانية محضة. فرئيس الشركة هو جون براون البريطاني الجنسية. ومقر الشركة مدينة لندن. ولكن أين استثماراتها. فبعد شرائها مؤخرا لشركتي اموكو واركو الأمريكيتين، أصبحت معظم استثماراتها في الولايات المتحدة. فضلاً عن استثماراتها الأخرى في الجزائر (من خلال شركتي اركو واموكو) ومصر (من خلال شركة اموكو) وعشرات الدول الأخرى. وشركة بريتش بتروليوم التي ترغب كثيرا في دخول الساحة النفطية الإيرانية تمتنع أن تقوم بهذه الخطوة في الوقت الحاضر، خوفا من عقوبات الحكومة الأمريكية وقرارات المقاطعة الثنائية التي فرضتها ضد إيران. ومن ثم، ولو كانت بريتش بتروليوم شركة بريطانية محضة، لما كانت تخاف من وضع كهذا: لأنه لا توجد قوانين بريطانية ضد التعامل التجاري مع إيران، كما هو الحال مع شركة توتال الفرنسية التي تحدت الحكومة الأمريكية وأخذت المبادرة في الاستثمار في إيران؛ لأن قوانين بلدها لا تمنع ذلك. ويقول جون براون: إننا لا نزال في أول الطريق بالنسبة لدور العولمة والمعلوماتية في تغيير هوية الشركات وطريقة عملها ومجالات الاستثمار الجديدة المتاحة لها.

ماذا يعني هذا التغيير الهائل في دور الشركات العالمية؟ يعني هذا أنه في الوقت الذي تقلص فيه الحكومات دورها ومسئولياتها في خدمة مواطنيها، يتوسع دور الشركات في التفاعل مع المجتمع، أو هذا هو المفروض، والسبب بسيط: لأن هذه الشركات يسطت نفوذها على مجمل الحياة اليومية للمواطنين وعلى صعيد مختلف أنحاء العالم. هذه ظاهرة جديدة لم نتعامل معها بشكل واسع في الماضي ويجب أن نواجهها مستقبلا - شئنا أم أبينا.

كذلك: ماذا يعني كل هذا التغيير بالنسبة لأنظمة الحكم السياسية؟ هل هناك ضرورة لوجود نظام ديمقراطي تعددي من أجل نجاح النظام الاقتصادي الجديد؟ أم هل تستطيع أنظمة الحزب الواحد والعائلة الواحدة أن تدفع بالاقتصاد المحلي إلى الأمام ودمجه بنجاح في الاقتصاد العالمي دون تغيير نظام الحكم؟ وهل يستطيع نظام شيوعي أن يحقق هذا النوع من الانفتاح على الاقتصاد العالمي مع الاستمرار في السيطرة على القوى ذات النفوذ. كما هو الوضع في الصين؟ أم أن هناك تناقضا جذريا بين النظامين وأن انفتاحا كهذا سيؤدي في نهاية المطاف إلى تداعي نفوذ الشيوعيين كما هو حاصل في روسيا؟

أخيرا، وعلى عكس غيرهما من الكتاب، ورغم تحمسهما الواضح وغير المحدود للنقلة النوعية التي حصلت في العقدين الأخيرين لصالح الاقتصاد الحر، فإن يرجن وستانسلو يطرحان عدة أسئلة للتأكد مما إذا كان نجاح الأسواق في المعركة الحالية سيستمر، أم أن الدولة ستستطيع مرة أخرى أخذ زمام المبادرة في حال إخفاق القوى المسيطرة الجديدة في مواءمة متطلبات المواطنين. ويستنتج الكاتبان أن نجاح أو سقوط النظام الجديد سيعتمد في نهاية المطاف على قبول الناس به أو رفضه له من خلال ما سيقدمه لهم هذا النظام. وهل ستكون إنجازاته عملية وواقعية وبثمن معقول أم لا، وما هي البدائل المتوافرة الأحسن عنه.

ومن أجل ذلك، طرح الكاتبان عدة أسئلة يعتقدان أنها ستقرر هل سينجح هذا النظام الجديد أم لا؟ وتغطي هذه الأسئلة خمس مناطق:

١- هل سيستطيع اقتصاد السوق تلبية ما هو متوقع منه في تحقيق نمو اقتصادي معقول، وتخفيض مستوى البطالة، وزيادة المواد الاستهلاكية للمواطنين، ورفع مستوى المعيشة لغالبية السكان؟

٢- كيف سيتعامل اقتصاد السوق مع متطلبات مجتمع الرفاهية من توفير التعليم والخدمات الطبية والضمان الاجتماعي والتأهيل المهني، وهل سيتمكن من خلق عدالة اجتماعية أكثر عقلانية من خلال سد الفجوة ما بين الطبقات الاجتماعية؟

٣- ما هو دور الهوية الوطنية في ظل نظام السوق الكوزموبوليتي العالمي؟

٤- هل سيحافظ نظام السوق على البيئة ويرشد استخدام الموارد الطبيعية دون إهلاك البشرية؟

٥- .. وهل سيستطيع التعامل اجتماعيا واقتصاديا، وبطريقة متزنة وعادلة مع الأعداد الهائلة للشباب في دول العالم الثالث التي تتطلع باستمرار إلى فرص عمل جديدة غير متاحة في كثير من الأحيان، ومع العدد المتزايد لكبار السن والمتقاعدين في الدول الصناعية الذين يحتاجون إلى دعم مالي كبير في صورة ضمان اجتماعي وخدمات طبية ورعاية اجتماعية لا تتوافر الآن بشكل واسع؟

في عبارة واحدة لخص كوان كيو، رائد التجربة الاقتصادية في سنغافورة، الوضع الاقتصادي الدولي الحالي: «لقد سقطت الشيوعية، وفشل الاقتصاد المختلط. فما الذي بقي هناك؟»، ويرد هو: أن الباقي هو النتائج التي سيوفرها النظام الجديد. فالرأي العام سيحكم على التجربة الجديدة من خلال نتائجها، وعندها يكرم المرء أو يهان!

كتــــاب الـزاويــة

من أجمل قصائد الحب الإلهى

• «ته دلالا» لابن الفارض

- أبو حفص عمر بن الفارض ، ولد في القاهرة سنة ٥٧٦ هجرية لأسرة شامية الأصل ونشأ نشأة دينية ودرس طريق الصوفية . توفي سنة ٦٣٢ هجرية .

ته دلالا فأنت أهلٌ لذاكا
وتحكم فالحسن قد أعطاكا
ولك الأمرُ فاقض ما أنت قاض
فعليّ الجمال قد ولاكا
وبما شئت في هواك اختبرني
فاختياري ما كان فيه رضاكا
فعلى كلّ حالة أنت مني
بيَ أولى ، إذ لم أكن لولاكا
وكفاني عزا بحبك ذلّي
وخضوعي ، ولست من أكفاكا
وإذا ما إليك بالوصل عزّت
نسبتي عزةٌ وصحّ ولاكا
فاتهامي بالحب حسبي ، وأني
بين قومي أُعدُّ من قتلاكا
لك في الحي هالكٌ بك حيٌّ
في سبيل الهوى استلذ الهلاكا
ذاب قلبي فأذَنْ له يتمنّا
كَ ، وفيه بقيةٌ لرجاكا
أو مر الغمضَ أن يمُرَّ بجفني
فكأني به مطيع عصاكا
فعسى في المنام يعرضُ لي الوهـ
ـمُ ، فيوحي سرا إليّ سُراكا
وإذا لم تُنعش بروح التمني
رمقي ، واقتضى فنائي بقاكا
وحمت سنةُ الهوى سنة الغمـ
ـض جفوني ، وحرّمت لُقياكا

نظـرة طـائر إلى الإبـداع الأدبي العربي في هـذا القـرن

كيفما تكونوا يكن إبداعكم

فـاروق عبـد القـادر

كيف يمكن أن ننظر للإبداع الأدبي، رواية وشعرًا ومسرحًا وقصةً على امتداد قرن كامل، وباتساع العالم العربي؟

بدهي أننا لن نستطيع إلا لو حددنا لنا منطلقًا واضحًا، ونمكن محاولة تقصي هذا الإبداع في علاقته بالواقع العربي وتحولاته الدائمة طوال هذا القرن، والوقوف عند النقاط الرئيسة في هذه العلاقة. وثمة ملاحظة أولى هي أن أشكال هذا الإبداع - عدا الشعر «ديوان العرب» كما يقولون - هي نبت هذا القرن ذاته، وإن سبقتها إرهاصات مختلفة في القرن الماضي. بعبارة أخرى قد نستطيع القول إن الرواية العربية إنما تبدأ بدايتها الحقيقية مع «زينب» عام ١٩١٣، وإن سبقتها أعمال في المشرق ومصر منذ ١٨٦٥، لكن «زينب» - وبإجماع نقاد هذا الشكل الأدبي - هي التي حققت الحد الأدنى من الشروط الفنية التي تجعلنا نطلق عليها صفة «الرواية» دون تحفظ يذكر. قل مثل هذا في المسرح، أو بالتحديد في الكتابة للمسرح، فرغم أن العروض المسرحية العربية قد بدأت مع مارون نقاش في بيروت في ١٨٤٧، ثم القباني في دمشق في ١٨٦٠، إلا أن التأليف المسرحي - وبذات المعنى أي الذي يحقق الحد الأدنى من الشروط الفنية - إنما بدأ في مصر، على يدي توفيق الحكيم (١٨٩٨ - ١٩٨٧)، وغني عن القول أن القصة القصيرة نبت هذا القرن بلا جدال.

ويرى بعض الدارسين (د. حمدي السكوت في تقديم «ببلوجرافيا الرواية العربية») أن الطبعة الأولى من «زينب» لم تُحدث أثرا يذكر، إنما كان هذا الأثر لطبعتها الثانية (التي صدرت في ١٩٢٩)، فالأولى لم تكن تحمل اسم صاحبها، أما حين صدرت الثانية، فقد كان الدكتور هيكل ملء السمع والبصر، ويدلّ على ذلك بتوالي صدور الأعمال الروائية بعدها: «إبراهيم الكاتب» للمازني في ١٩٣١، و«عودة الروح» للحكيم في ١٩٣٣، و«أديب» طه حسين في ١٩٣٦، و«سارة» للعقاد في ١٩٣٨، وهكذا. وقد نلاحظ هنا أن أيًا من هذه الأسماء التي سبقت لم يكن متفرغًا أو مقتصرًا عليها، لعل أقربهم إلى الإخلاص لهذا الفن كان المازني، في حين انصرف العقاد عن الرواية تماما بعد «سارة».

على أنني أعتقد أن أخطر القرارات في تاريخ الرواية العربية في هذا القرن هو ما اتخذه نجيب محفوظ ذات يوم من ١٩٣٨، حين قرر التوقف عن كتابة القصة القصيرة والمقالة والانصراف تماما إلى الرواية (يمكننا القول: تأسيس الرواية العربية دون تجاوز)، وأخضع كل شروط حياته الخاصة والعامة - بصرامة قاسية - لهذا المسعى. وظل حتى أبريل ١٩٥٢، حين أنجز «بين القصرين» ينجز عملاً كل عام دون توقف (ظهرت روايته الأولى «عبث الأقدار» في العام التالي مباشرة لهذا القرار في ١٩٣٩).

كانت لدى نجيب خطة طموح، هي أن يكتب تاريخ مصر كله على نحو روائي، ومن ثم، كان طبيعيًا أن يبدأ بالفرعونيات الثلاث، غير أن إلحاح مشكلات الواقع المصري آنذاك دفعه لأن يتخلى عن هذا المشروع الطموح، ويتجه - مباشرة - إلى «القاهرة الجديدة عام ١٩٤٥»، وتتابعت أعماله على نحو ما هو معروف، حتى توقف في عام ١٩٥٢ كي يتفهم الواقع الجديد، ولتبدأ مرحلة جديدة من عمله، بعد «أولاد حارتنا» عام ١٩٥٨، مع «اللص والكلاب» عام ١٩٦١... إلخ.

وقد نلاحظ هنا أن صدور الأعمال الروائية التي تحقق قدرًا - يزيد أو ينقص - من النضج الفني في العالم العربي، أعني المشرق باعتبار الظروف الخاصة بأقطار المغرب العربي التي أخرت ظهور الأعمال الأدبية بالعربية، إنما يدور حول نهاية الثلاثينيات، ولاشك في أن صدور أعمال روائية في مصر لكُتّاب كبار (هيكل، المازني، الحكيم، طه حسين، العقاد)، قد عجّل بهذا الميلاد. هكذا أصدر الكاتب اللبناني توفيق يوسف عوّاد روايته «الرغيف» في ١٩٣٨، وسبقه السوري شكيب الجابري بروايته «نهم» في ١٩٣٧، ولحق بهما العراقي ذو النون أيوب بروايته «الدكتور إبراهيم» في ١٩٣٩، أما في المغرب فقد تأخر ظهور هذه الرواية الأولى - بسبب تلك الشروط الخاصة - إلى عام ١٩٥٦، عام الاستقلال، حين صدرت «رواد المجهول» لأحمد عبد السلام البقالي.

وراحت الرواية العربية تشق طريقها، وتتتابع أجيالها، وتكتسب لها مواقع جديدة، خاصة في أقطار المغرب والجزيرة والخليج، ويدخل ساحتها عدد متزايد من الكاتبات، حتى كادت أن تصبح - مع نهاية القرن - هي الفن العربي الأول، وقد ظلت - في تيارها العام، وباستثناءات قليلة - على ارتباط وثيق بالتحولات الكبرى في العالم العربي، خاصة في النصف الثاني من القرن: زمن الثورات والسعي للتحرر من السيطرة الاستعمارية والحكام الفاسدين والتماس العدل والحرية. لقد حَدَت الركب العربي خلال هذه العقود الخمسة في انتصاراته وانكساراته على السواء (إن الأعمال الروائية التي كُتبت عن ١٩٦٧، وعن النضال الفلسطيني والجزائري تمثل مكتبة كاملة)، إضافة إلى أنها جاست كل ركن في الأرض العربية من شاطئ المحيط إلى حدود العراق، ومن الشمال السوري لشواطئ الخليج، لم تكد تترك مدينة أو قرية أو بادية أو نهرًا أو جبلا، وتعانها انفساح مداها على أن تعرض شتى الشخصيات والنماذج التي تعيش على هذه الأرض المترامية.

وليس هذا كله بالأمر القليل.

حتى انتصاف القرن تقريبًا، ساد المشهد الشعري العربي نجوم بزغوا في القرن الماضي: أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وإسماعيل صبري وخليل مطران في الصف الأول، وراءهم صف طويل ثانٍ من الشعراء في مصر والمشرق، وحول منتصف القرن ساد الفتور هذا المشهد: رحل الكبار، ولم يستطع من تلاهم (بشكل خاص: مدرسة «أبوللو» وشعراء المهجر) ملء الفراغ، فبقيت ساحة الشعر شاغرة أو تكاد. ربما كان الاستثناء الكبير هو الجواهري (١٩٠٠ على الأرجح - ١٩٩٧): بدأ ينشر شعره بعد ثورة ١٩٢٠ المجهضة في العراق، من ذلك التاريخ وحتى نهاية الحرب العالمية وما بعدها، كان الشعراء هم صوت الشعب في معاركه من أجل الاستقلال والتقدم، لعب الشعر دور المنشور الثوري والمقال السياسي والتحليل الاجتماعي. كان الجواهري قد اختار طريقه وسط الصراع النامي في وطنه، إلى جانب شعبه ضد المحتلين والمتعاونين، إلى جانب الفقراء والمقهورين ضد مستغليهم وقاهريهم، إلى جانب الاستنارة والتقدم ضد التخلف والأفكار السلفية والغيبية، لهذا ظل في صعود وشعراء آخرون في انحسار. كان جميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣ - ١٩٣٦)، ومعروف الرصافي (١٨٧٥ - ١٩٤٥) أصبحا ينتميان للماضي أكثر من الحاضر. ومع الأربعينيات أصبح الجواهري أهم الأصوات في الشعر العراقي - العربي، يعيش مُبعدًا حينا ومنبوذًا حينا وبلا عمل حينا، لكنه يكتب شعره وينشره في كل الأحيان، وبلغ الجواهري بالقصيدة التقليدية أقصى مداها، وآخر الطريق الذي عمل البارودي على تمهيده منذ الربع الأخير من القرن الماضي، وعليه سار كل التقليد بين الكبار.

على أن أهم تحول حدث في المشهد الشعري العربي خلال هذا القرن، وقبيل منتصفه، كان هو ظهور الشعر الحر أو الحديث أو شعر «التفعيلة». تقول نازك الملائكة إن ذلك حدث ذات يوم من صيف ١٩٤٧، حين فرغت من كتابة قصيدتها «كوليرا»، والتي كانت استجابتها للوباء العاصف بقرى مصر ومدنها في ذلك الحين، وسواء صَحّ زعم نازك أو لم يصح، فلاشك أن مثل هذه الحركة لا تخضع لمبادرة فرد قدر ما تكون تعبيرًا عن اضطراب

أخطر القرارات في تاريخ الرواية العربية في هذا القرن هو ما اتخذه نجيب محفوظ ذات يوم من ١٩٢٨، حين قرر التوقف عن كتابة القصة القصيرة والمقالة والانصراف تماما إلى الرواية (يمكننا القول: تأسيس الرواية العربية دون تجاوز)، وأخضع كل شروط حياته الخاصة والعامة - بصرامة قاسية - لهذا المسعى.

يجيش به المجتمع كله، يلتقطه هؤلاء الأكثر حساسية وإصغاءً لهمس الجماعة، وحين كانت نازك مشغولة بسطور قصيدتها في بغداد، كان في العراق نفسه شعراء آخرون يمهدون ذات الدرب، السياب والبياتي والحيدري، وفي مصر كان عبد الرحمن الشرقاوي ولويس عوض وسواهما ممن لم يُقدَّر لنا أن نعرف تجاربهم.

فما ملامح هذه الثورة الشعرية وبم تتميز؟ من حيث «التكنيك» استبدل هذا الشعر «بالتفعيلة» نظام الشطرين في البيت، ونوَّع أعدادها في كل سطر، ولم يعد شاعرنا يلتزم قافية مفروضة عليه سلفًا بحكم قوالب بحور الشعر التقليدي. لكنه أخضع قصيدته لقافية أخرى نابعة من قلب العمل نفسه، واحتفظ الرَّوى - الحرف أو الحروف الأخيرة من البيت - بمكانه في بعض القصائد واختفى من بعضها الآخر، واكتسب الشعر موسيقاه من شيء آخر غير صخب الرَّوى الواحد ورتابة تكافؤ الشطرين. اكتسبها من تنويع عدد التفعيلات في كل سطر - من التفعيلة الواحدة إلى تسع تفعيلات، ومن إيقاع الألفاظ المفردة وما تنسجه من موسيقى داخل القصيدة الواحدة.

هذه الاختلافات «التكتيكية» ليست كل شيء. ثمة اختلافات أعمق في المضمون وطريقة التعبير، مما يجعل حركة هذا الشعر ثورة تعبيرية كاملة، وليست مجرد تلاعب بالعروض التقليدي للشعر أو خروج عليه. إن حرص الشاعر على تأكيد ذاته في مواجهة الجماعة هو ما دفعه لأن يطرح القيود القديمة (ويلتزم قيوده هو). لكن إحساسه بهذه الجماعة نفسها هو ما دفعه لأن يرفض الوقوف عند الجزء فيتجاوزه إلى الكل. وكما كان الشاعر القديم حريصًا على وحدة البيت في قصيدته وتحويط المعنى داخله قدر ما يستطيع، تجاوز الشاعر المعاصر البيت إلى القصيدة، وأصبح حريصًا على فنية بنائها والتنسيق بين العناصر الداخلية فيها. هذان جانبان من تلك الدائرة الجدلية الدائمة التي تجمع الفنان والجماعة. والموقف الذي اختاره الشاعر المعاصر بتلاؤم والإطار العام لهذا الصراع. فنظرة إلى واقع العالم العربي في السنوات التي شهدت بدايات الشعر المعاصر ونموه، تؤكد هذا الاختيار. وليس مصادفة أن يقترن ميلاد هذه الحركة بتلك السنوات الحاسمة في تاريخنا القومي. خاصة ١٩٤٨، فما حدث في تلك السنة كان يمثل قمة التعبير عن فشل نمط الحياة الذي تعيشه شعوب المنطقة العربية. ومن قاع الهزيمة أو قمتها، ظهرت استجابات أكثر صحة وثورية: ٥٢ في القاهرة، ٥٤ في الجزائر، ثم ٥٨ في بغداد.

رفض الواقع الفاسد إذن، نقطة انطلاق شعرائنا المعاصرين إلى رفض الأشكال الفنية المفروضة: كل شيء فينا وحولنا يتغير، فلم الإبقاء على شكل تعبيري نضيق به؟ لسنا بحاجة لمزيد من القيود!

وتجسد رفض الواقع في عديد من الاستجابات اختلفت باختلاف الشعراء أنفسهم من حيث تكوينهم الفكري وعُدتهم الفنية وانتماءاتهم الأيديولوجية والسياسية، باختصار، من حيث اختلاف مواقفهم من الحياة والإنسان، وتنوعت الاستجابات: من الغوص في قوقعة الحزن العميق (نازك الملائكة، صلاح عبد الصبور) إلى الانتماء لموقف سياسي محدد، والوقوف - شعرًا وحياة - إلى جانبه (السياب في مرحلته الأولى، البياتي) إلى البحث عن الخلاص في اشتعال لحظة العشق (نزار قباني) إلى الانعكاف على الذات والغوص في سراديبها الموحشة (أدونيس، خليل حاوي) إلى الالتزام الحار بقضايا الإنسان في المنطقة العربية كلها (عبد المعطي حجازي). هذا إن اقتصرنا على أهم الأسماء، وليست هذه التحديدات جامعة ولا مانعة، لكنها أقرب إلى تلمس أوضح النغمات فيما يعزفه كل شاعر.

انتصرت حركة الشعر الحديث أو المعاصر إذن، لأنها انطلقت من رفض الواقع. ثمة سبب مهم آخر هو أن هذه الحركة نابعة من قلب التراث الشعري، موصولة به. هي قمة سلسلة من محاولات بدأت منذ عصر مبكر لتطويع القالب الشعري، فالرباعيات والخماسيات و«الدوبيت»، وتلك القصائد التي تخلو من الرَّوى الواحد (تذكر نازك الملائكة قصيدة كاملة لجميل صدقي الزهاوي، ويثبت عز الدين إسماعيل في كتابه عن «قضايا الشعر المعاصر» قصيدة أخرى لعبد الرحمن شكري). أقول إن تلك جميعها كانت محاولات للفكاك من أسر القفص الحديدي الذي وضعه الخليل بن أحمد بعد أن استقرأ نماذج الشعر التي عرفها قبل ألف سنة، ولم تبلغ تلك المحاولات شيئًا لأنها دارت حول المشكلة ولم تضرب في عليها. بعبارة أخرى، رغم محاولات الخروج على الإطار التقليدي للشعر، فقد بقي تقليديًا مادام يلتزم القيد الرئيسي في هذا الإطار، الانتظام داخل البيت الواحد والقافية المفروضة من خارج العمل الفني. أما الشعر المعاصر فقد واجه المشكلة بحسم، فخرج عن نظام البيت



يلتزم بالتفعيلة، وخرج عن القافية المفروضة ليلتزم قافية القصيدة.

وحققت هذه الحركة مكاسب فنية لاشك فيها، حين تحرر الشعر من إطار الشكل التقليدي استطاع أن يتسع ليعبر عن خبرات وتجارب لم يحتملها الإطار القديم، وترددت في شعرنا المعاصر نغمات جديدة، واكتسبت القصائد نفسها بناءً أكثر غنى وتركيبًا، لم تعد القصيدة نغمة واحدة مسطحة، يطربنا ـ أو لا يطربنا ـ ما فيها من إيقاع رتيب صاخب، لكنها أصبحت بناءً موسيقيًا كاملاً. قد يكون من «حركة» واحدة أو يتسع ليشمل عدة «حركات» تتصاعد بلحن رئيس واحد، له تلوينات وتفريعات وتنويعات.

ودون النظر إلى طول القصيدة أو قصرها، فإننا نستطيع أن نستخدم معيارًا آخر للتفريق بين القصيدة «القصيرة» و«الطويلة» في الشعر المعاصر. القصيرة هي التي تعبر عن «شعور» واحد من خلال عدد من المقاطع المتتابعة، والطويلة هي التي تعبر عن «فكرة» واحدة عن خلال عدد من المقاطع أكثر طولا وتعقيدا. القصيدة الغنائية المعاصرة ينتظمها خيط شعوري واحد، يبدأ ـ في العادة ـ من منطلق ضبابي غائم، ثم يتطور ـ خلال المقاطع المتتالية ـ نحو مزيد من الوضوح والتحديد، وكما كانت تنتهي قصيدة الشاعر التقليدي بإزجاء «الحكمة»، تنتهي القصيدة الغنائية المعاصرة بإشباع نفسي وعاطفي. وحدة العاطفة إذن، وتطورها في اتجاه واحد هو ما يميز القصيدة الغنائية عن الشكل الآخر المتمثل في القصيدة الطويلة.

ولعل هذه القصيدة الطويلة أن تكون أثمن كشوف حركة الشعر المعاصر، ومن أوائلها تلك التي كتبها صلاح عبد الصبور في ١٩٥٣ بعنوان «الملك لك»، ومجموعة المطولات التي كتبها السياب فيما بين ١٩٥٤ و١٩٥٧، ونشرها في مجموعته الكبيرة «أنشودة المطر». وإذا كان «الشعور الواحد» هو جوهر القصيدة الغنائية القصيرة، فإن «الفكرة الواحدة» هي قلب القصيدة الطويلة، ففي كل مقاطعها ـ مهما تعددت هذه المقاطع واتخذت لها أرقامًا أو عناوين داخلية ـ ثمة فكرة واحدة لكنها ذات طبيعة مُركبة ومتصارعة، تحقق تأثيرها عن طريق التقارب والتآلف مرة، وعن طريق التضاد والتنافر مرة أخرى. إنها ليست مجرد «تكبير» للقصيدة الغنائية القصيرة، لكنها تكاد أن تكون «نوعا» فنيا مستقلا بذاته، ومنذ قصيدة «الملك لك» حتى آخر قصائد أدونيس الطويلة، تطورت هذه القصيدة تطورًا مذهلاً، ففي كل مقطع من مقاطعها تقليب للفكرة على وجه من الوجوه، وإثراء لها من خلال الوحدة التي تنتظم التنوع.

وسواء كانت القصيدة قصيرة أو طويلة، فقد استعانت بطرائق في التعبير لم تكن تعرفها القصيدة التقليدية، أولها: التعبير «بالصورة الشعرية» بدل عُدة البلاغة التقليدية (التشبيه والاستعارة.. إلخ). فالشاعر يراكم عددًا من الصور الصغيرة المتتابعة، أو يقف متأنيا ليرسم صورة تفصيلية تستطيع أن تكون «مكافئا فنيا» لإحساسه أو فكرته. كذلك استعانت القصيدة بالحوار مع الذات «المونولوج»، ومع الآخر «الديالوج». وربما كان حرص الشاعر على التعبير عن عاطفة أكثر تركيبا وتعقدا، وحرصه على أن يكون أكثر صدقا ـ بالمعنى الفني ـ من الشاعر التقليدي هو ما يدفعه لأن يستخدم «المونولوج» و«الديالوج» بعد أن استغنى عن معظم أفعال القول، فلم تعد قصيدته مثقلة «بقالت» و«قلتُ».. إلخ، لكنها أصبحت أكثر صدقا ومباشرة، وتكتسب القصيدة بنيتها الدرامية ـ بالتالي ـ من تعدد الأصوات فيها بدل صوت الشاعر المفرد الذي كان يميز القصيدة التقليدية. كما استعانت القصيدة المعاصرة بالسرد القصصي، وأخضعته لبنية القصيدة ونظامها الداخلي، واستعانت بالرموز المنثورة في الأساطير والآداب القديمة والحديثة، بل خلق الشعراء رموزهم الدالة عليهم.

تلك الثورة الشعرية أعدها من أهم إنجازات الإبداع العربي في هذا القرن.

ثم تدور دورة الأيام، ويتحول ما كان مكاسب فنية وفكرية إلى بضاعة مزجاة، وتتتابع أجيال من الشعراء، أقلهم متميز متفرد، وأكثرهم مزيف مُقلد. تسطحت إنجازات الشعر الحديث وتميعت، وأصبح المشهد الشعري الآن ـ مع نهاية القرن ـ مختلطًا أشد الاختلاط، رَحل من رَحل، وصمت من صمت، والشاعرون اليوم إما واحد يعيش ماضيه أو آخر يلغو ويلقي كلماته وسط مستنقع مائع من الإحالات والصور لا يؤدي لشيء، فلا إشباع ولا تقليب لفكرة، إنما اجترار وتكرار لما سبق إليه أولئك الرواد الكبار (فاتت عليك معظم أسمائهم)، لا نكاد نجد سوى قامتين كبيرتين لشاعرين لا يزالان قادرين على مواصلة الإبداع، أحدهما عراقي (سعدي يوسف) والآخر فلسطيني (محمود درويش)، وراءهما صف من المتوسطين، ثم حشد هائل ممن لو صمتوا، لكان خيرًا للشعر وقارئيه على السواء!

قلت إن التأليف الجاد، والأصولي للمسرح بدأ مع توفيق الحكيم، غير أن المسرح من حيث هو فن ذو طبيعة مركبة، لا يقتصر على النص المكتوب وحده، وإن بقي النص هو النواة الصلبة التي يقوم عليها العمل المسرحي، رغم كل دعاوى إسقاطه أو تجاوزه. ضرورات المساحة المتاحة وحدها هي ما تجعلنا نقصر حديثنا على التأليف، سبقت الحكيم محاولات قارب بعضها حد النضج (عند فرح أنطون وإبراهيم رمزي ومحمد تيمور بوجه خاص)، لكن الحكيم هو الذي قطع بالنص المسرحي العربي خطى واسعة للأمام، واستطاع أن يزيح ـ وإن قليلا ـ حائط الغرابة بين المسرح ـ من حيث هو فن له جديته وأصوله ـ وبين قطاع مهم من الجمهور القارئ أو المتلقي. بعبارة أخرى، لقد نجح الحكيم في أن يكتب للمرة الأولى باللغة العربية مسرحيات تلتزم ـ إلى حد كبير ـ بقواعد البناء الذي عرفه المسرح الأوروبي حتى عشرينيات هذا القرن، وضرب في كل أرض تخايلت لعينيه، فغطت موضوعات نصوصه مدى واسعا يمتد من إعادة صياغة التراث الإغريقي والتاريخ الفرعوني، إلى محاولة مسرحة القصص القرآنية والتوراتية وقصص التراث العربي، إلى النظر في الواقع المعاصر ومحاولة تطويعه للقالب المسرحي.

لكن الحكيم اختار أن يجعل الحياة والفن على طرفي نقيض، والإنسان والفنان على طرفي نقيض، وكان هذا ما يتفق تماما وتكوينه النفسي وانتماءه الطبقي، إنه التماس الأمن والأمان وغسل اليدين من أوحال الواقع وهموم الأرض، وهو يقول صراحة، إنه لجأ إلى ما أسماه «المسرح الجاد» مقابل «أن يفوز باحترام الناس بدل مهانة التشخيص»، وكان سبيله إلى كسب احترام مجتمعه أن يمضي بمسرحه إلى ما لا علاقة لهذا المجتمع به. وجاءت أهم أعماله إصرارًا على اختيار طريق الفن الذي ينفي الحياة سبيلا للحياة، إنه الفن الذي لا يمس أعمدة البناء السياسي ـ الاقتصادي للواقع.

غير أن النظر إلى المسرح المصري ـ والعربي ـ بعده يؤكد ـ دون أي شك ـ دوره في إزاحة حائط الغرابة بين المسرح الجاد وقطاع متميز من الجمهور، ويؤكد ـ كذلك ـ أن كثيرين من الكتاب التالين عليه كانوا له قراءً وبه متأثرين.

وكان لابد أن يحدث ما حدث في يوليو ١٩٥٢ كي يقوم مسرح جديد، هذا مجتمع قائم أخذت قواعده في التخلخل والانهيار.. ومن أحشائه وعلى أنقاضه يتخلق مجتمع جديد، وهؤلاء الذين خرجوا في قلب الليل وتسلموا السلطة دون عناء كبير لم تكن لديهم خطط جاهزة لإحداث التغيير، لكنهم يجربون فيخطئون ويصيبون، وتلك أكثر اللحظات مناسبة في تاريخ أمة من الأمم لقيام مسرح جديد. وإلى خشبة المسرح المصري تدافعت كوكبة من الفرسان: نعمان عاشور، ألفريد فرج، يوسف إدريس، سعد الدين وهبة، عبد الرحمن الشرقاوي، لطفي الخولي، رشاد رشدي، ميخائيل رومان، وتلاهم محمود دياب وصلاح عبد الصبور ونجيب سرور وسواهم. كان فرسان الموجة الأولى من أبناء الجيل الذي تفتح وعيه أثناء تلك السنوات المثقلة ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢: اشتدت حركات التحرر فشملت معظم البلاد التي كانت مستعمرات ومناطق نفوذ، ومن بينها الأقطار العربية بطبيعة الحال: مصر وسوريا ولبنان وأقطار المغرب، وفي مصر كان الاحتلال جاثما بكل ثقله على صدور المصريين، وأدت سنوات الحرب إلى ازدياد الإحساس بوطأته، ونضج الوعي الشعبي فأصبح يربط الاحتلال بالاستقلال الاقتصادي، وتحقق اللقاء بين القضيتين الوطنية والاجتماعية، ثم إن الأحزاب التقليدية ضعيفة معزولة، والحزب الكبير الذي قاد النضال الوطني منذ ١٩، فقد معظم طاقته بعد ٣٦، وجيل «الإحياء» من الكتاب والمثقفين كانوا قدموا أهم ما ارتبطت به أسماؤهم قبل منتصف الثلاثينيات. وتحولوا إلى نوع من الأدباء «الرسميين» يدافعون عن ليبرالية فقدت مبرر وجودها ذاته.

عن هذا الوعي صدرت موجة ثقافية كاملة لتعبر عن نفسها بعد ٥٢، وهمُّ المسرح المصري الجديد أن يردم هوة عمقتها السنون بين الفن الجاد والجماهير، وتمثلت شجاعته في الوقوف إلى جانب الجديد، يدعو إليه، ويبشّر به، ويؤكد حتمية حدوثه، لكنه لم يدْعُ إلى تجاوزه إلا قليلا، ثم إنه رفع إلى خشبة المسرح كثيرا من هموم الناس وقضاياهم الملحة.

غير أن هذا المسرح لم يعمر طويلا، هما عقدان على وجه التقريب، وسرعان ما سقط تحت ضغوط عوامل متعددة: ٦٧ وتحولات الواقع وتربص الرقابة وخيانة المسرحيين، وسرعان ما رجحت كفة المسرح التجاري من

حين تحرر الشعر من إطار الشكل التقليدي استطاع أن يتسع ليعبر عن خبرات وتجارب لم يحتملها الإطار القديم، وترددت في شعرنا المعاصر نغمات جديدة، واكتسبت القصائد نفسها بناءً أكثر غنى وتركيبًا، لم تعد القصيدة نغمة واحدة مسطحة، يطربنا ـ أو لا يطربنا ـ ما فيها من إيقاع رتيب صاخب، لكنها أصبحت بناءً موسيقيًا كاملاً.



ناحية، والمسرح الذي يمالئ السلطات القائمة من الناحية الأخرى، وفقد المسرح قدرته على نقد الواقع وتطلعه نحو المستقبل واهتمامه بجماهير الناس، وأصبحت القاعدة التي تحكم نشاطه هي أن «شباك التذاكر لا يخطئ أبدا!».

ولاشك في أن هذا المسرح الجديد في مصر قد أحدث آثارا تختلف من حيث قوتها ومداها في مسارح الأقطار العربية التي كان لها بعض رصيد سابق في فن المسرح: حدث لون من النهوض المسرحي في بغداد، بعد جيل الرواد: حقي الشبلي ويوسف العاني وإبراهيم جلال، ظهر جيل جديد يمثلهم سامي عبد الحميد وجليل القيسي وعزيز خيون وهاني هاني وقاسم محمد وسواهم، وتلاحم جيل ثان يمثله صلاح القصبي وفاضل خليل وشفيق مهدي وعوني كرومي وسواهم كذلك. وكانت الظاهرة الغالبة على هذا النهوض أن معظم القائمين به «مسرحيون» أو «مسرحجية» أي أنهم ليسوا كتابا فقط، لكنهم يكتبون أعمالهم أو يعدونها ثم يخرجونها وقد يشارك بعضهم بالتمثيل فيها، وفي بيروت كان محمد شامل ونزار ميقاتي ومنير أبودبس وأنطوان ملتقى وجلال خوري والرحبانية ونضال أشقر وريمون جبارة وسواهم، وإن كانوا جميعا «مسرحيين» بالمعنى الذي سبقت إليه الإشارة. وفي دمشق ظلت الكتابة للمسرح تنتظر طويلا حتى جاء سعد الله ونوس(١٩٤٢-١٩٩٧). وقد درس في القاهرة إبان نهضتها المسرحية: (٥٨ - ٦٢) بمسرحيته الطويلة الأولى «حفلة سمر من أجل ٥حزيران» في ٦٨، ثم تتابعت أعماله حتى أصبح واحدا من أهم كتاب المسرح العربي، منذ بدأ وحتى اليوم، إلى جانبه مصطفى الحلاج ووليد إخلاصي وممدوح عدوان وفرحان بلبل وسواهم. أما في المغرب العربي فقد قاد النشاط المسرحي الذي بدأ بعد الاستقلال المسرحيان الكبيران الطيب الصديقي وأحمد الطيب العلج.

واليوم، مع نهاية القرن، لم يكد يبقى من هذا المسرح سوى حفنة من النصوص للحكيم وألفريد فرج ومحمود دياب وصلاح عبدالصبور في مصر، ويوسف العاني، ويوسف الصايغ في العراق، وسعد الله ونوس في سوريا، وعز الدين المدني في تونس، وعبدالكريم برشيد في المغرب. هذا ما انتهى إليه مسرحنا العربي.

حدثنا يحيى حقي عن «فجر القصة المصرية» حين تحدث عن أعضاء «المدرسة الحديثة» وقدم لنا صورا عن حياة بعضهم وأعماله. وبذات المعيار الذي استخدمناه حتى الآن، أعني البدء بالأشكال التي تحقق قدرا من الشروط الفنية الضرورية، جاز لنا أن نقول - مع يحيى حقي - إن مجموعة «سخرية الناي» لمحمود طاهر لاشين، الصادرة في ١٩٢٥، هي أول مجموعة من القصص القصيرة تلتزم تلك الشروط.

كان يحدثنا عن أعضاء تلك المدرسة التي تضم - إلى جانب لاشين - خيري سعيد وحسين فوزي ومحمد تيمور. وعلى هامشها إبراهيم المصري وحسن محمود ومحمود عزي وحبيب زحلاوي. وعن دوافع قيام تلك المدرسة يقول: «ولكن حدث حينئذ لمصر حادث غريب، هذه الأمة التي خيّل للكثيرين من البسطاء أنها استكانت وفقدت القدرة على النهوض قد هبت سنة ١٩١٩ تلتف حول سعد زغلول، وتطالب بحقها في الحياة والاستقلال، وعم الشعور الوطني الشعب كله واستشهد منه كثيرون. في أحضان هذه الثورة نشأت موسيقى سيد درويش، ونشأ أدب المدرسة الحديثة، وكلاهما منبعثان من حاجة ملحة لإيجاد فن شعبي صادق الإحساس إلى أدب واقعي، متحرر من التقليد واقتباس الأخيلة من الغير...».

هكذا جاء ميلاد القصة القصيرة بشروطها الفنية، وأقبل كتاب كثيرون على ممارستها. لكن أحدا لم يخلص لها أو يجعل إبداعه مقتصرا عليها، بل كانوا يمارسونها إلى جانب الرواية أو المسرحية أو الشعر أحيانا. وحول منتصف القرن كان نجوم القصة في مصر هم محمود كامل ومحمود البدوي وسعد مكاوي وعبدالرحمن الخميسي وأمين يوسف غراب وسواهم (أما يحيى حقي نفسه فقد كان - كعادته - متواريا «في الظل»!)، وقصصهم - في معظمها - ذات طابع رومانسي شاحب، تدور حول «عذاب المحبين»، أو تحكي حكاية ذات أحداث غريبة، وكثير منها يدور في أرض غريبة، وأبطالها دائما من الطبقة العليا في المجتمع، أو التي تليها مباشرة في السلم الاجتماعي، وهي مكتوبة - على الأغلب - بلغة فصحى تلتزم قواعد البلاغة التقليدية السائدة، يدفعها طابعها الرومانسي إلى المبالغة في تصوير المشاعر والمواقف، مبالغة تنأى بأبطالها عن أن يرى فيهم القارئ أناسا يعرفهم، أو مشاعر يمكن له - ولسواد من صغار الناس: أبطال القصة القصيرة بامتياز - أن يمارسها.

إنما من هنا تأتي أهمية يوسف إدريس (١٩٢٧-١٩٩١). رأى يوسف في القصة المصرية السائدة اقتباسات يقوم بها هواة عن مادة أدب أجنبي. أو بتعبيره: «إن الشخصيات وطريقة القص وموضوع القصة، كانت كلها مختلفة عن الحياة الواقعية اختلافا كاملا..» ومن ثم أخذ على عاتقه مهمة ثقيلة هي أن يقدم «القصة المصرية الخالصة»، بدأ نشر قصصه في ٥٠، وحين صدرت مجموعته الأولى في ٥٤، بدا أنه قد حقق قدرا كبيرا من مهمته الثقيلة، حفلت قصصه بحشد هائل من الأبطال المغمورين الذين دخلوا إلى التعبير الأدبي في القصة المصرية للمرة الأولى. وتتابعت مجموعاته حتى فرض ظله الفارع على هذا الفن الهش المراوغ في مصر والعالم العربي جميعا.

في المشرق العربي بدأت بواكير القصة التي تحوي الحد الأدنى من الشروط الفنية حول أوائل الخمسينيات كذلك: كان في سوريا شكيب الجابري وفؤاد الشايب ومحمد النجار وعبدالسلام العجيلي وسواهم، وفي العراق ذون النون أيوب وفؤاد التكرلي وسواهما كذلك، أما في المغرب - ولذات الأسباب - فقد تأخر ميلاد القصة - شأن بقية الفنون، إلى مابعد الاستقلال، ولعلنا لم نعرف أحدا من قصاصي المغرب قبل السبعينيات، أي قبل محمد زفزاف وأحمد المديني وإدريس الخوري وعبدالجبار السحيمي وسواهم.

وتتابعت أجيال القاصين في أقطار العالم العربي: مصره ومشرقه ومغربه، وتزايدت أعداد القاصين، أغراهم هذا الشكل لطواعيته وتنوعه وقدرته على التعبير عن اللحظة، إضافة لسهولة نشره مع تزايد الصحف والمجلات، وتمايز من بينهم كثيرون، قد يعيينا أن نذكرهم بأسمائهم دون أن نسقط منهم أحدا، ولا تزال تطالعنا أقلام جديدة في كل يوم. إن القصة القصيرة - مثل شقيقتها الكبرى - تكسب أرضا جديدة كل يوم!

بين هذه الأجيال يتميز ما عُرف بجيل الستينيات في مصر (ثمة مجايلون لهم في المشرق بوجه خاص): إنهم أولئك الذين تفتح وعيهم بعد ٥٢، وتعلقت آمالهم بفترة الزهو والصمود، ثم جاءت مرحلة التناقضات المريرة وبعدها قاصمة الظهر في ٦٧، فوقعت على رؤوسهم وهم يشعرون أنهم مخدوعون ومهانون ومسئولون كذلك. ومن ثم كتبوا أدبا مختلفا (كان بينهم روائيون وشعراء، لكن الغالبية كانت من القاصين) يعبر عن إحباطهم ورفضهم الكامل للماضي وشكهم القوي في الحاضر، ويأسهم من المستقبل، لا أجد في وصفهم أصدق مما كتبه شكري عياد: «هذا إذن جيل ثورة ١٩٥٢، وهذا قدره التاريخي. لقد بدأ اللعب بالقلم حين كان الجو مليئا بالصياح والتهليل. وعندما ثبت القلم بين أصابعه كان الجو مليئا بالصراخ والعويل، وكان عليه أن يحمل أوزار السابقين، ويسير دون دليل...».

إنما على أيدي أبناء هذا «الجيل الضائع» في السبعينيات انتعشت الكتابة، والقصة القصيرة بوجه خاص!

تلك كانت «نظرة طائر» إلى الإبداع الأدبي في هذه الوجوه الأربعة خلال قرن كامل. طبيعي ألا تقف إلا عند أهم العلامات، مسقطة كثيرا من التفاصيل. هل يمكن أن تستشف منها دلالات عامة، أو أقرب لأن تكون كذلك؟

بأقصى قدر ممكن من تدقيق الكلمات نستطيع القول إننا لانجد حركة إبداعية شاملة أو متكاملة على اتساع الأرض العربية. الأمر لايعدو مبدعا هنا وآخر هناك، قد تجد روائيا أو شاعرا أو قاصا أو مسرحيا مُجيدا، لكنه موجود كفرد مبدع، وعليه يجاهد كي يبقى كذلك وسط شروط هذا الواقع الساقط والمتردي.

وقد نستطيع القول إن مثل هذه الحركات الإبداعية عرفتها الأقطار العربية المختلفة في فترات متموجة من هذا القرن: مصر في العشرينيات، ثم من منتصف الخمسينيات لمنتصف الستينيات (اقرأ: بعد ١٩١٩، ثم بعد ١٩٥٢)، والعراق حول منتصف القرن، والشام في الخمسينيات والستينيات، وأقطار المغرب عقب الاستقلال.

وقد نستطيع القول أيضا إن هذا المنظر يثبت - لمن شاء مزيدا من الأدلة - أن الإبداع العربي وحدة واحدة رغم التنوع: تتأسس الرواية في مصر، ومنها تنتشر لكل العالم العربي، وتحدث ثورة الشعر المعاصر في العراق، ومنه تنتشر إلى القاهرة ودمشق وبيروت.

وقد نستطيع القول كذلك: إنه حين تسطع شمس الحلم، تتلاشى الحدود القائمة بين الأقطار، وتمتد الأيدي للتلاقي.

وقد نستطيع القول أخيرا: كيفما تكونوا، يكن إبداعكم.

سرعان ما رجحت كفة المسرح التجاري من ناحية، والمسرح الذي يمالئ السلطات القائمة من الناحية الأخرى، وفقد المسرح قدرته على نقد الواقع وتطلعه نحو المستقبل واهتمامه بجماهير الناس، وأصبحت القاعدة التي تتحكم نشاطه هي أن «شباك التذاكر لا يخطئ أبدا!».



مـــع مـــــرور مـــــائة عـــــام
على كـتـــاب قـــاسم أمـــين

السؤال الآن
متى يتحـــرر الجـــميع ..
رجـــالا ونســــاء؟!

هـــــدى الصـــــدة

في أغلب المعـــالجـــات التي تتناول موضوع المرأة في المجتمع، أو بعبارة أصح، قضية المرأة في المجتمع، جرت العادة على تسليط الضوء على ما حققته المرأة في القرن العشرين من تقدم ملحوظ على جميع المستويات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأدبية. فالافتراض الأساسي الذي تنطلق منه الأغلبيـة العظمى من المؤرخين والراصدين لهذا الموضوع، هو أن وضع المرأة قد شهد تحسنا جذريا مع قيام الدولة الحديثة التي أسسها محمد علي في أوائل القرن التاسع عشر. فكما هو معروف، شرع محمد علي في إرسال بعثات تعليمية إلى أوروبا ليتعلم المبعوثون الأسس التي بنيت عليها الدول الغربية الحديثة، فيعودوا إلى مصر ويساهموا في نهضة المجتمع. ومنذ البدايات الأولى، ظهرت قضية المرأة وتعليمها على قائمة الأولويات في عملية التحديث.

ومن العلامات المهمة في هذا الموضوع كتاب الشيخ رفاعة الطهطاوي المرشد الأمين للبنات والبنين (١٨٧٢)، حيث يطرح الشيخ قضية تعليم البنات بإلحاح وقوة. وتستمر قصة تعليم البنات باعتبار التعليم الدعامة الأساسية في قضية المرأة، وبافتراض أن فرص التعليم لم تكن متاحة للمرأة العربية قبل إنشاء المدارس الحديثة، فإن كتب التاريخ ترصد مسيرة التحديث في نشر تعليم البنات، وتشير مثلا إلى إنشاء مدرسة المولدات سنة ١٨٣٢، ثم أنشئت في ١٨٧٣ مدرسة السيوفية، وفي ١٨٧٥ ضمت لها مدرسة أخرى، ثم تحول اسم المدرسة إلى مدرسة السنية في عام ١٨٨٩. ويستمر هذا الرصد فينتقل إلى تحديد العلامات المهمة في طريق تحرير المرأة، فنتوقف دائما عند كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة» الذي نشره سنة ١٨٩٩، ثم كتابه «المرأة الجديدة» الصادر سنة ١٩٠٠. ويتطور هذا الرصد إلى تسليط الضوء على إنجازات المرأة في القرن العشرين، فنتحدث عن أول طبيبة وهي الدكتورة هيلانة سيداروس وأول خريجة من مدرسة حكومية وهي ملك حفني ناصف، ثم أول مهندسة وأول طالبة في الجامعة المصرية وأول وزيرة إلى آخر هذه القائمة من الأوائل. يدخل في هذا السياق أيضا إحصائيات عن انخراط المرأة في سوق العمل وتزايد أعداد البنات في الجامعات والمدارس، وحصول النساء على حقوقهن السياسية سنة ١٩٥٦، وتسليط الضوء دائما على فكرة أن التطور إلى الأمام مستمر قدما، وأن ما على النساء إلا متابعة مسيرة الإنجازات في العمل والتعليم واقتحام المجال العام للتأكيد على وجودهن وحقوقهن.

وفي مقابل خطاب الإنجازات والتقدم المستمر نصطدم بكم مخيف من التناقضات على جميع المستويات. ففي التعليم تفجعنا إحصائيات عن نسب أمية النساء التي تصل إلى ٧٠٪، وعن أعداد هائلة من النساء اللاتي يعانين من ظروف اقتصادية مجحفة، عن قوانين تميز بين الرجل والمرأة، هذا على الرغم من أن الدستور المصري ينص على المساواة بين الجنسين، مما لا شك فيه أن قدرا كبيرا من الصعوبات التي تواجه النساء في المجتمعات العربية تواجه الرجال أيضا. فالمجتمع بأسره مازال مهددا بالثالوث غير المقدس، أي الفقر والجهل والمرض، وهو ثالوث يطول جميع أفراد المجتمع. ولكن ومع اعتبار كل هذا، علينا أن ندرك خصوصية وضع النساء في المجتمع. وحقيقة أن المشكلات التي يعاني منها المجتمع ككل تشتد وطأتها على النساء، ففي مجتمع فقير نجد أن أفقر الفقراء هم النساء، وفي مجتمع يعاني من تفشي الأمية، نجد نسبة الأمية أعلى عند النساء من الرجال. بالإضافة إلى ذلك، فهناك أنواع من الظلم تختص بها النساء دون الرجال، فالوزيرة التي ائتمنتها الدولة والمجتمع على إدارة فرع مهم من شئون الدولة لا تستطيع مثلا أن تسحب أوراق أبنائها لتنقلهم من مدرسة إلى أخرى، ولا تستطيع سحب مصروفات الدراسة، وإن كانت على الأغلب قد دفعتها بنفسها. فهذه الأمور من اختصاصات ولي أمر التلميذ وهي ليست كذلك. والأستاذة الجامعية يستطيع زوجها أن يدرج اسمها في قائمة الممنوعين من السفر إذا أرادت أن تمثل كليتها في مؤتمر في الخارج، وهي تعامل في المطار معاملة الخارجين على القانون. والأمثلة في أشكال الظلم الذي تتعرض له النساء في القرن العشرين كثيرة ومؤلمة، لا يتسع المجال هنا إلى تعيينها كلها. هي مؤلمة لا بسبب الظلم والإجحاف الذي تنم عنه فقط، ولكن لأنها غير منطقية ومتناقضة، وتدل على خلل حقيقي في بنية القيم في المجتمع.

فمن أخطر الأمور التي تؤثر بالسلب على قضية المرأة في مصر، هي تحويل هذه القضية الاجتماعية المصيرية بمعنى الكلمة إلى ورقة سياسية تتنازعها الأطراف المتناحرة المختلفة، بهدف الفوز بجولة سياسية دون اعتبار للمصلحة العامة. وإذا تأملنا المشهد الثقافي والسياسي المعني بهذا الموضوع، نكتشف عملية استقطاب مخيفة لقضية المرأة في المجتمع تتم على جميع المستويات. ويكفينا أن نشير كمثال إلى المؤتمر الضخم الذي نظمه المجلس الأعلى للثقافة في شهر أكتوبر من هذا العام، للاحتفال بمرور مائة عام على صدور كتاب «تحرير المرأة» لقاسم أمين عام ١٨٩٩. وكما هو معروف، يعد هذا الكتاب علامة مهمة في مسيرة المرأة العربية، اختلفنا معه أم اتفقنا. ومن الجدير بالذكر أن المؤتمر لم يتوقف بتاتا عند صيغة الاحتفالية بشخصية أو مطبوع، وإنما اتخذ من هذا الكتاب نقطة انطلاق، أو ذريعة جيدة لدعوة الباحثين والباحثات من مختلف التخصصات والاتجاهات لتوصيف وتقييم حالة المرأة العربية في نهاية القرن العشرين.

أثبت انعقاد المؤتمر وجود ثراء فكري وثقافي غزير وفعال في مجال دراسات المرأة، ظهر جليا في الأبحاث القيمة التي قدمها

من أخطر الأمور التي تؤثر بالسلب على قضية المـــرأة في مصر: تحـويل تلك القضيـــة الاجتماعية المصيرية إلى ورقة سياسية تتنازعها الأطـــراف المتناحــرة، بهدف الفـــوز بجولـــة سياسية دون اعتبار للمصلحة العامـــة.

مقابل تصوير المرأة كرمز للوطن، يطلب منها أن تكتفى بالرمز، وأن توافق على تأجيل السعى من أجل الحصول على حقوقها فى المجتمع، وكلما تطرح قضية المرأة بجدية، تواجه بأصوات تنادى النساء بعدم تشتيت الجهود للمطالبة بحقوق جميع المواطنين، وكأن حقوق النساء ليست جزءاً من حقوق جميع أفراد المجتمع.

مجموعة من الباحثين والباحثات المتميزين، أفصح المؤتمر أيضا عن اتجاهات جديدة ورائدة فى البحث تعيد النظر فى المقولات السائدة المتعلقة بخطاب تحرير المرأة، بل وتعيد النظر في ما قاله قاسم أمين وغيره من رواد النهضة. في الوقت نفسه، جسدت بعض جلسات المؤتمر الحالة الثقافية العربية من تشتت واستقطاب إلى الحد الذى يمكن وصف بعض المناقشات التي دارت في قاعات المؤتمر بـ«حوار الطرشان»: لا أحد يسمع أحدا، ويأتي البعض لتسجيل مواقف مسبقة لا للاستماع والمناقشة، تبادل الاتهامات الجزافية، ثم الاتجاه لرفض الرأى الآخر برمته، بل الأحرى أن نقول اغتيال الرأى الآخر. فمثلا في جلسة تعرض فيها أوراق تناقش موضوعات أدبية أو اجتماعية أو رأيا أو اتجاها، يقف أحد الحاضرين ويلقى على الجمهور خطبة حماسية عن حقوق المرأة في الإسلام، وكيف أن الإسلام أعطى المرأة جميع حقوقها من قرون مضت، هذا على الرغم من أن الأوراق المقدمة في هذه الجلسة بالتحديد لم تتطرق لموضوعات دينية من قريب أو بعيد. ولكن يطفو على السطح الافتراض المنحاز أن كل من تنطق بقضية المرأة لابد أنها تفعل شيئا ضد الدين، وتضييع الفرصة على الحاضرين والحاضرات لمناقشة الأفكار الرئيسية التي ترد في الأوراق المقدمة. في المقابل، تلقى باحثة ترتدى حجابا بحثا ممتازا تقوم فيه بتحليل خطاب بعض المفكرين في تناولهم لموضوع المرأة، فيهب أحد الحاضرين ويعلق على كلامها ويشكك في إمكانية الوصول إلى تحليلات حقيقية إذا ما وضعنا لأنفسنا حدودا مسبقة تمنعنا من التفكير الحر المستقل. وهو بتعليقه هذا كان يخاطب حجاب الباحثة مفترضا أنها غير قادرة على تقديم تحليل جيد، لأنها ارتضت ارتداء الحجاب، وهو بهذا يمثل الطرف الآخر المنحاز ضد قضايا المرأة. هذا عن بعض الجلسات، أما التغطية الإعلامية فهى تحتاج إلى وقفة طويلة ومتأنية لا مجال لها الآن، ولكن نظرة سريعة تكشف لنا الآتى (باستثناء بعض المقالات الجيدة والموضوعية بطبيعة الحال): قدر عال من التشويق والإثارة في تناول المادة المقدمة، بحيث ينتفى الهدف من توصيل المعلومات أو النقد الموضوعى. الاستقطاب التام في تناول المؤتمر، فجميع التيارات السياسية تنتهز الفرصة لتسديد ضربات لمعارضيها من التيارات الأخرى، توجيه اللوم للنساء لفشلهن في فهم معنى الحرية الذى يفهمه بالطبع كاتب المقالة أفضل من غيره، ولكنه لا يكلف نفسه عناء توضيح فكرته، والتركيز على السلبيات وتجاهل الإيجابيات، ومشكلات أخرى كثيرة.

يتجه بعض المحللين للواقع الثقافى العربى نحو تبرير ما نلمسه من ترد على جميع المستويات على أنه تراجع لمسيرة التحديث التى خاضتها الأمة العربية منذ بدايات هذا القرن، فيشيرون إلى الحداثة المنقوصة أو المشوهة التى حاقت بالمجتمعات العربية، وإذا اتفقنا أن الحداثة فى الأساس هى عملية قطيعة معرفية بين الماضى والحاضر، فنستنتج أن عملية القطع لم تكن حاسمة بالقدر الكافى، بل كانت متهاونة مع قوى الماضى، بحيث سمحت لها بالعودة مرة أخرى فى شكل جماعات محافظة تهدد سجل إنجازات الدولة الحديثة. فنتحدث عن الردة الثقافية والتراجع الذى يلحق بالمرأة ووضعها فى المجتمع، ونتحدث عن أهمية المواجهة والصراع بين قوى الماضى وقوى الحاضر لحسم الصراع الجارى لأكثر من مائة عام. في السطور القليلة القادمة سوف أحاول تقديم تحليل آخر للمشكلات التى تحيط بقضية المرأة في المجتمع العربى. وهو تحليل يعكس اتجاهات في البحث ظهرت بوضوح فى العقد الماضى فى دراسات باحثين وباحثات متخصصين في دراسة المجتمعات العربية ومجتمعات العالم الثالث بشكل عام. يرتكز هذا التحليل إلى فرضية تنقد الحداثة وتفكك الأسس التي تبنى عليها بهدف إيجاد صيغة أخرى ومختلفة لصياغة المستقبل.



أبحث عن جذور المشكلة في بدايات طرح مسألة المرأة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. فمن الناحية التاريخية، تزامن طرح قضية المرأة مع قضية تحديث المجتمع في عصر محمد علي، ونشأت علاقة وثيقة بين تحسين وضع المرأة والنهوض بالوطن. بل كتب الكثيرون عن العلاقة بين تحرر المرأة والتحرر من الاستعمار. وكان السؤال: كيف نبنى مجتمعا مصريا حديثا يأخذ بسبل التقدم ويتخلى عن مظاهر الجهل والتخلف؟ وارتبط مفهوم المجتمع الحديث بشكل المجتمعات الغربية الموجودة في ذلك الوقت، واستمر هذا المفهوم ليحمل في طياته الكثير جدا من معطيات وتجليات تلك المجتمعات، يمكن تحديدها على هذا النحو المبدئى: تبنى النموذج الغربى للتقدم وتنمية المجتمعات، الإيمان بالتطور الخطى للحضارة، بحيث نقرأ التاريخ باعتباره رحلة الإنسان للخروج من الظلام إلى نور المعرفة والحضارة، افتراض أن المجتمعات غير الغربية متخلفة عن المجتمعات الغربية: لأنها مازالت تمر بمراحل أولية من التطور، تبنى منظومة فكرية تشجع على خلق تضاد ثنائى بين الغرب والشرق، الحداثة والتراث، وبين الأنا والآخر بحيث يحافظ الغرب على تميزه واختلافه وتفوقه على المجتمعات الأخرى.

ولقد بين نقاد الحداثة ونقاد ما بعد الاستعمار ارتباط مفهوم الحداثة والمجتمع الحديث بالتوسع الاستعمارى الذى بلغ ذروته في القرن التاسع عشر، حيث كان على المجتمعات الغربية الاستعمارية اللجوء إلى خلق كيان آخر يتناقض ويتصارع مع الذات الغربية، وذلك بهدف تعزيز مكانة الذات وتحديد ملامحها ودعم قوتها[1] بالإضافة إلى ذلك، لا ننسى الدور الذى لعبه بعض منظرى الاستعمار في مصر وبلدان أخرى في الربط بين «مظاهر تخلف» المرأة الشرقية وبين تخلف المجتمعات الغربية، وأصبحت المرأة الشرقية في هذا الخطاب هى ضحية مجتمعات «متخلفة» تمنع أفرادها من ممارسة أبسط حقوقهم الطبيعية، كما أصبح وضعها دليلا على عدم قدرة تلك المجتمعات على حكم نفسها، ومن ثم تصبح في حاجة إلى توجيه وإرشاد من قبل أبناء المجتمعات المتقدمة، الغربية بطبيعة الحال. وقد قام عدد كبير من الباحثين والباحثات بتفكيك هذا الخطاب الاستعمارى، فبينت روزمارى صايغ آليات تحول هذا الخطاب إلى «عصا لتأديب المجتمعات العربية»[2] كما كتبت ليلى أحمد عن الدور الذى لعبه اللورد كرومر في تسليط الضوء على حجاب المرأة الشرقية، وتحويله إلى رمز لقهر

تزامن طرح قضية المرأة مع قضية تحديث المجتمع في عصر محمد علي، ونشأت علاقة وثيقة بين تحسين وضع المرأة والنهوض بالوطن، بل كتب كثيرون عن العلاقة بين تحرير المرأة والتحرر من الاستعمار

المجتمعات الإسلامية لنسائها. وكيف قدم نفسه باعتباره نصير المرأة المقهورة في الشرق في الوقت الذي كان عضوا في جمعية كرست جهودها لمحاربة المجموعات النسائية التي كانت تسعى إلى تحسين وضع المرأة في إنجلترا[3].

ولقد تبنى رواد الإصلاح الأوائل المنتمون لجميع التيارات الفكرية الممثلة في ذلك الوقت (ليبرالية كانت أو إسلامية) الافتراضات الأولية للحداثة، أي أنهم تشربوا فكرة التفوق الثقافي الغربي، وتبنوا مفهوما للتطور يرى التقدم يسير في خط مستقيم وصل فيه الغرب إلى أرقى المستويات، بينما تحاول المجتمعات الأخرى اللحاق به. كما قبلوا المنظومة الثنائية التي تضع الحداثة في مواجهة التراث. وعلى هذا الأساس نرى وفقا لقواعد هذه المنظومة تيارات فكرية تبرز وتختلف رغم اتفاقها على المنطلقات الأساسية. بعبارة أخرى، برز في أوائل القرن خطاب إصلاحي تنويري قومي، رأى أن يحاكي المجتمعات الغربية الحديثة ويأخذ بظواهرها، مع مراعاة اعتبارات خاصة بالهوية والخصوصية الثقافية، كما برز تيار آخر محافظ ديني، يرفض النموذج الغربي ويمجد القيم التقليدية الموجودة في المجتمع، باعتبارها قيما تراثية وجب التمسك بها في مواجهة الهجمة التحديثية السائدة. ومن الملاحظ أن كلا الطرفين قبلا ورضيا بالتعارض الحتمي بين التراث والحداثة، وانحصر الخلاف في مواقف الرفض أو القبول.

كان من آثار هذا الربط بين وضع المرأة وتخلف أو تقدم المجتمع في القرن العشرين وتشابك قضيتها مع ثنائية الحداثة والمعاصرة، أن اهتم معظم الرواد والمصلحين بالتفكير في حال المرأة، الأمر الذي أدى مما لا شك فيه، إلى بعض الإيجابيات في مجالات التعليم والصحة والعمل ومجالات أخرى. إلا أنه في الوقت نفسه، ترتب على هذا الاقتباك سلبيات لم يلتفت إليها جيدا، تفاقمت ومازلنا نعاني منها إلى يومنا هذا. أولا: ظهرت نبرة أو تجاه يلوم النساء ويحملهن ذنب تخلف المجتمع، ومن ثم عبء النهوض به. فإلى جانب المقالات والكتب المهمة التي تطرقت إلى تشخيص المشكلات وتحديد طرق الإصلاح، جاءت أيضا مقالات لا حصر لها لتوبيخ النساء لكسلهن أو جهلهن أو مظهرهن غير اللائق مقارنة بأزواجهن. فالأم الجاهلة لا تصلح لتربية أولادها وتفشل في التواصل مع زوجها وفي الحصول على احترامه، والعادات التقليدية التي تتمسك بها النساء (غالبيا مصر وتملق، والمظهر الخارجي لهن غير لائق ومنافٍ للذوق الرفيع، وتعتبر متخلف النساء السبب الرئيسي وراء فشل الزيجات وكثير من الأمراض الاجتماعية المتفشية في المجتمع.

وعموما حملت النساء مسئولية تخلف وتطور المجتمع، فتقول ملك حفني ناصف في هذا الصدد: «قطع رجال الإصلاح في مصر شوطا بعيدا للتنقيب عما يجعل الأمة المصرية في مصاف الأمم الراقية، فلم يظفروا بضالتهم، وبعد لأي ألقوا الذنب في تأخير الأمة المصرية على المرأة المسكينة. وقالوا: لو كانت المرأة المصرية راقية لأخرجت للعالم أبناء ناشطين، وأزواجا حكماء، وأسرا منظمة، ووقفوا عند هذا الحد ينتظرون ما يقضيه لهم الدهر من ارتفاع شأن المرأة ورقيها، ويهيئه لهم الاتفاق نصالحها. كأن المرأة تلهم الإصلاح إلهاما ولا تنعلمه تعليما، ثم تقول لهم بما عجزوا عنه»[4].

ثانيا، أفصح التيار القومي الذي ربط بين نهضة المرأة ونهضة المجتمع عن ازدواجية في تحديد الدور المنوط بالمرأة في المجتمع الحديث. فبالقدر الذي كان يحث المرأة على تحسين حالها وإثبات وجودها في المجال العام أسوة بالمرأة الغربية - نموذج المرأة العصرية المتحضرة - تحولت المرأة في هذا الخطاب إلى رمز للخصوصية الثقافية العربية بمعنى أنها حملت عبء مشكلات الهوية «المهددة»، من وجهة نظر مفكري الإصلاح، وعبء الحفاظ عليها في آن. ففي المجتمعات العربية، ومجتمعات العالم الثالث التي عانت من نير الاستعمار بوجه عام، اختلفت العلاقة المفترضة بين المرأة والمجتمع الحديث عن العلاقة المفترضة بين الرجل والمجتمع الحديث، وكان المطلوب من المرأة أن تجمع بين المعاصرة والتقليدية، بين أدوارها «الجديدة» في ظل الدولة الحديثة وبين أدوارها «التقليدية». ويقدم الناقد الهندي بارتا تشاترجي تحليلا لهذه المفارقة في إطار خطاب القوميات المناهضة للاستعمار، فمن خصائص هذه القوميات أنها قسمت العالم إلى مجالين: المادي والروحاني. يشمل المجال المادي المحيط العام بكل ما يتضمنه من اقتصاد وشئون الدولة والعلم، وهو مجال أثبت الغرب فيه تفوقه، وحدد معالمه وخصائصه، وعلى من يرغب الدخول فيه أن يحتذي حذوه. أما المجال الروحاني، فهو مرتبط بالمحيط الخاص ويحتوي على المعالم الجوهرية للهوية الثقافية. ويقع مركز هذا المجال في البيت وتجسده المرأة.

يصف تشاترجي هذا الوضع بأنه مبني على أساس «انتقائي أيديولوجي». هذا الانتقاء يؤدي إلى تطبيق معايير متناقضة في التعامل مع النموذج الغربي أو المنتج القادم من جهة مستعمر الأمس. ووفقا لقواعد ومعايير هذا الخطاب، يستطيع مجتمع الرجال استيراد التكنولوجيا والعلم وركوب السيارات والطائرات والتحاور مع النظريات الحديثة في الاقتصاد والسياسة والفلسفة وتطبيقها. ولكن في المجال الخاص، المخصص للنساء، تختلف المعايير والقواعد، وتصبح النساء مكبلات بمفاهيم جامدة عن الهوية والخصوصية الثقافية، مفاهيم تطبق عليهن فقط ولا تشمل جميع أفراد المجتمع.

نلمس آثار هذه القسمة الأيديولوجية الانتقائية في التعديلات التشريعية التي أتت بها ثورة ٢٣ يوليو في سنة ١٩٥٦ ثم ١٩٥٩ حيث حصلت المرأة على حقوق سياسية وحقوق في العمل وتم الإبقاء على قوانين الأحوال الشخصية ومن ثم تكريس علاقات قوة غير متوازنة داخل محيط الأسرة نلمسها أيضا في الارتباك الحاصل في الخطاب الموجه للمرأة الآن في نهاية القرن العشرين. فهي من ناحية مطالبة بالعودة إلى المنزل والتخلي عن عملها في المجال العام المدفوع الأجر بافتراض أن خروجها للعمل أدى إلى كوارث أسرية ومجتمعية، ومن ناحية أخرى، تحث على المشاركة في جهود تنمية المجتمع في ظل ظروف اقتصادية طاحنة لاتسمح بأي حال من الأحوال لأحد برفاهية تناول موضوع العمل باعتباره ترفا أومجهودا إضافيا تقوم به حفنة من النساء منافسات الرجال في قوتهم ورزقهم. وفي كلتا الحالتين، يستخدم خطاب أخلاقي لتبرير هذه التناقضات ويرفع لواء الخصوصية الثقافية في وجه أي محاولات يقوم بها نساء أو رجال للتصدي لهذه الازدواجية المتعسفة.

وفي نفس الاتجاه كتب باحثون وباحثات عن الالتباس المضمر في خطابات القوميات في العالم الثالث في تناولها لمسألة المرأة. ففي مقابل تصوير المرأة كرمز للوطن، يطلب منها أن تكتفي بالرمز وأن توافق على تأجيل السعي من أجل الحصول على حقوقها في المجتمع استنادا إلى منطق الأولويات. فكلما تطرح قضية المرأة بجدية، تواجه بأصوات تنادي النساء بعدم تشتيت الجهود والانضمام إلى صفوف الرجال المنادين بحقوق جميع المواطنين، وكأن حقوق النساء ليست جزءا من حقوق جميع أفراد المجتمع. ولقد أثبتت التجربة التاريخية في بلدان العالم الثالث على وجه الخصوص أن استدعاء منطق الأولويات يستخدم دائما لإجهاض حركات تحرير المرأة. ويكفينا أن نشير إلى تجارب نساء كثيرات في مصر والجزائر والهند، اقتنعن في بدء الأمر بمنطق الأولويات، ورضين بتأجيل النظر في أوضاع المرأة في مجتمعاتهم، إلى أن جاءت لحظة الوفاء بالوعود واكتشفن أن رفاق الأمس نسوا أو تناسوا قضيتهن وامتنعوا عن مساندتهن في زعزعة البنية البطريركية في المجتمع.

حاولت فيما تقدم تفسير كيف أصبحت قضية المرأة ورقة سياسية في يد التيارات المتصارعة مشيرة إلى جذور الأزمة في خطاب الرواد، وركزت على جانب واحد في هذا الموضوع ولم أتطرق بطبيعة الحال إلى رصد شامل لجميع عناصره. فكما بينت، يصاحب طرح القضية استدعاء انتماءاتنا الفكرية والسياسية ومواقفنا من علاقتنا المعقدة مع الآخر الغربي ورؤيتنا لسبل الخروج من الأزمة الراهنة. ما زلنا ندور في فلك ثنائية الأصالة والمعاصرة وما زلنا نتبنى معظم المنطلقات الفكرية للحداثة التي تكرس لتلك الثنائية. إلا أن السنوات الماضية قد شهدت نشاطا ملحوظا في الأوساط البحثية يتناول نظريات التحديث والمنطلقات الفكرية للحداثة بالنقد والتحليل. وقد أشرت فيما سبق إلى الاتجاهات البحثية التي سلطت الضوء على العلاقة بين التوسع الاستعماري وبلورة مفهوم الحداثة باعتباره قطيعة معرفية بين الماضي والحاضر. توجد اتجاهات بحثية أخرى تتصدى لمنطلقات الحداثة بشكل عام وتطبيقها في المجتمعات العربية بشكل خاص.

فمثلا، نعيد النظر في ثنائية العام والخاص فيما يخص دور المرأة، فنجد اتجاهات بحثية تعيد تقييم الافتراض السائد بأن مكان المرأة الأساسي هو داخل محيط الأسرة مبينة أن هذا الفصل المتعنت بين العام والخاص إنما هو فصل حداثي جاء مع تأسيس الدول الحديثة ومع تعريف العمل باعتباره العمل المأجور، وتستكشف هذه الأبحاث أحوال النساء في عصور ماضية لتكتشف مرونة الحدود بين العام والخاص، بل واختفاء تلك الحدود كلية في بعض الأحيان، وقد كان من نتائج هذا الفصل المتعسف أن يستبعد عمل النساء الفلاحات مثلا في الحقل والمنزل من الإحصائيات الرسمية عن عمل المرأة، هذا على الرغم من انتفاء هذه القسمة (العام والخاص) في حياة الريفيات مثلا.

نعيد النظر في الافتراض القائل بأن التشريعات القانونية التي جاءت بها الدولة الحديثة أدت إلى تحسين وضع المرأة القانوني في المجتمع. فتستهل أميرة سنبل كتابها «المرأة والأسرة وقوانين الطلاق في التاريخ الإسلامي» بعقد مقارنة بين قضيتي طلاق نظرت في المحاكم الشرعية في مصر. في القضية الأولى، تحصل امرأة على الطلاق في الحال مع الاحتفاظ بمؤخر الصداق المتفق عليه وذلك لأن زوجها تزوج زوجته الأولى مرة أخرى وحنث وعده بألا يفعل ذلك. فما كان عليها إلا إثبات ما عاهدها عليه فمنحها القاضي الطلاق، وكان هذا سنة ١٨٥٧.

أما القضية الثانية، فقد تقدمت فيها امرأة بطلب الطلاق للضرر وأثبتت تعرضها للضرب والإهانة وتنازلت عن حقوقها المالية، أي طالبت الخلع، ولم تمنحها المحكمة الطلاق بل واستجابت لطلب الزوج بإرغام الزوجة على دفع تعويض مالي، إلى جانب تنازلها عن حقوقها، مقابل الطلاق. كان هذا سنة ١٩٨٤.

يعبر هذا الكتاب عن اتجاهات جديدة في البحث تناقش الافتراضات الحداثية السائدة عن تحسن وضع النساء في ظل المجتمعات الحديثة ومن ثم تتصدى أيضا إلى ما يحدث من تبرير معظم مشاكلنا باعتبارها بقايا العهد القديم، أو بصمات غائرة من العرف والتقاليد العتيدة. في دراسة أخرى في نفس الاتجاه، تقوم نيللي حنا بكتابة تاريخ اجتماعي لأسرة شهبندر التجار إسماعيل أبو طاقية وتدحض

لقد أثبتت التجربة التاريخية فى بلدان العالم الثالث أن استدعاء منطق الأولويات يستخدم دائما لإجهاض حركات تحرير المرأة، ويكفينا أن نشير إلى تجارب نساء كثيرات فى مصر والجزائر والهند اقتنعن بمنطق الأولويات ورضين تأجيل النظر فى أوضاع المرأة، ثم اكتشفن أن رفاق الأمس نسوا أو تناسوا قضيتهن.

افتراء خضوع النساء للسلطة المطلقة لرب الأسرة أو الحاكم فى العصر العثمانى. أما عفاف لطفى السيد فتدرس أحوال النساء فى مصر فى القرن الثامن عشر وتنتهى إلى أن النساء كن يتمتعن بحرية حركة أكبر فى ظل الدولة غير المركزية، وتتقلص مساحة الحركة مع تأسيس الدولة الحديثة والاتجاه نحو مزيد من المركزية.

أسارع بالقول أن اتجاهات نقد الحداثة لاتعنى أن الماضى أفضل من الحاضر وأن علينا احتضان التراث القديم لكى نتقدم. فجميع الأبحاث التى أشرت إليها لاتهدف بتاتا إلى التشكيك فى الأشياء الإيجابية التى حلت بالمجتمعات فى العصر الحديث ولاتسعى إلى التخلى عن المكتسبات فى مجالات الحرية والحقوق. ولكن، الهدف من نقد الحداثة هو إعادة النظر فى الثنائيات المتضادة التى أسستها الحداثة فى فكرنا إلى أن أصبحت هذه الثنائيات جزءا من نسيجنا القومى الذى لا نناقشه ونقبله دون تردد. هذه الثنائيات تنبع من مبدأ القطيعة وتفترض الصراع الدائم بين أقطابها المتنافرة: الماضى/ الحاضر، التراث/ المعاصرة، الشرق/ الغرب، العام/ الخاص إلى آخر تلك القائمة.

كلمة أخيرة، فبعد انتهائى من كتابة هذه المقالة، قرأت لهشام شرابى فى الحياة (الأربعاء ١٠ نوفمبر١٩٩٩) مقالة عنوانها «المثقفون العرب وإشكالية التغيير الاجتماعى» يتحدث فيها عن أهمية «تسييس قضية المرأة» إذا كان المثقف العربى جادا فى مساعى التغيير الاجتماعى وتحقيق «الحداثة الحقيقية». وإذا اتفقنا أن قضية المرأة قضية سياسية منذ البداية، فاعتقد أن مايعنيه هشام شرابى هو حث المثقف العربى على وضع القضية على قائمة الأولويات الثقافية والسياسية والاجتماعية، وأضيف، حثه على التعامل معها باعتبارها قضية مصيرية لا ورقة سياسية. وفى هذا الأمر أتفق معه تماما.

أما عن السعى نحو تحقيق «الحداثة الحقيقية»، فلقد كان الهدف من مقالتى هو تفكيك هذه المقولة الشائعة فى الأوساط الثقافية العربية، وبيان أثرها على أسلوب تناولنا لقضية المرأة. فالاستقطاب المستشرى فى الوسط الثقافى العربى مصدره فكرة القطيعة المعرفية، وهذا حداثى. وثنائية العام والخاص، العمل خارج المنزل وداخله، وتقسيم الأدوار الاجتماعية وفقا لهذه الثنائية، أيضا حداثى. سواء فى تبجيل المنزل ووصفه بمملكة المرأة وتنصيب الأم الملكة المتوجة التى تحظى بكل احترام وتقدير إذا التزمت بحدود مملكتها، وفى المقابل تواجه بالنقد واتهامات بالتقصير والفردية إذا ما جرؤت على القيام بدور فى كلا المجالين، ظاهرة حداثية وليست تقليدية. هذا الإصرار على البحث عن «حداثة حقيقية» هو الوجه الآخر من البحث عن «أصالة حقيقية» والبحثان يرتضيان قبول الأطر المسبقة، والنماذج المصاغة فى فترات تاريخية مختلفة ووفقا لظروف أخرى، قول تأمل مع قدوم ألفية جديدة فى إعادة النظر من هذه الأطر المعرفية لكى نتحرر جميعا، رجالا ونساء.

الهوامش

(١) انظر:

Ali Rattansi, "Western Racisms, Ethnicities and Identities in a Postmodern Frame" in Racism, Modernity and Identity on the Western Front, ed. Rattansi and Sallie Westwood, Cambridge, Polity Press, 1994.

(٢) انظر:

Rosemary Sayigh, "Roles and Functions of Arab Women: A Reappraisal," in Arab Studies Quarterly III.2 (Autumn, 1981).

(٣) انظر ليلى أحمد، المرأة والجنوسة فى الإسلام: الجذور التاريخية لقضية جدلية حديثة، (١٩٩٢) ترجمة منى إبراهيم وهالة كمال، القاهرة المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩.

(٤) آثار باحثة البادية (ملك حفنى ناصف ١٨٨٦-١٩١٨) جمع وتبويب مجد الدين حفنى ناصف، تقديم الدكتورة سهير القلماوى، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، المؤسسة المصرية العامة، ١٩٦٢، ص ٤١٠.

00

أربعــة.. ثلاثة.. اثنان.. و...

كابوس الصفرين آخر قنابل القرن!!!

جيمس فالوز

[١]

تعـود مشكلة عام ٢٠٠٠ المتصلة بالكمبيوتر إلى الخمسينيات والستينيات، عندما قرر المبرمجون استخدام خانتين رقميتين لتمثيل العام بدلا من أربع. فتاريخ إطلاق أبوللو الثانية إلى القمر، على سبيل المثال، جرى تسجيله على برامج وكالة الفضاء الأمريكية على النحو التالي: ٦٩/٠٧/١٦، بدلا من ١٩٦٩/٠٧/١٦. وكسان من الواضح أن المبرمجين في حاجة إلى الاحتفاظ بخانتين رقميتين لكل من اليوم والشهر - أي «٧» بدلا من ٧ فقط للدلالة على شهر يوليو. لكن كل الأسباب كانت تدفع - على مايبدو - إلى الاقتصاد في خانة السنة.

وكان أحد هذه الأسباب هو ارتفاع ثمن ذاكرة الكمبيوتر آنذاك. فالذاكرة العشوائية RAM، وهي الواسطة التي يستخدمها الكمبيوتر في تخزين التعليمات والبيانات للبرامج النشطة، كانت تكلفة الوحدة منها، في الستينيات، مليون ضعف تكلفتها اليوم تقريبا. ويؤكد أحد الاقتصاديين على أنه حتى لو كان من الممكن التنبؤ بكل مشكلات البرمجة التي نعاني منها مع نهاية القرن، فإن اختيار خانتين رقميتين في الخمسينيات كان سيظل اختيارا متعقلا بسبب ما كان يوفره في كلفة الذاكرة في ذلك الحين. لكن كانت هناك أيضا اعتبارات مهمة أقل عقلانية تتصل بالعادة والملاءمة. فقبل عصر أجهزة الكمبيوتر طراز UNIVAC، كانت الوكالات الحكومية والشركات تحفظ المعلومات في الآت جدولة بواسطة بطاقات التثقيب. وكانت البطاقة تسع ٨٠ عمودا فقط من البيانات، والثقب في كل عمود يشير إلى حرف أو رقم، وهكذا كان من المعقول حصر العام في عمودين بدلا من أربعة. وكان كل ما فعله المبرمجون الأوائل هو مواصلة السير على هذه القاعدة. كما أن اختصارا كهذا كان يتناسب مع الطريقة التي عادة ما يتكلم بها الناس ويفكرون. فهم يتكلمون عن صخب العشرينات، وشذوذ التسعينيات، وروح الستينيات والسبعين، ولا يزعجون أنفسهم بالقرن.

وحيث إن قاعدة الخانتين الرقميتين قد استقرت، كان من الطبيعي أن تستمر، حتى ولو على حساب الذاكرة. والصداع الأكبر لصناعة الكمبيوتر هو «التوافق الارتجاعي» backwards compatibility أو التعامل مع «شفرة الميراث» legacy code. فقد يكون من الأيسر على الشركات تقديم حواسب أكثر سرعة، وبرامج أكثر كفاءة، تفوق ما قدمت حتى الآن، إذا لم تنشغل بتوافق كل الأجهزة والبرامج الموجودة بالفعل. إن إضافة «١٩» إلى بداية كل عام مسألة بسيطة بالنسبة لبرامج الكتابة، على سبيل المثال، حيث إن تغييرا في مذكرة واحدة لايؤثر بالضرورة على قدرتنا على فهم ما بعدها. أما بالنسبة لبرامج قواعد البيانات، كتلك المستخدمة في جداول المرتبات أو حجز تذاكر الطائرات، فإن حجم البيانات في كل من هذين المجالين - عدد الفراغات المخصصة لتخزين كل اسم، أو التاريخ، أو أي نوع آخر من المعلومات - جزء من البنية الأساسية للبرنامج. وتغيير المجال من خانتين رقميتين إلى أربع يمكن أن يكون مسئولية كبيرة، يترتب عليها آثار عدة على البرامج وقواعد البيانات التي يجب أن تتغير بدورها بحيث تظل متوافقة معها. والمبرمجون الذين كان باستطاعتهم العمل بدونها، بصورة أو بأخرى، مثل مبتكري ماكنتوش في أوائل الثمانينيات، استطاعوا أن يؤسسوا لتاريخ ذي الخانات الأربع الرقمية منذ البداية (على الرغم من أن هذا لا ينطبق على الجميع: فبسبب التعود عادت التواريخ ذات الخانتين الرقميتين إلى جيل البرامج الجديدة الذي وسم التسعينيات). لكن إذا كان هناك شركة تنسجم أعمالها مع التاريخ ذي الخانتين فلا مبرر هنالك للعبث في برامجها لحين اقتراب القرن الجديد.

ومع اقتراب ذلك الوقت، كان على المبرمجين أن يتأهبوا لمواجهة مجموعة من الصعوبات التي تشكل مجتمعة «مشكلة العام ٢٠٠٠» (Y2K) أو «آفة القرن». وبعض الوظائف ذات التقنية الكمبيوترية العالية ليست حساسة لمسألة التاريخ، وبهذا يمكنها الانتقال إلى القرن القادم دون تعديل. فمنتجات مثل مسجلات الفيديو كاسيت VCR، والمنبهات، وماكينات القهوة الأوتوماتيكية، وغيرها من الآلات الصغيرة تعمل بواسطة شرائح كمبيوترية. لكن ليس من وظائفها ضبط الوقت أو التاريخ الحقيقي. وهذا مايجعلها غالبا تصدر ومضات تشير إلى «١٢:٠٠»، ولاتتأثر بحلول الأول من يناير. والسيارات الحديثة تحتوي على المئات من شرائح الكمبيوتر التي تتحكم في الموتور والفرامل وتتولى حساب موعد إجراء الصيانة. لكنها دائما ما تحسب الوقت عن طريق عد الأيام أو الساعات التي تدور فيها السيارة، لا بالاعتماد على تقويم مطلق. فهي تعرف كيف تصدر إشارة «حان موعد الصيانة» عندما يصل عداد المسافات إلى ٣٠ ألف ميل، لكنها لاتعرف بصورة عامة متى يبدأ العام الجديد. وينطبق الشيء نفسه حتى على أكثر الطائرات تقدما، التي تعج بشرائح الكمبيوتر، لكن أنظمتها تحتفظ بتسلسل وقت التشغيل المتراكم بعيدا عن الساعة الحقيقية أو اليوم أو الشهر أو العام.

والبرامج المتصلة بتقويم مطلق يمكن أن تصادف المشكلات عند قيامها بعملية مقارنة في العام التالي. فمقارنة قيمة بأخرى والقيام - من ثم - بتصرفات مختلفة تعتمد على أي القيمتين أكبر، هو أحد العناصر الأساسية في أي برنامج كمبيوتر. وإجراء مقارنات خلال العام القادم لن يكون سليما في أي برنامج يستخدم الخانتين، لأن أحداث ذلك العام - عام ٠٠ - سوف تبدو وكأنها خاصة بالعام السابق على هذا العام .. عام ٩٩.

وسوف يقود هذا، في الغالب الأعم، إلى نتائج لا معنى لها، يعجز البرنامج عن تفسيرها. وعلى سبيل المثال، فعند حساب ما إذا كانت بطاقة الائتمان لا تزال سارية، أو حلول موعد قرض البنك، فإن الكمبيوتر يقوم بطرح تاريخ الإصدار من التاريخ الحالي ليعرف كم عاما مضت. فإذا ما طرحنا تاريخ الإصدار في العام ٩٥ من التاريخ الأخير في عام ٠٠ لحساب الزمن المنقضي، فستكون النتيجة بالناقص (-٩٥ عاما). وبالاستناد إلى الكيفية التي كتب بها البرنامج، فإن القيمة الناقصة للزمن المنصرم إما أن تؤدي إلى سلسلة من النتائج الخاطئة أو توقف البرنامج. وفي أي من الحالتين فإن الكمبيوتر لن ينجز مايريده المستخدم. وهناك أنواع لاحصر لها من الطرق التي يمكن عن طريقها للعام ذي الخانتين الرقميتين أن يوقف البرامج أو يجعلها تقدم بيانات خاطئة، وكأنها ناجمة عن ظهور وقائع المستقبل وكأنها حدثت في الماضي

وتعد حسابات السنوات الكبيسة أحد التعقيدات ذات الخصوصية التي تزيد من مشكلة العام ٢٠٠٠. فالسنوات التي تقبل القسمة على أربع هي، بالطبع، سنوات كبيسة. ومن المثير للدهشة أن السنوات التي تقبل القسمة على ١٠٠ ليست بالضرورة سنوات كبيسة - فالأعوام ١٨٠٠ و١٩٠٠ عدد أيام كل منها ٣٦٥ يوما. (وهذا ضروري للتوفيق بين التقويم الجريجوري الحديث وبين التوقيت الفعلي لدورة الأرض السنوية حول الشمس.) لكن السنوات التي تقبل القسمة على ٤٠٠ هي سنوات كبيسة. ومن هنا فإن العام ٢٠٠٠، الذي يقبل القسمة على ٤٠٠ ستكون عدد أيامه ٣٦٦ يوما. وإذا ما قرأ الكمبيوتر ٢٠٠٠ باعتبارها «٠٠»، مفترضا أنها ١٩٠٠، فسوف يحسب تلك السنة باعتبارها ٣٦٥ يوما، ومن ثم يرفض قبول ٢٩ فبراير التالي أو ٣١ ديسمبر (اليوم السادس والستين بعد الثلاثمائة من العام ٢٠٠٠) كقيم صحيحة.

وبناء على هذا فإن حل مشكلة العام ٢٠٠٠ واضح: التوصل إلى كل مجالات التاريخ ذي الخانتين، وتحويلها إلى أربع خانات، وإدخال «١٩» أو «٢٠»، بصورة ملائمة. ومن الوجهة العملية، فإن هذا قرار ضخم ومضجر، لأن

Y2K: The Millennium Bug

(مشكلة الكمبيوتر عام ألفين.. جرثومة الألفية الثالثة)

Don L. Tiggre

Xlibris Press. 360pp. 1999.$25

مجالات التاريخ يمكن أن تكون مطمورة بطرق غامضة شتى في أنواع من البرامج لا حصر لها. وقد نشرت كل شركات صناعة البرامج الكبرى تقريبا معلومات عن جهودها في كيفية إصلاح مشكلة العام ٢٠٠٠. ونظرة على هذا تعطي فكرة عن مدى ضخامة المهمة.

وإضافة إلى جهود تنقية البرامج نفسها، حيث ضيق الوقت هو العقبة الرئيسية، هناك استحالة تقرير عدد الشرائح المطمورة والمشفرة بطريقة تسبب مشكلة العام القادم، في وقت قصير. فعلى اتساع العالم، هناك حوالي ٥٠ بليون من الشرائح الدقيقة تدخل في بنية الأجهزة الطبية، وأجهزة التحكم في المنشآت الصناعية، ومعدات النقل والملاحة، وأنظمة التدفئة والتبريد، وكل ما يعزز الحياة الحديثة. وهناك قسم ضئيل - يقدر بحوالي ١ - ٢٪ - من الأجهزة والبرامج تم تصميمه بعمليات تقويم داخلية تسبب الأخطاء في العام التالي. وشرائح أكثر الأنظمة حيوية، مثل تلك التي تتحكم في توليد الطاقة، وغرف العناية المركزة، والطيران وغيرها، تم اختبارها وإصلاحها إلى حد كبير. لكن أحدا لن يعرف عدد الشرائح التي تحتاج إلى علاج قبل أن يظهر الخلل في أدائها.

إن كل من كتب أو تحدث عن المشكلة يتفق على أن بعض أنظمة الكمبيوتر سوف تختل وظائفها العام القادم، وأن ذلك يعود، ببساطة، إلى وجود الكثير من الشفرات في العديد من الأماكن ينبغي الوصول إليها وإصلاحها في الوقت المناسب. أما ما يثير الدهشة فهو الاختلاف البين حول مدى خطورة عواقب هذه الأعطال.

وأول المظاهر المثيرة في هذا الجدل هو ذلك التفاخر باللامبالاة من جانب جماعة التقنيين. فهؤلاء، الأغزر معرفة بثقافة الكمبيوتر، يبدون أكثر الناس استرخاء تجاه ما سيحدث في الأول من يناير. وعلى مدى ستة شهور من التقصي، لم أصادف مديرا أو مبرمجا محترفا يظهر اهتماما جديا بالنتائج المترتبة على مشكلة العام ٢٠٠٠، فكلهم يقرون بحتمية حدوث نوع من الاضطراب؛ ولكنهم يرفضون إمكانية حدوث أعطال واسعة النطاق أو ذات قيمة. وعندما سألت تشارلز سيموني، وهو أهم مصممي البرامج في ميكروسوفت، عن مدى اهتمامه بالمشكلة، أجاب: «صفر». سيكون الحال مثلما حدث في موجة «سقوط سكايلاب». ويقول رئيس فريق مواجهة مشكلة العام ٢٠٠٠، بإحدى كبريات شركات البرمجة: «أنا شخصيا لا أقوم باستعدادات خاصة ولا أتوقع مشكلات ذات قيمة في الأول من يناير». ويقارن اريك شميت، المدير التنفيذي لشركة «نوفل» للبرمجيات، بين الضجة المثارة حول مشكلة العام ٢٠٠٠، وتلك التي أثيرت حول مونيكا لوينسكي، ويقول: «ستحدث المسألة قدرا من الإثارة، لكنها لن تعني الكثير». لقد كان الخبراء على خطأ من قبل، فيما يتصل بمجال عملهم. ومن المحتمل أن تسفر فئة المحترفين، بعد شهور قليلة من الآن، عن حماقة. لكن هناك، فيما يبدو، سببين رئيسيين وراء نظرتهم هذه.

أول هذه الأسباب هو أن مصممي البرامج، بصفة خاصة، وصناعة البرامج، بصفة عامة، يعتقدون بقدرتهم على مواجهة ذلك عند الضرورة، بالرغم من أن المواعيد النهائية عادة ما تفوتهم. وهناك بديهية غالبا ما يُستشهد بها في النقاشات المتصلة بالمشكلة، مؤداها أن معظم مشروعات تطوير البرامج تستغرق وقتا أكبر من المخطط لها. وهكذا، فإنه برغم ادعاء الخبراء بقرب التوصل إلى حل مشكلات العام ٢٠٠٠، فإن الأمور ستكون أسوأ، على ما يبدو، بحلول الأول من يناير. ويجيب مصممو البرامج بأن هناك فرقا شاسعا بين التخطيط لمنتج تجاري عادي، وبين استكمال العمل في مشكلة عام ٢٠٠٠. فإذا كان البرنامج العادي يخرج إلى الأسواق بعد شهر أو حتى عام من الموعد المقرر، فإن هذا يشكل إزعاجا لكنه لا يشكل كارثة. لقد تأخرت النسخة الجديدة من الملاحظات R5، لكن هذا تحديدا كان ميزتها التنافسية - فقد جعلها هذا التأخير آخر برنامج Office من ميكروسوفت. وغالبا ما يكون التأخير بهدف التخلص من الإنتاج القديم، وتوفير الوقت اللازم لإنتاج واختبار منتجات جديدة.

على عكس ذلك، فإن آخر موعد للانتهاء من أعمال عام ٢٠٠٠، موعد حقيقي، ومصممو البرامج يتعاملون معه بعقلية غرفة الطوارئ، التي تحل المشكلات الملحة الآن وتؤجل التفاصيل الدقيقة لما بعد. وخطوات عمل البرنامج العادي تتشابه مع خطوات نشر الكتاب، حيث يكون آخر موعد هدفا وليس ضرورة واجبة. بينما العمل في حل مشكلات العام ٢٠٠٠ مثل نشرة أخبار التليفزيون المسائية. فأنت إذا استقرأت المواعيد النهائية التي لا تتحقق في عالم صناعة الكتاب، تسري لديك الاعتقاد بأن نشرة التليفزيون المسائية لن تذاع في مواعيدها - لكنها تأتي دائما في نفس الموعد لأنه موعد نهائي حقيقي.

ويذهب مصممو البرامج إلى ما هو أكثر من التأكيد على أن باستطاعة زملائهم إنجاز الجزء الأهم من العمل في الوقت المقرر، وذلك بادعائهم أن صناعة البرامج قد أنجزت ذلك بالفعل. وهم يدعون بأن نقلة العام ٢٠٠٠ لن تأخذ شكل قصفة رعدية ليلة رأس السنة القادمة، كما تفترض الكثير من سيناريوهات الكوارث. فالعملية جارية بالفعل، من خلال مراجعة أعداد لا حصر لها من البرامج التي عليها أن تتعامل مع التاريخ مستقبلا - وهكذا تتم النقلة بسلاسة تثير الدهشة.

وهناك العديد من النظم الصناعية والمالية التي تتعايش الآن بالفعل مع هذه النقلة، ويحدث هذا دون صعوبات تذكر. ونظم حجز الطائرات تعمل لـ ٣٣٠ يوما قادمة. ومنذ أبريل، وهي على علم بأن رحلة محجوزة في عام ٩٩ يمكن أن تنفذ في عام ٠٠. وقد صدرت مصنفات واسطوانات ذات تواريخ صلاحية في القرن القادم. وفي الأول من مارس بدأت السنة المالية ١٩٩٩ - ٢٠٠٠ لحكومتي ولاية نيويورك واليابان، دون مشكلات ملحوظة تتعلق بمشكلة الألفية الجديدة. وفي التاسع من أبريل من العام الحالي لم تشهد أنظمة الكمبيوتر في العالم أية مشكلة، وهذا أمر له دلالته لأن ذلك اليوم كان اليوم ٩٩ من عام ١٩٩٩. ويستخدم مصممو البرامج، أحيانا، أرقاما مثل ٩٩ أو ٩٩٩ أو ٩٩٩٩ كقيم صامتة تشير إلى انتهاء عملية من العمليات. وفي برنامج بسيط، فإن أمرا مثل «ن = ١ إلى ٩٩٩٩، موافق»، يعني أن هناك عملية يجب تنفيذها ٩٩٩٩ قبل التوقف. ومن ثم فإن البرنامج الذي يقبل داخليا يوم ٩ أبريل باعتباره ٩٩/٩٩ أو ٩٩٩٩ يواجه مشكلة. لكن من الواضح أن ذلك لم يحدث إلا في حالات قليلة.

وهناك ما يكفي من الصعاب المتوسطة، في أجزاء غير قليلة من العالم، تشير إلى استمرار قدر من الفوضى حتى العام الجديد وما بعده. فمنذ عامين قامت شركة كريزلر بتشغيل مفتاح متوافق مع مشكلة الألفية بإحدى منشآتها الإنتاجية، مع ضبط الساعة الداخلية لحواسبه على عام ٢٠٠٠، لمعرفة إذا كان سيعمل أم لا. وكانت النتيجة أن آلات صنع السيارات نجحت في القيام بوظائفها، بينما أخفقت أنظمة أمن المبنى، ولم يفلح الموظفون في فتح الأبواب إلا بعد مرور عدة ساعات. وحدث شيء مشابه لمدينة لوس انجلوس، عندما انقطع التيار الكهربائي عن سيتي هول، أثناء اختبار لبرنامج متوافق مع مشكلات العام ٢٠٠٠، وظل حبيس المصعد لفترة. وفي الأول من يناير من هذا العام تعطل برنامج قراءة جوازات السفر بالمطارات السويدية الرئيسية؛ وكذلك الحال بالنسبة لبرنامج قراءة كروت الائتمان بمحطات الغاز في النرويج. وهي أعطال استغرق إصلاح كل منها عدة ساعات.

مثل هذه الأعطال سوف تتزايد مع بداية القرن، ولسبب أكثر أهمية. فـ «أكبر المشكلات سوف تواجه المنظمات والأفراد عندما تكون هناك نقطة تقاطع بين الاعتماد على نظم مطمورة ونقص في البرامج المعدة للتعامل مع

00

مثلما فعل الخوف من الإرهاب، أفرخت التوقعات المتعلقة بمشكلة العام ٢٠٠٠ صناعتها الخاصة بها من المستشارين والناصحين الذين يتراوحون بين الخبراء الحقيقيين والباعة الجائلين. وسيذهب الجزء الأكبر من الـ ٦٠٠ بليون دولار المقدر إنفاقها لإصلاح المشكلة على مستوى العالم إلى شركات صناعة البرامج.

مشكلة الألفية». كما أخبرتني جين شيلدون، خبيرة الاختبارات والمسئولة عن تجهيز برامج أوفيس - ميكروسوفت لبرامج الألفية. وهي تضيف: «إذا كنت تجهز أن الجهاز في مصنع التجميع الذي تملكه يقيس سرعة خط التجميع عن طريق حساب الوقت المنفق في تجميع القطعة فإن خط إنتاجك سوف يتوقف عندما يصبح الوقت المنفق بالناقص». وهي تشير إلى أن مثل هذه الإخفاقات المتمركزة يمكن تصحيحها ببساطة عن طريق إغلاق أجهزة الكمبيوتر التي تتحكم في خط التجميع وتحميل البرنامج من جديد. (وهذا يعيد عداد الوقت المنقضي إلى وضع الصفر. وهكذا ننتقل كل القيم إلى العام ٠٠، لنحاشي مشكلة الوقت المنقضي بالناقص.)

وخلال العديد من الجلسات التي عقدت هذا العام، تكرر على مسمع «لجنة مجلس الشيوخ الأمريكي الخاصة بمشكلة تكنولوجيا العام ٢٠٠٠» أن أكثر مشكلات العام ٢٠٠٠ صعوبة هي تلك المتوقع حدوثها خارج الولايات المتحدة. فشبكة الإنترنت العالمية مصممة بحيث تستمر في العمل حتى في حال تعطل بعض أجهزة الكمبيوتر أو الشبكات المحلية المتصلة بها. لكن ما لا يمكن التنبؤ به الآن هو إلى أي مدى سيجيء بها البطء والانقطاع إذا ما أصاب الخلل أنظمة ما وراء البحار، أو تعثر الاتصال بالشبكة داخل الولايات المتحدة. على أن أهم تحذير، خلال جلسات الاستماع، كان ذلك الذي أطلقه لورنس جرشوين، الضابط بالمخابرات المركزية الأمريكية. فقد شرح كيف أدى انقطاع التيار الكهربائي في الإمبراطورية السوفيتية السابقة إلى أعطال مأسوية في مشروعات الطاقة النووية القديمة السوفيتية التصميم. ومن بينها مفاعل لا يزال يعمل في تشيرنوبل.

وتفترض تداعيات الكوارث المحتملة سلسلة من الإخفاقات المتصلة بها، مثلما يحدث عند سقوط قطعة من قطع الدومينو. فانقطاع التيار حدث، في المقام الأول، بسبب عدم حل كل المشكلات المتصلة بالألفية في شبكة الطاقة. ومن الطبيعي أن يؤدي انقطاع التيار إلى توقف المشروع عن العمل - وإن كان ذلك قد يجعل الأداة المسئولة عن التوقف الآمن عاجزة عن أداء مهمتها في حالات معينة. وعلى سبيل المثال، أفاد جرشوين بأنه في نوع معين من المفاعلات التي تبرد بالماء، يطلق عليه اسم RBMK، فإن انقطاع التيار أو تعطل الكمبيوتر ينشط نظام الأمان فيبدأ المفاعل الانتقال إلى وضع التوقف تلقائيا. لكن التوقف التام يحتاج إلى مضخات تبريد، تعمل لعدة أيام، للتخلص من الحرارة الزائدة في قلب المفاعل. والمضخات تعمل بالطاقة الكهربائية، التي يمكن توفيرها، في حالات الطوارئ، عن طريق مولدات الديزل الموجودة في المشروعات النووية. لكن إذا لم يتوافر للمشروع وقود الديزل الكافي لتشغيل المولدات لعدة أيام، فقد يترتب على هذا انصهار القلب.

ويحرص جرشوين على تلقي اتصالات تليفونية حول مثل تلك الاحتمالات. وفي مؤتمر صحفي للمخابرات المركزية، في يوليو، قال أحد المسئولين إنه «يواصل متابعة» الموقف. فالمخاطر التي يمكن توقعها مسبقا - مثل نقص وقود الديزل - يمكن تفاديها. لكن احتمال الانصهار، برغم أنه بعيد الاحتمال، لا يمكن السيطرة عليه حال حدوثه.

ويطرح جرشوين توقعا أكثر سوءا: الفشل في حل مشكلات العام ٢٠٠٠، في أنظمة الدفاع الاستراتيجية قد يقود روسيا أو الولايات

كـابوس الصفـرين

المتحـــدة إلى إطلاق صـــواريخ نووية. لكن التعليقات اللاحقة من جانب مسئولين آخرين، بعد الاهتمام العالمي المكثف بالمشكلة، تقلل من احتمالات خطر كهذا. وقد أخبرني جاك جريبن، الناطق باسم «المجلس الرئاسي بخصـــوص التحول لعام ٢٠٠٠»، أن «انطلاق الصواريخ النووية من تلقاء نفسـها بسبب مشكلات الألفية، أمر بعيد الاحتمال». وعندما أبديت دهشتي، استطرد قـائلا: «إن هذا لن يحدث. المسألة تحتاج إلى تدخل الإنسان. إنها لايمكن أن تطلق نفســها. إن هناك ترخيصـات بكل الأوامر المطلوب تنفيذها ـ وفي حالة أي عطب فإنها تتعطل بدلا من أن تنطلق». وحتى أثناء القتال في كوسوفو، كان الجيش الأمريكي يعمل مع نظرائه من الروس من أجل نشر المراقبين على جانبي مقار القيادتين بحلول ٣١ ديسمبر، وضمان الاتصال التليفوني بينهم للتأكد من عدم شن أي هجمات مفاجئة.

إن أكثر نتائج مشكلة العام ٢٠٠٠ إثارة للقلق وأكثرها توقعا، هي حرمان مدينة أو منطقة من الطاقة الكهربائية. ومن المتوقع أن يكون هذا هو حال جميع الأمم الأكثر فقرا، مع استثناءات قليلة، حيث تسهيلات برمجة الكمبيوتر محدودة، ولن تستخدم إلا بعد حدوث العطل بالفعل، في بعض الحالات. والحقيقة المؤسفة أن نفس المجتمعات لايمكنها الاعتماد على الطاقة الكهربائية في أفضل الأحوال ـ ولا هي متصلة بشبكات طاقة دولية تجعلها تعطل أنظمة أمم أخرى معها. إن نتائج إخفاق الألفية قد تكون قاسية عليهم، لكن تأثيرها لن يختلف عما يعانونه الآن بالفعل بسبب الأعطال المتكررة للخدمات الكهربائية.

[٢]

إن أهم جوانب مسألة العام ٢٠٠٠ هي أن المشكلة المتوقع أن تثيرها قد تقع فعلا وقد لا تقع. وحتى لو ثبت أن هذه المشكلة بسيطة، كما يتوقع معظم الخبراء الآن، فإن الجهود المبذولة لتفادي عواقبها قد جعلت منها أكبر حدث تجاري وسياسي وثقافي.

ومثلما فعل الخوف من الإرهاب، أفرخت التوقعات المتعلقة بها صناعتها الخاصة بها من المستشارين والناصحين، الذين يتراوحون بين الخبراء الحقيقيين والباعة الجائلين. وكان أول الانتعاش في أوساط مصممي البرامج المحنكين في لغات الكمبيوتر القديمة، وبالذات COBOL، التي بدأت فيها المشكلة. فالجزء الأكبر من الـ ٦٠٠ بليون دولار المقدر إنفاقها لإصلاح مشكلة الألفية على مستوى العالم، سيذهب، بصورة أو بأخرى، إلى شركات صناعة البرامج، وللإنفاق بالأساس على عمل برامج تعفي العميل من التخلص من البرامج القديمة المختفية في سراديب جهازه. وعملية إعادة تدوير أموال إصلاح الكمبيوتر تلك في أحضان التقنيات العالية High - tech يفسر لماذا أصبحت مشكلة الألفية مصدرا للإثارة، بدلا من أن تكون عقبة تحتاج إلى حل. وعلى النقيض من هذا (حسبما يشير مينش رانكليف، من مجلة ZDNet) فإن انهيار الأسواق الآسيوية ترتب عليه ضياع ٣,٥ تريليون دولار من الأرصدة العالمية خلال بضعة شهور من عام ١٩٩٨، وهي خسارة فادحة.

وتقدير تكلفة إصلاح مشكلة الألفية بـ ٦٠٠ بليون دولار مصـــدره «جـارتنر جـروب»، ومركزها ستانفورد بولاية كونكتكت الأمريكية، وهي أكثر المؤسسات الاستشـــارية تصديا للمشكلة، وأكثرها إثارة للجدل. ويشمل هذا الجدل احتمال التقدير المبالغ فيه للتكلفة وتأثير برامج الإصلاح. وهذا الجدل يجتذب العديد من المجلات المتخصصة ومواقع على الإنترنت، وتتراوح الآراء بين التقليل من شأن المشكلة وبين التشـــاؤم التـــام، بل إن هناك من بنوا شهرتهم على هذا التشاؤم على ما يبدو.

ويعتبر إدوارد مارديني الرئيس الاقتصادي لدويتش بانك، من أبرز وجوه الفريق الأخير، فقد ظل، على مدى العامين الأخيرين، يتنبأ بأن «أسوأ ركود عالمي» سوف يبدأ مع يناير القادم. وفي البداية، قال مارديني أن هناك احتمالا بنسبـــة ٧٠٪ لأن يكون الانهيـــار الناجم عن مشكلة العام ٢٠٠٠ شبيها بذلك الذي أعقب الهزات النفطية في أوائل السبعينيات؛ وهو حاليا يخفض النسبة إلى ٦٠٪. والسبب، في رأيه، هو فوضى «النظام العالمي للتصنيع الآني»، الذي يوفر المكونات لحظة استخدامها بالضبط، بهدف توفير النفقات.

لقد أصبح الإجماع العالمي في المجال المالي أكثر دموية في مواجهة من آراء ياردينى. ففي يوليو، على سبيل المثال، صدر تقرير عن «مريل لنش» للأبحاث العالمية، جاء فيه أن المشكلة «الحقيقية» أي إصلاح برامج الكمبيوتر، قد حلت؛ والمخاطرة المالية الوحيدة الملحوظة ـ كما يقول التقرير ـ تجيء من التصرفات المذعورة من جانب المستهلكين والمستثمرين كلما اقترب الموعد.

00

إن أكثر نتائج مشكلة العام ٢٠٠٠ إثارة للقلق وأكثرها توقعا هي حرمان مدينة أو منطقة من الطاقة الكهربائية. ومن المتوقع أن يكون هذا هو حال جميع الأمم الأكثر فقرا مع استثناءات قليلة حيث تسهيلات برمجة الكمبيوتر محدودة ولن تستخدم إلا بعد حدوث العطل بالفعل.

وإذا ما مر يناير القادم دون حوادث، سيجد إدوارد مارديني تفسيرا يقدمه. لكن هذا التبرير يمكن أن يكون أنه وزميله خساندراس قد أنقذا العالم، فاهتمام المحذرين وعنايتهم هي التي دفعت الشركات والحكومات إلى الانخراط في جهود الإصلاح عندما كانت الفرصة لاتزال سانحة.

وكان خبير مشكلة الألفية، ذو الاسم المتشابه، إدوارد يوردون، موجودا بالفعل منذ مرحلة «شرح ما يجب عمله». فمنذ منتصف التسعينيات وهو خبير كمبيوتر ثقة، ومؤلف عدد من كتب التقنية الهامة، وخريج جامعة MIT في بوسطن بولاية ماساتشوستس وقد بدأ، منذ ذلك الحين، يحذر من مشكلات العام ٢٠٠٠، وهي ـ حسبما صاغها في موقعه على الإنترنت ـ مسألة «تشغل كل لحظة تقريبا منذ صيف ١٩٩٧». وقد ألقى العديد من الخطب، وقدم شهادته أمام الكونجرس، وينشر كل ما هو جديد بصورة شبه يومية على موقعه بالإنترنت، وأصدر عدة كتب أشهرها «٢٠٠٠.. موعد الانفجار»، بالاشتراك مع ابنته جنيفر. وهذا الكتاب يتضمن سيناريوهات للكساد تستمر لمدة تتراوح بين عقد من الزمان وأخرى لاتتجاوز اليومين، وإن كان يميل إلى توقع الكارثة. وقد انتقل يوردون من نيويورك إلى نيو مكسيكو، لتفادي فوضى المدينة التي ينتظر أن تعقب المشكلة، كما نشر مقالا شيقا يتنبأ فيه باضطرار مصممي البرامج إلى الرحيل عن المدن الكبرى في عام ١٩٩٩، هربا من غضبة الجمهور.

ويعد النشر جانبا آخر من صناعة العام ٢٠٠٠، حيث صدر أكثر من ١٠٠ عنوان حول الموضوع. والاهتمام الأساسي لهذه الكتب هو تقديم النصيحة المالية الشخصية، التي تستهدف الأمريكيين المضغوطين بالفعل، وتقدم لهم الأمل في الاستفادة من محنة الأمة. فكتاب «حقق الثروة مع العام ٢٠٠٠»، يبدأ بملحوظة مفزعة: «إننا على وشك مواجهة أسوأ أيام حياتنا وأكثرها إثارة للجنع». ومن جهة أخرى، فإن «فرص تحقيق الثراء لا يصدقها عقل.. وفي وقت لا ضمان فيه للوظائف، وتتزايد فيه البطالة، ويتهدد المشروعات الإفلاس، وحركة الرهونات تتم بسرعة الصاروخ، يمكنك أن تصبح غنيا!... إنك ستعيش عيشة الملوك...

واستراتيجية حقق الثروة تتضمن بالأساس شراء الممتلكات المتعثرة التي من المؤكد عرضها في مزادات الرهونات، التي ستعقب مشكلة الألفية، ثم تأجيرها بغرض السكنى. وهذا الكتاب وغيره يقدم وثائق ملموسة، مثل حسابات البنوك، والأسهم، والصفقات العقارية قرب نهاية العام؛ لاترتبك إذا تسببت الفواتير في حالة من الفوضى مع بداية العام؛ وادخر كميات إضافية من المواد التي لايمكنك الاستغناء عنها، من تذاكر الدواء وحتى السيولة النقدية. ومع هذا الإلحاح على إجادة تقديم أنفسهم مع تلال من المشروعات، فإن من المستحيل تفادي الانطباع بأن الثراء سيكون من نصيب بائعي النصائح.

وبنك الاحتياطي الفيدرالي، إدراكا منه أن ضمان الحصول على السيولة هو جزء من مثل تلك الاستشارات، يقوم بتوفير سيولته النقدية الإضافية تحسبا لنهاية العام. وقال ناطق باسمها أن الطلب على السيولة دائما ما يكون مرتفعا خلال موسم أجازات آخر العام، ولهذا رصدت الهيئة بليونين من الدولارات لمواجهة احتياجات الموسم. وخطة هذا العام تقضي بتخصيص ٥٠ بليون دولار إضافية تحت الطلب. وهذا المبلغ يعني توفير ٢٠٠ دولار لكل أمريكي ـ وهو مبلغ لايبدو كبيرا بالنسبة لحركة بنكية حقيقية. لكن آلان جرينسبان رئيس البنك لم يبد اهتماما بمسألة العام ٢٠٠٠، وقال المتحدث باسم البنك: «إذا ما دعت الحاجة، يمكن تشغيل مكتب الحفر والطباعة وقتا إضافيا. ونحن على ثقة من قدرتنا على توفير الأموال اللازمة للوفاء بالطلب».

[٣]

وباعتبارها حدثا سياسيا، أصبحت مسألة العام ٢٠٠٠ كابوسا غير مسبوق بالنسبة للديموقراطيين. فهي، بالنسبة لآل جور، يمكن أن تعني أخبارا سيئة. وإذا ما حل العام الجديد وذهب دون مشكلة، فلا أحد سيعتبر ذلك سببا لإعطائه صوته. أما إذا ظهرت مشكلات حقيقية، فإنه لن يفقد القدرة على مجاراة كلينتون فيما حقق من ازدهار فحسب، بل سيصبح كذلك خبير التكنولوجيا الذي راح ضحية فشله التكنولوجي

إن المشكلة الأكثـــر إلحاحا أمام الديموقراطيين، هذا العام، هي التفاوض حول حق التقاضي بخصوص الأضرار التجارية المترتبة على مشكلات الألفية. ففي يوليو، وفي ظل ظروف غير متوازنة، وافق الكونجرس ومجلس الشيوخ على مشروع قانون يصعّب من مقاضاة شركات الكمبيوتر والبرامج إذا ما فشلت منتجاتها من الأنظمة العام القادم ـ وهو ما سوف يحدث دون شك، بصورة أو بأخرى. وبمقتضى القانون، سيتاح للشركات مهلة ٩٠ يوما لمحاولة حل المشكلات قبل أي محاولة للتقاضي؛ وعلى المدعين بذل قصارى جهدهم لتقليل الأضرار بدلا من الاندفاع رأسا نحو المحكمة؛ وينبغي الحد من الدعاوى القضائية؛ والشركات التي يقل عدد مستخدميها عن ٥٠ لايجب أن تتجاوز العقوبة المالية الموقعة عليها، نتيجة الأضرار، عن ٢٥٠ ألف دولار. (ولا قيود على الأضرار التعويضية العادية) والقانون مقدم من جانب الجمهوريين، لكنه لقي مساندة فعلية من المشروعات العاملة في مجال التقنيات العالية. وهو يضع إدارة كلينتون في وضع صعب، لأنه يحرض كتلة يأمل الديموقراطيون في خطب ودها (أقطاب صناعة التقنيات العالية) ضد كتلة أخرى معروفة بولائها الشديد في جمع التبرعات (منظمة محامي المحاكم، التي تعارض القانون بشدة). وبعد الهجوم على القانون باعتباره ضد المستهلك وتحريض حفنة من الديموقراطيين على التصويت ضده، أعلن الرئيس كلينتون في يوليو عزمه على التصديق عليه. ومرة أخرى، ترك جور وحيدا، عرضة للهزيمة: فصناع التقنية العالية لايقدرون التحول الأخير؛ والمحامون وجماعات حماية المستهلك يشعرون بالخديعة.

لقد تركت مشكلة الألفية أثرها كذلك على السياسة، بالمعنى الثقافي الواسع. فمثلما يبدو أولئك القريبون من برمجة الكمبيوتر أكثر

هدوءا. فيما ينحل بتأثيرها، يبدى القريبون من مراكز القوى الحكومية والتجارية والاجتماعية أقل اهتمام بشأن كيفية مواجهة المجتمع للألفية. والذين يدعون بأننا سنواجه آثارا عميقة يميلون إلى الابتعاد عن السلطة.

ويشكل المفهوم الديني حول نهاية العالم مع الألفية جانبا مهما من جوانب الحركة التحذيرية المتصلة بمشكلة الألفية. فمحطات الكابل التلفزيونية الدينية تؤكد على هذا الموضوع بشدة على مدى العامين الأخيرين. وجارى نورث، الأكثر تطرفا في تشاؤمه بخصوص المشكلة، هو صهر أكبر منظرى جماعة «إعادة البناء المسيحى»، الذى يؤمن بأن المجتمع الراهن لابد أن يسقط وتأتى بعد ذلك مرحلة من الحكم التوراتي القويم قبل عودة المسيح إلى الأرض. وهذا مايفسر نغمة التوبيخ في نبوءات نورث. حيث يقول، على سبيل المثال: «اعتقد أن مشكلة العام ٢٠٠٠ سوف تطيح بكل الحكومات القومية في الغرب، ليس مجرد تغييرها، لا.. إنها ستطيح بها تماما. وأنا أعتقد بصدق أن الحكومة الفيدرالية لن تفلت من مصير كهذا. أعتقد أن الولايات المتحدة سوف تلقى نفس مصير الاتحاد السوفيتي. قل عنى حالم. قل متفائل. لكن هذا ما أؤمن به.»

وتمثل رواية «عام ٢٠٠٠: آفة القرن»، لدون تيجر، النواة الصلبة للجناح اليميني بالمعنى الإحيائى. وموضوع الرواية هو أن من يعتمد على المؤسسات المستقرة السائدة التى تتولى توفير المواد الغذائية والمياه والتدفئة والكهرباء وضمان السلامة البدنية، سوف يكون عرضة للهلاك مع بداية القرن الجديد. ولن يبقى على قيد الحياة إلا أبطال يقتدون ب«روكى»، مسلحون برصيد من الدولارات يمكنهم من تكديس الأغذية ومدفعية خاصة موجهة بكمبيوتر (متوافق مع الألفية) لسحق جماهير الجياع التى تسول لها نفسها القيام بأعمال النهب. (المورمون، وهم أعضاء طائفة دينية أمريكية، سيبقون أيضا على قيد الحياة في دولة الصحراء المستقلة). ويقدم الكتاب مشاهد من ليلة رأس السنة القادمة، أذاعت CNN بعضا منها أحيانا. ومع تحرك منتصف الليل باتجاه الغرب عبر فتحة في غطاء السحب، تحتجب المدن وغيرها عن مصادر الضوء. وهذا أصبح أمرا مؤكد الحدوث عندما حل العام ٢٠٠٠ على أوروبا، خاصة عندما اختفت دولة بلجيكا من الوجود. إنك لايمكن أن تخطئ اختفاء بلجيكا: كانت كل الطرق السريعة تضئ الليل لتجعل من بلجيكا واحدا من أكثر الأماكن بريقا على ظهر الأرض، عند رؤيتها من الفضاء. وعندما تعطلت شبكة الطاقة، كانت كما لو أن مياه بحر الشمال الباردة صبت في قلب أوروبا ومحت البلد.

والآن، جاء دور الولايات المتحدة.

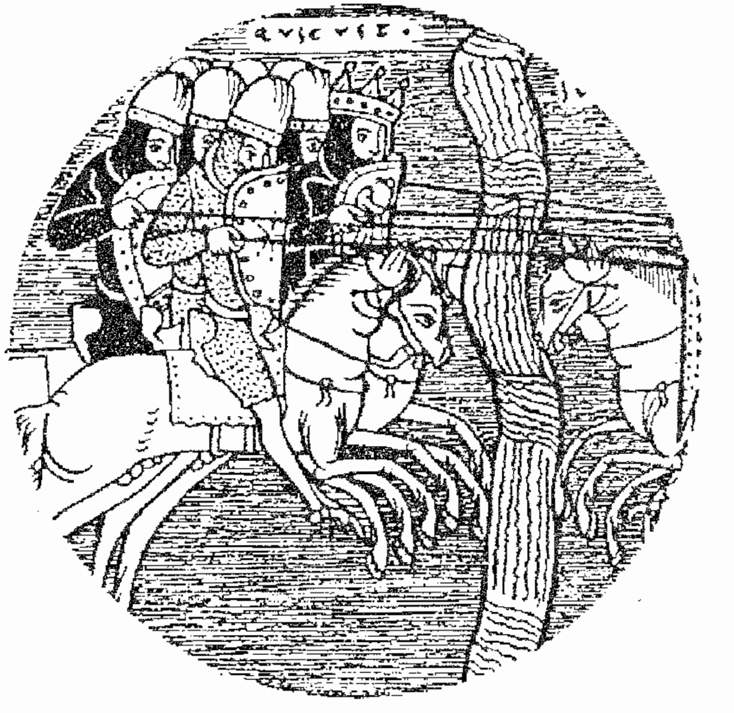
وهناك كتب ومجلات أخرى تروج لنفس الفكرة: الاعتماد على المؤسسة يجلب الهلاك. وهناك كتاب حديث بعنوان «كارثة Y2K: القيامة عام ٢٠٠٠»، يعج بإعلانات عن الأغذية الجافة، وأنظمة تنقية المياه، والمسدسات والذخيرة، ودليل للعيش بعيدا عن الأرض. (لماذا الأغذية المجففة؟ لأن أنظمة الجرد الفورى للمخزون بمحلات البقالة ستتوقف، وتصبح الأرفف خالية من البضائع.) والكتاب يروج لأكثر من دستة من كتب ما بعد الكارثة لجارى بنسون. ومنها «الشراك العشرة الأفضل نجارى»: «بهذه الشراك التى لايعرفها كثيرون، يمكنك اصطياد أى سمكة تشتهيها، والطيور والضوارى، بما في ذلك الوشق والثعلب والذئب والغزال والمنك والراكون والبط. وأكثرها مكرا وخداعا، الإنسان».

إن عدم الترحيب بالوثوق في أجهزة الكمبيوتر الحديثة تبدو حالة محددة من حالات عدم الثقة في الحياة الحديثة ككل. وهذا الموقف هو الشيء الوحيد الذى يمكن - كما يرى الخبراء - أن يحول المشكلات التى من المحتم أن تواجهنا العام القادم إلى فشل اقتصادى وتقنى أكبر. والمسئولة عن الاختبارات ومشكلة عام ٢٠٠٠ في ميكروسوفت تقول إنها لم تدخر غذاء للمستقبل أو تبذل جهدا آخر لمواجهة المشكلات. وهى تقول: «التصرف على غير هذا النحو يكشف عن عدم الإحساس بالمسئولية الاجتماعية». وتضيف: «أنا قلقة كثيرا بشأن الآثار الاجتماعية والاقتصادية المترتبة على الهلع. والثقة في فعالية تكنولوجيا الكمبيوتر جزء مما يجعلها فعالة». والجانب الطريف في اهتمام الناس بالإخفاقات المتتابعة هو أن الذين يعبرون عن اهتمامهم يعتقدون بأنهم قد نجحوا في حل كل المشكلات في نطاقهم. إن الأنظمة المتصلة بغيرها هي وحدها المعرضة للإخفاق. وأنا لاأرى فرقا بين هذا وبين إدراك أن فرامل السيارات ليست كلها سليمة. فقادة السيارات الجيدون على علم بهذا. لكنهم لايمتنعون عن استخدام الطرق العامة بسببها.

ومن هذا المنظور، فإن: كارثة الألفية تكمن في احتمال أن يكون هناك عدد كبير من الناس الذين يعتبرونها - مع اقتراب ٣١ ديسمبر - كارثة فيتلبسهم، فجأة، من المخاوف ما يجعلهم يبيعون ممتلكاتهم، ويكنزون النقود السائلة، وغير ذلك من التصرفات غير المتعقلة. وفرص مثل تلك الانتفاضات من الهلع تتضاءل أكثر فأكثر، لكنها لازالت قائمة. ●

ترجمة: بدر الرفاعى





تسعة قرون على حملة الصليبيين الأولى

دماء على بوابات القدس!

حسن حبشي

مفاتيح القدس سنة ١٠٠٠ وبعدها موجودة في القسطنطينية، القرن العاشر للميلاد.. والطريق إليها لم يكن ممكنا؛ إلا أن يمر بالمدينة التي كانت عنوانا لسطوة الإمبراطورية البيزنطية عبر بوابات الثأر والدم وتصفية الحسابات.

... فالعرب الذين دوخوا أوروبا وحاصروا القسطنطينية في نهايات الألف الأولى للميلاد، وتجرأوا على أن تكون لهم أسنان في عالم لا يعترف إلا بالقوة، وناوشوا وأغاروا، وأصبحت لهم لأول مرة قوة بحرية، لم يحتفظوا بالقمة طويلاً، وجاء دورهم ليضعفوا ويختلفوا وتذهب ريحهم؛ بينما كانت روح صليبية محمومة تجتاح الغرب، وتقدم صكوك الغفران لمن يتطوع بنجدة القدس، وتقدم الوقود لأول حملة اقتحمت بجحافلها أسوار المدينة المقدسة، التي ضاعت مرة قبل أن تنتهي الأعوام الثلاثة الأولى للألف الثانية.. ومازالت حتى الآن في الأسر لأسباب ليس أقلها العجز العربي، بعد ألف عام من ذلك اليوم الدامي في صيف ١٠٩٩.

كان اليوم يوم الجمعة السابع والعشرين من نوفمبر ١٠٩٦، وكان من أيام الشتاء القارسة البرودة، لكن ذلك لم يمنع تجمع حشود كثيفة من شتى الطبقات والأعمار، تلمح فيهم رجال الدين الذين تعرفهم من سيماهم ومن عباءاتهم السوداء وقد تدلت منها الصلبان ما بين صغيرة وكبيرة، كل حسب مكانة صاحبه. كما تلمح جماعات من الفلاحين والعمال والذين تدل ملابسهم الرثة على ما هم فيه من الفاقة، بل والجوع، فأجسامهم هزيلة، وعيونهم قد خبا منها بريق النشاط، وترى بينهم نسوة فيهن من تحمل رضيعها على صدرها تُلقمه ثديها وقد كاد لبنه أن يجف، فانطلق في عويل وصراخ، لا يسكنه غير شدة الجوع والتعب، وكانت أمهاتهم يُدثرنهم بخرقٍ هيهات أن ترد عنهم غائلة البرد الشديد في مثل هذا الصباح.

كما ترى هنا وهناك، بعض الماشية والأغنام والدواجن وكلاب الحراسة.

كان المكان الذي هم فيه أرضا فسيحة منبسطة من بقعة دخلت التاريخ منذ هذه اللحظة لتكون جزءًا حيا منه، نذكره اليوم بعد تسعمائة من السنين، لعل الذكرى تنفع سامعيها، وإن اقضت المضاجع بأمسها الدابر، ويومها الحاضر.

كانت هذه اللحظة من ذلك اليوم نقطة انتقال في حياة الإنسانية في الشرق والغرب، وتعرف هذه البقعة بكليرمونت بفرنسا.

ويلمح الناظر في هذا المكان ناحية، وضع القوم فيها صندوقا من الخشب، ارتقاه رجل ليس ككل الرجال الذين يحيطون به، ولا من تحلَّقوا حوله.

كان رجلا قوي البنية رغم أنه جاوز الستين من عمره، تخشع أبصار من حوله إذ ينظرون إليه مهابةً وإجلالاً، ولكنهم جميعا يصيخون السمع إلى كل كلمة تنفرج عنها شفتاه.

ونسأل من ذا يكون هذا الرجل المهيب فتعلم أنه رأس الكنيسة الرومانية البابا اربان الثاني (...)، وهو من أسرة شريفة، ولد حوالي سنة ١٠٣٥م في ناحية من فرنسا تعرف بشاتيون سير مارن.

كان اربان هذا قد تعلم على يد رجل ترك أثرًا عميقا في نفسه، وقد رفعه معاصروه إلى مرتبة القداسة، واسمه «برونو»، وإن كان الناس لا ينادونه إلا بالقديس، ولم يكونوا مسرفين في هذا النعت. فالحق أنه كان صادقًا في إيمانه، مخلصا لعقيدته، مؤمنا بتعاليم السيد المسيح وتلاميذه، وقد أدرك أن مهمته لا تقتصر على دعوة الناس إلى الطريق الصحيح ليعرفوا طقوس العبادة، ولكن يجب أن تتجاوزها إلى خدمة الكنيسة والتعريف بجوهر المسيحية السمحة كما نادى بها عيسى ولقَّنها لحوارييه، وكما أفشاها تلميذه «بطرس» الذي اعتبره الصخرة التي تُبنى عليها كنيسته، فسمي بهذا الاسم ونسي الناس أنه سمعان بن يونا (متى ١٦:١٧).

وإذ كان هذا مفهوم «برونو» للملة، فقد أدى به هذا إلى تكوين طائفة تابعة لكنيسة روما يطلق على من فيها اسم الرهبان

«الكارثوسيين» Carthusians، وكان مقرهم مدينة «ريمز».

كان إعجاب «إيربان» بهذا الداعية الطاهر «برونو» كبيرًا، وزاد من إعجابه به ما عرفه عنه من مكابدته العناء الشديد مع الكثيرين من أصحاب السطوة والنفوذ والمصالح الخاصة. لذلك ما كاد البابا «إيربان» يعتلي الكرسي البابوي في روما، حتى دعا «برونو» ليكون مستشاره، فلبّاه ـ وهو تلميذه القديم ـ ولكن في ضجر لأنه رأى ـ في هذه المهمة التي ناطها به تلميذه ـ ما يخرجه عن عزلته الروحية ويزج به في محيط يعج بالكذابين والمنافقين والمخادعين. في الوقت الذي يسعى هو فيه أن يتجرد من كل شيء ليوقف نفسه وجهده وجهاده وتكريزه من أجل المسيح، وما له لا يفعل ذلك وهو الواعي لقول السيد إلى تلميذه «.. بع كل ما تملك واتبعني». فبرونو يريد أن يتخلص من كل ما يربطه بالدنيا ومادياتها ليعيش لدعوة عيسى (E. I. Watkin: Neglected Saints).

إن برونو يعرف في تلميذه إيربان إخلاصه وصدقه، وأنه منذ أن انخرط في سلك رهبان كلوني سنة ١٠٦٨، ومنذ اتصاله بالبابا جريجوري السابع (١٠٧٣ ـ ١٠٨٥)، وهو صادق في ولائه للنصرانية، عامل على رفعتها، وأنه من أجل ذلك جاهد الجهاد الحسن.

كان «برونو» يعرف في تلميذه الهدف الشريف، ولكنه كان يدرك أن تلميذه هذا «إيربان» قادر ـ بغير معونته واستشارته ـ أن يقيم الصرح الكنسي عاليا موفرًا.

ولم يعارضه «إيربان» في التخلي عما كان يريده له ومنه؛ لإدراكه أنه إن رفض عرضه فليس عن قلى، ولكن حتى يخدم الدين الخدمة التي يحبها له محبوه الصادقون.

ونعود إلى اللحظة التي يقف فيها إيربان الآن في كليرمونت، فنرى الدافع له هو براعته السياسية. فرأى أن يدعو في هذه الآونة إلى عمل يزعزع مكانة الخصوم سياسيًا ودينيا وشعبيا، ويسحب البساط من تحت أقدام الملوك والأباطرة الذين مالوا إلى الدنيا، ورأى أن يدعو إلى ما عرف في النهاية بالحرب الصليبية التي لم يوجه الدعوة فيها إلى أحد من هؤلاء الأباطرة بل تجاهلهم. وإنما خاطب الأمراء «الإقطاعيين» والنبلاء والأشراف، الذين كان من المفروض أن يكون ولاؤهم لملوكهم فقط. على أن «إيربان» استطاع بذكائه وحنكته وألمعيته السياسية وبراعته في رسم الخطط أن يحدد هؤلاء الأمراء الإقطاعيين، ومن سلك دربهم على أن يلبوا دعوته للخروج للشرق ومحاربة «المسلمين»، وإن لم يذكرهم صراحة. ولكنه قال أن سيوف هؤلاء الأمراء يجب أن توجه لاستخلاص القدس ممّن هي في أيديهم.

ثم إنه دعا الأمراء أرباب السيوف إلى نبذ ما قد يكون بين بعضهم والبعض الآخر من منازعات وخصومات، وإلى تجريد هذه السيوف من أغمادها، وأن تُشهر في غير الساحة الأوروبية. فإن تغلبوا على أعدائهم الجدد الذين يلقونهم لأول مرة، كانت لهم أرضهم وبلادهم ودورهم وما يملكون، وكان أصحابها خدمًا لهم، وحينذاك يقيم «الكبار» الأوروبيون لأنفسهم في تلك البلاد الجديدة إمارات لا يخضعون فيها لسلطان ملك أو إمبراطور، ولكن لرب العالم وكنيسته.

ثم تجاوز «إيربان» هذه الأمور فلوّح لهؤلاء الأمراء بما يستطيعون أن يجنوه من ثمار في الشرق، هيهات أن تتحقق لهم في الغرب الفقير الإقطاعي. وفي ظل تبعيتهم للملوك، ثم إنهم ذاهبون إلى بلاد ممزقة الأوصال بفضل حكامها، وعداوات بعضهم لبعض، وجريهم وراء مصالحهم الشخصية. فما يعني الواحد منهم سوى نفسه، ولا يهمه من يحكمهم، ولا الدين في شيء.

كذلك فإنه استمال «الرعاع» وهم بطبقاتهم المختلفة لم يكن لهم قط حظ من الثقافة أو المعرفة، فهم يعيشون في أدنى مراتب الحياة. لا يملكون لهذه الحياة إصلاحا، وهم راضون بما هم فيه، قانعون بما يصيبونه. ولكن لم يبق لهم من أمل يتمسكون به سوى الدين ـ أو ما فهموه منه ـ ومن ثم ضرب لهم «إيربان» على هذا الوتر الحساس، وأفهمهم أنهم إن اتجهوا إلى هذا الشرق الإسلامي، استخلصوا أقدس موضع وأعز مكان عندهم، وأرضًا شهدت مولد السيد المسيح عليه السلام، وما كابده فيها من عذاب، وما لاقاه من يهودها الذين كانوا يتظاهرون بالدفاع عن مصالح الإمبراطورية الرومانية، وما يبغون في الواقع إلا إيذاء من جاء ليقول لهم «جعلتم بيتي مباءة للصوص».

ثم إن في خروج «العامة» إلى فلسطين نفعًا لهؤلاء الأمراء والعامة، وأي نفع أعظم جدوى من أنهم سوف يتمكنون من «الحج» إلى الأحرام المقدسة، الذي هيهات أن يتمكنوا من أدائه في غير هذا الوقت وفي غير تلك الساعة، ومن غير حاجة إلى مال أو نفقة أو متاع، إذ وقر في أذهانهم أن البلاد المسيحية التي سوف يمرون بها سوف تمدهم بكل ما هم في حاجة إليه، بل وفوق الذي يحتاجونه.

أليسوا حجاج القبر المقدس ومخلص كنيسة القيامة وإخوانهم في الدين؟

أليسوا ماضين للثأر من قوم، صور لهم رجالهم أنهم عذّبوا وأهانوا صاحب الدعوة، وما كان شيء من ذلك حقيقة!

ورأت العامة أنها إن استجابت لدعوة «كليرمونت»، ضربت أكثر من عصفور بحجر واحد في وقت واحد.. فهي تطيع البابا الذي طاعته رحمة ودليل على صدق الإيمان. كما أن في طاعته تخليصا للقدس وكل حرم ديني مقدس.

وَاجْدَتْ هذه الدعاوى الزائفة في طبقات تحلم ولا تعلم، وتُحكَم ولا تَحكُم.. وتتطلع إلى حياة فيها العيش اللذيذ، ومن ثم كانت استجابتهم قوية إلى الخروج، فخرجوا فعُرِفوا بالحجاج، وإن نَعَتَهم الواقع والتاريخ بالحجاج المسلحين، فكانوا بدعة الحجاج. إذ هل يحمل السلاح في سيره وزحفه إلا متربص أو باغي شر بآخرين؟

لقد كان بين هؤلاء الحجاج كثيرون من سفلة القوم ورعاعهم، وقطاع الطرق والمرتزقة، ممن يطلبون الحياة على حساب الآخرين، ويحدثنا واحد من بين هؤلاء الحجاج عما ارتكبه رفاقه «الحجاج» من أمور يعف عن عملها كل ذي خلق شريف، بل إن الأديرة ـ وهي أقدس مكان للعبادة بعد الكنائس ـ لم تسلم من ضراوة هؤلاء «الحجاج» وشراستهم، فارتكبوا من الموبقات والآثام ـ حتى مع الراهبات المتعبدات ـ ما يأبى الإنسان أن ينطق به، فترى ريمون داجيل يقول: «لقد استولينا على الثيران والخيل والحمير.. وسقطت في أيدينا قرية فأضرمنا بها النار، وأحرقناها بسكانها..». ولم يتورع «الصليبيون» عن اقتراف شتّى الموبقات كإضرام النار في البيوت والكنائس..» (كتاب الجستا: أعمال الفرنجة، ترجمة: حسن حبشي).

على أن وراء هذه الظواهر الباعثة على الخروج أسبابا حقيقية لم يكن من الممكن لأصحابها الإفصاح عنها جهارًا، فأما أولاها: فهي أن البابوية ـ كما أشرنا ـ كان يهمها أن تبرهن على أن سلطانها أعلى من كل سلطان على الأرض، وكان سبيلها إلى إظهار ذلك أن لا يشارك في الخروج أحد من الأباطرة أو الملوك، ومن ثم كانت حملة ١٠٩٦ حملة بابوية خالصة في إدارتها العليا وفي توجيهها، ومع أن فيها رجالا كانوا من أشد المتحمسين دينيا كريموند الصنجيلي وجودفري دي بويون، الذي أوقف على الحملة كل ما يملك، إلا أن البابا جعل مرشدها الأعلى رجلا من رجال الكنيسة هو «أديمار» أسقف بوي، وذلك حين اختاره ليكون نائبه في قيادة الحملة روحيا.

كما أن البابا كان يرى في نجاحه في هذه الدعوة نجاحا ذاتيا له في أعين المسيحيين الشرقيين، وأنه ملاذهم الأعلى حين تسحق هذه القوات الغربية المعتدين على إمبراطورية الشرق النصرانية والثأر لهزيمة مانزيكرت عام ١٠٧١، ومحو العار الذي أصابها يوم وقع الإمبراطور «رومانوس الرابع ديوجين» في أسر السلاجقة، فأذلوه أبشع إذلال ومرّغ أنف الإمبراطورية البيزنطية في الطين، وأحس القريب والغريب بأن اللطمة قاتلة، فلما جاء إلى العرش الرومي الكسيوس كومنين (١٠٨١ ـ ١١١٨م)، بعث إلى البابا في روما، راجيا أن يمده بطائفة من المرتزقة يساعدونه في ضرب المخاطرين أمثال «رسل باليون»، و«روبرت جيسكارد» لاسيما الأخير الذي كان قد انتزع باري من أملاك بيزنطة في إيطاليا، ومد ناظريه إلى القسطنطينية ذاتها.

ونقف لحظة قصيرة عند هذه الاستغاثة أو الرجاء من جانب ألكسيوس، فنراها أنها لم ترد فيها الإشارة إلى محاربة المسلمين في القدس، ولا إلى ما يدل على رغبته في حرب تكون القدس غايتها، بل إن مسيرة أحداث الحملة الصليبية دلت على أن الإمبراطور لم يكن مرحبًا بها أبدا.

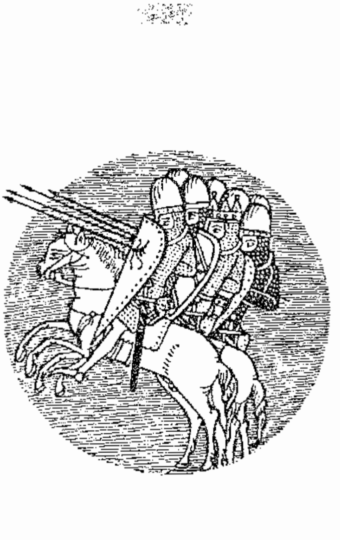
أما من ناحية الأمراء الذين اشتركوا في هذه الحملة، فقد كانوا يعانون عسرا ماديا شديدا، إذ كثروا كثرة واضحة، وأصبحوا يتقاتلون فيما بينهم على رقعة من الأرض لم تكن قابلة للاتساع أبدا في الوقت الذي يتضخم فيه أعدادهم.

لذلك نظر الأمراء إلى الدعوة البابوية من منظور فيه إصلاح أحوالهم، وخلاصته أنهم واجدون في بلاد الشرق الإسلامي أراضي فيها «المن والسلوى»، لا يحسدهم عن جنبيها أحد إذ إن بين حكامها المحليين من التخاصم والمنافسات ما لا يخفيه الواحد منهم عن الآخر.

فإذا خلينا هؤلاء جانبا وجئنا إلى العامة الدهماء، وهم وقود كل حرب في كل عصر ومصر، وجدنا طائفة فقيرة بائسة ـ كما قلنا ـ وهي جاهلة حتى بأبسط ما يمس روحانياتها، وكيف تكون على شيء من المعرفة بالدين الصحيح الذي إن تلقت هذا الكم منه تلقته على أيدي رجال صح أن يقال فيهم إنهم «محترفون». ثم ماذا تطلب من مثل هؤلاء الرجال وقد قل فيهم من يحفظ إنجيله، ولا نقول يدرسه.

وأما المسلمون ـ أو أغلبهم ـ فقد كانت الظروف مواتية ومشجعة على خروج مثل هذه

في صيف ١٠٩٩: أصبح الفرنجة الغزاة على رمية قوس من القدس، وما من أحد يعترض طريقهم. لا أهل البلاد الذين كانوا بلا حول أو قوة، ولا من أصحاب السلطة الذين عرض بعضهم على الصليبيين الأموال والمئونة



الحملة، إذ شهدت هذه الفترة بالذات هزائم للمسلمين في الأندلس، كان آخرهما ما أحرزه ألفونس السادس، ملك قشتالة من انتصارات كثيرة حين استولى على طليطلة سنة ١٠٨٥، أي قبل عقد من السنين من الدعوة إلى الحرب الصليبية في ساحة «كلير مونت».

لم يفت هذا الأمر المأساوي نظر مؤرخ مسلم هو ابن الأثير، الذي استقامت له أدوات البحث والكتابة التاريخية، فنظر في الأحداث نظرة مدقق واع، وربط بين ما هو جار على أرض الأندلس وبين أحداث الشرق، ولم تغرد بعد فلين هزيمة الملك الأسباني أمام قوات يوسف ابن تاشفين أمير المرابطين فيما عرف بموقعة الزلاقة، غير أن الذي جرى في ساحة القتال بين الطرفين المسلم الأندلسي والقشتالي كان أكبر مشجع على الدعوة لمقاتلة المسلمين أينما كانوا، فتكونت جبهة شبه غربية بقيادة ملك أرجونة، ولا نعرض هنا لهذه الجبهة الجديدة إلا لنقول إن روحا صليبية سادت الغرب.

وكانت الحرب الصليبية ـ من وجهة نظر أخرى ـ رد فعل لاستفحال قوة الإسلام منذ ظهوره وانتشاره في بلاد خارج نطاق شبه الجزيرة العربية كمصر والشمال الأفريقي وبلاد الشام، مما أدى إلى التحام السيوف الإسلامية بالبيزنطية، لاسيما إذا أخذنا في الاعتبار أن دولة الروم كانت هي المسيطرة على تلك الأراضي إلى جانب سطوتها ونفوذها في آسيا الصغرى وبين الأرمن.

كذلك ركب المسلمون البحر واصطدمت أساطيلهم بالأساطيل الرومية، ولا ينسى أحد ما كان من الأثر الكبير لوقعة «ذات الصواري»، التي برهنت على أن المسلمين خصم عنيد جبار لا يجوز تجاهله أو الاستهانة به أو التقليل من خطره.

ثم ما كان من المسلمين بعدئذ تجاه قبرص ورودس، بل وتطلعهم إلى القسطنطينية ذاتها. ولم يكن لمثل هذا الأمر أن يحدث لولا أنهم كانوا قد بلغوا مبلغا كبيرا من السطوة الحربية برا وبحرا، استطاعوا به ـ ويستطيعون ـ أن يناطحوا أكبر دولة في عالمهم يومذاك، وتمثل هذا في حملة أنفذها الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، وجعل عليها أخاه مسلمة، فطرقت ـ هي وأخرى ـ أبواب القسطنطينية التي عانت أهوال الحصار برا وبحرا مدة قاربت السنة، ولولا استعمال الروم النار الإغريقية لكان لهذه الحملة خاتمة أخرى غير رجوعها ـ الذي كان بأمر الخليفة ـ إلى قواعدها في بلادها حرصا على أرواح جندها.

على أن ذلك التراجع لم يؤد إلى وقف المناوشات بين الجانبين العربي والبيزنطي، حتى اضطر الأخيرون ـ في لحظة من اللحظات ـ إلى دفع الجزية التي ما كاد يقطعها الإمبراطور تيوفيل (٨٢٩ ـ ٨٤٢م) حتى عاد القتال من جديد بين الطرفين وهو صراع أحس فيه الروم أنهم مهزومون، وأن الدائرة عليهم، وأدركوا الخطر الذي يهدد كيانهم ووجودهم كقوة عالمية في ذلك العصر، لذلك رأى تيوفيل إرسال بعثة لطلب الصلح، لكن لم يُقدر لها إكمال رسالتها نظرا لموت الخليفة العباسي المأمون، وعادت بيزنطة من جديد ترفع رأسها، فأغارت جيوشها على رقعة إسلامية تنتهي عند «زبطرة»، وكانت أول خطوة في مسيرة تاريخية نحو عمورية، وبذلك طرقت الجيوش الإسلامية آسيا الصغرى، وتوغلت فيها توغلا كان يشير إلى أنها عازمة على القسطنطينية ذاتها. Treadgold (W.) Byzantene. ومهما تكن الحروب التي شبت بين الجانبين بعد ذلك، إلا أنها لم تكن تزيد على مناوشات وليست بالوقائع الحاسمة.

وتمضي الأيام والجبهة الإسلامية بين ضعف وقوة، وقوة وضعف، حتى تظهر قوة إسلامية فتية كالسامانية والحمدانية والبويهية وغيرها من تلك القوى أو الدويلات التي انتهبت أجزاء من جسد الدولة العباسية.



أسفر فجر
الخامس عشر
من يوليو ١٠٩٩ عن
جحافل الصليبيين
تدخل المدينة المقدسة،
وتصيب فيها تصيب المسجد
الأقصى، وتطأ خيولهم
أرضه بسنابكها..
وصاح صائح:
لقد دخلوا
القدس

أجل: لقد شاهد القرن السابق لهذه الأحداث صحوة حربية بيزنطية كان من آثارها استيلاء الروم على أقريطش «كريت» زمن نقفور فوكاس (٨٠٢ ـ ٨١١)، وقائده جون زيمسكس الذي تعرفه المصادر الإسلامية العربية باسم يوحنا الشميشيق، ووصل الإمبراطور وقائده إلى حلب، وارتكبا من الفظائع ما سجلته حوليات الجانبين المتحاربين.

والحق أن نقفور فوكاس كانت فيه بداوة وغلظة المحارب الشرس، وكان محبا لسفك الدماء، كما كانت تحركه كراهية انطوت عليها نفسه نحو جيرانه المسلمين، كما هاجم بلاد النهرين، بل إنه جعل من جنده شبه قطاع طرق يتعرضون للقوافل التجارية الإسلامية، كما هاجموا أنطاكية، وساعدته الظروف فمات سيف الدولة الحمداني عدوه اللدود، وخلفه ولده سعد الدولة الذي لم يستطع أن يجاريه، وسار نقفور سيرة الطاغية يجتاح بلاد الشام فما لبثت أنطاكية ـ وكانت في يد المسلمين ـ أن سقطت في أيدي العدو، وكان المتوقع أن يجيء الدور على حلب، لكن المستبد «قرغويه»، عقد هدنة كانت في صالح البيزنطيين أكثر مما هي في صالح المسلمين، إذ هادنهم ودفع لهم مالا كثيرا ليأمن غائلة شرهم.

على أن ذلك كله واكب دخول الفاطميين مصر وإقامتهم دولة لهم بها، تخاصم الخلافة العباسية، فكان ذلك إيذانا بانقسام خطير زاد من تفكك الجبهة الإسلامية التي زاد من انقسامها قيام «أفتكين التركي» التابع لبغداد بالاستيلاء على دمشق.

حدث كل هذا قبل قرن وربع قرن من الحرب الصليبية الأولى، واشتدت قوة بيزنطة وصار لها نفوذ ملحوظ في بعض بلاد الشام التي أصبحت بين شقي الرحى: من البيزنطيين والفاطميين، وإن استطاع الأخيرون ـ كقوة فتية ـ أن يثبتوا وجودهم الفعال على مسرح الأحداث.

لم يكن ما جرى في أعقاب ذلك سوى مناوشات فَلَّتْ من حدة البيزنطيين، وواكب ذلك بدايات ظهور قوة إسلامية جديدة من الترك عرفهم الناس بالسلاجقة، نسبة لجد لهم اسمه «سلجوق»، وموطنهم الأصلي بلاد تركستان، فلما أسلموا كانوا دما جديدا قويا يجري في عروق المسلمين، ثم اشتد ساعدهم بظهور واحد منهم هو طغرلبك، الذي استطاع أن يقيم له حكومة في أصبهان، والذي نظر فرأى ما عليه العباسيون من ضعف ملحوظ، وخضوعهم للبويهيين الشيعة الذين زادوا الجرح إيغالا حين قام البساسيري، الذي تصفه المراجع العربية بأنه من الغلمان الأتراك، وقد مالأ الفاطميين على حساب بني العباس الذين لم يجدوا بدًا حينذاك من التماس المعونة من جانب السلاجقة، لدفع خطر البساسيري، فترتب على هذا الوضع صدام بين طرفي المغامرة أفضى إلى انتصار طغرلبك، حتى لقد خُطب في مساجد بغداد باسمه، وذلك بموافقة الخليفة العباسي نفسه: القائم بأمر الله.

هكذا أخذت الأمور تتعقد يوما بعد يوم، وتتراجع كفة ميزان القوى العباسية، وترجح كفة طغرلبك وسلاجقته، وكان ظهور شاو طغرلبك، ظهورًا للقوة الإسلامية في وجه البيزنطيين، إلى جانب تعرض الكثير من الأملاك البيزنطية لأخطار غزو سلجوقي ربما قيل فيه إنه مناوشات خطيرة، حتى إذا حل في القيادة السلجوقية ألب أرسلان، محل طغرلبك سنة ١٠٦٣م، اتجهت الرياح اتجاها خطيرا تمثل في توغل ألب أرسلان في أملاك بيزنطة الموجودة في آسيا الصغرى، لاسيما في أرمينيا وكبادوكيا، وكان ذلك الأمر يعني أن توغلا إسلاميا سلجوقيا راح يستفحل خطره في داخل رقعة الأراضي البيزنطية، وأحس بفداحة نتائجه ـ التي ستكون مريرة ـ الجالس على عرش القسطنطينية حينذاك رومانوس الرابع ديوجين، حين أخذ مقاليد الحكم في يده سنة ١٠٦٨م، والذي كان اختياره وإيثاره بالعرش انعكاسا لما أحسه المهتمون بأمر الدولة عن حاجتها القصوى إلى رجل محارب كفء بعد أحوالها المتردية زمن قسطنطين العاشر دوكاس (١٠٥٩ ـ ١٠٦٧)، الذي أهمل شئون الدولة الحربية إهمالا شجع النورمانديين على اجتياح جنوب إيطاليا واحتلال المجريين بلجراد وعبور البشناق والكومان الدانوب وانتشارهم في البلقان دون أحد يردعهم، ووصول السلاجقة الأتراك إلى آسيا الصغرى، فكانت سياسته خاطئة حتى لقد أخذ ذلك عليه من كان اختاره وزكاه للعرش وهو ميخائيل باليولوجس، لذلك ما إن مات في مايو ١٠٦٧ حتى قام المستونون بإرغام أرملته يودوكيا الوصية على أولاده الثلاثة على الزواج من رومانوس الرابع ديوجين، فتوج في يناير ١٠٦٨، وكان قائدا محنكا ومحاربا عظيما، غير أن الفساد كان قد استشرى وترسخت جذوره بشكل تضيع معه كل محاولة لاجتثاثها.

لقد أدرك رومانوس ديوجين بألمعيته أن الخطر كل الخطر على الدولة، إنما يكمن في السلاجقة الأتراك دون غيرهم، وكان مصيبا في هذا الإدراك وفي معرفة عواقبه الوخيمة، فأبى إلا أن يقضي عليهم، وفاته أن جيشه الذي هو ماض به لقتالهم إنما أكثره مرتزقة، لا يدافعون عن شيء فيه نفع لهم إلا ما يدخل جيوبهم.

لقد أجمع رومانوس على تأديب السلاجقة واسترداد هيبة بيزنطة في الداخل والخارج على السواء، والتقى الخصمان وجها لوجه، حتى إذا كان يوم ١٩ أغسطس ١٠٧١ التحم ألب أرسلان مع رومانوس في مانزيكرت، فوقع الإمبراطور أسيرا في يد عدوه، ولم يقصر الأمر على أن يكون مجرد هزيمة، بل تعداه إلى أن يكون إذلالا معنويا له، زاد من وقعه ما لاقاه من شعبه حين أعاده المنتصر إلى بلاده التي أبت إلا أن تكون خاتمته على يدها خاتمة مهينة.

لكن الذي يعنينا من وجهة النظر الصليبية هو أن هذه الموقعة فتحت الباب على مصراعيه أمام السلاجقة الأتراك فتوجوا هذا النصر بنصر آخر حين احتلوا نيقية، التي كانت مركزًا من مراكز القوى البيزنطية، وأخذت الأمور الداخلية في الإمبراطورية تسير من سيئ إلى أسوأ، وتمثل ذلك في معارك داخلية بين أصحاب السيوف والطامحين الطامعين في حكم البلاد، حتى اغتصب العرش لنفسه ألكسيوس كومنين، الذي كان فريدا في سياسته الداخلية والخارجية وتغلب بحكمته وذكائه ودهائه وسياسته على كل الصعاب، وأقام أسرة ظلت في الحكم مدة جاوزت قرنا، وبعد توليته العرش بخمس عشرة سنة كانت الحملة العدوانية التي شنها الفرنجة على الشرق حيث بلاد الشام وفلسطين وعرفت بالحرب الصليبية الأولى.

كانت واقعة مانزيكرت وما صحبها وتلاها من الأحداث والوقائع هي الخلفية الدعائية التي تذرع بها أربان الثاني في دفع أوروبا لحمل السلاح في وجه الشرق الإسلامي، والحق أن هذه المعركة كانت بين جيشين لا دخل للقدس فيها، فإذا قيل أن البابا تذرع بخطاب استغاثة من ألكسيوس، فما كان خطابه استغاثة، وإنما كان طلبا لمدد ـ كما قلنا ـ بطائفة من الجند، يمكن نعتهم بالمرتزقة، يقاتلون إلى جانب الجيش البيزنطي بكتائبه المختلفة، حتى إذا انتهت الحرب عادوا إلى بلادهم، ولم يرد في خطاب ألكسيوس ما

يستفاد منه أنه مهتم بالقدس. بل إن كتاب الكسياد، لأنا كومنينا خال تماما من كل إشارة ولو بسيطة إلى مثل هذا الأمر، ولم يرد فيه ذكر القدس إلا حين تصل الجموع إلى القسطنطينية. ولكن بصورة لا تحمل المؤرخ على أن يستنطق الكتابة ما هي بعيدة عنه.

لم يكن ألكسيوس - وليس هذا طعنا في إيمانه - بالرجل أو الحاكم أو السياسي الذي يعنيه أمر القدس، بل كان عنده من همّ السلاجقة ما يشغله عن كل شيء آخر وما يكاد يطغى على انشغاله بالأمور الداخلية، ثم إن ألكسيوس لم يكن فيما كتبه إلى أيربان يدعا بين أباطرة بيزنطة الذين سبقوه وحفظ التاريخ لنا رسائلهم إلى الكنيسة الغربية، ومما يدحض زعم البابا أنه بعد موقعة مانزيكرت قام الإمبراطور ميخائيل السابع (١٠٧١ - ١٠٧٩) فاستنجد بجريجوري السابع، وكان صريحا إذ طلب نجدة لضرب السلاجقة، ولم يذكر قط «القدس»، لكن لم يقدر لهذه الاستغاثة أن تجد صدى إيجابيا من جانب كنيسة روما لانشغالها في هذا الوقت بصراعها مع الإمبراطورية الرومانية المقدسة حول ما عرف بالتقليد العلماني Lay Investe-ture، فهدأت الأمور حتى إذا جاء أيربان الثاني، حاول أن تكون له علاقات طيبة مع بيزنطة. وأراد أن تتسم المعاملة باللين واللطف لا الشدة والعنف، لذلك عقد مجمع كليرمونت في نوفمبر ١٠٩٥، وكان محور المسائل المطروحة على بساط المناقشة والبحث هو المشاكل الكنسية الداخلية، وكيفية معالجتها معالجة تؤدي إلى وأد كل ما يدعو إلى الشقاق ويسببه، واستمر العرض والبحث والنقاش والجدل حول مسائل عقائدية بحتة مدة بلغت تسعة أيام سويا، حتى إذا كان يوم الختام للمؤتمر - وهو اليوم العاشر - أشار البابا من غير سابق إشارة أو توجيه منه أو من أحد كبار رجالاته إلى ما يكابده مسيحيو الشرق من معاناة في ظل الحكام المسلمين، وما «علمه» من «معاناة» بيت المقدس، وما يلقاه - كما علم - في ظل الحكام المسلمين، ولم يبين البابا لسامعيه علام يعتمد في كل هذه التهم من وثائق أو رسائل أو اتصالات على مستوى عال تبرر الدعوة للخروج إلى القدس لنجدته، لكن لما كان سامعوه من طبقة تحركها العاطفة، وتستهويها حلاوة اللفظ وحسن إيقاعه، وتتأثر بالانفعالات المؤقتة، فقد اندفعوا رافعين عقيراتهم بأن هذه هي إرادة الله أن يخرجوا إلى القدس، وكان لبلاغته ما حرك قلوب سامعيه فأعلنوا - في عزم بات - على أن يبذلوا الأرواح وما يملكون، وهل يملكون شيئا إلا أرواحهم لنجدة إخوانهم، ثم أي إخوان هؤلاء الذين يسعون لخلاصهم ولم يكن في القدس إلا قلة من المسيحيين. بل إن المحاربين دعاة كليرمونت حين قيضت الحياة لمن بقي منهم إلى الفتح لم يجدوا من المسيحيين إلا نفرا لا يصلحون لأن يكونوا سكان بلد.

على أن أول من تطوع للخروج إلى الشرق كان أديمار أسقف بوي الذي جعله البابا نائبه في هذه الرحلة الحربية. ثم راح البابا يزيد في إغرائه العامة على الخروج والحرب، فأعلن أن الكنيسة سوف تغفر ما تقدم من ذنوب من يخرج للحرب، أيا كانت ذنوب هؤلاء الخارجين وخطاياهم، فكان ذلك ماءً قراحا لألسنة حرى أمضّها الظمأ، ورأت الدهماء وطبقات المجتمع الدنيا خلاصا من آثامهم وجبًا لها، وكان فيهم - كما قلنا - لصوص وقطاع طرق وسفكة دماء ومغتصبون، وأقوام يعف المرء الصالح عن مسايرتهم ومعايشتهم إلا أن يقضي عليه في أيام محنة لا يستطيع دفعها.

أما البابا فلم تكن تعنيه مكانة من يخرجون، وإنما الذي يهمه كثرة من يخرجون.

وكأن البابا أسكرته نشوة انتصار دعواه في كليرمونت، فانطلق في الشهر التالي - ولمدة ستة أشهر تالية - يدعو للحرب في شتى الأماكن والبلاد الأوروبية التي يبلغها، حتى استجابت له جنوة، وهي ذات الأساطيل الكبيرة، فكانت أول جمهورية إيطالية بحرية لبت النداء واستجابت للدعوة البابوية. وكانت بعيدة النظر تعمل على خدمة مصالحها الذاتية، إذ سنراها تجني ثمار موقفها في حصولها على امتيازات تجارية في فلسطين إثر انتهاء هذه الحرب الكالحة.

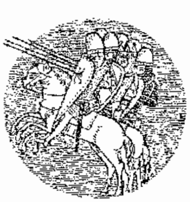
أما العامة فقد وجدوا أكبر محرك لهم في رجل ديماجوجي نعرفه ببطرس الناسك وما نرى دماء كثيرة من هلكى هذا الخروج إلا معلقة برقبته ويده.

لم يكن بطرس هذا بالناسك، وإنما هو نعت يبرأ منه النساك. حتى أن قاموس القديسين لبنجوين الصادر حديثا لم يدرجه بين النساك أو القديسين الذين مهما كانت آراء بعضهم. إلا أنهم كانوا رجالا لا يملك الإنسان إلا احترامهم وإن اختلف في الرأي معهم اختلافا كبيرا. غير أن هذا البطرس الذي ليس بناسك نجح في إثارة الرعاع واستحوذ على ألباب العامة والدهماء حيثما ذهب وأتى وحل، وتهافت الناس عليه ملبين دعوته في الخروج وهم لا يدركون مدى الأخطار التي تعترضهم. ولا عظم المسافة التي لابد أن تفصلهم عن الموضع الذي تهوى نفوسهم الذهاب إليه. ولا أي البلاد والأقطار التي عليهم اجتيازها. وماذا تطلب من قوم لم يخرجوا من الإقطاعيات الصغيرة التي يملكها ويملكهم هم أنفسهم سيدهم الإقطاعي، والتي ما كان لهم أن يتجاوزوها حسب النظام الإقطاعي السائد.

وأغرى نجاح بطرس رجلا آخر اسمه وولتر المفلس Walter the Penniless، فاتبعه واتبعت صحبه الألوف المؤلفة وهي جاهلة بأصول الحرب وفنون القتال، وإنما اندفعوا يحركهم الجهل المطبق، وما كان ينبغي أن يؤذن لهم بالحرب مما ندين به البابا أيضا. فقد كان عارفا بكل شيء عن العدو، وكان قادرا على أن يمنع أتباعه حتى يضمن ألا يصيبهم ما أصابهم. فقد كان ما أصاب المحاربين من أهل هذه الطليعة حتى بلوغهم آسيا الصغرى - وقبل أن يحققوا أي نصر - نكبة ألمت بهم حتى بلغ من إنكار بطرس الناسك أن قر ناكصا على عقبيه وترك أتباعه الذين صدقوه يلاقون أسوأ صورة من الهلاك.

لقد خرجت جموعهم الغفيرة وفيها النساء والأطفال والعجزة ومن لم يسبق لهم الخروج من الأرض الإقطاعية التي عاش فيها أجدادهم وآباؤهم وعاشوا هم فيها وأولادهم لكنهم ساروا، فلما بلغ الأحياء منهم القسطنطينية لم يأذن لهم ألكسيوس الأول بالتقدم حتى يصل قائد جماعتهم بطرس الناسك الذي كان لاختياره الطريق البري، ولم يكن معه ومعهم من المال ما يدفعونه لاستئجار السفن - الحول كان لاختيارهم هذا الطريق البري أثره الضار، فاشتد بهم الجوع بل وأهلك الكثيرين مما حملهم على أن يسلكوا كل طريق مهما تكن بشاعته، ولا يرضى عنه الرجل العادي، بله كل ذي خلق ودين، فامتدت أيديهم بالسلب والنهب ولم يقيموا وزنا للأديرة ولمن فيها. ونهبوا القرى والضياع وأفسدوا الزروع وأضروا بالضروع.

كان غضب ألكسيوس شديدا على هؤلاء الحجاج وحق له أن يغضب. ولكن الذي يعنينا هنا هو أن هؤلاء المحاربين أو جند المسيح، كما يحلو للبعض تسميتهم. استهلوا حركتهم بالإساءة إلى إخوانهم في الدين. ولما كان الإمبراطور داهية، فقد أدرك أنه لا قبَل له بقتالهم أو اعتراضهم. وعلم أن عملا مثل هذا العمل من جانبه يسخط عليه في أوروبا من يصدر سخطه عن حق ومن يراه فرصة لتأليب الناس على الإمبراطور. فغلب مكره مكر الماكرين، وقدم للحجاج العامة ما في ظاهره الرحمة والإحسان، ولكن في باطنه العذاب والهلاك حين يسر لهم عبور البسفور. ففرحوا وما علموا أنهم بدخولهم آسيا الصغرى إنما أصبحوا في فم الأسد، وأنهم يواجهون خطرين، أقلهما ضررا - إن قيس بالآخر - أن يلاقوا السلاجقة، وأما الثاني وهو ما لا يستطيعون دفعه، فالظمأ في صحراء آسيا الصغرى، والجوع في أرض لا زرع فيها ولا ضرع.



.. ثم راح البابا يزيد في إغرائه العامة على الخروج لنجدة القدس، فأعلن أن الكنيسة ستغفر لكل من يخرج للحرب ما تقدم من ذنوبه أيا كانت.. ولم تكن تهمه في ذلك مكانة من يخرجون وإنما كثرتهم.. وطبعا رأى الدهماء في هذا العفو خلاصا من آثامهم

ومختصر القول أن من تمكنوا من عبور البسفور بتدبير من الإمبراطور، إنما وجدوا المنايا كأسرع ما تكون المنايا، فكانوا بين صرعى المجاعة ومنكى الظمأ، وقتلى حرارة الشمس، وبرودة الليل القارسة، فأصبحوا أو أصبح أغلبهم طعمة لوحوش الفلاة، وتحوم فوق جيفهم الطيور الجارحة. حتى أن الذين جاءوا من بعدهم هالتهم آلاف الهياكل العظمية لإخوان لهم سبقوهم فحزنوا وأدركوا أن وراء هذه الفجيعة العظمى يد ألكسيوس كومنين. فكرهوه وكرهه مسيحيو الغرب وعدوه خائنا وتآمر على المسيحيين الغربيين.

على أنه جاء في أثر هذه الحملة المنكوبة التي عُرفت بحملة الرعاع حملات أخرى عرفت بحملات الأمراء النظامية، الذين كان لهم رغم اختلاف أصولهم وبلادهم من مقدرتهم وممارستهم الأمور، ما لا تعرفه العامة والغوغاء، ولكن كان قدوم هؤلاء الأمراء ينطوي على خطر لم يغب عن ذهن الإمبراطور ألكسيوس من مطامع ذاتية لا يراعون فيها دينا، ولا شخصا مهما علا قدره. ومن ثم كان التعامل مع هؤلاء يتطلب سياسة جديدة خاصة تقوم على دراسة نفسية لكل منهم على حدة، وتقدير مقدرته الحربية وتنظيماته القتالية.

ثم إن هؤلاء الأمراء - فرادى أو جماعات - كانوا على إلمام بفنون الحرب والقتال الذي يتخذه البعض منهم وسيلة لتمضية الوقت والفراغ. ويتخذه البعض حرفة تكون قوام حياتهم، ثم كان لديهم من التنظيمات ما يؤذي بيزنطة، أرضا وشعبا وأملاكا متناثرة في آسيا الصغرى وأعالي الفرات والشام. وخافت بيزنطة أن تغتنم أمم أخرى هذه الفرصة فتنزل الأذى بالكيان البيزنطي.

واجهت بيزنطة أربع جماعات نظامية صليبية جاءت كل واحدة منها من إحدى المناطق الأوروبية، وكل واحدة منها تحت قيادة أمير إقطاعي تمرس ومن معه بفنون القتال. فأما هؤلاء الأمراء فكان أولهم جود فروى دى بويون، من إقليم لوثارنجيا بفرنسا التي سوف تضطلع بالنصيب الأكبر في الحملات الصليبية على اختلافها.

كان يصحب جود فروى أخوه بلدوين وكلاهما من أهل الثراء، أما الراية فحاملها الأخ جود فروى الذي انضم إليه عدد من صغار الأمراء وأكثرهم ممن يمكن الاعتماد عليهم. وكلهم من أهل تلك البلاد، ولذلك كانت هذه الحملة الفرنسية الطابع أكثر من أية واحدة غيرها من التي خرجت إلى الشرق استجابة لدعوة البابا ونيل مكاسب مادية - إقليمية، أو مالية تسعى إليها.

سارت هذه الحملة برا كحملة رعاع بطرس المنعوت بالناسك، ولكنها كانت قد بلغت الغاية في التنظيم، وتعرف ما تسعى إليه وتعرف من تقابل في الطريق، وقد بلغ سمعها ما كان من أمر حملة الرعاع، ورأت أن تشق طريقها في أوروبا عبر بلاد المجريين الذين كانت الشكوك تحوم في صدورهم من ناحية الصليبيين، ويذكرون ما لاقوه على أيدي أتباع الديماجوجي بطرس والمفلس وولتر وفولتمار

البيزنطي. وكان ذلك ماثلا في ذهن جود فروى دي بويون، فبذل جهده في تجنب كل ما من شأنه أن يغضب المجر، فمنع أتباعه من ارتكاب أي موبقة من تعد أو سلب أو حرق زرع أو دور أو دخول دير، أو نهب ما يمرون به. فكان هذا مدعاة لكثير من الطمأنينة أحسها المجريون والمحاربون الصليبيون معا، وزاد من طمأنينة المجريين أن جود فروي أسلم ملكهم أخاه بلدوين رهينة حتى تخرج الحملة من المجر فيعود إلى جود فروى.

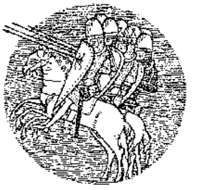
لم يكن في استطاعة الكسيوس أن يمنع جود فروى من متابعة رحلته الحربية الدينية هو ومن معه، فإن هو هم بمثل هذا العمل لم يسلم من لوم اللاتين على مجال دولي وربما وجهوا إليه سيوفهم، وقد يزداد الخطر الذي يواجهه - ولابد أن يزداد - ممن يقدرون بعدئذ من اللاتين والفرنجة.

لذلك اتبع الإمبراطور سياسة الموادعة بعهد ارتضاه جود فروى، وهو أن يسير رجاله في أملاك الإمبراطورية سيرة غير مستهجنة، ولا مغموزة أو مستنكرة من جانب أصحاب البلد، على أن يمدهم الروم بالمئونة التي لا غنى لهم عنها، وزاد على ذلك بأن بذل سعيه في الوقت ذاته كي يحمل جود فروى على أن يقطع له يمين الولاء، والمعروف أن اليمين لا تكون إلا لواحد فقط، ومعنى قطع جود فروى العهد لألكسيوس أن يكون ولاؤه لا لسيده الأوروبي الروماني المذهب، بل للإمبراطور الأرثوذكسي، كما أن هذا العهد يفرض على جود فروى أن يكون كل ما يفتحه للإمبراطور البيزنطي.

فلما أصبح جود فروى البولوني أمام أسوار القسطنطينية رفض ما يطلبه منه الإمبراطور، فتعقدت الأمور بين الاثنين بصورة عنيفة تمثلت في منع بيزنطة تزويد جيش جود فروى الصليبي بالمئونة والزاد، مما يعني الحكم بموته ورجاله جوعا وظمأ، ومن ثم لم يجد الأمير البولوني بدا من أن ينهى رجاله عن النهب والسلب حفاظا على حياتهم، فعاد الكسيوس يمدهم بما يحتاجونه مما يقيم أودهم، ولكنه لم يتراجع عن عزمه على أخذ اليمين. ثم جرت أحداث من جانب صليبيي اللورين، ولكن خاتمتها أفهمتهم أنهم لا قِبَل لهم بمخاصمة البيزنطيين، فرضخ جود فروى لإلحاح الكسيوس، وقطع له يمين الولاء، كما تعهد له بأن يرد عليه كل ما يستولى عليه من أرض انتزعها السلاجقة من القسطنطينية، وزاد أيضا بما يكون انتزعها غيرهم منها، فكان معنى ذلك أن الصليبيين الذين جاءوا وفي عنقهم عهد لملوكهم خلعوا هذا العهد، وأنهم أصبحوا يعملون أتباعا حربيين لإمبراطور بيزنطة. فكان ذلك محققا لهوى الكسيوس، وعاد الصفاء بينه وبين الزعيم البولوني، وأذن بنقله هو وجنده إلى بر آسيا الصغرى.

ثم جاء في أعقاب ذلك مباشرة النورماندي بوهيموند بن روبرت جيسكارد، العدو التقليدي للإمبراطورية، والواقع أن بوهيموند لم يكن أكثر من مغامر، وقد صحب معه تانكريد ابن أخته ومعه من كان يقاتل بهم في أمالفي بإيطاليا، والتي رفع عنها الحصار، ومضى بهم إلى القسطنطينية كصليبيين هدفهم في الظاهر الوصول إلى بيت المقدس.

وسار بوهيموند على غير ما هو متوقع منه، في الأراضي البيزنطية الأوروبية سيرة نزلت من نفس الكسيوس كومنين منزلة الرضا. وعجب الناس من سياسة هذا العدو النورماندي، إذ كانت تخالف كل المخالفة سياسة قومه السالفة إزاء إمبراطورية الروم منذ سنة ١٠٨١. كما اتخذ بوهيموند سياسة «تمسكنت حتى تمكنت». فاقسم - في غير جدل ولا نزاع - يمين الولاء لألكسيوس الذي قام من جانبه ردا على هذه الخطوة الودية، فاقطعه أرضا في أنطاكية تلبية لطلبه، وسرعان ما أمر الإمبراطور بتيسير نقل القوات النورماندية عبر



كانت الحملة الصليبية الأولى رد فعل لاستفحال قوة الإسلام منذ ظهوره وانتشاره.. وفرصة للثأر لموقعة «ذات الصواري» وحصار المسلمين للقسطنطينية، كما اقتنع قادة الحملة بأنهم ذاهبون إلى بلدان وممالك ممزقة الأوصال بسبب حكامها، وعداواتهم لبعضهم البعض، وجريهم وراء مصالحهم

البسفور، لتصل إلى آسيا الصغرى ومنها تزحف إلى الشام.

أما الفريق الثالث من الحملة التي خرجت استجابة لتوجيهات البابا اربان الثاني في مؤتمر كليرمونت، فقد قدم من إقليم بروفنس بفرنسا، وعلى رأسه ريموند كونت تولوز وبصحبته اديمار أسقف بوى ونائب البابا، مما أكسب هذا الفريق أهمية خاصة، حتى إذا بلغت هذه الحملة القسطنطينية. والتقى ألكسيوس بقائدها المعروف في المراجع العربية بالصنجيلي، وفي المراجع الغربية De Saint Gilles، رفض الكونت أن يقسم يمين الولاء للإمبراطور، وأصر إن أراد العاهل البيزنطي مثل هذا اليمين على أن يعلن من جانبه أنه سوف يصاحب الحملة بجيش رومي، حتى يبلغوا القدس، فعز هذا الطلب على ألكسيوس وعدّه أمرا وثلما لشرفه وهيبته، فمن ذا يكون ريموند إن قيس بالكسيوس، فما هو إلا أمير إقطاعي، وأوشكت الأمور أن تفضي بين الاثنين إلى حرب وإلى ثلم في الصف المسيحي: أرثوذكسية ورومانية. وهل يكون ريموند مثله إلا مثل جود فروى وبوهيموند وقد قطع كل منهما يمين الولاء للجالس على عرش القسطنطينية.

ونترك صاحبنا ريموند لحظات لنستقبل الفريق الأخير من الصليبيين المحاربين الوافدين من أوروبا استجابة لتوجيهات اربان الثاني. وكان هذا الفريق وهو الرابع بقيادة روبرت بن وليم، وستيفن كونت بلوا وشارتر، اللذين بادرا إلى إعطاء يمين الولاء في يسر وسهولة ورضا، فحظيا بعطف كبير من جانب ألكسيوس الذي أغدق العطاء عليهما وعلى من معهما إغداقا أنساهم مشاق الرحلة.

وهكذا تحقق لألكسيوس كومنين الأول ما شاءه من جعل الحملة بأكملها تقريبا رهن إشارته، ولو في الوقت الحاضر مؤقتا.

ووفد عليهم مرة أخرى بطرس الناسك، وانضم الحجاج المسلحون بعضهم إلى بعض، واتفقوا على مهاجمة نيقية مركز تجمع السلاجقة، وشاركتهم كتيبة بيزنطية ضئيلة العدد، ذرا للرماد في العيون. وعلى الرغم من أهمية نيقية للسلاجقة، إلا أن المحاربين الصليبيين الذين بلغوها لم يجدوا ما يكافئ خطورتها، استعدادا وجندا. ويعلل بعض المؤرخين هذا التقصير من جانب صاحبها قلج ارسلان، بانه كان في شغل ضد الدانشمنديين، ويدللون على هذا من جانبه أنه سرعان ما نهض إلى نيقية حين أدرك مدى خطر التجمع الصليبي، ولكن إدراكه هذا جاء متأخرا وبعد أوانه، إذ ما لبثت حامية البلد أن استسلمت وفوجئ الصليبيون بالرايات البيزنطية تخفق على أسوارها وعلى قلعتها وذلك على غير توقع من الحجاج، وفسروا ذلك بانه جرت اتصالات سرية بين الحامية الإسلامية لنيقية وبين البيزنطيين الذين في جانب الصليبيين، فكان ذلك الاستسلام ضربة للأخيرين، إذ تكشف لهم الأمر عن خديعة، وأن اتصالا سريا جرى من وراء ظهورهم مع أهل نيقية.

لم يعتبر الصليبيون الاستيلاء على نيقية نصرا لهم بل كسبا للإمبراطور الكسيوس تم من وراء ظهورهم وتأكد لديهم أيضا أن أمورا تجرى في الخفاء، لكنهم لم يكونوا في وضع يستطيعون فيه أن يقوموا بعمل ما أو ضرب الخيانة، ومن ثم لم يكن لهم بد من إغماض عيونهم على القذى، ورأوا أن بعض الشر أهون من بعض، فلو ناصبوا الكسيوس العداء لكف عن تموينهم وإرشادهم في مجاهل هذه الصحراء المهلكة في آسيا الصغرى، وما وعدهم به من مرافقتهم أو مرافقة جنده لهم في زحفهم المقدس، فإنه إن فعل هذا أو ذاك كان فيما يفعل الهلاك لهم. ومن ثم جدد الأمراء يمين الولاء، كما لم يعد أحد منهم يكترث إن هو سعى جهرًا وعلانية لما فيه صالحه، وتركوا القدس فإن لها ربا يحميها، وكان هذا أمرا أخفاه كل منهم في صدره، ولكنهم رأوا أن يصطفوا وأن يكونوا يدا واحدة، فكتب لهم النصر في وقعة عرفت بوقعة دوريليوم أو اسكي شهر.

على أن المطامع الصليبية الشخصية ما لبثت أن ظهرت حين انفصل بلدوين أخو جود فروى ومعه تانكريد، ومما في بعض الطريق، واتجها شطر أرمينية ولكن بعد أن خرج السلاجقة من جزء كبير من أراضي الأناضول.

تجمع الانفصاليان بلدوين البولوني وتانكريد ونجحا في الاتصال بالأرمن في الرها، مما أسفر عن أمر عجيب هو ترحيب أرمنها ببلدوين ترحيبا لم يكن له ما يسوغه ويجعله مفهوما، إلا أن يكون نتيجة مؤامرة دُبرت بليل، كما تدل على حدوث شرخ في الصف الصليبي، كانت أول بادرة له تتمثل في انفصال بلدوين أخي جود فروى عن بقية الجيوش الصليبية التي كان مفروضا فيها أنها زاحفة بكل طوائفها وفئاتها إلى القدس، ثم أعقب هذا الانفصال دخوله الرها من غير حرب، بل إن العجيب هو ما أبداه عاهل الإمارة وأهلها الأرمن من الترحيب ببلدوين، الذي ليس له سطر واحد في تاريخها بالخير أو بالشر، مما يبعث الفكر على الذهاب مذاهب شتى، أقلها أن دخوله الرها بهذه الصورة لم يكن وليد يومه، ولكن سبقته اتصالات مريبة مهدت الأرض لأن يحدث ما حدث.

ومما يزيد الأمر تعقيدا في محاولة تفسير هذا الحادث، هو أن بلدوين انفرد بالحكم دون شريك، وهكذا تأسست أول إمارة لاتينية في الشرق في بقعة لم تكن البابوية ولا المساهمون في الخروج يدخلونها في حسابهم.

إن للرها أهميتها العظمى في الوجدان المسيحي، كما أنه منذ هذه اللحظة التي تقلد فيها بلدوين مقاليد الحكم هنا، انقطعت كل صلة له بالصليبيين حملة وهدفا، إلا ما أسفرت عنه الأيام بعد موت أخيه جود فروى من استدعائه المريب أيضا ليتولى حكم القدس لا كحام للقبر المقدس، وهذا هو اللقب الذي اختاره أخوه الراحل لنفسه، ولكن ليكون أول ملك للقدس.

أما في لحظته الحاضرة فقد أخذ بلدوين في عمل كل ما من شأنه تأمين حدود إمارته، فاشترى سميساط من أميرها، وتوالى نشاط الإمارة في عهدها الجديد بمد حدودها على حساب البيوتات الإسلامية الحاكمة، لاسيما بقايا بني ارتق، ثم انطلق بلدوين يفتح سروج والبيرة وغيرهما، ولم يعد يعنيه من أمر بقية رفاق رحلته الصليبيين الفرنجة شيء، وإن استقدم بعض اللاتين من أوروبا لموازنة العنصر الوطني في الإمارة التي صارت له سنة ١٠٩٨ ولكن بالخديعة.

ونترك بلدوين في إمارته لننظر ماذا كان من أمر بقية رفاق الحملة بعد انفصاله عنها فنراها نتابع زحفها إلى أنطاكية التي كانت هدفا لبوهيموند النورماندي، وكانت لقمة تحلّب شدقاه عليها، وكانت في يد واليها المسلم

ياغي سيان، الذى رغم اختلاف مترجميه في شأنه، إلا أنه لم يجد المعونة الصادقة الجادة من القوى الإسلامية على اختلافها.

أما بوهيموند فلم يعدم الوسيلة، وإن كانت قذرة، في تحقيق هدفه في الاستيلاء على أنطاكية دون اكتراث بما قد يكون من حق لبيزنطة فيها.

ولم يكن بوهيموند يعف عن أى سلوك - مهما بلغت دناءته - مادام يوصله إلى هدفه، ولقد حدث أن خرج من انطاكية سريانها وأرمنها، واختلف المؤرخون في سبب هذا الخروج، فمن قائل أنه كان بأمر من ياغي سيان، لعدم اطمئنانه إلى طواياهم الخفية، ومن قائل بل خرجوا من تلقاء أنفسهم ليكونوا عونا وعينا للاثنين بدليل تركهم نساءهم وأولادهم بها.

فإن صح القول الأول، فالحق مع ياغي سيان، إذ كانت التجهيزات والنجدات البحرية الأوروبية تترى على الفرنجة وفيهم نرمان كثيرون.

إن بعض المصادر - وهي عربية - تقول إن الصليبيين وجدوا ترحابا - أو على الأقل تراخيا - من جانب الفاطميين الذين أرسلوا سفارة بهذا المعنى للفرنجة، فإن صح هذا السعى الذى يؤكده مصدر موثوق به، وهو الكامل لابن الأثير في العربية، وأكثر من مصدر غربي كان ذلك دليلا على تفسخ عرى الوحدة بين المسلمين، وهو أمر لم يعد خافيا على الفرنجة الذين أدركوا بذلك أنهم بالغون ما جاءوا من أجله، ولقد بقيت أنطاكية تعانى الوقوف في وجه الدخيل. فلا مصر أنقذتها، ولا دمشق أنجدتها، ولا حلب أسعفتها، ثم كانت وقعة العمق التى انتهت بانتصار اللاتين عند حصن حارم، وبادروا بالاتصال سرا برجل في يده مفاتيح أنطاكية واسمه فيروز، وكان من أسرة احترفت الزرادة، وقيل أنه أرمنى تظاهر بالإسلام وتراسل سرا مع بوهيموند، ثم أسلمه البلد على غير علم من أهله أو علم بقية الصليبيين، فدخل بوهيموند أنطاكية ورفع علمه على قلعتها، وقامت بذلك إمارة صليبية لاتينية بالشام لتكون رأس حربة في قلب بلاد الشام رغم ما دب من نزاع بين بوهيموند وريموند الصنجيلي.

كان من المتوقع حسب الاتفاق بين الكسيوس وزعماء الفرنجة أن يردوا أنطاكية إلى العاهل البيزنطى، لكن بوهيموند أنكر هذا الاتفاق وتنكر له، وعز عليه أن يتخلى عن أنطاكية فاتحا وأميرا.

ولما تم فتح أنطاكية على هذه الصورة رأى الصليبيون ألا جدوى من البقاء بها والجدل حولها، ومن ثم قرروا متابعة زحفهم إلى غايتهم العظمى وهي بيت المقدس.

كانت مقدمات الزحف إلى القدس هي اجتماع الصليبيين في كنيسة القديس بطرس بأنطاكية ليقرروا خطة الزحف، فقد خافوا تفرق الآراء تبعا للأهواء الشخصية، وكانت صيحة التجمع «القدس» وكان لوقعها رنين عذب في السمع وأثر طيب في القلوب.

وشهدت الأيام القليلة التالية اتصالات بين أمير شيزر وهو سلطان بن منقذ وبين ريموند الصنجيلي، حيث وعد الأمير المسلم الزعيم اللاتيني بمده بكل معونة مادية ومعنوية، كما زوده بدليلين فرأى ريموند الاستفادة من هذه الفرصة المتاحة له ليستولى على بلد ساحلي تابع لابن عمار صاحب طرابلس وهو في طريقه إلى القدس، على حين رأى فريق آخر من الصليبيين سلوك طريق آخر غير هذا الطريق، لكن الملاحظ أنه توافد على اللاتين رسل الأمراء المسلمين من بعض حكام الشام يعدونهم العون، كما لو كانوا من أهل دينهم وبنى جلدتهم، وبعث هؤلاء الأمراء الخونة بالهدايا والمؤن إلى المغير دون طلب منه إليهم، بل إن صاحب طرابلس وكان إذ ذاك فخر الملك - وهو من أسرة بني عمار - بعث إلى ريموند ما يشير إلى تذلله له وأخذ على نفسه أن يدفع له جزية كبيرة، مما أغرى رفاقه على حثه على الاستيلاء على طرابلس التى كانت عينه عليها أسوة بما تم لبلدوين في الرها وبوهيموند في أنطاكية. فزحف وزحف الباقون على «عرقة»، ولم يتورع أحد حتى جود فروى بمن معه عن مد أيديهم إلى ما يصادفهم من القرى والمزارع، ولم يجدوا مقاومة ما.

وتابع الفرنجة بقيادة جود فروى زحفهم إلى القدس التى لم تجد أى عون من مصر الفاطمية بحجة يقولها المدافعون عن موقفها بأنها كانت كارهة لنفوذ السلاجقة، وتتمنى لهم الهلاك، وهل هناك هلاك للسلاجقة إلا أن يأتيهم على أيدى الصليبيين الذين هم وحدهم الآن القادرون على ضرب الأتراك عدو الفرنجة والفاطميين، ولا سبيل لتحقيق ذلك إلا بالوقوف في وجههم حتى لو كان هذا الوقوف إلى جانب الشيطان، فأعلى ذلك موقفا كان سبة الدهر وعار الأيام.

لقد أصبح الفرنجة الغزاة على رمية قوس من القدس، وما من أحد يعترض طريقهم، بل إن الكل أصبحوا - من ذعرهم - أشبه بمن وقعوا في سبات أو غيبوبة، فهم ينظرون بعيون مفتوحة، وقد تدرك الخطر ولكن الخوف سيطر على نفوسهم حتى لم يعودوا قادرين على عمل شيء لصده، بل لعلهم أخذوا يوطنون أنفسهم على التعايش في ظل هذا الخطر.

إن الغزاة يتقدمون ولم تعد بلاد الشام تمثل أية عقبة في طريقهم، ولم يعودوا يأبهون قط بأهل البلاد، فما هم إلا فراشات لا حول لها ولا قوة، وإنها لفراشات تطير ويجذبها لهيب النيران الذى لا تلبث أن تسقط فيه فتهلك.

إن أصحاب السلطة في هذا المجتمع الإسلامي - ومن بيدهم الأمر - لم يصبحوا مكمن خطر أو مثار خوف، وهل أدل على عدم اعتداد الصليبيين بهم من موقفهم من الأفضل شاهنشاه يوم تقدم بمحالفتهم بغية الوقوف في وجه السلاجقة، فردوه خاسرا، إذ ماذا يجديهم ما يعرضه وهم في غير حاجة إليه وإلى غيره ومثله، فقد خلت الساحة من أحد يخاف منه أو يرتجى نفعه، وقد صارت الأمور - أو كادت - أن تكون في أيديهم، وها هم ذا منذ مايو ١٠٩٩م يرون الحكام يعرضون عليهم الأموال والغذاء والمئونة، بل ويؤمنون لهم طريق الزحف إلى الحرم الذى وصلوه، فلم يبق لدفعهم سوى الأهالي الذين لا يملكون إلا الدعاء والاستغاثة، فراح اللاتين يرمونهم بالمنجنيق وغيرها من آلات القتال، وأقاموا برجين لقتال المدينة.

وكان ليل ثم كان صباح عبوس.

وأسفر فجر الخامس عشر من يوليو ١٠٩٩ عن جحافل الصليبيين - وليست بالكثرة التى كانوا عليها يوم خروجهم من أوروبا - تدخل القدس وتصب نقمتها وتصيب قمحا تصيب المسجد الأقصى، وتطأ أرضه خيولهم بسنابكها، بعد أن كانت جباه المؤمنين تمسه وتقبله.

وصاح صائح لقد دخلوا القدس.

وصاح غيره ها هم يقتلون الشيوخ والعجائز والشباب والرجال والنساء والأطفال والعذارى والغلمان والصغار على صدور أمهاتهم لتتناثر الدماء في كل مكان.

وظل الصليبيون على مدى أسبوع كامل تثير شهوتهم رؤية الدماء، وتطرب آذانهم أنات الجرحى والقتلى.

وزالت يومذاك راية المسلمين وحلت رايات أقوام لا يعرفون الرحمة، وإن كانوا من أتباع من سبيله الرحمة والمحبة.

لقد كان يوم ١٥ يوليو ١٠٩٩ وصمة عار لا تمحى من جبين الإنسانية، وكان صرخة حق مهيض في أذن التاريخ، فهل أصاب الصمم أذن التاريخ؟!

كتاب الزاوية



من أجمل قصائد الحب الإلهى

• «مريضة الأجفان» لابن عربي

- محيى الدين بن عربي، ولد بمرسية إحدى بلاد الأندلس سنة ٥٦٠ هجرية، وانتقل منها إلى أشبيلية ثم سافر إلى مصر ودمشق وبغداد. وتوفي بالشام عن ستة وسبعين عاما، وأشهر كتبه «الفتوحات المكية» الذى يعد واحدا من أمهات كتب التصوف.

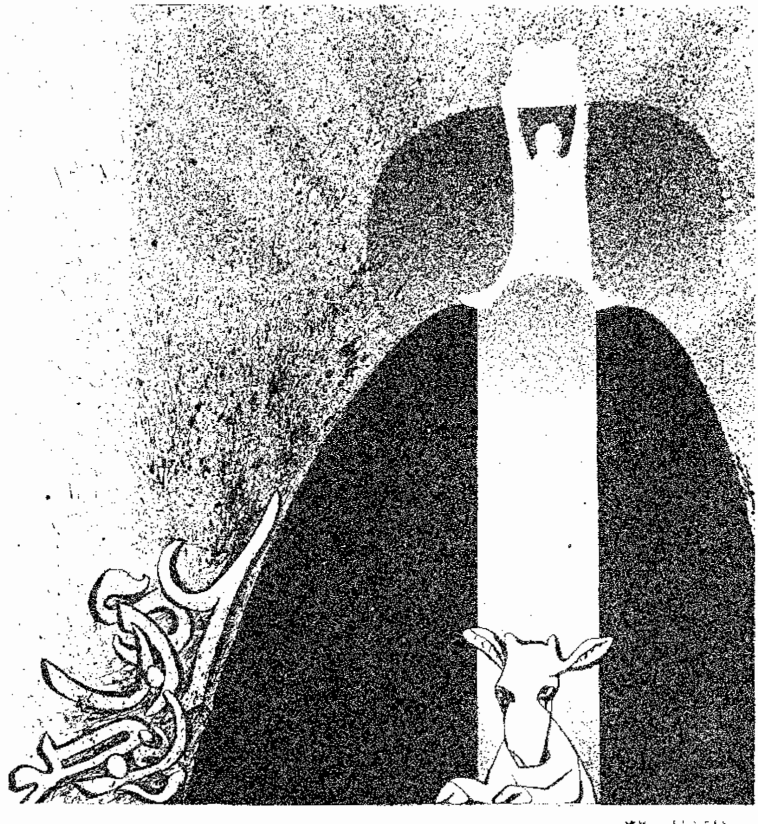
مَرَضِي من مَريضةِ الأجفانِ
عَلِّلاني بذكرِها، عَلِّلاني
هفتِ الوُرْقُ بالرياضِ وناحت
شَجْوُ هذا الحَمامِ مما شجاني
بأبي طفلةٌ لَعوبٌ تَهادَى
من بناتِ الخدورِ بين الغواني
طلعتْ في العِيانِ شمسًا، فلما
أفلتْ أشرقتْ بأفقِ جَناني
يا طُلولاً برامةٍ دارساتٍ
كم رأت من كواعبٍ وحِسانِ
يا خليليَّ عرِّجا بعِناني
لأرى رسمَ دارِها بعِياني
فإذا ما بلغتُما الدارَ حُطّا
وبها صاحبيَّ، فلتبكياني
وقِفا بي على الطلولِ قليلاً
نتباكَى، بل أبكِ مما دهاني
الهوى راشِقي بغيرِ سِهامٍ
الهوى قاتلي بغيرِ سِنانٍ
عرِّفاني إذا بكيتُ لديها
تُسعداني على البُكا تُسعداني
طال شوقي لطفلةٍ ذاتِ نثرٍ
ونظامٍ ومِنبرٍ وبَيانِ
من بناتِ الملوكِ من دارِ فُرْسٍ
من أجلِّ البلادِ من أصبهانِ
هي بنتُ العراقِ بنتُ إمامي
وأنا ضدُّها سليلُ يمانِ

«أرض الميعاد» ليست «أرض الميعاد»

الخرافة والحقيقة: خفايا اليهود.. وحروبهم.. وخروجهم!

زيــــاد مــــنى

مغامران أمريكيان تسللا إلى المملكة العربية السعودية بحثا عن جبل سيناء الحقيقي في شمالي غربي المملكة.. حيث يعتقد أن الموقع المقصود هو جبل اللوز قرب مدينة تبوك شمالي الحجاز.. وكان القصد من وراء المغامرة هو الوصول إلى الذهب الذي تقول التوراة أن «العبرانيين» تركوه وراءهم قبل الاتجاه إلى أرض الميعاد»



يلاحظ المتتبع للدراسات الإنجيلية أنه من النادر أن يمر عام واحد دون أن تشهد سوق الكتب في الغرب بشكل عام وفي الولايات المتحدة بشكل خاص، صدور مؤلف جديد يؤكد أنه يقدم أخيراً «الإثبات القاطع والنهائي» على مصداقية العهد القديم الذي يعتبر كتاباً مقدسا لدى كل من اليهود والمسيحيين، والعهد الجديد الذي ينفرد بتقديسه المسيحيون.

ومع اقتراب عام ألفين تتصاعد وتيرة الخطاب المسيحي المبشر بالقيامة وبدء حكم إله التوراة يهوه عبر مسيحه، ويتزايد عدد المؤلفات والاكتشافات المزعومة المرتبطة بالموضوع والقائلة بظهور علامات القيامة. ومن ذلك على سبيل المثال الهوس الذي اندلع بين صفوف بعض غلاة التلموديين حول خرافة البقرة الحمراء، والتي تنبيء ولادتها في فلسطين بقرب مجيء المسيح المنتظر. وقبل الاسترسال في مناقشة تلك الظاهرة يجب التذكير بأن قدوم المسيح يعني في الكتابات ذات الصلة - سيادة اليهود واليهودية على العالم - على أن تسبق ذلك مجموعة من الأحداث على رأسها إعادة بناء ما يسمى بالهيكل، أي «المعبد» المنسوب تأسيسه إلى سليمان بن داود والذي لا يمكن أن يبنى مجدداً إلا مكان قبة الصخرة والمسجد الأقصى في مدينة القدس المحتلة.

ومن الدلائل الهامة الأخرى التي تشهد على تعالي النبرة الحماسية للخطاب المسيحي ذلك المؤلف الذي نشر العام الماضي في الولايات المتحدة تحت عنوان «شفرة الإنجيل»، والذي ذاع ذيوعا واسعا في الغرب وترجم إلى العديد من اللغات الأوروبية وهو وكما يدل عنوانه، يفيد أن التوراة تحوي برنامج كمبيوتر يسجل ما جرى في العالم وما سيجري فيه ويتحدث كُتّابه من حاخامات وعلماء رياضيات عن اقتراب موعد يوم القيامة الذي سيكون على شكل حرب نووية تجتاح المشرق العربي. ويعيدون التذكير بقرب قدوم المسيح و«إعادة» بناء هيكل القدس بدوره على أنقاض المسجد الأقصى وقبة الصخرة.

وإلى جانب تلك الكتابات التي تعتمد المقولات المبسطة ولا تنبني على حقائق علمية بل تعتمد على تجييش العواطف الدينية لأشياعها من عامة الناس غير المطلعين على تعقيدات الموضوع وتشابكاته، فقد شهد الغرب في الوقت نفسه نمطاً آخر من الكتابات الإنجيلية الموجهة إلى أهل الخبرة وأصحاب الاختصاص تزعم التوصل أخيراً إلى إثبات أن الرومان هم المسئولون الحقيقيون عن قتل يسوع المسيح متجاوزة بذلك المبدأ الكنسي المعمول به منذ ولادة المسيحية والذي يلقي بالتبعة الكاملة على اليهود، وهو ما يرد بصريح العبارة في الأناجيل الأربعة بشكل عام، وفي إنجيل يوحنا بشكل خاص.

وهنا يحق فعلاً للمرء أن يتساءل عن مدى جدية آخر الاكتشافات هذه وما سبقها بالطبع. مادام أهل الاختصاص يؤكدون المرة تلو الأخرى أنهم عثروا أخيرا على البراهين الدامغة على أن الإنجيل على حق نصا وروحا.

وفي الوقت الذي يسفر فيه تفحص هذه الاكتشافات وما يماثلها عن هشاشتها البالغة ويقود لانهيارها أمام أول اختبار علمي لها. فمن الواضح أن هدف طرحها ومعها التأويلات المرافقة لها، إنما هو استكمال الخضوع لشروط

---

١. The Gold of Exodus : The Discovery of the True Mount Sinai

(ذهب الخروج: اكتشاف جبل سيناء الحقيقي)

Howard Blum

New York Simon & Schuster, 1998.

٢- التوراة جاءت من جزيرة العرب

كمال الصليبي

بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٥.

المصالحة التاريخية بين كل من الكنيسة الغربية من جهة واليهودية من جهة أخرى باعتبارهما معاً الوريث الشرعي والمالك الوحيد لما يعرف في الخطاب الإنجيلي باسم «أرض الإنجيل»، وهو ما ينقلنا مباشرة إلى موضوع مقالنا هذا.

ولا شك أن الكثيرين من القراء سيحتارون في أمر مادة الكتاب موضوع مقالنا، والذي يوحي عنوانه بترجمته الحرفية: «ذهب الخروج: اكتشاف جبل سيناء الحقيقي» بأن صاحبه (وهو مسيحي مؤمن) عن قناعة بأن جبل سيني كما في لهجة التوراة الكنعانية، وجبل سيناء كما في الترجمة العربية التقليدية ليس المكان الواقع في شبه جزيرة سيناء والمطل على دير القديسة كاترين! ومن الجدير بالذكر أن التراث الديني المسيحي ينظر إلى ذلك الموقع على أنه المكان الذي خاض عليه موسى تجربته مع الإله الذي ظهر له وسلمه الوصايا العشر.

فماذا يعني عنوان الكتاب «... اكتشاف جبل سيناء الحقيقي» إذن؟

إنه يعني ضمن أمور عديدة، إما أن الكاتب يقلب الحقائق رأساً على عقب. وإما أنه يعني أن الكثير من جوانب تاريخ المشرق العربي العتيق لايزال غير معروف، أو لنقل أنه على الأقل لايزال مثار جدال ونقاش لن يحسما إلا بالعثور على براهين واضحة لا ريب فيها. ونحن نتفق معه في هذه النقطة.

وسواء كان غرض المؤلف الإيضاح أو التلبيس، فقد أثار كتابه، ولايزال، لغطا كثيراً في الغرب بشكل عام وفي الولايات المتحدة بشكل خاص، حيث قامت مجلة نيوزويك بالكتابة عنه وعرضه على نصف صفحة في عددها الصادر بتاريخ ٢ مارس 1998 كما نوه العديد من شبكات التلفزة الأمريكية بهذا المؤلف، ومن ذلك محطة «إن بي سي» التي أجرت لقاء مع أصحاب الاكتشافات المشار إليها مساء يوم ٢٠ أبريل الماضي.

وفي الحقيقة فإن هذا المؤلف مفيد من نواح عديدة، أهمها لفت الانتباه إلى مسألة لاتزال بعيدة عن اهتمام البحاثة العرب ألا وهي تاريخ المشرق العربي العتيق، حيث نجد أن معظم ما نشر حتى الآن في بلادنا عن الموضوع ما هو إلا ترجمة - أحيانا بالغة الرداءة - لكتابات العلماء الغربيين الذين يخضعون المادة لشروط الخطاب الاستشراقي أو الإنجيلي. فإذا كان الخطاب السياسي الغربي ينفي المشرق العربي جغرافياً بأن يطلق عليه اسم «المشرق الأوسط» أو «الشرق الأدنى» أي يعرفه بمدى قربه أو بعده عما يراه مركزاً للعالم، أي الغرب، فإن الخطاب الاستشراقي أو الإنجيلي يلغي وجوده بشكل كامل لأنه يُعرفه على أنه «أرض الإنجيل» ليس إلا، علماً بأن المقصود بذلك بلاد الشام ومصر والعراق وبعض أقاليم شمالي جزيرة العرب وكذلك اليمن.

إن استيعاب تفاصيل الكتاب من قبل القارىء غير المتخصص أو غير المطلع يستوجب برأينا إلمامه بمادته الأساسية، أي علم «الدراسات الإنجيلية». وحيث إن مثل هذا التخصص العلمي ما يزال أرضاً بكراً بالنسبة للقارىء العربي بما يحد من قدرته على مناقشة الموضوع انطلاقاً من أسس علمية صلبة. فمن الضروري التعريف به وكذلك بمنهجية البحث فيه، مستفيدين من كتابات من سبقنا من أهل الاختصاص، آملين أن يفتح هذا الجهد المتواضع الأبواب أمام نقاش علمي متزن بعيداً عن الأهواء والرغبات، المعلن منها والدفين. وفي هذا السياق، تجدر الإشارة إلى أن ما ذكر عن حداثة هذا الفرع من الدراسات التاريخية، إنما يعني وعلى وجه التحديد أنه ظل مجهولاً في بلادنا حتى منتصف الثمانينيات، عندما صدر مؤلف «التوراة جاءت من جزيرة العرب» لكمال الصليبي الذي كان حينئذ أستاذاً للتاريخ في الجامعة الأمريكية ببيروت. ففي تلك الفترة وضع المؤرخ اللبناني مؤلفه الذي نشر في بداية الأمر على حلقات في مجلة «دير شبيجل» الألمانية، ثم ترجم إلى اللغة العربية ونشر بدوره مسلسلاً في جريدة القبس الدولي الكويتية قبل أن يصدر عام ١٩٨٥ ككتاب عن مؤسسة الأبحاث العربية ببيروت وتدور الفكرة الجوهرية للكتاب حول أن ما يعرف في التراث العربي - الإسلامي باسم التوراة، هو تسجيل للتجربة الدينية - التاريخية لبني إسرائيل وليس لليهود. وأن المسرح الذي شهد هذه التجربة كان هو بلاد عسير بجنوب غربي جزيرة العرب وليس فلسطين.. بعبارة أخرى يريد كمال الصليبي أن يقول في كتابه الذي أثار عاصفة لم تهدأ بعد في الوسط العلمي، أن الأحداث التي تحكي عنها التوراة وبغض النظر عن مدى صدقها، لم تجر في فلسطين وإنما في جنوب غربي جزيرة العرب، فمصر الوارد ذكرها في التوراة ليست هي مصر وادي النيل وإنما هي بلدة المصرمة في بلاد عسير. وفرعون المذكور في التوراة إلى جانب موسى لم يكن أحد حكام مصر وإنما كان والي تلك البلدة العسيرية التي كانت تابعة للدولة المصرية الأم على ما يبدو. و«أورشليم» ليست مدينة القدس بفلسطين المحتلة وإنما هي منطقة تعرف حالياً باسم سراة رجال الحجر تقع شمالي بلاد عسير.. الخ.

ولما كنا وقت صدور مؤلف كمال الصليبي نجهل كل شيء عن تدريس مادة «الدراسات الإنجيلية» في الجامعات الغربية، فلقد واجهتنا مجموعة من المعضلات التي رأينا حينئذ أنها رئيسية وأنه يجب أخذها بعين الاعتبار قبل تشكيل رأينا في الموضوع برمته. ورغم أننا شككنا وقتها في هذا الموضوع دون أن نكون قد درسنا المادة أو أن نكون قد امتلكنا أياً من الأدوات العلمية التي تؤهلنا للحديث فيه فقد طرحنا على أنفسنا وقتها السؤالين التاليين.

أولاً: هل كان ذلك المؤرخ اللبناني سيخاطر بسمعته العلمية ذائعة الصيت - سواء في الشرق أو الغرب - ويطرح موضوعاً ليس ثمة ما يؤكده؟.

ثانياً: هل كانت المجلة الألمانية المرموقة التي عرفت بجدية طروحاتها ستخاطر بسمعتها من أجل مضاعفة توزيعها وإن تبع ذلك سقوط سريع؟ وهل ستتأسى في هذا الشأن بمنافستها مجلة «شترن» التي وقعت ضحية تسرع المسئولين وحماستهم عنها ولم تلبث أن فقدت سمعتها ومركزها في السوق بعدما نشرت مذكرات هتلر التي ثبت أنها مزورة بعد حلقتين اثنتين منها؟

ورغم أننا لاننتقص الآن من أهمية هذين العاملين - الثانيين بالتأكيد - إلا أن دراستنا اللاحقة للمادة أوضحت لنا ضرورة إعادة النظر في منطلقنا لتقييم الموضوع والتركيز على المسائل الجوهرية، أي على الحقائق العلمية وعدم استبعاد جانب الخطأ الإنساني الذي قد يحدث عن حسن نية.

وقبل الانتقال إلى استعراض المادة والمنهجية اللتين أوصلتا كمال الصليبي إلى ما انتهى إليه، لابد من القول أن معظم المستشرقين عبروا عن استنكارهم لأطروحة المؤرخ اللبناني ورفضهم لها عبر مجموعة من المقالات والمقابلات التي نشرت في العديد من الصحف الأوروبية والأمريكية دون أن تمنح كمال الصليبي حق التعقيب. ورغم أن أهل الاختصاص الغربيين قدموا العديد من المبررات لرفضهم الفكرة، إلا أنهم لم يتمكنوا في الوقت نفسه من الإجابة على التحدي العلمي الرئيسي الذي تمثله، ألا وهو شرح سبب عدم العثور في فلسطين حتى الآن على أي أثر لبني إسرائيل. وذلك رغم مرور أكثر من ربع قرن على بدء التنقيب الأثري فيها، والذي لم يترك حجرا دون قلبه أو موقعاً دون حفره أو بقايا مبنى قديم دون تفحصه. وبالإضافة إلى هذه النقيصة في ردودهم، نجد أنهم لم يتمكنوا من نقد منهجية البحث، مما يعني أن هذا البحث تم وفق القواعد العلمية المعمول بها.

أما رد الفعل في بلادنا على طرح الصليبي فقد كان مختلفاً. ونعني بذلك انقسام المعلقين عليه بين مؤيد ومعارض، وكان المسألة ستحل بالتصويت على هذا أو ذاك من الآراء. رأى «المعارضون» في هذا الطرح دعوة للعدو الصهيوني لوضع بلاد عسير على قائمة الأراضي التي ينوي إضافتها إلى «إسرائيل الكبرى». بينما اعتبر معظم أصحاب الرأي المضاد أي «المؤيدون» والمصابون بالإحباط بسبب عجزهم الذاتي أمام قوة العدو، أن هذا الطرح هو المنقذ لأنه على ما اعتقدوا سيعفيهم من مواجهة عجزهم وسيريحهم في الوقت نفسه من العدو الصهيوني الجاثم على أرض فلسطين، كونه سيسحب «البساط التاريخي» من تحت أقدام الصهاينة وسيضطرهم إلى مغادرة الإقليم بحثا عن (أرض الميعاد) على بعد آلاف الكيلومترات بعيدا عنهم!

وقد يقول قائل: وكيف يمكن إهمال العامل السياسي في الموضوع برمته وصراع أمتنا مع العدو الصهيوني لا يزال قائما، والعدو يتطلع إلى التهام المزيد من الأراضي العربية بعدما استكمل احتلال كل أرض فلسطين. ونال من العرب الاعتراف بشرعية هذا الاحتلال؟. والواقع، أنه رغم تسليمنا بالمضمون السياسي للصراع العربي الإسرائيلي، إلا أننا نعتبر أن اللجوء إلى المنهج السياسي كبديل للمنهج العلمي في المحاور، يكشف مدى الإحباط المحيط بنا ويعمق عجزنا عن التعامل مع الموضوع برؤية وفكر صاف. فإذا كان البعض يجد المبررات لإخضاع البحث للاعتبارات السياسية، فإننا نرفض ذلك بشكل قاطع ونشدد على أن النقاش السياسي ينتمي إلى ضرب مختلف من الأبحاث، بحيث يكون من الخطأ الفادح الخلط بين كليهما أو إخضاع أحدهما لمنطق الآخر.

وإذا كان مؤلف «التوراة جاءت من جزيرة العرب»، وبغض النظر عن مدى صحة طرحه من خطئه، بشكل جزئي أو كامل، قد كشف عن مدى تقصيرنا في بحث ماضينا ومقدار البؤس العلمي الذي يحيط بنا، وأوضح جهلنا بالمادة واعتمادنا على غيرنا ليقرأوا تاريخنا ويعيدوا كتابته على هواهم. فإننا ننظر بإيجابية إليه وإلى كشفه لنا عن أحد جوانب ضعفنا، رغم الآلام المرتبطة بهذه المعرفة. فقد أثار المؤلف، ولا يزال، نقاشا واسعا حول مسائل تاريخية هامة وأثار اهتماما في صفوف الكثير من الأكاديميين والمثقفين العرب، رغم قناعتنا بأن ما نشر حتى الآن، أو لنقل أن ما اطلعنا عليه مما نشر، لا يزال بعيداً عن أن يصل إلى درجة النضج العلمي المأمول.

في تلك الحدود، نجد أنه من الضروري البدء بتعريف القارئ بحقائق أساسية عن التوراة. فالأخيرة، وعلى عكس ما قد يتوقع البعض العثور عليه في الكتب المقدسة، تحوي بالإضافة إلى المواعظ والتعاليم الدينية، تاريخاً وأساطير وخرافات وشعراً أوّلت جميعاً تأويلاً دينيا. وهذا ما جعل الكثيرين ينظرون إلى التوراة على أنها بمثابة تسجيل مسار قوم منذ بداية الخلق، أو بالأحرى منذ ما يعتقد البعض أو يود أن يعتقد أنها بدايته وحتى اندثارهم «الأثني» على يد قوات نبوخذ نصر البابلي حوالي عام ٥٨٦ ق. م. ومن أجل تقريب الصورة إلى الأذهان، وبالتنزيل على واقعنا العربي - الإسلامي يمكن تشبيه التوراة بسفر يحوي بالإضافة إلى بعض الآيات القرآنية والأحاديث المنتقاة، تعليقات المفسرين والمؤولين، وكتب السيرة، ومجموعات من أساطير وميثولوجيا جزيرة العرب في العصور الأولى بما فيها إساف ونائلة وأخبار ملوك حمير وكندة والغساسنة والمناذرة وسبأ وريدان وأكسوم. وتفاصيل اجتماع السقيفة والفتوحات الإسلامية وما تلاها من أحداث وصولاً إلى بدء حكم العثمانيين، مع اعتبار ذلك كله تاريخ قريش القبيلة المقدسة التي اختيرت دون كل أقوام العالم لحمل لواء إله السموات الذي عرف بأسماء مختلفة هي هبل وعشتر وعناة وشمس ونحوهم ممن عبدهم أجداد قريش منذ بدء الخليقة أو ما يُخال أنها بدايتها!!!

فالتوراة تحوي الكثير من النصوص التفصيلية عن الأسباط وتحركاتهم - سواء الحقيقية أم الوهمية - داخل ما يسمى «أرض الميعاد» وخارجها. وفي تلك النصوص الكثير من المواقع الجغرافية المرتبطة بالأحداث موضع التحليل بما يعطي الانطباع بأن هدف كتبتها كان وضع الزمان المطلق ضمن مكان محدد: أي حصر أخبارهم ضمن جغرافيا محددة. وهو بالضبط ما يشرح أهمية الجغرافيا في الخطاب الإنجيلي الذي حول المشرق العربي إلى «أرض الميعاد»! وهو أيضا ما يشرح هوس العدو الصهيوني بالأسماء، ويفسر عمله المستمر لتغيير المعالم الجغرافية في فلسطين المحتلة

يدعي كتاب «شفرة الإنجيل»
أن التوراة تحوي برنامج كمبيوتر..
وأن موعد يوم القيامة قد اقترب. وسوف
يكون على شكل حرب نووية
تجتاح المشرق العربي

التوراة، على عكس
ما يتوقع البعض، تحوي
بالإضافة إلى المواعظ والتعاليم الدينية
تاريخا وأساطير وشعرا أولت
جميعا تأويلا دينيا

وإعطائها أسماء توراتية. ونظرا لتوافر أعداد كبيرة جدا من أسماء المواقع المرتبطة بأحداث جرت، أو بالأحرى يفترض أنها جرت ضمن فترة زمنية محددة، فإنه يمكن متابعة هذه الأحداث جغرافيا اعتمادا على ما توفر من أسماء لمواقع ورد ذكرها في الكتابات القديمة ومنها ما يعود إلى ممالك الشرق القديمة مثل آشور ومصر.

وبعد هذا المدخل نلتفت الآن إلى أطروحة كمال الصليبي. ونقول إنه أقامها على ركائز خمسة أساسية هي التالية:

١- التحليل اللغوي لنصوص توراتية محددة.

ومن ذلك على سبيل المثال فهمه أن المفردة «التوراتية» [تهموت] تعني «تهامة»، أي المنطقة الساحلية من جنوب غربي جزيرة العرب، علما بأن الرأي التقليدي يرى بأن المقصود هنا «الغمر» أي المياه تحت أرضية - أصل الحياة وفق الخرافات البابلية. وبناء على ذلك فقد قرأ النصوص التوراتية التي يرد فيها هذا المصطلح في ضوء بلاد عسير. لكننا لن نحاول التعمق في الموضوع لأن ذلك يتطلب عمل مقارنة لغوية بين العديد من لغات المشرق العربي القديمة بما سيعقد من الموضوع في ذهن القارئ بدلا من تبسيطه.

٢- إعادة قراءة بعض الأحداث التاريخية التي شهدها المشرق العربي في الفترة محل الاهتمام.

والمقصود بذلك أن وجهة غزوات قوات نبوخذ نصر الثاني البابلي كانت جنوب غربي جزيرة العرب ولم يكن هدفها فلسطين. وقد استعان الصليبي هنا بكتابات الإخباريين العرب التي تتحدث عن تدمير قواته للحجاز.

٣- قراءة نصوص توراتية ضمن جغرافية جزيرة العرب بشكل عام وبلاد عسير بشكل خاص.

ورغم أن كمال الصليبي قصر القسم الأعظم من تفحصه على متابعة جغرافية المواقع الجغرافية التي ترد في النصوص، إلا أنه تناول بعضها، ومن ذلك على سبيل المثال الموقع «جرار» الذي كثيرا ما يتردد في التوراة وبين أن الاسم يشير إلى أكثر من مكان يحمل الاسم نفسه. كما تناول بالتحليل النصوص التوراتية التي تصف حدود «أرض الميعاد» بالعلاقة مع «إبراهيم» و«موسى» التوراة وقدم عرضًا مقنعا لحدودها ضمن جنوب غربي جزيرة العرب.

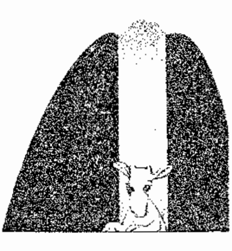
٤- نقد الاكتشافات المعتمدة في الدراسات الإنجيلية.

٥- قراءة نقوش أثرية تعود لبعض ممالك المشرق العربي ضمن جغرافية جزيرة العرب.

بدأ كمال الصليبي مؤلفه بشرح الركيزة الأولى لأطروحته والقائمة على قراءة العهد القديم بلغته أو بلهجته الكنعانية - المعرفة خطأ بأنها «عبرية» - بعيدا عن مختلف الترجمات والتأويلات المعتمدة في هذا التخصص العلمي. وتمكن بفضل ذلك من كشف الكثير من الأخطاء التي ارتكبها العلماء في قراءتهم وبالتالي في فهمهم للنصوص. وأكد المؤلف، كأحد أهم نتائج أطروحته، أن سبب تلك الأخطاء هو قيام المتخصصين في «الدراسات الإنجيلية» بقراءة النصوص التوراتية متأثرين بأحكام مسبقة. وقدم من جانبه العديد من الاجتهادات اللغوية الجديدة التي تحل ما كان يعتبر من قبيل المعضلات اللغوية والجغرافية في علم «الدراسات الإنجيلية» بسبب قراءته المجردة للنصوص عن كل المسلمات الدينية والجغرافية المتداولة. كما أوضح الدور الكبير الذي يمكن أن تلعبه اللغة العربية، كأهم لغة سامية حية، في فهم العديد من النصوص التوراتية التي استعصت على علماء الإنجيل حتى الآن، رغم أن الرعيل الأول من العلماء لم يجد حرجا في ذلك.

وعلى سبيل الاستطراد، تطرق المؤلف إلى

لماذا لم يربط القرآن عيسى ابن مريم بفلسطين، بل ربط ولادته بمكة على أساس أن الآية الكريمة: «واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا» هي آية مكية؟



الأداة اللغوية التي استخدمها في تحليله، والتي تهتم بملاحظة تغير موقع الحروف في إطار الكلمة نفسها واللغة بل واللهجة نفسها، كما تهتم بتغير موقع الحروف من لغة إلى أخرى.

نموذج للحالة الأولى تحول كلمة «زوج» في العربية الفصحى إلى كلمة «جوز» في اللهجات العامية. ونموذج للحالة الثانية تحول كلمة «شعلب» في اللغة التوراتية إلى «ثعلب» في اللغة العربية، أو «جلعاد» وهو اسم موقع جغرافي يتكرر في التوراة إلى «الجعد» في اللغة العربية.

ويتحول الصليبي في شرح الركيزة الثانية لأطروحته إلى استعراض ما رآه من تطورات تاريخية سبقت ما يسمى بالسبي البابلي الذي يفترض أنه جرى حوالي عام ٥٨٦ ق. م. وما رآه من عوامل أدت إلى نسيان الجغرافيا الأصلية للأحداث المرتبطة بالأسباط. والمقصود بالسبي البابلي ذلك الخبر الذي أوردته التوراة، ولم تؤكده النقوش البابلية ذات الصلة، عن قيام ملك بابل نبوخذ نصر الثاني (والذي عرف عند الإخباريين العرب باسم بختنصر) باقتياد أعيان مملكة يهوذا بعد القضاء عليها إلى بابل وتوطينهم فيها. وقد نوه كمال الصليبي في هذا المقام بأهمية الانتباه إلى موقع «بلاد عسير» على أساس أن قسما من خط التجارة الرئيسي في العالم القديم والممتد من جنوبي جزيرة العرب وحتى شط العرب وبلاد الشام (والذي عُرف باسم درب البخور والذهب) كان يمر عبر ذلك الإقليم الذي يفترض أنه احتضن مملكة يهود بني إسرائيل. ورأى المؤرخ اللبناني أنه في إطار هذه الحقيقة يمكن فهم أبعاد الحدث الهام الذي شهده المشرق العربي لأول مرة في القرن السادس قبل الميلاد والمقصود بذلك «توحد» الإقليم تحت الاحتلال الفارسي، بحيث امتد ليشمل مجمل المشرق العربي ومصر وبلاد الإغريق. وقد كانت إحدى نتائج ذلك «التوحد» القضاء على خطوط التجارة التقليدية للإقليم مع شرقي أفريقيا والهند وجنوب شرقي آسيا، حيث صارت البضائع المستوردة من تلك الأقاليم تنقل بشكل مباشر إلى الخليج العربي.

وعندما سمح الفرس لبقايا السبايا بالعودة إلى مواطنهم الأصلية في جنوب غربي جزيرة العرب - على ما تقوله التوراة - وجدوا أن المنطقة قد خربت اقتصاديا بعد القضاء على خط التجارة القديم. وإذا كان قسم من السكان قد ظل في الإقليم (وهو ما يشرح الوجود «اليهودي» القديم في جزيرة العرب)، فقد انتقل جزء آخر شمالا حيث أطلق أسماء مستوطناته القديمة على مناطق سكناه الجديدة في فلسطين. ومع مرور الزمان خبا الضوء عن الوطن الأصلي باستثناء إشارات عابرة هنا وهناك في كتابات الإخباريين العرب. وقد رأى صاحب الأطروحة أن ذلك الانتقال السكاني هو ما يشرح الوجود المكثف للأسماء التوراتية في بلاد عسير، مقابل خفتها في فلسطين.

وقد شكل ذلك العرض التاريخي أرضية انتقال المؤلف إلى الركيزة الثالثة لأطروحته والتي خصص لها القسم الأكبر من مؤلفه، ألا وهي تحليل نصوص مختارة من مختلف أسفار التوراة تحوي أسماء مواقع في بلاد عسير، تتطابق بشكل دقيق مع ما يرد من أسماء في تلك البلاد، تأكيداً منه على صحة افتراضاته.

ولا مفر في هذا الخصوص، من التذكير مجددا أنه حسب «الدراسات الإنجيلية»، فإن ما من أثر يذكر، نقشاً كان أم مبنى، يربط فلسطين وأرضها بأي حدث توراتي، الأمر الذي برر لمتخصصين فيها وضع جغرافية التوراة التقليدية على المحك، وسمح بإعادة تمحيص تاريخ فلسطين خلال الفترة الممتدة من القرن العاشر قبل الميلاد وحتى ما أشير إليه بالسبي البابلي.

ومن تحليل النصوص كجوهر ركيزته الثالثة، إلى فحص النقوش في ركيزته الرابعة، ينتقل الصليبي مشككاً في سلامة الشائع منها، كونه لا يهدف إلى إثبات صدقية التوراة وتاريخيتها. ومن النقوش التي يعيد المؤلف فحصها، نقش «لكش / لكس» علما بأن الاسم ينطق «لخش» أو «لخيش». ويحوي هذا الأثر، وهو عبارة عن قطع فخارية عثر عليها عامي ١٩٣٥ و١٩٣٨ في مدينة تل الدوير الواقعة جنوبي فلسطين المحتلة ذو تاريخ غير محدد التاريخ أصلا، هو عبارة عن تقارير وشكاوى أرسلها شخص يحمل اسم هوسعيهو. وبدون الخوض في التفاصيل اللغوية المعقدة التي تخرج بنا عن سياق هذا العرض، فإن العلماء الإنجيليين يعتبرون أن هذا النقش يقدم دليلا على أن مدينة تل الدوير الفلسطينية هي نفسها المدينة التوراتية «لخش». وقد قام الصليبي بقراءة النص بلغته الأصلية، لتتضح لنا مرة أخرى حقيقة أن معرفة لغة التوراة ونحوها من اللغات القديمة هي شرط مسبق لأي عمل يمكن أن يدعي الحد الأدنى من الجدية. وأوضح أن ما يقدمه الرأي التقليدي من ترجمات للنصوص القديمة ذات الصلة غير موثوق به. ومن النقوش الأخرى التي تفحصها المؤلف، ما يسمى «نقش سلوان» الذي عثر عليه ضمن حدود قرية سلوان الواقعة بمحاذاة مدينة القدس المحتلة. ويحكي النقش المنحوت على جدران نفق مائي عن قيام العمال بحفره من جهتين في آن واحد. وهو تأويل يجد صداه في التوراة التي تربطه بفترة حكم حزقيا ملك يهوذا في القرن الثامن قبل الميلاد. وتكمن أهمية تعامل كمال الصليبي مع هذا «الدليل» الجديد، في لفت الانتباه إلى أنه لا يحوي أية إشارة إلى حزقيا أو إلى يهوذا، وأن الأنفاق تحفر في المواقع التي تنشأ الحاجة إليها في كل الأزمنة. وعلى صعيد آخر، من الواضح أن النص التوراتي عن النفق، كتب في القرن الثاني للميلاد. هذا إن كان المقصود واحداً. وقد أشرنا سابقا إلى أن أحد هموم كتبة التوراة، كان هو وضع الزمان المطلق في جغرافيا محددة. لذا فالاحتمال قائم بأن أولئك الكتبة قاموا بأخذ خبر متأخر وربطوه بزمن سابق ليمنحوا كتاباتهم الجديدة شرعية تاريخية هي غير جديرة بها. ومن الجدير بالذكر أن القراءة التقليدية لتاريخ هذا النقش تتعرض لتحد من داخل البيت التقليدي نفسه حيث نشر اثنان من علماء الإنجيل الإنجليز بحثا في إحدى المجلات المتخصصة عبرا فيه عن اقتناعهما بأن النقش يعود على أقصى تقدير إلى القرن الثالث قبل الميلاد.

وخصص كمال الصليبي فصلين من مؤلفه للركيزة الخامسة لأطروحته، حيث تعامل نقديا مع إحدى الأدوات التحليلية الأساسية التي يعتمدها الاتجاه التقليدي في علم «الدراسات الإنجيلية» في محاولته التعرف على جغرافيا النصوص التوراتية، ونقصد بذلك ما نطلق عليه اسم «البرهان الظرفي»، أي النقوش الأثرية التي عثر عليها خارج فلسطين، وتحديدا في ممالك الشرق القديمة «ومنها المصرية والآشورية». وذلك التفافًا حول ما صار معروفا من انقطاع للصلة بين النقوش داخل فلسطين والنصوص التوراتية. ومن هذه الآثار الخارجية ما يعرف باسم «الحجر المؤابي» الذي عثر عليه القرن الماضي في شرق الأردن والذي يتحدث عن حروب مملكة مؤاب مع الأسباط وإلحاقها الهزيمة بهم، وهو خبر لا يرد له ذكر في التوراة. وقد بين كمال الصليبي بقراءته الشخصية للنقش أخطاء علماء الإنجيل وكيفية إخضاعهم النص لتأويلاتهم.

وعلى صعيد آخر، تعامل الأستاذ اللبناني تعاملاً نقدياً مع القراءات التقليدية لآثار أخرى يوظفها علم الدراسات الإنجيلية كدليل على صحة وجهة نظره ومنها ما يعرف باسم «رسائل تل العمارنة» أو «رسائل العمارنة» وهي عبارة عن مراسلات عادة ما يُؤرخ لها بالألف الثانية قبل الميلاد. عثر عليها أواخر القرن الماضي قرب مدينة العمارنة جنوبي مصر، وكان قد أرسلها موفدو بعض ملوك بعض تلك البلاد للأقاليم المجاورة إلى ملوكهم تقص مشاكلهم مع أمراء مدن محددة يرد ذكر بعضها في التوراة. وقدم كمال الصليبي تعريفاً بالكثير من تلك المدن، بوصفها تقع في غربي جزيرة العرب وليس في فلسطين.

كذلك قام المؤلف بقراءة نصوص «جغرافية» أخرى تعود لبعض ممالك المشرق العربي القديمة، ويرى الاتجاه التقليدي السائد أنها تشير إلى فلسطين. ومن ذلك كتابات بعض ملوك مصر التي تتحدث عن غزوات قواتهم في الإقليم، حيث ترد في النصوص ذات الصلة أسماء مواقع مذكورة في التوراة على أنها تقع ضمن حدود مملكة بني إسرائيل. ومن ذلك على سبيل المثال تلك النصوص المنسوبة إلى مؤسس ما يعرف باسم «المرحلة الليبية» في تاريخ مصر الملك شيشنق الأول (٩٤٦ - ٩٢٥ ق.م) من الأسرة الثانية والعشرين، والتي سجل فيها على جدران معبد الكرنك بمصر العليا أسماء الأقوام والمواقع التي اقتحمتها قواته، وهو حدث تشير إليه التوراة في سفر الملوك الثاني، وتقول إن قوات ملك مصر غزت مملكة يهوذا عقب وفاة سليمان ونهبت خزائن المعبد أو الهيكل، رغم أن نقش شيشنق لا يذكر الإقليم بالاسم. لكن الملاحظ أن كمال الصليبي لم يناقش صحة الخبر نفسه، بل على العكس نرى أنه تمسك به واعتبره مؤيداً لأطروحته الرئيسية.

ومن الجدير بالذكر أن كمال الصليبي طور أفكاره وأبحاثه بشكل كبير في مؤلف آخر هو «خفايا التوراة - وأسرار شعب إسرائيل»، حيث قام بتحليل العديد من قصص العهد القديم ومنها على سبيل المثال قصة سيدنا نوح. وقدم براهين من النصوص نفسها على أن الأحداث كانت تجري في غربي جزيرة العرب وجنوبيها، حيث توجد بالفعل معظم الأسماء

الواردة فيها. كما بيّن الصليبي في قراءته للنصوص أن مسرح القصص التوراتي، لم يقتصر على بلاد عسير إنما امتد ليشمل مناطق أخرى من جزيرة العرب، ومنها عمان على سبيل المثال. وفي «خفايا التوراة ...» أيضًا. محص المؤلف جغرافية بعض القصص التي استقصى تقصي وقائعها في مصر وبلاد الشام. ومنها على سبيل المثال قصة خروج بني إسرائيل من (مصر) والتيه الذي تبع ذلك. فلقد أوضح المؤلف أن ذلك الخروج لم يمر بمنطقة البحيرات المرة على خلاف الرأي التقليدي، وإنما جاء عبر «بحر الصافي» الواقع شرقي بلاد عسير، علمًا بأن التوراة تطلق على «البحر» الذي عبره «العبرانيون» إبان خروجهم من مصر اسم «يم سوف» وليس «البحر الأحمر» كما يرد في الترجمات المعتمدة.

ووصلت أبحاث المؤرخ اللبناني إلى قمة إبداعها في مؤلفه الثالث تحت عنوان «حروب داود - الأجزاء المنحية من سفر صموئيل الثاني مترجمة عن الأصل العبري». وقد تناول المؤلف في ذلك الكتاب أجزاء من سفر صموئيل الثاني الذي يحكي شعرا قصة انتقاء شاول بداود، ثم انفجار الصراع بينهما، وبيّن أن وقائعه لا يمكن أن تنطبق على أية بقعة جغرافية باستثناء عسير. وكان الصليبي قد استهل مؤلفه بمقدمة تاريخية طور فيها رؤيته لتاريخ بني إسرائيل، وميز بشكل واضح بين هؤلاء ودياناتهم من جهة، واليهود واليهودية من جهة أخرى. ويعد ذلك من الأمور التي لم يشر إليها بشكل واضح في مؤلفيه الأول والثاني ومما لم يلتفت إليه معظم البحاثة العرب حتى الآن.

وإذا كان الاتجاه المهيمن على الدراسات الإنجيلية، قد اتخذ موقفًا ناقضًا من كمال الصليبي وأطروحته، بوصفه دخيلا على التخصص أي غير مخول بالحديث فيه رغم امتلاكه كل الأدوات العلمية، فإن هذا أدى إلى توالي الاجتهادات الإنجيلية، ومنها مجموعة من الأبحاث غاية في الأهمية عن تاريخ فلسطين وجذور بني إسرائيل، في طليعتها مؤلف العالم الإنجيلي الأمريكي توماس طومسون الذي نشر عام ١٩٩٢ تحت عنوان «تاريخ بني إسرائيل العتيق - اعتمادا على المصادر الأثرية والمكتوبة»، والذي كان سببا في طرد صاحبه من وظيفته الجامعية على أثر نشره، بحيث اضطر إلى مغادرة بلاده والانتقال إلى أوروبا حيث يعمل حاليا في إحدى جامعات الدانمارك. كما صدر عام ١٩٩٣ عن قسم الدراسات اللاهوتية بجامعة شيفلد بالمملكة المتحدة مؤلف «تاريخ فلسطين القديم - من العصر الحجري وحتى حملة الإسكندر المقدوني» للعالم الإنجيلي السويدي الراحل جوستا الفستروم. وقد شكك ذلك العالم الذي توفي قبل صدور كتابه ثم استكمله زملاؤه، في الكثير من القصص الإنجيلية السائدة. كما نشر عام ١٩٩٦ مؤلف ثالث بعنوان «تلفيق إسرائيل - طمس التاريخ الفلسطيني» لعالم التوراة البريطاني كيث وايتلام وعنوان الكتاب ينم عن محتواه. هذا دون الحديث عن المجلات المتخصصة في الدراسات الإنجيلية التي لا يطلع عليها إلا أهل الاختصاص، والتي تعد ساحة لنقاشات مهمة حول الموضوع والتي ترفض الآراء التقليدية السائدة وتشكك في مجمل محتويات كتاب اليهودية المقدس.

وفي كل الأحوال، فإن نشر كتاب كمال الصليبي، ومن بعده العديد من المؤلفات الناقدة للدراسات الإنجيلية التقليدية - أوضح أن ما يقدم للقارئ من معلومات عن تاريخ فلسطين وبني إسرائيل هو مجرد نظريات قابلة للتعديل الجزئي أو الكلي، سيما في غيبة أي دليل أثري على صحتها. وفي الحقيقة فإن كل ما فعله كمال الصليبي هو قلب منهجية البحث الإنجيلي السائدة، والتي تنطلق من صحة الجغرافيا وخطأ التاريخ.

وفي هذا السياق نفسه يأتي المؤلف الجديد موضع العرض، والذي اختار له صاحبه عنوانًا موحيًا هو «ذهب الخروج - اكتشاف جبل سيناء الحقيقي».

موضوع الكتاب كما يوحي العنوان، هو البحث في ما يرد في الإصحاحات ١٢ - ١٩ من سفر الخروج عن مكان لقاء موسى بإله التوراة يهوه على الجبل المسمى «سيني» (وفي الترجمات العربية القديمة «سيناء») والذي يعتبره البعض جبل موسى الذي يطل على جبل القديسة كاترين في شبه جزيرة سيناء. ومن الجدير بالذكر أن ربط ذلك المكان بقصص التوراة يعود إلى الإمبراطور قسطنطين الأكبر في القرن الرابع الميلادي، والذي حلم بأن يكون هو موسى «الجديد».

يتضمن هذا الكتاب مقدمة و٤٣ فصلا صغيرا تغطي القسم الأكبر من المؤلف الذي يربو على ٣٦٠ صفحة. والجانب الأكبر من الكتاب مكتوب بأسلوب روائي مثير يحكي قصة تسلل أمريكيين هما التاجر الثري لاري ويليامز والشرطي السابق بوب كورنيوك إلى المملكة العربية السعودية بحثًا عن جبل سيناء الحقيقي في شمال غربي الإقليم، حيث يعتقدان - ومعهما العديد من علماء الكتاب - أن الموقع المقصود هو جبل اللوز قرب مدينة تبوك الواقعة شمالي الحجاز. وفي هذا السياق، يصور الكتاب العوائق التي كان على المغامرين الهاويين تجاوزها ليصلا إلى موقع تحقيق أحلام كل منهما، أحلام بوب كورنيوك في الوصول إلى جبل سيناء «الحقيقي»، وأحلام لاري ويليامز الذي موّل المغامرة بهدف الوصول إلى الذهب الذي تقول التوراة أن «العبرانيين» الخارجين من مصر تركوه قبل أن يسيروا وراء موسى باتجاه «أرض الميعاد». ويحكي المؤلف - وبتفاصيل شيقة - كيفية تجاوز المغامرين بعض تلك العوائق، ومن ذلك كيفية تمكنهما من استخراج تأشيرة دخول إلى أراضي المملكة العربية السعودية.

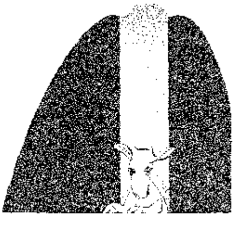
ويتحدث الكتاب أيضا عن سعي المملكة لبناء نظام صاروخي خاص بها، وكيفية تمكنها من شراء صواريخ صينية متوسطة المدى على أراضيها في إطار «مشروع الصقر»، وعن رد فعل الولايات المتحدة وسعي العدو الصهيوني لتدميره قبل إنهائه.

كما يعثر القارئ في صفحات المؤلف على الكثير من المعلومات الثمينة التي تكشف قدرات الولايات المتحدة الأمريكية على جمع ما تريده من معلومات باستخدام ما تتوافر لها من أجهزة إلكترونية متقدمة. ويشير المؤلف أيضا إلى خلفية العديد من القصص التي سمع بها القارئ بعدما تناولتها أجهزة الإعلام، ومن ذلك الزوبعة الصغيرة التي أحاطت بالعلاقات الأمريكية - الإسرائيلية بعد الكشف عن جاسوس للأخيرة كان ينقل معلومات غاية في الأهمية لتل أبيب، وعن كيفية إنهاء تلك الأزمة العابرة.

وبإلقاء نظرة على مصادر الكتاب نجد أن المؤلف قد رجع إلى بعض الصحف والمجلات المتخصصة في الشئون العسكرية وإلى بعض الكتب غير المتخصصة. وكذلك، وهو الأهم فإنه تلقى مساعدة من كل من استخبارات العدو الصهيوني والاستخبارات الأمريكية في جمع المعلومات عبر لقاءات مباشرة أجراها مع مندوبيها. والكتاب في مجمله قصة بوليسية من الطراز الأول، بطلاه شخصان مغامران أضحيا لعبة في يد مخابرات العدو الصهيوني.

ومن الجدير بالذكر أن لاري ويليامز الذي كان أحد المشاركين في المغامرة التي انطلقت عام ١٩٨٨ وانتهت بإلقاء القبض عليه وشريكه من قبل قوات الأمن بالمملكة السعودية، كان قد سجل قصته في كتاب نشره على نفقته

في قصة خروج بني إسرائيل من مصر أوضح المؤلف أن الخروج لم يمر بمنطقة البحيرات المرة، وإنما جاء عبر «بحر الصافي» الواقع شرقي بلاد عسير



الخاصة عام ١٩٩٤ تحت عنوان «جبل موسى». لكن يبدو أن ذلك العمل الذي قيضت له دعاية واسعة في مجلات أمريكية متخصصة في الدراسات الإنجيلية، لم يلق انتشارا واسعا، مما قاد في نهاية الأمر إلى تبنيه من قبل الصحافي الأمريكي هوارد بلوم (الذي عمل في العديد من الصحف الأمريكية الشهيرة ومنها نيويورك تايمز، ولا يزال يعمل لمجلة فانيتي فير التي نشرت مراجعة الكتاب في عدد فبراير الماضي). ولا شك أن تبني الصحافي الأمريكي المعروف قد ساعد في انتشار الكتاب.

ورغم أن أطروحة الكتاب التي تعتبر أن شمالي غرب جزيرة العرب هو مكان قصة موسى مع إلهه يهوه ليست بجديدة، إلا أنه من الصعب تحديد تاريخ ما قال المغامران أنهما عثرا عليه من آثار، رغم عدم تقليلنا من أهمية المادة. وبغض النظر عن قناعتنا الشخصية حول مجمل الروايات التوراتية، وجغرافيتها والتي عبرنا عنها في العديد من المؤلفات المنشورة.

ورغم أن الكتاب لا يشرح بصورة واضحة كيف وصل المغامران الأمريكيان إلى اقتناعهما بخصوص كون «جبل اللوز» هو المكان المفترض أن موسى استلم فيه ألواح الوصايا من إله التوراة يهوه، إلا أننا نرى أن الكاتب أشار إلى عدد من البراهين منها:

أولا، بما أن النص التوراتي يقول أن يهوه ظهر لموسى على هيئة نار، فقد تم الاستنتاج بأن المكان المقصود لابد وأن يحوي آثار حمم بركانية وهو الأمر غير المتوفر في الموقع المحدد في شبه جزيرة سيناء. وفي المقابل، فإن معظم منطقة الحجاز (وليست تلك المحيطة بتبوك فقط) تحوي آثار نشاطات بركانية قديمة.

ثانيًا، لقد أخذ المغامران بشكل حرفي قول التوراة أن عدد الفارين من مصر من «العبرانيين» قارب المليون شخص، مما يعني أن المنطقة المتاخمة للجبل الذي استلم فيه موسى التوراة الوصايا العشر يجب أن تكون متسعة وكافية لاستيعاب مثل هذا العدد من الناس.

البرهان الثالث هو أن النصوص التوراتية ذات العلاقة بجبل سيني أو سيناء وفق الترجمات، تشير إلى الأبقار وهي من الحيوانات التي لم تذكرها النصوص التاريخية القديمة عن الإقليم بما يؤكد انضباطها

بذاتها لم تكن معروفة هناك. وقد عثر المغامران على نقوش على الصخور لأبقار قرب الجبل بما قادهما إلى ربط تلك الرسومات بسفر الخروج ٣٢:٤ الذي يتحدث عن عبادة العبرانيين للعجل الذهبي.

وهناك «إثبات» رابع استعان به المغامران وهو عثورهما في منطقة محاذية لسفح جبل اللوز على أكوام حجارة رأيا فيها المذبح الذي تقول الإصحاحات ٢٠: ٢٤-٢٦ و٢٤: ٤ من سفر الخروج أن موسى قام ببنائه ليقدم عليه الأضحية لإلهه يهوه.

كما أشار المغامران إلى عثورهما في المنطقة ذاتها على اثني عشر عمودا رأيا أنها تمثل الأسباط الاثني عشر.

نحن لا نشك في أن هذه المنطقة تحوي الكثير من الآثار، إلا أنه من المستحيل ربط أي منها بأي رواية أو قصة إلا بعد التقصي العلمي، آخذين بعين الاعتبار أنه لم يعثر حتى الآن على أية آثار في مصر يمكن ربطها بموسى التوراة وقبيلة من «العبرانيين». هذا بالطبع لا يقلل من اهتمامنا بالتعرف على ما تحويه ليس تلك المنطقة فحسب وإنما مجمل جزيرة العرب من آثار، إلا أنه في غياب أية إثباتات واضحة الرسالة تبقى المقولات هذه ضربا من المغامرة وليس أكثر من ذلك.

المهم في الأمر أنه في غياب أي تقييمات مستقلة للآثار موضوع الكتاب، فضلا عن عدم توفر أية إمكانية في الوقت الراهن للتنقيب الأثري الميداني في الإقليم، فإن القيمة العلمية للأطروحة تبقى مجهولة، آخذين بعين الاعتبار أن صاحبيها لا يمتلكان الحد الأدنى من المعارف التاريخية واللغوية اللازمة للبحث في الموضوع. لكن إشارة الكاتب إلى تبني هوارد بلوم للمؤلف وقرب البدء في تصويره سينمائيا يوضح الفرصة التي يحتلها بأنه الإطار الأكثر ملاءمة حقا لهذا الكتاب.

وبالعودة إلى مادة مقالتنا الأساسية وبالتحديد أطروحة الصليبي «افتراض صحة التاريخ وخطأ الجغرافيا»، وبغض النظر عن سلامتها من عدمها، وسواء كانت قابلة للتعديل الجزئي أو الكلي، نرى أنها قدمت لمن يرغب من الباحثين العرب في تاريخ المشرق العربي أدوات علمية هامة، وأوضحت أن هناك الكثير في ذلك التاريخ مما يستوجب المراجعة والتصحيح. ومن ذلك على سبيل المثال علاقة مصر بالإقليم وبجزيرة العرب فقد قدم صاحب الأطروحة من خلال مراجعاته جغرافية بعض النصوص التاريخية ولجغرافيا القديمة، أدوات ومؤشرات علمية هامة للعناية، توضح ضرورة إعادة الكثير من الأفكار السائدة عن تاريخ الأمة وضرورة إعادة النظر في وحدته الحضارية التاريخية، وهو ما يتقيه الخطاب الاستشراقي.

وفي المحصلة النهائية يبقى السؤال المهم: هل كان موطن بني إسرائيل في عسير أم في فلسطين؟ والأهم من ذلك سؤال عن قصة فارق بالمسميات لنا كعرب أن يكون موطن بني إسرائيل في عسير وليس في فلسطين؟

هنا أكون وضعت التساؤل مع المسألة سياسيا ولا تفاعلا بإخضاعها لمفردات الخطاب السياسي، والتعبير عن قناعتنا بضرورة التعامل مع المادة من منطلق علمي محض وموضوعيتها في التاريخ.

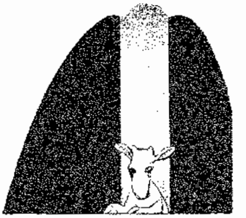
وفي هذا السياق نسأل: ما دلالة الأطروحة على فهمنا لتاريخ بلادنا؟

لنكن أكثر وضوحا ولنطرح المسألة التالية: إن كان الموطن هو فلسطين، فلماذا لم يرد في القرآن الذي ذكر بني إسرائيل مرارا إشارة واضحة إلى هذا؟ وإن كان الخروج تم من مصر أي من بلاد نهر النيل فلماذا لم ينقل القرآن ذلك بصريح النص؟

وإذا كانت فلسطين هي التي احتضنت تجربة بني إسرائيل الدينية والتاريخية، فما

سبب احتواء القرآن على هذا العدد الكبير من الآيات عن بني إسرائيل البعيدين كل البعد عن جزيرة العرب؟ لقد تحدث القرآن إلى العرب عن مسائل كانت منتشرة بينهم وأعطاهم أمثلة ومواعظ عن أقوام عرفوها. فلولا كان العرب على علم عميق بأخبار بني إسرائيل وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وآدم ونوح ... إلخ، لفقدت القصص والمواعظ المرتبطة بهم أي معنى. فالبشر لا يتعظون بقصص أناس لا يعرفونهم. أو لنقل بأن استحضار أمثلة عن مصائر أقوام عرفهم العرب أو كانوا جزءا لا يتجزأ من تراثهم التاريخي هو أقوى بما لا يقارن من استحضار أمثلة عن أناس مجهولي الهوية. لقد عثرنا على مؤلف قام صاحبه بمحاولة فهم بعض قصص بني إسرائيل الواردة في القرآن ضمن جغرافية عسير، لكن صاحبه أخضع عمله للخطاب الحماسي وابتعد عن التعامل العلمي المحايد مع النصوص بما أضعف من الجهد الذي بذله.

لقد أتم كمال الصليبي أطروحته في مؤلف صدر له باللغة الإنجليزية تحت عنوان «مؤامرة في القدس ـ الأصول الخفية للمسيح» حيث ذكر فيه أن عيسى ابن مريم المذكور في القرآن ليس هو «الجليلي» يسوع بن يوسف النجار المعروف بأنه المسيح «الناصري»؛ وهو مايشرح القول القرآني بالخصوص ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾. وعبر عن رأيه بأن المقصود بذلك هو أن الأمر اختلط على القائلين بأن عيسى ابن مريم قد صلب. وأنه ليس ذلك الشخص الذي قتل صلبا في القدس. ثم ينطلق كمال الصليبي ليبحث في أصول يسوع المسيح وفق ما ترد في الأناجيل الأربعة وضمن إطار منهجية «الدراسات الإنجيلية»، ويصل إلى نتيجة مفادها أن يسوع جاء من جزيرة العرب ومن منطقة الطائف تحديدا حيث يوجد وادي جليل الذي تقطنه قبيلة النصيريين حتى يومنا هذا؛ وأنه توجه إلى فلسطين مطالبا بالملك، أي



طالبا الاعتراف بأنه هو المسيح لأنه ينحدر من بيت داود ـ وهو ما تشترطه التوراة.

ويمضي متسائلا: إذا كان التحليل ينتهي إلى غير ذلك، فلماذا لم يربط القرآن عيسى ابن مريم بفلسطين. بل ربط ولادته بمكة، على أساس أن الآية ١٦ من سورة مريم التي تقول ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا﴾ هي آية مكية؟

ومن جانبنا وبدورنا نعيد السؤال إن كان عيسى ابن مريم هو نفسه يسوع بن يوسف النجار، وكان موطنه فلسطين، فما مدى تأثير هذه القصة والمواعظ المرتبطة بها على العرب سكان الجزيرة؟ ولماذا يستحضر لسكان جزيرة العرب أمثلة من خارج الإقليم ومن خارج تراثهم التاريخي والتراثي بدلا من قصص من تاريخهم؟

وبهذا تكتمل الدائرة عند كمال الصليبي حيث ينظر، ضمن علم الدراسات الإنجيلية، إلى أطروحته كلبنة في بنيان تاريخ المشرق الذي هو بحاجة إلى إعادة نظر في الكثير من مراحله، وهذه تحديدا ما نرى أنها أهم نتائج أطروحته.

لقد أهمل الباحثة العرب مسائل كثيرة في تاريخ بلادهم واتبعوا إحدى منهجيتين. إما الاستسلام الكامل لما تناقله الإخباريون العرب من أخبار عن التاريخ القديم، وإما رفض ما جاء في تلك الكتابات لصالح تحليلات ورؤى صبيانية طرحها بعض المستشرقين في مطلع هذا القرن.

وثمة نقطة أخرى نرى أنها من نتائج هذه الأطروحة، وبالتالي فإنها تستحق النقاش الموسع، وتلك هي التمييز بين بني إسرائيل الذين ننظر إليهم على أنهم أحد أقوام العرب البائدة والمستعربة، وبين اليهود الذين هم طائفة دينية بدأت في التكوين بأوروبا منذ القرن الثاني للميلاد. ونلاحظ هنا أن القرآن ميز بدوره بين الجماعتين. وهذه من الأمور المهمة حقا.

كما أن هناك نقاطا أخرى مرتبطة بذات الأطروحة، تتصل بفهم تاريخ العرب في العصور الأولى، أي قبل الإسلام. فجزيرة العرب هي الإقليم الوحيد الذي شهد ظهور الكثير من الأنبياء ومن مدعي النبوة أيضا، قبل ظهور النبي وبعده. فماذا يعني ذلك؟ ولماذا لم يظهر ذلك في أي مكان آخر من المشرق العربي؟

وماذا يعني أيضا وجود الشعراء في جزيرة العرب بهذه الكثافة؟

وماذا يعني أن يلعب الشعر والشعراء ذلك الدور المرموق في حياة العرب؟

وماذا يعني أن يقال إن النبي محمد شاعر؟ وينظر القرآن إلى ذلك على أنه تهمة وجب ردها، بالرغم من المكانة العالية التي تمتع بها الشعراء عند العرب؟

ولماذا لعبت اللغة ذلك الدور الاستثنائي في حياة العرب منذ البداية؟

ومن هم الشعراء الأنبياء، أو الأنبياء الشعراء؟

وماذا تعني «المعلقات»؟

وماذا يعني البكاء على الأطلال عند العرب؟

لا شك في طول قائمة الأسئلة التي نعتقد أن الإجابات عنها مرتبطة إلى حد كبير بالدراسات الإنجيلية بشرط أن تكون جدية وقائمة على دراسة محايدة ومنفتحة وتجديدية للعهدين القديم والجديد.

ولا شك أنه لا توجد إجابات جاهزة لها، وأن الكثير مرتبط بقدرتنا على الانفتاح على البحوث بعيدا عن الرؤى الضيقة، ومتجردين من الأحكام المسبقة والخطاب السياسي، بالرغم من أننا سنقدم إجاباتنا لبعضها في مؤلفنا القادم عن تاريخ فلسطين القديم والذي نأمل صدوره في نهاية هذا العام. لكن الجهد الفردي، ومهما كان معطاء، يبقى غير قادر على الإجابة عن جميع المعضلات والأسئلة المطروحة، وبالتالي فإذا كنا نريد أن نفهم تاريخنا وأنفسنا وجذورنا وموقعنا في هذا العالم ـ فعلينا أن ندرسها بجدية وتحرر من الأحكام المسبقة. وهذا لا يمكن أن يكتمل إلا بتأسيس مركز أو مراكز عربية للدراسات الإنجيلية بحيث تمنح الأموال التي تستحقها. فهذا أجدى لنا من مطالبة الغير بأن يكتب لنا تاريخنا وفق أهوائنا، ونحن لا تنقصنا لا الأموال ولا القدرات، فمن يسمع ويستجيب؟! ■

كتاب
الزاوية

من أجمل قصائد الحب الإلهي

● «وا رحمتاه للعاشقين» للسهروردي

ـ شهاب الدين عمر السهروردي ، ولد في سهرورد وقرأ كتب الدين والحكمة وأقام في مراغة وبغداد وحلب ، وكان مقتله بأمر السلطان صلاح الدين ، بعد أن نسب إليه البعض فساد المعتقد .

توفي بحلب سنة ٦٦٥ هجرية .

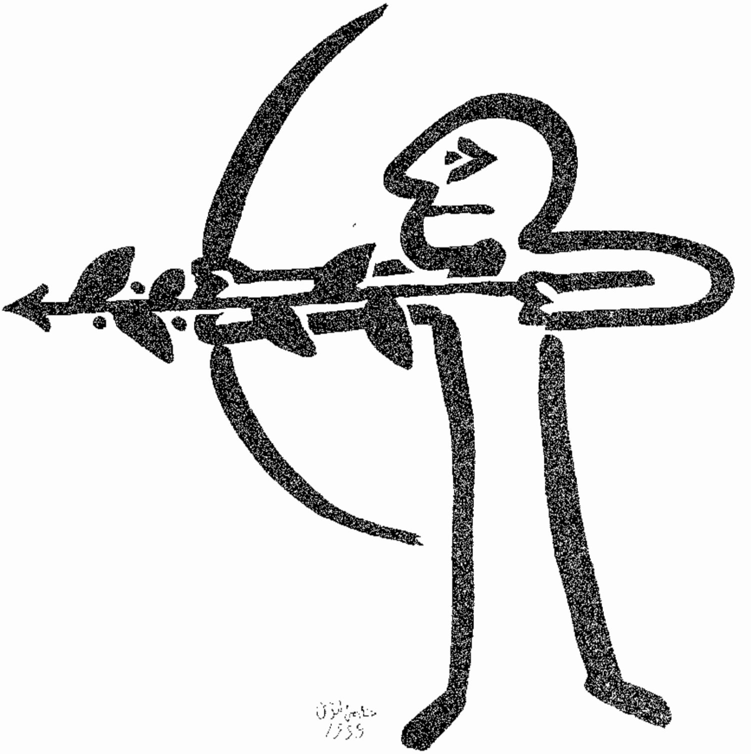
أبـداً تحـن إليـكـم الأرواحُ
ووصـالكم ريحـانُهـا والرّاحُ
وقلوبُ أهلِ ودادكم تشتـاقكم
وإلى بهـاء جمـالكم ترتاحُ
وا رحمتـا للعاشقين تحمّلوا
ثقل المحبـة والهـوى فضّاحُ
أهل الهوى قسمان : قسم منهمو
كتمـوا ، وقسمٌ بالمحبة باحوا
فـالبائحون بسرهم شربوا الهوى
صرفًا فهزهمو الغرام فباحوا
والكاتمون لسرهم شربوا الهوى
ممزوجةً فحمتهـمو الأقداحُ
بالسر إن باحـوا تباحُ دماؤهم
وكـذا دماء البائحين تُباحُ
عودوا لنور الوصل من غَسق الدُّجى
فـالهجر ليلٌ والوصال صباحُ
صافاهمو فصفوا له ، فقلوبهم
في نورها المشكاةُ والمصبـاحُ
وتمتعـوا فـالوقت طاب بقربكم
راق الشراب ورافت الأقـداحُ
يا صـاح ليس على المحب ملامـةٌ
إن لاح في أفق الصبـاح صباحُ
لاذنب للعشـاق إن غلب الهـوى
كتمانهم ، فنما الغرامُ فباحوا
سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها
لما دروا أن السمـاحَ رباحُ

غـســـيل المــــخ ..

يتردد في الآونة الأخيرة حديث متصل عن «ثقافة السلام» في مقابل «ثقافة العنف أو الحرب». وفي هذا الإطار نشأت أو أنشئت جماعات عديدة تدعو إلى ثقافة السلام ونسيان الماضي وإسدال الستار على الصراع العربي - الإسرائيلي، على أساس أن مفاوضات السلام الجارية قد خلقت واقعا جديدا، وأن المستقبل يحمل في طياته بذور أمل في سلام حقيقي يسود المنطقة. ولكن نظرة فاحصة على بعض هذه الجماعات التي أنشئت تحت اسم السلام، تكشف عن الأهداف البعيدة المدى لخلق جيل جديد، ينسى ثوابت الحقوق العربية ويكون على استعداد للمساومة فيها والتسليم بالتصورات التي وضعها راسمو الاستراتيجيات الطويلة المدى في إسرائيل وواشنطن.

ولعل أخطر هذه الجماعات التي تعمل في صمت وهدوء، وبعيدا عن الأعين هي جماعة «بذور السلام»، التي تستثمر أموالا وجهودا طائلة في تربية أجيال من الشباب، فتيان وفتيات حديثي السن والخبرة والخلفية التاريخية، يجرى إعدادهم لتولي القيادة في الأمة العربية بعد أن ينتهي دور هذا الجيل من الحكام «الذين بلغوا الستين والسبعين من العمر»، على حد ما جاء في بيان تأسيس هذه الجماعة. وأخطر ما في «بذور السلام» أن الذين يتولون تربيتهم ورعايتهم هم واضعو الاستراتيجيات في واشنطن وتل أبيب.. أما في العالم العربي، فلا أحد يتابع شيئا مما يجرى، أو يشارك في تربية أبنائه حتى ولو بالنصيحة أو تصحيح المفاهيم.

المحــــــرر



في ٣٠ أغسطس ١٩١٥ كتب السير هنري ماكماهون نائب ملك بريطانيا إلى خليفة الشريف حسين رسالة هذا نصها:

«إلى السيد الحسيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار وفرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية صاحب المقام الرفيع والمقامة السامية السيد بن السيد والشريف بن الشريف السيد الجليل المبجل دولتلو الشريف حسين سيد الجميع أمير مكة المكرمة قبلة العالمين ومحط رحال المؤمنين الطائعين عمت بركتها الناس أجمعين.

بعد رفع رسوم وافر التحيات العاطرة والتسليمات القلبية الخالصة من كل شائبة نعرض أن لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لإظهاركم عاطفة الإخلاص وشرف الشعور والإحساسات نحو الإنجليز. وقد يسرنا علاوة على ذلك أن سيادتكم ورجالكم على رأي واحد، وأن مصالح العرب هي نفس مصالح الإنجليز والعكس بالعكس. وبهذه المناسبة فنحن نؤكد لكم أقوال فخامة اللورد كيتشنر التي وصلت إلى سيادتكم على يد علي أفندي، وهي التي كان موضحا بها رغبتنا في استقلال بلاد العرب وسكانها مع استحسانا للخلافة العربية عند إعلانها.

وإنا نصرح هنا مرة أخرى أن جلالة ملك بريطانيا العظمى يرحب باسترداد الخلافة إلى يد عربي صميم من فروع تلك الدوحة العربية المباركة.

وأما من خصوص مسألة الحدود والتخوم، فالمفاوضة فيها تظهر أنها سابقة لأوانها، وتصرف الأوقات سدى في مثل هذه التفاصيل في حالة أن الحرب دائرة رحاها، ولأن الأتراك أيضا لا يزالون محتلين لأغلب تلك الجهات احتلالا فعليا (..).

... إننا على كمال الاستعداد إلى ساحة دولة السيد الجليل والبلاد العربية المقدسة والعرب الكرام من الحبوب والصدقات المقررة من البلاد المصرية وستصل بمجرد الإشارة من سيادتكم وفي المكان الذي تعينونه. وقد عملنا الترتيبات اللازمة لمساعدة رسولكم في جميع سفرياته إلينا. ونحن على الدوام معكم قلبا وقالبا مستنشقين رائحة مودتكم الزكية ومستوثقين بعرا (بعرى) محبتكم الخالصة سائلين الله سبحانه وتعالى دوام حسن العلائق بيننا» (ملف وثائق فلسطين، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة ١٩٦٩، الجزء الأول ص ١٧٦).

ليست مراسلات الحسين ماكماهون جزءًا من الموضوع الذي أريد تناوله. ولكنه طفا إلى الذاكرة وأنا أشرع في الكتابة. ولابد أن في الأمر منطقًا ما قد نكتشفه معا بعد قليل. المؤكد أن

مواقع على شبكة الإنترنت

www.seedsofpeace.org
www.peaceworks.net
www.peres-center.org
www.youngleaders.netvision. net.il

باسم السلام

رضوى عاشور

عام ١٩١٥ هذا بعيد كل البعد عن ذلك الحرب العالمية الأولى التي كتبت المراسلات أثناءها. نحن في عصر السلام وثقافة السلام والمراكز المتخصصة في دراسته والتدريب عليه ونشره وتعميمه ورعاية بذوره.

ولبذور السلام مؤسسة لرعايتها، تعقد معسكرات صيفية في الولايات المتحدة تجمع فيها الصبية والصبايا العرب بنظرائهم الأمريكيين والإسرائيليين. بإمكان القارئ الدخول على الشبكة الإلكترونية فيجد موقعا من عشرات الصفحات، عن «بذور السلام» (وهذا ما فعلته).

وبإمكانه إن أراد مزيدا من المعلومات حول هذا النوع من النشاط أن يعرج في طريقه على عدد من المواقع المشابهة منها مركز بيريز للسلام، ومركز الشرق الأوسط الدولي للسلام، وشبكة مستقبل الشرق الأوسط: شبكة شباب القادة، و«أعمال السلام» المتخصصة في المأكولات العربية واليهودية، والبطاقات والقمصان المطبوعة بصور علي وموشيه!

توفر لنا جولة سريعة من هذا النوع معارف لا توفرها لنا صحفنا اليومية، منها مثلا أن للمنطقة قادة شبابا (من مصر والأردن وفلسطين وإسرائيل) يتم إعدادهم للعمل معا على تشكيل مستقبل الشرق الأوسط ونشر ثقافة السلام. لأن حكام الشرق الأوسط وهذا من نص تعريف الشبكة بنفسها: «يحكمه رجال في الستين والسبعين من العمر. وينتظر الجيل التالي دوره في القيادة. جيل من رجال ونساء في الثلاثين أو الأربعين من العمر، بدأ يتطلع إلى صنع القرار».

اجتمع القادة الشباب المشار إليهم في لقاءات صغيرة وكبيرة منذ يناير ١٩٩٨، لقاءات نظمها مركز بيريز للسلام ومولتها وزارة الخارجية النرويجية. وفي الفترة من يناير ١٩٩٨ حتى يولية ١٩٩٩ نظمت الشبكة ١٨ لقاء بواقع لقاء كل شهر. تمت اللقاءات في رام الله ومستوطنة زخرون ياكوف ورامات جان وعمان وتل أبيب وشرم الشيخ والقدس والقاهرة. وكان من بينها ثلاثة مؤتمرات، أولها عقد في قبرص في مايو ١٩٩٨، وثانيها في شرم الشيخ في نوفمبر ١٩٩٨، وثالثها في آلكالا (القلعة) بأسبانيا في يولية ١٩٩٩.

أما موقع مركز الشرق الأوسط الدولي للسلام فيتيح لنا معرفة أسماء ٤٣ من المثقفين العرب (مغاربة وتوانسة وجزائريين وأردنيين وفلسطينيين من بينهم حمادي رديسي عميد كلية الحقوق والعلوم السياسية بجامعة تونس والطيب صديقي الممثل المغربي). اجتمعوا في تل أبيب بدعوة من المركز للالتقاء بمثقفين أوروبيين يهود (معظمهم مسئولون عن مؤسسات يهودية في أوروبا) ووقعوا نداء مشتركا تحت عنوان: نداء من أجل السلام: التزام يهودي - عربي بمساندة السلام ومحاربة الإرهاب «تقول فقرته الأولى: «التقى في تل أبيب بدعوة من مركز الشرق الأوسط للسلام مثقفون وفنانون لدعم إنشاء مراكز في جميع البلاد العربية وأصدروا هذا النداء إلى الشعبين الإسرائيلي والفلسطيني»، ويركز البيان وهو من صفحة واحدة على ضرورة اقتلاع الإرهاب وإنشاء مراكز في كل الدول العربية تعمل على تقوية الروابط الثقافية والأكاديمية والاقتصادية بين العرب وإسرائيل.

يجمع كافة هذه الأنشطة هدف أساسي هو تشكيل ثقافة مغايرة في «منطقة الشرق الأوسط».

نعود إلى «بذور السلام»: «منظمة غير سياسية» - هكذا تقدم نفسها - أنشأها عام ١٩٩٣ صحفي أمريكي يدعى جون والاش لمساعدة أجيال المستقبل «على مهارات صنع السلام». بدأت المنظمة نشاطها بخمسين مشاركا وبدولتين ثم ازدهرت وتوسعت حتى استقبلت في صيف ١٩٩٩ عدة مئات من الشباب الإسرائيليين والعرب (من مصر وفلسطين والأردن وتونس والمغرب وقطر واليمن) في ثلاثة معسكرات صيفية، وتعد لرحلة لقيادات الشباب إلى «الشرق الأوسط» في أكتوبر الحالي. المطلوب من الشباب بعد مغادرة المعسكر والعودة إلى بلادهم أن يصبحوا «دعاة» لقضية السلام وسفراء لها. ويضمن البرنامج الإقليمي أن يظل شباب المعسكر بعد تفرقهم على اتصال ببعضهم البعض، بواسطة شبكة إلكترونية (حاولت دخولها فاكتشفت أنها مغلقة على الأعضاء). وعلى هؤلاء الشباب أن يعملوا على تغيير أفكار المحيطين بهم عبر الندوات المدرسية وتحرير ونشر مجلة «غصن الزيتون» وهي مجلة نصف شهرية. وتقول أدبيات «بذور السلام» أن المجلة توزع في كل أنحاء الشرق الأوسط! وتستخدم كأداة تعليمية من قبل بعض المدرسين الإسرائيليين والعرب (أين، ومن؟؟). مطلوب أيضا عقد ندوات مدرسية ومشاركات في قاعة الدرس وفتح باب الحوار في كل من إسرائيل والسلطة الفلسطينية (لا يشار إلى فلسطين أبدا إلا بالسلطة الفلسطينية) ومصر والأردن وغيرها من البلاد العربية، وتنظيم رحلات جماعية وتبادل الزيارات.. إلخ.

تقدم «بذور السلام» نفسها بالشكل التالي:

«تتفاوض الحكومات وصولا إلى الاتفاقيات، ولكن السلام تصنعه الشعوب. ومن هنا فإن بذور السلام تحقق ما لا تستطيع حكومة تحقيقه بين الأطفال الذين نشأوا في ظل أهوال الحرب. تغير بذور السلام واقع الصراع في المنطقة بتعليم الصبية والصبايا كيفية تنمية الثقة بينهم، وتمكين من أعين الكراهية أن يبصروا الوجه الإنساني لأعدائهم، وتزويد الجيل القادم بأدوات إنهاء الصراع وإعدادهم ليكونوا قادة المستقبل». (ومن المدهش أن المجاز المستخدم «العمى» يرد في كلمة شيمون بيريز في مقدمته للموقع المخصص لمعهد بيريز للسلام. يقول بيريز: «المستقبل هنا لنا ونحن نعمل على خدمته. لا منطق في الهروب منه. لا منطق في إغلاق أعيننا فلا نراه.. المسألة أن نفتح أعيننا»).

ولن يتسع المجال لفحص أدبيات «بذور السلام» بكاملها، وأكتفي هنا بالتوقف عند «مؤتمر القمة الأول لشباب الشرق الأوسط الذي نظمته «بذور السلام» في مايو ١٩٩٨ في فيلار بسويسرا بتمويل من نوفرتيس وحضره ٧٥ فتى وفتاة من إسرائيل وفلسطين ومصر والأردن والولايات المتحدة، كلهم من «خريجي» معسكرات «بذور السلام». أصدر هذا المؤتمر ثماني وثائق: خطاب افتتاحي، إعلان مبادئ، ومشروع اتفاقيات أعدتها واقترعت عليها لجان تخص الأمن وقيم السيادة، والتعاون الاقتصادي، والقدس، والأراضي، واللاجئين.

نقتبس من الخطاب الافتتاحي الموجه إلى قادة البلاد الخمسة التي ينتمي لها الشباب المشاركون:

«يعني السلام لنا جميعا الآمال والأحلام الغائبة من حياتنا. وهو غياب نتج عنه فراغ دفع الناس إلى سبيل العنف لمواجهة مشكلاتهم. الآن وللمرة الأولى تبدأ مفاوضات الحل النهائي. لنبدأ نحن المتأثرين بالسلام، وليس الحكومات.

لقد قررنا نحن في بذور السلام أن نصنع السلام على مائدة المفاوضات وليس في ميادين القتال. لقد دلنا قادتنا على الطريق، طريق مناحم بيجن وأنور السادات (...).

نأمل أن تكون هذه الاتفاقية نموذجا لكم يا قادة بلادنا، تعتمدون عليه في اتفاقياتكم وتستمدون منه الاقتراحات».

ولا يسمح ضيق المجال بقراءة تحليلية فاحصة وتفصيلية لوثائق الاتفاق (٤٤ صفحة)، فنكتفي بالإشارة إلى أن إعلان المبادئ يركز على ضرورة تجاوز الماضي و«نسيانه» ونبذ العنف (البند الأول)، التفاهم انطلاقا من أن الطرفين أخطأ في الماضي (البند الثاني)، ضرورة تغيير البرامج التربوية والتعليمية والإعلامية والعمل على إيجاد أشكال من التبادل الثقافي تخدم مشروع السلام (البند الثالث)، التعايش بين مختلف الأديان (البند الرابع)، التعاون الاقتصادي (البند الخامس).

وربما كان أخطر وثائق هذا المؤتمر وثيقة الاتفاق الخاص باللاجئين. ويستوقفنا أول ما يستوقفنا أن موقف هؤلاء الشباب أكثر تخلفا في تناوله للقضية من بعض شرائح المثقفين الإسرائيليين، ومنهم المؤرخون الجدد الذين - رغم احتفاظهم بصهيونيتهم - يقرون بالإثم الذي اقترفه الإسرائيليون عام ١٩٤٨، وبالعلاقة العضوية بين الموقف الصهيوني وسياسات تهجير الفلسطينيين من بلادهم.

في هذه الوثيقة الشبابية لا إشارة لأي شيء من هذا القبيل.

هناك مشكلة اسمها مشكلة اللاجئين ولابد من حلها لأسباب «إنسانية». وعلى المجتمع الدولي في المقام الأول أن يجد لها حلولا «تحث المجتمع الدولي أن يعترف بالتزاماته تجاه



مـاذا لـو قامـت إسرائيـل بقبـول طلبــات بضعة آلاف مـن طالبـي العـودة وأعلنـا الرضـى والأفـراح، واكتشفنـا أنها قبلت بعـودة مـن كانـوا يعملـون على خدمتـها (يصل عـدد هـؤلاء العملاء في بعـض التقديرات إلى حوالي عشرة آلاف شخص، يسكن معظمهم حاليـا في إسرائيل وقد سهلت لهم ذلك لحمايتهم من غضبة الأهالي أثناء الانتفاضة).

الإنسانية. لابد من مواجهة مشكلة اللاجئين هذه...».

كيف؟

«اعترافا بإرادة المجتمع الدولي في توفير ظروف معيشية مناسبة لأولئك الذين يسكنون حاليا في مخيمات اللاجئين، نقترح إلغاء وكالة غوث اللاجئين التابعة للأمم المتحدة (Unrwa). والدعوة إلى إنشاء لجنة متعددة الجنسية للتنمية الفلسطينية تشرف على تفكيك مخيمات اللاجئين وتطوير تسهيلات تمكن من استيعاب هؤلاء الفلسطينيين في مجتمعات». (هكذا: مجتمعات)، وتشير الوثيقة إلى مهام اللجان الفرعية في توطين اللاجئين في «البلاد المضيفة» وفي الدولة الفلسطينية. ومن يموّل؟» يموّل اللجنة متعددة الجنسية للتنمية الفلسطينية بلاد (هكذا: بلاد) في المنطقة والجهود المشتركة للدول والمنظمات المانحة المهتمة بالأمر».

ثم تطرح الوثيقة إمكانية إعطاء جنسية الدولة الفلسطينية للاجئين (أي إمكانية حشر ما يقرب من ٧ ملايين فلسطيني في خُمس أرض فلسطين التاريخية). وضرورة حث الدول المضيفة، حيث مخيمات اللاجئين على توطين كل من يرغب في ذلك. وتكافئ اللجنة متعددة الجنسية هؤلاء المواطنين الجدد بالمساعدات المالية، لتمكنهم من تحقيق الاستقرار الاقتصادي. أما الدول المضيفة فلها أيضا مكافأة تقدمها اللجنة المذكورة بمساعدات اقتصادية وإسقاط بعض ديونها.. إلخ.

وسوف تحصل كل عائلة من عائلات اللاجئين ساعة مغادرتها للمخيم على مبلغ من المال.. يمكنها من بداية حياة جديدة.

وإسرائيل ما موقفها من كل ذلك؟

«برغم معرفتنا، من ناحية المبدأ، أن لكل الفلسطينيين الحق في العودة إلى ديارهم، سواء في فلسطين أو إسرائيل فقد اتفقنا، من الناحية العملية، أن تنفيذ هذا الحق في إسرائيل ليس عمليا وغير ممكن؛ لأن إسرائيل أنشئت كالدولة اليهودية الوحيدة. ومن هنا فلها الحق في الحفاظ على شخصيتها اليهودية والأغلبية اليهودية بالشكل الذي تراه مناسبا. ونعرف أيضا أن لإسرائيل احتياجات أمنية خاصة».

ويمكن ـ تقول الوثيقة ـ أن يسمح «لشريحة» من الفلسطينيين بتقديم طلب عودة إلى إسرائيل بعد خمس سنوات من إنشاء الدولة الفلسطينية. ولابد لمن يقدم الطلب (ليس لقبول الطلب بل لمجرد صلاحيته للفحص) أن تكون قريته مازالت قائمة ومازالت عائلته (ليس العائلة الممتدة بل أهله المباشرون) تقيم بالقرية، وأن يكون صاحب الطلب على استعداد للتنازل عن الجنسية التي يحملها ليصبح مواطنا إسرائيليا. وألا يكون قد شارك في أية أعمال غير قانونية ولا يشكل تهديدا لدولة إسرائيل. والمدة المقررة لتقديم هذه الطلبات في ظل قانون «لم الشمل» تسع سنوات، و«لإسرائيل كما هو الحال بالنسبة لكل دولة ذات سيادة حق القول الفصل في عدد من تقبل عودتهم وأي منهم تقبل أو ترفض. ومن يرفض طلبه رغم استكماله للشروط فستعطيه اللجنة الدولية مبلغا إضافيا من المال».

لا يرد في الوثيقة أي ذكر للقرار ١٩٤ الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١١ ديسمبر ١٩٤٨، الذي ينص على «ضرورة السماح للاجئين بالعودة إلى ديارهم في أقرب وقت». وينص أيضا على وجوب دفع التعويضات عن أموال الذين يختارون عدم العودة إلى ديارهم، وكذلك دفع التعويضات عن الخسائر والأضرار التي أصابتهم وفق القانون الدولي...». تسقط الوثيقة حق العودة وتحول حقوق الفلسطينيين في التعويضات عن الأراضي والبيوت والمنشآت والمنقولات التي استحدثتها إسرائيل إلى شكل فج هزلي ومهين، حيث تعطى كل أسرة تترك المخيم مبلغا من المال! وبذلك تحول قضية تاريخية لشعب مستلب إلى «حالة إنسانية» تستوجب الإشفاق والتصدق عليها ببعض المال!

ولا إشارة في الوثيقة إلى قانون العودة اليهودية الصادر في عام ١٩٥٠، والذي يمنح أي يهودي يصل إلى إسرائيل حق المواطنة إذا أراد الاستيطان. (وهو القانون الذي يغذي إسرائيل بشكل متصل بكتل بشرية مستجدة كان آخرها اليهود السوفييت والفلاشا). وبهذا تحتفظ وثيقة حل مشكلة اللاجئين بجوهر عناصر الأزمة: حرمان الفلسطينيين من أرضهم وحق يهود العالم في الاستيطان فيها. ولا يرد بخاطر هؤلاء الشباب و٦٠٪ منهم العرب (فلسطينيون ومصريون وأردنيون) أي احتمال لاعتذار تاريخي من قبل يهود إسرائيل لما كبدوه للعرب من خسائر مادية ومعنوية طوال ثلاثة أرباع قرن، بل يقبلون بالتوطين أو تعويض هزلي لا تتحمل فيه إسرائيل شيئا. وبصيغة أخرى يبرئ هؤلاء الشباب في وثيقتهم إسرائيل من كل مترتبات احتلالها أرض الغير، ثم ينهمكون في تفاصيل مضحكة على طريقة شر البلية، تفاصيل عن الشروط المطلوب توافرها فيمن يقدمون طلبات العودة: من هدمت قراهم لا يستوفون الشروط فماذا عن ٤١٨ قرية فلسطينية تشكل نصف قرى فلسطين تحت الانتداب تمت إزالتها وتسويتها بالأرض؟ (انظر حصر القرى المهدمة في كتاب وليد الخالدي، كي لا ننسى: قرى فلسطين التي دمرتها إسرائيل سنة ١٩٤٨ وأسماء شهدائها، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٧) لا حق لأهل دير ياسين والقسطل وعين كارم ولفتا والفالوجة ومئات القرى الأخرى التي هدمت وسويت بالأرض في تقديم طلب العودة. أما قانون «لم الشمل»، وهو القانون الذي كان ساريا في الضفة الغربية بعد احتلالها ويسمح بأن يطلب الرجل أو المرأة زوجها أو والديه أو أبناءه غير المتزوجين. ويرد في الوثيقة أنه سيكون إطارا لفحص طلبات العودة، فهو هنا يبدو نكتة قاتمة؛ (يسمح بتقديم الطلبات بعد خمس سنوات من إقامة دولة فلسطين) هل نجد آباء على قيد الحياة، في هذا الجانب أو ذاك من الحدود؟ وكم زوجا ترانا نجد امتد به العمر عبر كوارث الاحتلال والشتات الأسرى وحواجز المحتلين يطلب جمع الشمل بزوجه بعد ستين عاما!

قبل عام وتنفيذا للاتفاقيات أطلقت إسرائيل سراح مساجين جنائيين بدلا من المساجين السياسيين، بدعوى أن الاتفاق لا يحدد نوع المساجين. وفي تلك الواقعة مؤشر دال: ماذا لو قامت إسرائيل بقبول طلبات بضعة آلاف من طالبي العودة وأعلنا الرضى والأفراح، واكتشفنا أنها قبلت بعودة من كانوا يعملون على خدمتها (يصل عدد هؤلاء العملاء في بعض التقديرات إلى حوالي عشرة آلاف شخص، يسكن معظمهم حاليا في إسرائيل وقد سهلت لهم ذلك لحمايتهم من غضبة الأهالي أثناء الانتفاضة).

ليست وثيقة اللاجئين سوى وثيقة ملاة تعبر عن الموقف الإسرائيلي والأمريكي يغلفها حضور مجموعة من الشباب العرب لا يسعفهم ذكاؤهم ولا خبرتهم أو يختارون لأنفسهم دور سفراء لإسرائيل والولايات المتحدة، دور أهلتهم له معسكرات «بذور السلام».

اخترت التوقف عند الجزء الخاص باللاجئين تحديدا لأنه الأساس في أي حل نهائي. ورغم عدم توفر أية أدلة لدي، إلا أنني أخشى ما أخشاه أن تكون أمثال هذه الوثيقة تمهيدا لوثائق الحل النهائي، وأن يستخدم المفاوض الفلسطيني ورقة اللاجئين كمجرد ورقة ضغط للحصول على شروط أفضل فيما يخص الانسحاب من أراضي الضفة الغربية، أو تخفيف بعض القيود عن الدولة الفلسطينية المأمولة. إن مشكلة اللاجئين: مشكلة ٧٥٠ ألف فلسطيني هجروا من بلادهم عام ١٩٤٨، وأصبح عددهم الآن بعد أكثر من نصف قرن بين أربعة وخمسة ملايين هي جوهر الصراع العربي الإسرائيلي الذي لم ينته لسبب بسيط للغاية، هو أن كل عناصره مازالت قائمة.

إن توطين هؤلاء الفلسطينيين يعني ضياع قضية فلسطين برمتها؛ لأنهم إذا وطنوا الآن حيث هم وذابوا في المجتمعات المجاورة، فسيعجز العرب عن استرداد حقوقهم في حيفا ويافا وعكا واللد وصفد، حتى وإن تغير ميزان القوة لصالحهم، حيث لن يبقى أحد يطالب بهذه الحقوق.

ومن هنا يظهر أن الهدف من قصة السلام هذه، وثقافة السلام المروجة لنا، ليس تدمير قدرة العرب على استرداد حقوقهم (إن كان العرب لا يمتلكون هذه القدرة الآن فالمستقبل مفتوح على الإمكانية، وضعفنا الحالي ليس قدرا أبديا) أقول ليس الغرض من ثقافة السلام تدمير قدرة العرب في استرداد حقوقهم. بل تدمير رغبتهم في ذلك، لذا فإن مشروع ثقافة السلام هو حرب على النوايا الوطنية وعلى المستقبل.

إننا نعتاد الأشياء حتى ننسى مدى خطورتها. ها هم شبابنا الصغار يتخرجون من معسكرات تدريبهم على التعامل مع أعدائهم



توفر لنا جولة سريعة على شبكة الأنترنت معارف لا توفرها لنا صحفنا اليومية. منها مثلا أن للمنطقة قادة شبابا (من مصر والأردن وفلسطين وإسرائيل) يتم إعدادهم للعمل معا على تشكيل مستقبل الشرق الأوسط ونشر ثقافة السلام. لأن حكام الشرق الأوسط وهذا من نص تعريف الشبكة بنفسها «يحكمه رجال في الستين والسبعين من العمر. وينتظر الجيل التالي دوره في القيادة..

وتبني منظورهم فيعودون إلينا للترويج لما ينافي مصالح بلادهم ويخدم المصالح النقيضة.

في عام ١٩٠٧ رفع مؤتمر من الخبراء البريطانيين تقريرا إلى وزارة الخارجية البريطانية عرف لاحقا باسم تقرير كامبل باترمان ورد فيه:

«إن البحر الأبيض المتوسط هو الشريان الحيوي للاستعمار، وإنه ملتقى طرق العالم، فلابد لنجاح أي خطة تستهدف حماية المصالح الأوروبية المشتركة من السيطرة على هذا البحر، وخاصة جوانبه الجنوبية والشرقية (..) في هذه البقعة الشاسعة الحساسة، يعيش شعب واحد تتوافر له وحدة تاريخ ولغة وآمال، وفي كثرة قباته كل أسباب القوة والتحرر والنهوض. ويبلغ تعداده الآن (٣٥) مليون نسمة يمكن أن ترتفع في مدى قرن واحد إلى (١٠٠) مليون نسمة، فماذا يمكن أن يكون وضع المنطقة إذا توحدت فعلا؟.. وإذا اتجهت هذه القوة كلها في اتجاه واحد؟ إن هذا يستدعي ضرورة العمل على فصل الجزء الأفريقي من هذه المنطقة عن جزئها الآسيوي، وذلك بإقامة حاجز بشري قوي غريب على الجزء البري الذي يربط آسيا بأفريقيا.. بحيث تتشكل في هذه المنطقة على مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار، وعدوة لسكان المنطقة». (كمال غالي، النظام السياسي الإسرائيلي، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ص٢٨) لم يدر بخلد الخبراء البريطانيين أن عدد سكان المنطقة سوف يصبح في قرن واحد ثلاثة أضعاف الرقم الذي تنبأوا به. ولم يفكروا أن هؤلاء العرب رغم تكرار هزائمهم العسكرية سيواصلون المطالبة بحقوقهم. أو أنهم سيحتفظون بذاكرة هذه الحقوق والوعي أنها هناك في أيدي سواعم، وأنهم مستلبون.

في القرن التاسع عشر كانت الهيمنة تتطلب الجيوش والإرساليات لتدمير البنى السياسية والاقتصادية والثقافية للبلد المراد استعماره. ولقد نشأت الصهيونية كجزء لا يتجزأ من هذا المشروع. ولا داعي هنا لإعادة ما نعرفه وأثبته الباحثون في مئات الدراسات. ولكننا الآن في عصر العولمة وفتح الحدود، وعلى الصهيونية أن تعيد تشكيل نفسها بما يضمن لها استمرارها كأيديولوجية استعمارية وجدت ترجمتها على أرض الواقع في شكل دولة ومؤسسات. لم تعد «الدولة العدوة» هي الصيغة المناسبة للقرن الواحد والعشرين. وفي عصر العولمة والقرية الكونية.. إلخ. يحسن نشر ثقافة السلام حتى وإن كانت الحروب مشتعلة في أكثر من بؤرة وبشكل يومي تقريبا.

إن هذا الواقع الجديد يفسر العديد من الظواهر ومنها مثلا ظاهرة المؤرخين الجدد في إسرائيل. تكشف لنا القراءة المتفحصة لإنتاجهم أنهم يقدمون رؤية نقدية للصهيونية من موقع ترشيدها وشد دعائمها «الأخلاقية» بما يسمح باستمرارها. لم يعد ممكنا ترداد عبارة «جولدا مائير» «أين هم الفلسطينيون؟»، فهم حضور يصعب إغفاله. وما دام الأمر كذلك، فلتكن المحاولة لاستيعابه بالتعامل معه. إن الأكثر بصيرة من قادة إسرائيل، وبيريز نموذج دال على هذه الفئة، يعرف أن الصهيونية الكلاسيكية أدت دورها بامتياز وعليها الآن ترشيد دورها في المنطقة شرط الحفاظ على المغنم الرئيسي: احتلال الأرض وازدهار المستوطنين فيما استقدام المزيد منهم (إن إنجاز حزب العمل في بناء المستوطنات يفوق إنجاز الليكود بحسم ووضوح). ويكتب بيني موريس أحد المؤرخين الجدد «كان وجود الصهيونية حتميا.. من حق اليهود أن تكون لهم دولة، وكان بمقدورنا إنجاز هذه الأمور بشكل أكثر إنسانية. ولكن الصراع مع الفلسطينيين كان حتميا: كان الثمن الذي يتعين علينا أن ندفعه. وإنا مستعد لدفعه..»

(مقتبس من:

Dominique Vidal, Le Peche Originel d'Israel, Les Editions de L'Ateliers, Paris, 1998.

يعي بني موريس، من موقعه كمؤرخ، السمة الهيكلية في الدولة الصهيونية. وإن كان لا يعرفها بما هي جوهرا وتاريخا وممارسة: استعمار استيطاني إحلالي. ومن موقعنا المناقض نرى هذه الحقيقة بكل وضوح، وبالتالي نرى حتمية الصراع الآن ومستقبلا مع هذا الكيان المرتبط هيكليا بالإمبريالية البريطانية، فالأمريكية والمناقض بحكم هذه الصفة الهيكلية بمشروع تحرر ونهضة شعوب المنطقة التي زرع نفسه فيها. إن ثقافة السلام ككل خطاب استعماري توظف اللغة والثقافة كأداتين من أقوى أدوات السيطرة السياسية بتمثيل الواقع تمثيلا زائفا والإسقاط المتعمد لكافة عناصره الجوهرية.

وفي تقديري أن «ثقافة السلام» شكل مستجد من الخطاب الاستعماري يستبدل وهم الشراكة الاقتصادية والتكنولوجية بالمفاهيم العتيقة للتفوق العرقي وعبء الرجل الأبيض في إنقاذ المتوحشين من واقع توحشهم وإضاءة روحهم وبلادهم بأنوار الحضارة الأوروبية. في الخطاب الاستعماري الكلاسيكي حديث حول دونية المستعمَر (بالفتح) وحضارة المستعمِر (بالكسر). وفي الخطاب الجديد حديث عن بناء مشترك لمستقبل آمن: والنهب قائم في الحالتين. وفي الحالتين أيضا عنف معرفي يغلف الخبرات القاسية والمعيشة المتراكمة بغلاف براق.

إن العولمة سمة بنيوية في الهيمنة الاستعمارية. فتح سكك التجارة وإقامة خطوط السكة الحديد.. إلخ. هذه هي طبيعة القرن التاسع عشر، أما طبيعة القرن الواحد والعشرين فلها ملامحها الإلكترونية الحاسمة والشبكة التي تربط بين الجميع. المدهش أن قطع الصلة بالماضي قاسم مشترك بين الخطابين. في الأول تقطع الصلة بالماضي لأنه مرادف لظلام البداوة وعتمة التوحش الإنساني. أما في الخطاب الثاني، خطاب «ثقافة السلام» فعليك أن تقطع صلتك بماضيك وذاكرتك ونواياك. عليك أن تؤمن بالسلام حتى وإن كانت القذائف الإسرائيلية تسقط على رأسك يوميا أو الطائرات الأمريكية تفرض عليك الحياة بين قوسين، بين حدادك على من رحل وفزعك من حداد على الطريق - لست مضطرا لأن تكون ابنا للنبطية أو امرأة تسكن البصرة - فأنت تعرف أنهم أهلك وأنك مثلهم عشت ما عاشوه قبلا أو قد تعيشه في القريب العاجل. ولكن عليك أن تحب أمريكا وتحب إسرائيل، عليك أن تحبهما لأننا في عصر السلام، والكراهية تولد العنف، والعنف اسمه إرهاب، والعالم كل العالم ضد الإرهاب!

وبقدر ما كان الخطاب الاستعماري صادما في حالة العرب تحديدا (ولهم جذور حضارية عميقة ومتشعبة في الحضارة العربية الإسلامية والحضارات السابقة على الإسلام)، فإن الحديث في ثقافة السلام يبدو في حالتنا تحديدا مفارقة ساخرة جدا: فهي خطاب يذاع علينا في ظل المدافع ونسف البيوت والجرافات التي تعمل حثيثا في بناء المزيد من المستوطنات.

ترد عبارة «نسيان الماضي» بشكل متكرر في أدبيات بذور السلام والمشاريع المماثلة، حتى تكاد تبدو كلازمة مكررة. (ودعونا نتغاضى عن مفارقة أخرى طريفة تطلب من العرب نسيان الحاضر والماضي القريب وتسمح للصهاينة بالتشبث بماض أسطوري لما كان قبل ألفي عام!) لن أدخل في قيمة الذاكرة كسمة من السمات الفارقة بين البشر وغيرهم من المخلوقات. ولكني أتوقف أمام الدور الفاعل للذاكرة الجماعية في جميع معارك التحرر. هي جذور حاضرنا. وأساس وعينا بحكايتنا وموقعنا من الزمان والمكان، والسند الأساسي في تعاملنا مع أيامنا.

يتميز الخطاب الاستعماري القديم والحديث معا. خطاب كرومر وخطاب مادلين أولبرايت بلغة تسعى إلى تصوير العالم بما ينافي التجربة الفعلية للمستعمَر (بالفتح)، ويشكل أو يعيد إنتاج العلاقة بين الطرفين لحساب المستعمِر (بالكسر). وفي الحالتين يبدو صاحب الخطاب المعارض بطة سوداء خارج السرب، أو لنستخدم الصورة العربية القديمة الأكثر بلاغة: كأنه «مطلي به القار أجرب». فمن كان يجرؤ أن يقول إنه ضد نشر أنوار الحضارة في القارات المظلمة، ومن يجرؤ الآن على الإفصاح أنه ضد السلام! إن سرقة المفردات النبيلة والكذب في تمثيل الواقع سمتان بارزتان للخطاب الاستعماري.

وهنا أعود للاقتباس الذي أوردته في بداية المقال. أفهم الآن لماذا عدت لهذه اللحظة تحديدا. مراسلات الحسين - ماكماهون وفيها الخطاب بالذات، رغم أن تاريخ القرن العشرين به عشرات اللحظات المشابهة في دلالتها، ربما لأن «الثورة العربية الكبرى» و«الخازوق» الذي أخذه العرب في تلك الفترة لا يماثله خازوق آخر إلا خازوق السلام!



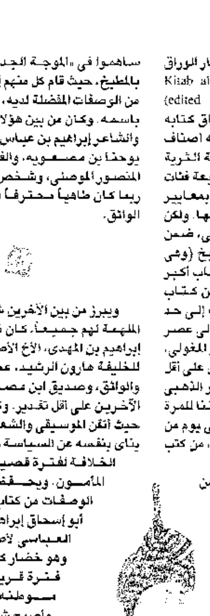
هل نعرف طعم السكباج؟!

وصفة مجرّبة لأطباق عمرها ١٠٠٠ عام!

ديفيد وينز

في أوائل الثمانينيات أصبحت مهتماً بالطهي العربي في العصور الوسطى. وكان قد تصادف أني قرأت مقالاً كتبه مستشرق بريطاني مشهور هو أ. ج. أربيري وكان ترجمة لكتاب طهي من القرن الثالث عشر جمعه شخص يدعى محمد بن الحسن البغدادي (Islamic Culture, 13, 1939). ومع أن مجالي المهني هو الحضارة العربية في العصور الوسطى، فلم يخطر لي حتى التقائي بالبغدادي عن طريق الصدفة أن الطهي يمكن أن يكون همّاً أكاديمياً مشروعاً. والواقع أن اهتمامي في أول الأمر لم يكن أكاديمياً، بل كان عملياً بحتاً. فإقامتي كأعزب في إحدى المدن الجامعية البريطانية الشمالية دفعتني إلى تعلم الطهي من أجل البقاء، ثم لكي أدعو بعض الأصدقاء والزملاء في بعض المناسبات. وخطر لي أنه من الممكن أن تحقق وصفات كتاب البغدادي للطهي غرضاً مزدوجاً، إن هي عدلت حسب المطبخ الحديث، لإبقائي على قيد الحياة وإمتاع الآخرين. ولم يبتعد اهتمامي هذا الهدف الدنيوي البحت. وفي ذلك الوقت جمعت مجموعة صغيرة تضم حوالي خمسين وصفة مجربة ومختبرة. وحقيقة أنها صلحت وحظيت بتقدير كل من شارك في تناول هذه الأصناف بصورة أدهشتني، ولكنها شجعتني كذلك تشجيعاً كبيراً على المضي فيما أبذله من جهد. وحيث إن هذه الوصفات كانت تعد بسهولة منذ ألف سنة أو يزيد، فقد كانت لها «نكهة» رومانسية إضافية خاصة بإحياء الماضي، وكأننا نشارك مشاركة مباشرة في مجتمع بلاط هارون الرشيد الراقي في بغداد.

إلا أنه سرعان ما أثير حب استطلاعي التاريخي. فهل كتاب البغدادي للطهي هو كتاب الطهي الوحيد باللغة العربية الباقي من العصور الوسطى؟ ولماذا كُتب؟ ولمن كُتب؟ ومن أين جيء بالوصفات؟ وماذا تعني الوصفات للمحقق بشأن التاريخ الاجتماعي للعصور الوسطى؟ وهلم جرا. أما السؤال الذي يبدأ بـ «لماذا» فيقدم البغدادي إجابته هو عنه من زاوية واحدة. فهو في مقدمته للكتاب يقول: «إني مع القول بتفوق متعة الأكل على كل ما عداها من متع». وما جعل مهمة رؤية الصورة التاريخية الأكثر اتساعاً أيسر هو تطور مهم، وأعني به نشر «كتاب الطبيخ لابن سيار الوراق Kitab al-Tabikh by Ibn Sayyar al-Warraq (edited by Kay Ohrnberg and Sahban Mroueh, Helsinki, 1987)» وألف الوراق كتابه بناء على طلب راعٍ مجهول جمع له أصناف الطعام المعاصرة الخاصة بالطبقة الثرية الحضرية. وتصف الفصول الأولى طبيعة فئات المواد الغذائية العديدة فيما يتعلق بمعايير الطب اليوناني الذي كان شائعاً وقتها. ولكن على غير ما هو معهود في كتب الطهي، ضمن الوراق كتابه عدداً من قصائد المطبخ (وهي سيئة إلى حد ما). ولم يكن هذا الكتاب أكبر حجماً وأكثر تنوعاً في محتواه عن كتاب البغدادي وحسب، بل كان أقدم منه إلى حد كبير. فبينما يعود كتاب البغدادي إلى عصر انهيار الخلافة العباسية على يد الغزو المغولي، فإن كتاب الوراق يسبقه بثلاثة قرون على أقل تقدير ويعكس مادة من العصر الذهبي للعباسيين الأوائل في بغداد. ويمكننا للمرة الأولى أن نلمح ظهور ما اخترت في يوم من الأيام أن أسميه جيل «الموجة الجديدة» من كتب المطبخ.



ولم تكن كتب الطهي سوى جزء من حركة أدبية إنسانية ديناميكية عريضة ميزت تلك الفترة من القرنين التاسع والعاشر باعتباره عصراً له أهميته الكبرى في الأدب العربي، وكان الاهتمام بالمأكولات والمشروبات بصفة عامة، وفن الطهي، ومكونات النظام الغذائي الصحيح وآداب الطعام تعامل جميعها على أنها أسلوب المعيشة الخاص بالشخص المؤدب. وهناك أسماء اثني عشر شخصاً تقريباً معروف أنهم ساهموا في «الموجة الجديدة» هذه الخاصة بالمطبخ، حيث قام كل منهم إما بتأليف مجموعة من الوصفات المفضلة لديه، أو تكليف من يؤلفها باسمه. وكان من بين هؤلاء الخليفة المأمون، والشاعر إبراهيم بن عباس الصولي، والطبيب يوحنا بن مصعويه، والفلكي يحيى بن أبي المنصور الموصلي، وشخص يسمى أبو سمين ربما كان طاهياً محترفاً في خدمة الخليفة الواثق.

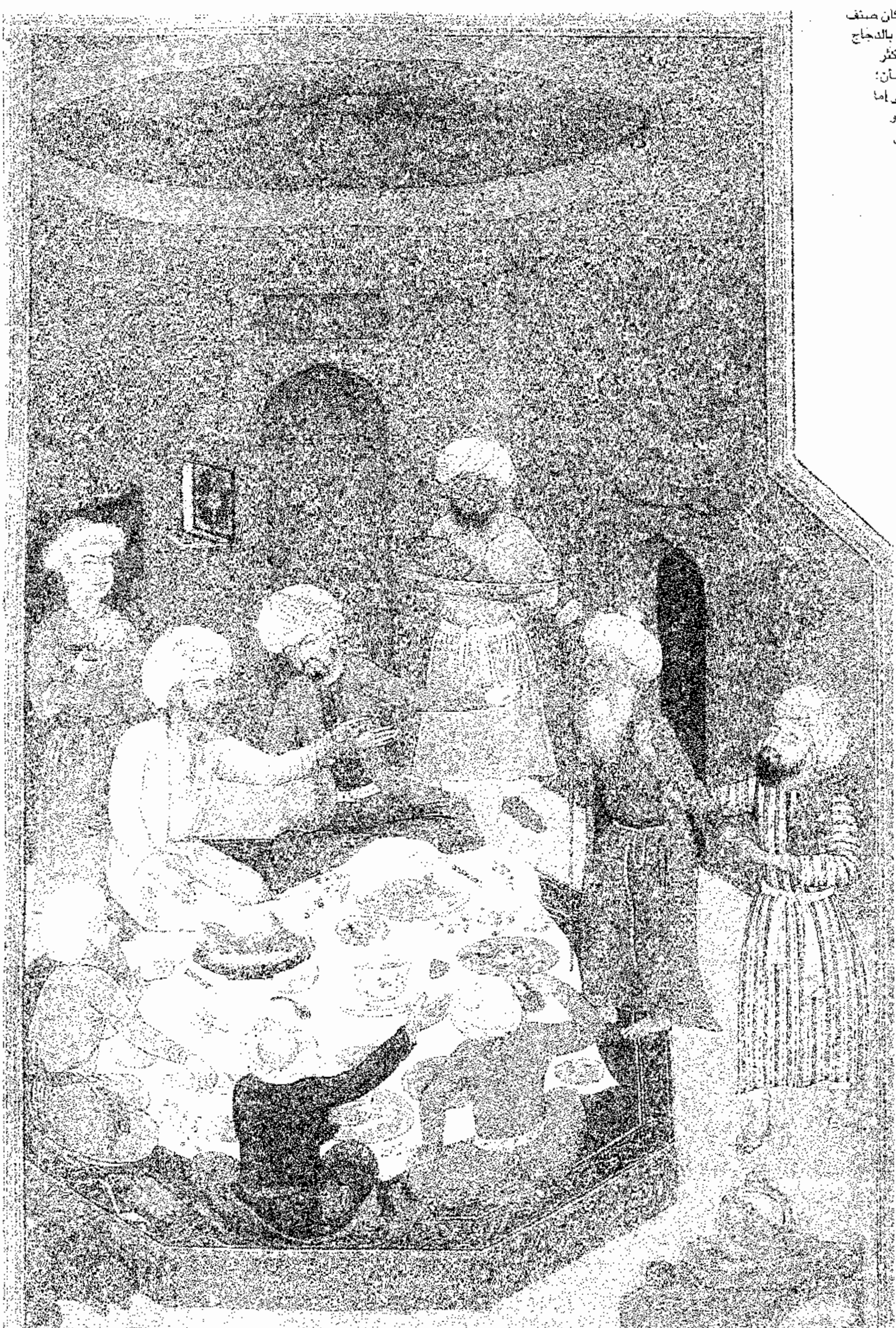
ويبرز من بين الآخرين شخصية ربما كانت الملهمة لهم جميعاً، كان ذلك هو أبو إسحاق إبراهيم بن المهدي، الأخ الأصغر غير الشقيق للخليفة هارون الرشيد، عم الخليفتين المأمون والواثق، وصديق ابن مصعويه ومن معارف الآخرين على أقل تقدير. وكان بطبعه فناناً، حيث أتقن الموسيقى والشعر؛ وكان في الغالب ينأى بنفسه عن السياسة، ومع ذلك فقد تولى الخلافة لفترة قصيرة قبل أن يتولاها المأمون. ويحفظ الوراق عدداً من الوصفات من كتاب الطهي الذي كتبه أبو إسحاق إبراهيم تبين حب الأمير العباسي لأصناف الباذنجان، وهو خضار كان قد استؤنس منذ فترة قريبة في العراق من موطنه الأصلي في الهند وأصبح شائعاً شيوعاً كبيراً، حيث انتشر في أنحاء العالم العربي ومنه انتقل إلى الأندلس في المغرب الأقصى.

وكان لدى أبي إسحاق إبراهيم جارية اسمها بديعة، وكانت امرأة رائعة تتمتع بمهارة كبيرة في فن الطهي؛ وكان من بين الأصناف التي تختص بها «البوارد»، وهي أصناف باردة متبلة تتبيلاً خفيفاً تصنع من الخضروات أو اللحم.

ومما لا شك فيه أن التعاون بين الأمير والمحظية هو ما أدى إلى ظهور كتاب أبي إسحاق إبراهيم، وربما كان هو الأول من نوعه باللغة العربية. وذاع صيت أبي إسحاق إبراهيم؛ ويوجد قسم من الوصفات التي تنسب لأبي إسحاق إبراهيم في كتاب مجهول المؤلف عن الطهي المغربي والأندلسي في القرن الثالث عشر (كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس (Ed. A. Huici Miranda, 1965).

ويعكس ذيوع صيت أبي إسحاق إبراهيم في المغرب حركة بعض الأصناف من العراق عبر شمال أفريقيا إلى الأندلس، وهي التي كانت قد ظهرت ضمن وصفات «الموجة الجديدة» العراقية. على سبيل المثال كان صنف «الإسفيذباجة» معروفاً في الأندلس باسم مختلف، هو «التفاية». ويصنع هذا الصنف بالدجاج أو السمك، ولكنه في أكثر الأحيان يعد بلحم الضأن؛ وكان التتبيل الأساسي إما بذور الكزبرة الجافة أو الكزبرة الخضراء التي تجعل لونه أخضر. وكان يعتقد كذلك أن هذا الصنف له فوائد معينة مثل التغذية المتوازنة، وكونه مناسباً للمعدة الضعيفة، وينتج الدم الجيد، ويناسب السليم والناقه. وفي حالات أخرى، كانت كتب الطهي الأندلسية تتضمن وصفات «مشرقية» صريحة، مثل المخللات المعروفة باسم «الكوامخ»، وصنف شائع من اللحم يسمى «الثريد»، وكان يتميز بإضافة الخبز المطحون إلى مرق الدجاج لتغليظ قوامه في المرحلة الأخيرة من الطهي.

واعتباراً من أوائل الثمانينيات زادت معرفتنا بتراث مطبخ العصور الوسطى زيادة كبيرة بنشر كتب طهي أخرى من مخطوطات عربية. وكان أولها كتاب طهي أندلسي لأبي رازن التوجيبي بعنوان «فضلات الخيوان في طيبات الطعام والألوان» (تحقيق محمد بن شقرون، الرباط، ١٩٨١). ويوضح التوجيبي في مقدمته أنه ضمن الكثير من الأطباق الأندلسية مثل وصفة حلوى كانت تختص بها طليطلة. وترى التأثير البربري على مطبخ الأندلس في صنفين أحدهما يسمى «الصنهاجي»، نسبة إلى قبيلة صنهاجة التي



على سبيل المثال كان صنف «الأسفيذباجة» يصنع بالدجاج أو السمك، ولكنه في أكثر الأحيان يعد بلحم الضأن؛ وكان التتبيل الأساسي إما بذور الكزبرة الجافة أو الكزبرة الخضراء التي تجعل لونه أخضر. وكان يعتقد كذلك أن هذا الصنف له فوائد معينة مثل التغذية المتوازنة، وكونه مناسباً للمعدة الضعيفة، وينتج الدم الجيد، ويناسب السليم والناقه.



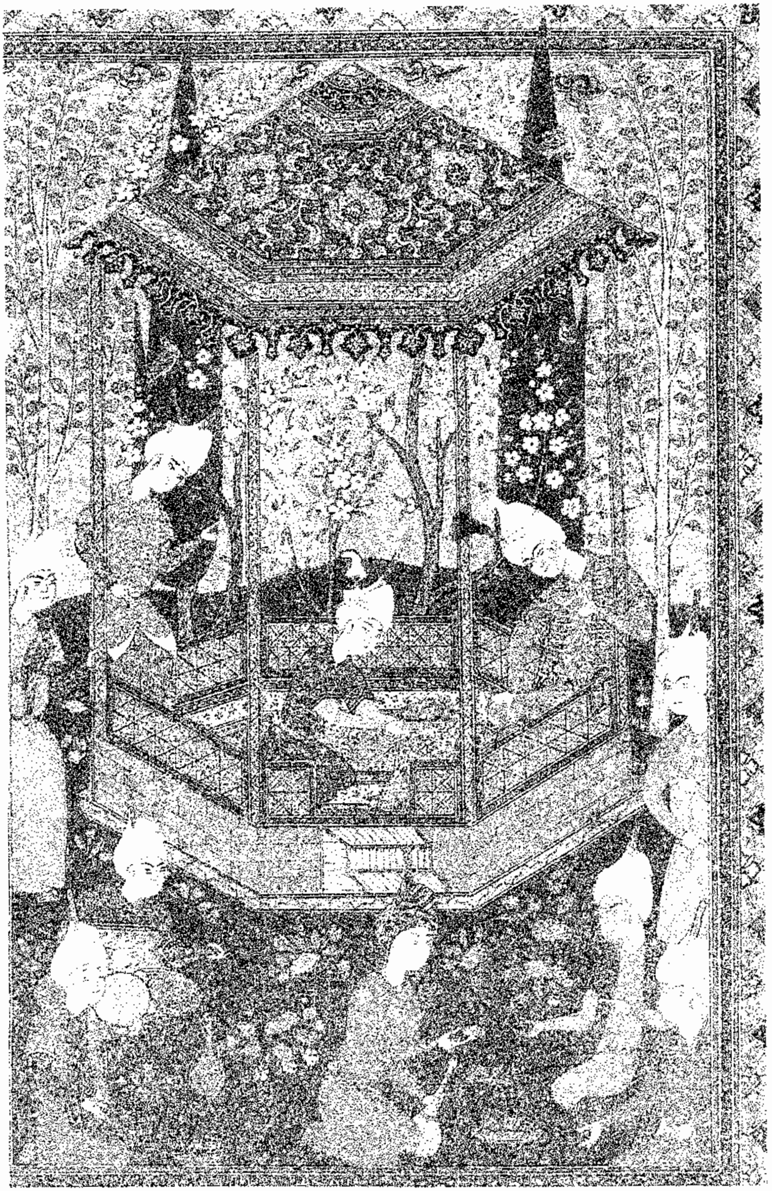
لم يكن التنور يستخدم لصنع الخبز وحسب. فهناك وصفة خاصة بنوع من فطيرة الدجاج في «مقلة» موصوفة على أنها توضع في التنور لتطهى. وهناك طبق آخر من اللحم والأرز والخضروات يصنع في قدر يوضع في التنور ليطهى. والصنفان كانا يسميان تنورية، وهو أمر غير مستغرب.

وفي كثير من الأحيان كانت الآنية تترك طوال الليل كي تنضج على نار هادئة في تنور يبرد ببطء لكي تقدم في اليوم التالي.

جاءت بالمرابطين إلى الحكم في شبه الجزيرة. كما تضمن وصفات لطبق «الكسكس» البربري الشهير. وكان كتاب المطبخ الثاني الذي جرى تحقيقه هو «الوصلة إلى الحبيب» (تحقيق س. محجوب و د. الخطيب، حلب، ١٩٨٨). وهذا هو الكتاب الباقي الوحيد الذي منشؤه سوريا؛ وهو يعود إلى العصر الأيوبي في القرن الثالث عشر. وهو يتميز بصفة مثيرة للانتباه وهي احتواؤه على فصل عن العطور. وكان هذا الكتاب قد لفت الانتباه منذ سنة ١٩٤٩ عندما نشر الباحث الفرنسي المعروف ماكسيم رودنسون مقالاً استشرافياً عن ثقافة المطبخ في العصور الوسطى. وكان رودنسون سابقاً لعصره، حيث لم يكن هناك باحث غربي على الأقل مستعداً بعد لتوجيه انتباه جاد لموضع الشئون المنزلية في حضارة الشرق الأوسط المادية. إلا أن المؤسس الحقيقي للدراسات الحديثة الخاصة بالطعام في الثقافة العربية هو حبيب الزيات الذي نشر عدداً من المقالات في صحيفة «المشرق» الجيزويتية التي ظهرت (وما زالت تصدر) في بيروت. وقد جُمعت قطع قصيرة كتبت في مقال كبير نشر سنة ١٩٤٧ تحت عنوان «فن الطبخ وإصلاح الطعام في الإسلام» (المشرق، ٤١) ويبدو مستغرباً في الوقت الراهن أنه مرت ثلاثون سنة منذ مساهمات الزيات ورودنسون قبل استئناف الدرس من جديد بشكل جاد لتحقيق مخطوطات عربية أخرى عن المطبخ كما وصفنا آنفاً. وأحدث طبعة تنضم لهذه القائمة كتاب مجهول المؤلف بعنوان «كنز الفوائد في تنويع الموائد» (بيروت ١٩٩٣) وقد حققته أنا وزميلتي الأسبانية مانويلا مارتن. وقصة حدوث ذلك مثيرة للاهتمام.

بينما كنت أحضر مؤتمراً في دبلن، حصلت على ميكروفيلم لمخطوط من مكتبة تستر بيتي، وهي مشهورة بمجموعتها الرائعة من المخطوطات العربية، وكان قد أسسها رجل أعمال أمريكي ثري. وظهر المخطوط في كتالوج المكتبة تحت عنوان «كتاب الطبيخ» وحسب، وهو العنوان الذي أعطاه إياه محرر الكتالوج؛ إلا أنه كان مجهول المؤلف ولا يحمل أي عنوان. وكانت الفصول الستة الأولى وجزء غير محدد من نهايته مفقودة. وكان رغم ذلك اكتشافاً مثيراً، ذلك أنه كان من الواضح أنه مهم، فهو مميز عن أي كتاب آخر جرى تحقيقه ونشره حتى ذلك الوقت؛ ومع أنه لم يكن مكتملاً، فقد قررت أنا وزميلتي الأسبانية تحقيق الجزء المتوفر منه. وعندما أوشك عملنا على الانتهاء أتيحت لنا فرصة جديدة للحصول على ميكروفيلم خاص بمخطوطة مطبخ موجودة في مكتبة جامعة كمبردج. وعند الفحص اكتشفنا أنها نسخة كاملة للمخطوطة نفسها التي كنا نقوم بتحقيقها! لم يكن هناك مؤلف، غير أنها كانت على الأقل تحمل عنواناً هو «كنز الفوائد في تنويع الموائد». وشعرنا من الفحص الداخلي للكتاب بالثقة من أنه من أصل مصري ويحتمل أنه يعود إلى العصر المملوكي في القرن الرابع عشر. وفي هذا تكمن أهميته، ذلك أنه الكتاب المصري الوحيد الذي وصلنا حتى الآن. والباحث لديه الآن مجموعة كبيرة من وصفات الطهي من العراق (وهو ما يعكس حدتك التأثير الفارسي) حتى الأندلس. بل إن كتب الطهي المنشورة مجتمعة تمثل أعظم كنز وصفات من العصور الوسطى خاص بثقافة معاصرة في العالم، بما في ذلك الثقافة الصينية، حيث تبلغ عدة آلاف بما فيها الوصفات المكررة. وقد بدأ استغلال هذه الذخيرة الضخمة كمصدر للتاريخ الاجتماعي للعالم العربي في العصور الوسطى. ولنتجه الآن إلى النتائج التي يمكننا استخلاصها من المعلومات التي تقدمها لنا كتب الطهي هذه، ولنبدأ بعرض صورة موجزة للمطبخ الحضري في العصور الوسطى.

وكما أشرت منذ كانت الوصفات المذكورة في كتب الطهي العربية تعد في مطابخ بيوت تخص العائلات الحضرية من «الطبقة الوسطى» الميسورة الحال: وهي لا تعكس أياً من وسط قصور الحكام في العصور الوسطى ولا مواقد فقراء المدن أو أهل الريف. وأي نموذج بسيط سوف يبين التناقض الريفي الحضري.



كانت قدور الطهي التي تحتوي على طعام تغطى، وهي لا تزال حـــارة، بأغطية ذات فتحات دقيقة تسمح بخروج الأبخرة. وكان الاعتقاد هو أنه ما لم تطلق مثل هذه الأبخرة فمن الممكن أن تتكون قوة سامة في الطعام.

فصناعة الخبز نشاط يشترك فيه الجميع. وقد لاحظ الرحالة السويسري بوركهارت الطريقة التالية بين البدو في شبه جزيرة العرب في ثلاثينيات القرن التاسع عشر. أولا، كان يسخن بناء مستدير من الحجر في موقع المخيم القبلي. وبعد ذلك تزال النار وكان العجين المصنوع من طحين الحبوب الخشن يرص على الحجارة الساخنة التي كان يوضع عليها الرماد المتوهج حتى ينضج الخبز. وكانت النتيجة رغيفا مستديرا غير خامر قاسيا بعض الشيء.

وعلى العكس من ذلك، كان الخبز المصنوع في بيت أسرة العصور الوسطى الثرية يخبز في مطبخها بأفضل المكونات. وكانت الأداة المستخدمة في ذلك هي «التنور»، وهو من أصل قديم يعود إلى بلاد الرافدين. وهو على هيئة خلية النحل، وكأنه قدر كبير مقلوب وربما كان قد تطور منه. أما الوقود، ويفضل أن يكون نوعاً جيداً من الفحم النباتي، فكان يوضع من فتحة جانبية ثم يشعل. وعندما يكون التنور حاراً بالقدر الكافي يبدأ الخبيز. ويمكن ضبط حرارة التنور إلى حد ما بإغلاق الفتحة السفلى وكذلك الفتحة التي في أعلى الجزء المستدير. وكان العجين، وهو من دقيق القمح الأبيض الفاخر، ذا أشكال وأحجام وملامس عدة. وعندما كان العجين يشكل على هيئة أرغفة مسطحة مستديرة، كان يوضع من الفتحة العلوية للتنور ويلصق بالجوانب الداخلية ليخبز. والمتحف الزراعي بالقاهرة به، أو كان به، عرض ممتاز لهذه الأنواع من الخبز وطرق إعدادها. وذكرت أدوات كثيرة ترتبط بصنع الخبز في المصادر العربية: فهناك «لوح» العجين، و«شوبق» (نشابة) صغير خاص بالرغيف العادي وشوبق كبير للرقاق. وكانت تستخدم ريشة لدهن العجين في بعض الوصفات: وكان العجين يعجن في «جفنة» من الخشب وكانت هناك مكشطة معدنية تسمى «محق» لتنظيفها. وكانت الخميرة تحفظ في وعاء خشبي يسمى «محلب». وكانت تستخدم قطعة قماش تسمى «منديل» لمسح الرغيف الذي لم يخبز وأخرى لمسح التنور للتخلص من أية رطوبة غير مرغوبة. وكانت «الصنارة» تستخدم لإخراج الرغيف من التنور لو سقط على الأرضية. أما «المحرق» فكان أداة معدنية لإخراج الجمر والرماد من التنور بعد الانتهاء من الخبيز. وبالنسبة للأسرة التي ليس لديها تنور، كان عجين الخبز وكذلك أصناف الطعام التي تقتضي النضج في الفرن الحار الجاف تؤخذ إلى الفرن العمومي في الحي.

ولم يكن التنور يستخدم لصنع الخبز وحسب. فهناك وصفة خاصة بنوع من فطيرة الدجاج في «مقلة» موصوفة على أنها توضع في التنور لتطهى. وهناك طبق آخر من اللحم والأرز والخضروات يصنع في قدر يوضع في التنور ليطهى. والصنفان كانا يسميان تنورية، وهو أمر غير مستغرب.

وفي كثير من الأحيان كانت الآنية تترك طوال الليل كي تنضج على نار هادئة في تنور يبرد ببطء لكي تقدم في اليوم التالي.

وهناك وصفة أخرى للتنور وهي تحضير حيوان كامل، خروف أو عنز، بوضعه على سيخ يسمى «سفود» ثم ينزل من فتحة التنور العليا ليطهى.

وكانت هناك أداة أخرى للطهي تسمى «مستوقد». وكان المستوقد مصمما بحيث يسع العديد من قدور الطهي والصواني بجوار بعضها في وقت واحد. وكان ارتفاعه يصل إلى وسط جسم الإنسان مما يسهل الوصول إلى الطعام الذي يطهى، وكان مزوداً بفتحات تهوية تسمح بدخول الهواء وخروج الدخان. وكان هناك موقد نقال يسمى «كانون» أو كانت النار وحسب تستخدم كذلك، مما كان يسمح بتسخين قدر واحد كل مرة.

وكانت قدور الطهي المصنوعة من الحجر أو الفخار أو النحاس ذات أشكال عديدة. وكانت الطاسات المستخدمة لتحضير السمك تصنع عموما من الحديد. وكانت القدور التي تحتوي على طعام تغطى، وهي لا تزال حارة، بأغطية ذات فتحات دقيقة تسمح بخروج الأبخرة. وكان الاعتقاد هو أنه ما لم تطلق مثل هذه الأبخرة فمن الممكن أن تتكون قوة سامة في الطعام. وهناك

أوان أخرى كثيرة جاء ذكرها في المصادر، إلا أنه لا يجب أن تستوقفنا في هذا المقام.

وتتناول الكثير من كتب الطهي مسألة النظافة في المطابخ. ويبدو أنه كانت شكوى عامة من أن الخدم إما أنهم لم يكونوا يغسلون القدور بالمرة، أو أنهم لم يكونوا يغسلونها غسلاً جيداً عقب استعمالها؛ وأدت هذه المشكلة إلى النصح باستخدام قدر فخار جديد كل يوم واستبدال القدر المزجج كل خمسة أيام. وربما تفسر مثل هذه الإجراءات الشديدة التعبير الاستهلالي في بضع وصفات وهو «خذ قدراً جديداً». وهذه النصيحة لم يكن يعمل بها دائماً، حيث كان من الممكن تنظيف القدور التنظيف اللازم بالماء الساخن والنخالة. أو كما جاء في وصف البغدادي: «دع القدور والآنية تدعك بالحمرة الناعمة، ثم بالبوتاس المطحون الجاف والزعفران وأخيراً بأوراق الليمون الخضراء». ويضيف الوراق تحذيراً من أن التوابل القديمة التي فقدت نكهتها يجب ألا تستخدم لئلا «تخرب القدر». وبالمثل ينبغي تذوق الملح والزيت قبل إضافتهما لقدر الطهي للتأكد من أن حالتها لا تزال جيدة.

وفي كل العمليات التي تنطوي على الإعداد لأصناف أساسية للمائدة، من الواضح أن طاقم المطبخ في هذا الوسط الاجتماعي كان يعمل بمنتجات طازجة من اللحم والطيور والأسماك. فعلى سبيل المثال، تبدأ وصفة دجاج بعبارة «خذ طيراً سميناً مخصياً واذبحه واسمطه وافتح بطنه لإزالة أحشائه، ثم قطعه». وكان لحم الضأن يعامل بالطريقة ذاتها. وتشير الوصفات إلى أنه من الممكن استخدام كل أجزاء الحيوان ما لم تكن النية طهي الذبيحة كما هي. وفي أصناف لحم البقر، تذكر الأجزاء المحددة من العجل أو الحيوان الكبير التي تطهي، أو تستخدم عبارات أكثر عمومية مثل «خذ أفضل الأجزاء من الحيوان». ويبدو أن اللحم المستخدم في الأطباق من النوع الأول كان يؤتى به طازجاً من السوق، وإن كان من الأسهل في حالة الأسر الكبيرة ذبح عجل في فناء المطبخ. ويشير الإعداد اليومي للحم والطيور والأسماك الطازجة كذلك إلى أن التوابل والبهارات المستخدمة في الطهي لم تكن لإخفاء رائحة اللحم العفن وحسب. صحيح أن زيوت القرفة والقفل، وكلاهما من الزيوت المفضلة، كان معروفاً عنهما خواصهما المطهرة والحافظة؛ ومع ذلك كانت جماليات الطهي معترفاً بها كذلك باعتبارها مهمة في إنتاج أصناف ذات نكهة متوازنة. وربما كانت وظيفة الحفظ الخاصة بالتوابل مفيدة في حال حفظ بقايا الطعام لليوم التالي.

وكانت كل أقاليم العالم العربي في العصور الوسطى تشترك في مجموعة من المتبلات المجهزة العديدة تسمى «كوامخ» تستخدم إما في عملية الطهي ذاتها أو بمفردها مصاحبة لأصناف غيرها من الطعام. وهذه يمكن إعدادها مقدماً وتخزينها لحين طلبها. وعلى سبيل المثال كان الزيتون والليمون والكبّار والباذنجان والسمك تجهز بطريقة مشابهة في جرار كبيرة إلى أن تكون هناك حاجة إليها. وكان الزيتون الذي يجمع في الخريف يوضع في أواني كبيرة مع أغصان صغيرة من شجرة الزيتون والليمون والزعتر، ثم تملأ بالماء وتترك لعدة أيام. ويضاف الملح حسب الرغبة. وكانت الفواكه والأعشاب وبعض الخضروات تجفف وتخزن كذلك للاستخدام في المستقبل. والتابل المجهز الشائع في كل الطهي العربي في تلك الفترة كان «المري». وكان يحتاج إلى عملية طويلة ومعقدة كانت تستغرق حوالي تسعين يوماً من نهاية مارس حين يبدأ الإعداد. وكانت تعرف عملية أقصر تستغرق يومين فقط، وإن كان الذواقة قد لا يعتبرون هذا المنتج «شيئاً أصيلاً». وكانت المكونات الأساسية هي دقيق الشعير والملح ومجموعة من المتبلات التي تضاف في مراحل مختلفة حسب الوصفة المحددة. ولأنه يستخدم بكميات صغيرة في أطباق كثيرة، فلابد أن نكهته المرة كانت مميزة، حيث كان البديل المقترح في أحد كتب الطهي هو تابل «السماق» حمضي المذاق.

ولم يكن الطعام مجرد وسيلة للمتعة في البيوت الحضرية ميسورة الحال، إذ تكشف كتب الطهي عن اهتمام مساو بصحة البدن. وكثيراً ما كانت تضيف وصفات الأصناف الرئيسية نبذة عن فائدة خاصة بصنف ما لنظام الشخص الغذائي وصحته. فإحدى الوصفات قد «تثير الشهية وتقوي المعدة»؛ وأخرى، تقدم طبقاً صيفياً، مفيداً لـ«تبريد الجسم»؛ بينما كان صنف آخر مناسباً «لكبار السن وأصحاب الأمزجة الرطبة» في حين كان صنف شتوي مفيداً لهؤلاء الذين يعانون من علل البرد، وهكذا. وبالإضافة إلى مثل هذه النصائح المفيدة، تتضمن كتب الطهي عدداً من وصفات بعينها تتناول تناولاً مباشراً نتائج استهلاك الطعام، كالإفراط في الأكل على سبيل المثال، وكذلك مع وظائف الجسم ورغباته.

ولكن ما هي السمات الرئيسية لمطبخ العصور الوسطى؟ يتعامل جزء كبير جداً من الوصفات مع أصناف أساسية. وهي ما نسميه اليوم «الطبق الرئيسي». وهي جميعاً تحتوي لحوماً من نوع ما، سواء أكانت دجاجاً أم سمكاً أو لحم الضأن المفضل، وهو لحم الخروف الذي يذبح وعمره حوالي ثلاث سنوات. وكان اللحم الكبير في السن قاسياً ولذلك يصعب هضمه. أما لحم الجدي فكان البعض يضعه في مرتبة عالية. ومن ناحية أخرى كان لحم البقر، لما له من خشونة، يحكم عليه بأنه أكثر ما يلائم من يكدون ويكدحون – وليس أبناء الطبقة التي كانت تؤلف لها كتب الطهي. وكان لحم الصيد يوجد كذلك في ذخيرة العصور الوسطى من وصفات: وكانت الحيوانات، كالأرنب والحمار الوحشي والغزال، والطيور، كالطيهوج والدرج والسمان والحجل، تعتبر جميعاً قابلة للأكل. وكان لحم الصيد يقطع كذلك ويجفف (القديد) أو يملح ويباع في أسواق بغداد. ويلاحظ غياب لحم الخنزير عن المطبخ لتحريم القرآن له. وكانت الجاليات اليهودية في الشرق الأوسط تراعي التحريم نفسه، وإن لم يكن المسيحيون خاضعين لمثل هذا القيد.

وتعكس طرق طهي الأصناف التي تحتوي على لحم المبادئ الحديثة المستخدمة في الطهي على النار في الطاجن. وكان اللحم المقطع يشوح أولاً في الزيت. وكانت الزيوت المفضلة تصنع من السمسم (السيرج) والزيتون، وإن كان دهن إلية الخروف يستعمل على نطاق واسع كذلك. وبعد ذلك يغطى اللحم بالماء وتضاف التوابل مع المكونات الأخرى كالخضروات والفواكه المجففة حسب نوع الطبق. وحينئذ تبدأ العصائر المحتجزة داخل اللحم في الخروج شيئاً فشيئاً لتختلط بسائل الطهي في الوقت الذي يمتص فيه اللحم نكهات السائل المختلفة ويزداد غنى بها. وكانت هناك طريقة أخرى كثيرة الشيوع وهي سلق اللحم أولاً في الماء قبل إضافة المكونات الأخرى. وكان استبدال اللحم ملمحاً كثير الحدوث في بعض الأطباق.

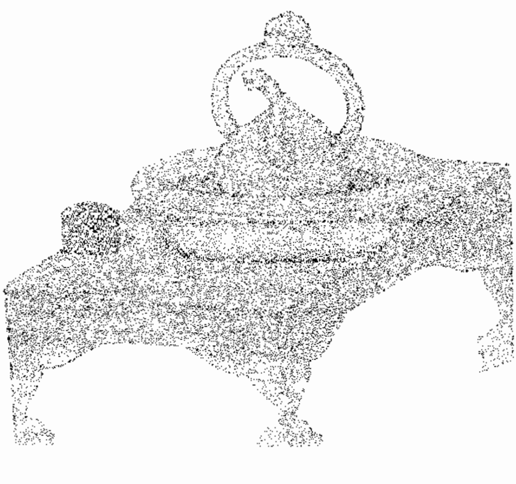
وقد يكون من الصدق القول بأن المطبخ كان متأثراً ببعض تقاليد الطهي الفارسية. وأحد الأصناف الحلوة اللاذعة «السيكباج»، ويصنع من اللحم والفواكه المجففة كالخوخ، والكمثرى والمشمش، والتمر والتين. وكان التقليد العربي واضحاً كذلك. فأطباق مثل «السويق» و«الثريد»، وكانت مشهورة في زمن النبي محمد ﷺ، عرفت طريقها إلى المطبخ الحضري الجديد، وإن حدثت بها تحولات بسبب استخدام مكونات أغلى ثمناً. وكان السويق دقيق شعير محمص وكان يحتاج إلى إضافة الماء أو الحليب عند تجهيزه للأكل، وكان مناسباً كغذاء أساسي في الرحلات الطويلة. وكان صنفاً بهذا الاسم يباع في أسواق بغداد كغذاء أساسي للفقراء مصنوعاً من الحمص المطحون. وفي الأسر الثرية كانت مثل هذه الأصناف الرعوية تصنع من دقيق القمح الفاخر وتحلى بالسكر أو تخلط بالمكونات الأخرى لبذور الرمان. واحتفي بالثريد في حديث عن النبي ﷺ قال فيه إنه أفضل الأطعمة مثلما أن زوجته عائشة أفضل النساء. وهذا الصنف العربي التقليدي يتكون من مكعبات اللحم المطهوة في مرق مع الخبز الجاف الذي يفتت عليه أثناء المرحلة الأخيرة من الطهي. وهذا الطبق طرأت عليه تحولات كذلك في تراث الطهي الراقي في الحضر. فكان يصنع من لحم الضأن أو الجدي أو الدجاج مع الخضروات، ولكن دائماً مع قطع من الخبز المفتت فوقه. وهناك صنفان آخران، هم «المصلية» و«المضيرة»، يشيران إلى تراث الطهي العربي باستخدامهما منتجات الألبان: فكانت المصلية تحتوي على «المصل»، وهو شرش اللبن، بينما كانت المضيرة صنف لحم يطهي في اللبن الرائب.

وكانت هناك أصناف أخرى كثيرة تحتوي على اللحم، إلا أنها كانت تعتبر في المقام الأول أصناف خضروات أو فاكهة وكانت تعرف بمكون معين بارز فيها. وهكذا كانت «الشلجمية» صنفاً مصنوعاً من الشلجم؛ وكانت هناك أصناف أخرى تسمى «إسفاناخية» و«تفاحية» و«مشمشية» و«عدسية» و«أرزية».

وعلى عكس أي كتاب طهي حديث يعكس دقة عصرنا العلمي، كان كتاب الوصفات في العصور الوسطى يقدم دليلاً لصنع صنف له تميزه الفردي. وكانت الوصفة العربية في العصور الوسطى دقيقة فيما يتعلق بعملية الصنع، ولكنها لم تكن ملتزمة بمقادير المكونات أو نسبها. وكان الأساس الإبداعي للمطبخ هو استخدام الطاهي الحدسي للأعشاب والتوابل، وللكوامخ والبهارات التي تصاحب الأطباق الرئيسية أو كانت تستخدم لتتبيلها أثناء الطهي.

وضمن هذا العدد الكبير من التوابل المتاحة للطاهي، كانت هناك توابل مفضلة. وهناك ملمح مثير للانتباه تكشفه مقارنة للتوابل المستخدمة في كتابين للطهي من القرن الثالث عشر، أحدهما من أصل عراقي والآخر من أصل أندلسي. والتوابل الأكثر استخداماً في الأول، مرتبة حسب مرات استخدامها، هي القرفة والكزبرة والكمون والمستكة والفلفل (بينما الزعفران يعد ذلك بقليل)، بينما كان الترتيب في الثاني هو الفلفل والكزبرة والقرفة والزعفران (بينما يأتي الكمون بعد ذلك بقليل). فهل تعكس هذه المقارنة اختلافات إقليمية فيما يفضله الذوق؟ ليست هناك إجابة تعد حاسمة بحق. ورغم ذلك فإن التوازن في الرائحة والنكهة بين القرفة والكزبرة قد يقال عنه إنه القلب المميز لمجموعة التوابل المستخدمة في مطبخ الشرق الأوسط في العصور الوسطى. وكانت «مجموعة التوابل» هذه هي ما ورثته أوروبا من الشرق الأوسط وأحدثت تحولاً في المطبخ الأوروبي اعتباراً من القرن الرابع عشر. وربما كان هذا أقل ما نعرفه ونقدره من تأثيرات عديدة للحضارة العربية الإسلامية على الثقافات الأوروبية في العصور الوسطى.

كانت كل أقاليم العالم العربي في العصور الوسطى تشترك في مجموعة من المتبلات المجهزة العديدة تسمى «كوامخ» تستخدم إما في عملية الطهي ذاتها أو بمفردها مصاحبة لأصناف غيرها من الطعام. وهذه يمكن إعدادها مقدماً وتخزينها لحين طلبها. وعلى سبيل المثال كان الزيتون والليمون والكبّار والباذنجان والسمك تجهز بطريقة مشابهة في جرار كبيرة إلى أن تكون هناك حاجة إليها



دار الأوبرا المصرية

برنامج
حفلات شهر ديسمبر ١٩٩٩

المسرح الكبير	التاريخ	المسرح الصغير
باليه «كسارة البندق» فرقة باليه أوبرا القاهرة - أوركسترا أوبرا القاهرة تصميم وإخراج: عبد المنعم كامل	الأربعاء ١	مهرجان القاهرة السينمائي الدولي
باليه «كسارة البندق»	الخميس ٢	مهرجان القاهرة السينمائي الدولي
أوركسترا القاهرة السيمفوني - حفل الكريسماس	الجمعة ٣	مهرجان القاهرة السينمائي الدولي
حفل ختام مهرجان القاهرة السينمائي الدولي الثالث والعشرون	السبت ٤	مهرجان القاهرة السينمائي الدولي
المايسترو توماس هنجلبروك ومجموعة بالتازار نيومان (ألمانيا) في حفل أوركسترالي بالآلات التاريخية	الأحد ٥	مهرجان القاهرة السينمائي الدولي
باليه «كسارة البندق» ماتينيه ١١ص + سواريه ٨م	الاثنين ٦	مهرجان القاهرة السينمائي الدولي
باليه «كسارة البندق»	الثلاثاء ٧	مهرجان القاهرة السينمائي الدولي
باليه «كسارة البندق»	الأربعاء ٨	فرقة يحيى خليل لموسيقى الجاز
فرقة عبد الحليم نويرة للموسيقى العربية قيادة: صلاح غباشي	الخميس ٩	
	الجمعة ١٠	
أوركسترا القاهرة السيمفوني	السبت ١١	
	الأحد ١٢	
	الاثنين ١٣	كورال بوليفونيكو مالا تستيانو دي فانو (إيطاليا)
	الثلاثاء ١٤	
أوركسترا الكونسرفتوار السيمفوني	الأربعاء ١٥	
الفرقة القومية العربية للموسيقى - قيادة: سليم سحاب	الخميس ١٦	حفل جمعية الشباب الموسيقي
	الجمعة ١٧	رباعي الأوبرا الوتري
أوركسترا القاهرة السيمفوني	السبت ١٨	فرقة بنات النيل للموسيقى والغناء
حفل عيد الميلاد - د. نبيلة عريان	الأحد ١٩	
	الاثنين ٢٠	
	الثلاثاء ٢١	
	الأربعاء ٢٢	ريسيتال عيد الميلاد - فرقة أوبرا القاهرة
فرقة عبد الحليم نويرة للموسيقى العربية قيادة: صلاح غباشي	الخميس ٢٣	أوركسترا القاهرة السيمفوني - موسيقى حجرة (٤)
	الجمعة ٢٤	
	السبت ٢٥	
	الأحد ٢٦	شرقيات - فتحي سلامة
	الاثنين ٢٧	
	الثلاثاء ٢٨	
	الأربعاء ٢٩	
الفرقة القومية العربية للموسيقى - قيادة: سليم سحاب	الخميس ٣٠	
	الجمعة ٣١	

مسرح الجمهورية	التاريخ	الإسكندرية (قاعة المؤتمرات)
	الأربعاء ١	أوركسترا القاهرة السيمفوني
أوبرا «الخادمة السيدة» فرقة أوبرا القاهرة - إخراج: وليد عوني	الخميس ٢	الفرقة القومية العربية للموسيقى - قيادة: سليم سحاب
أوبرا «الخادمة السيدة»	الجمعة ٣	
رحالة - حسام شاكر	السبت ٤	
	الأحد ٥	أوركسترا القاهرة السيمفوني - حفل الكريسماس
	الاثنين ٦	
	الثلاثاء ٧	
	الأربعاء ٨	
	الخميس ٩	
	الجمعة ١٠	
	السبت ١١	كورال بوليفونيكو مالاتستيانو دي فانو (إيطاليا)
	الأحد ١٢	
	الاثنين ١٣	
	الثلاثاء ١٤	
	الأربعاء ١٥	
	الخميس ١٦	فرقة عبد الحليم نويرة للموسيقى العربية قيادة: صلاح غباشي
	الجمعة ١٧	
	السبت ١٨	
ريسيتال بيانو - محمد شمس الدين	الأحد ١٩	
	الاثنين ٢٠	
	الثلاثاء ٢١	
	الأربعاء ٢٢	أوركسترا القاهرة السيمفوني - موسيقى حجرة (٤)
	الخميس ٢٣	
شرقيات - فتحي سلامة	الجمعة ٢٤	
	السبت ٢٥	
	الأحد ٢٦	
	الاثنين ٢٧	
	الثلاثاء ٢٨	
	الأربعاء ٢٩	
	الخميس ٣٠	
	الجمعة ٣١	أوركسترا القاهرة السيمفوني - حفل العام الجديد

دار الأوبرا المصرية

دار الأوبرا - للاستعلام: ٣٣٩٨١٤٤ - ٣٣٩٨١٣٢

مسرح الجمهورية: ٣٩٠٧٧٠٧

أسـئلة الهـويـة

بعد ١٤ قرنا من الإسلام فى مصر!

قاسم عبده قاسم



في لحظات تاريخية بعينها تجد الأمم نفسها في مواجهة سؤال يبحث عن الذات والهوية، وعادة ما يكون هذا السؤال مطروحًا في أوقات الأزمة، أو في زمن السيولة الاجتماعية والسياسية، وربما يتم طرح السؤال في لحظات فارقة يتم فيها الانتقال من حال إلى حال، وعادة ما يكون السؤال أكثر إلحاحًا إذا كان تاريخ هذه الأمة ضاربًا بجذوره في تربة الزمن البعيد.

وربما لا نبالغ إذا قلنا أن الأمة المصرية تواجه هذا كله وهي تطرح سؤال الهوية على نفسها: فماضيها بعيد موغل في القدم، وحضارتها متعددة الروافد، وحاضرها يمور بالكثير من عوامل القلق والاضطراب، ونوازع الأمل والترقب، وتوتر الانتظار. ثم جاءت مناسبتان جمعتهما صدفة الزمن وإن فرقتهما لحظة التاريخ: اقتراب سنة البداية للألف الثالثة بعد ميلاد المسيح عليه السلام، واكتمال أربعة عشر قرنًا على الفتح الإسلامي لمصر. ولمصر في كل من المناسبتين نصيب وافر: فهي التي احتضنت الأسرة المقدسة اللاجئة إليها هربا من وجه الاضطهاد، ثم هي صاحبة فضل في صياغة المذاهب المسيحية وإهداء الرهبنة والديرية إلى دنيا المسيحيين. ومصر من ناحية أخرى تحولت تحت راية الإسلام من مجرد ولاية إلى مركز من مراكز الحضارة العربية الإسلامية، ثم قلب العالم العربي والإسلامي وقلعته الحصينة حتى سقوط دولة سلاطين المماليك في مطلع القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى على أقل تقدير.

بيد أن تاريخ مصر، وإسهامها الحضارى في تاريخ العالم، لم يبدأ بالمسيحية، ولكنه أيضا لم يتوقف بعدها. كما أن دخول الإسلام إلى مصر لم يكن أبدا نهاية لتاريخها الطويل، وإنما كان بداية لدور حضارى جديد يستوعب ما قبله لكي يعيد صياغته هوية مصر الحضارية في إطار يجمع بين موروث مصر الحضارى الطويل وما جاءت به الحضارة العربية الإسلامية من ناحية، وما أسهمت به مصر في بناء هذه الحضارة من ناحية أخرى.

وتلك قصة تستحق أن نرويها...

لا يمكن التحدث عن عناصر «هوية مصر» الحضارية أو مكوناتها، دون أن يمتد الحديث على ساحة الجغرافيا وامتداد التاريخ معا. بيد أن الحديث في هذا الموضوع من ناحية أخرى، تكتنفه صعوبات منهجية وبحثية لا يمكن لباحث فرد أن يتجاوزها بسهولة. ومن ثم، فإن بعض التحفظات تبدو مطلوبة قبل البداية:

أولا: أن مكونات هوية مصر الحضارية متداخلة، وليست متراكمة في طبقات، بسبب طول التاريخ المصرى في عمق الزمن من جهة، وتعدد الروافد التي غذت نهر التاريخ المصرى (محلية، وشرقية، وبحر متوسطية، وأفريقية وآسيوية) من جهة ثانية.

ثانيا: أن العناصر الثابتة نسبيا في هذه الهوية، ترتكز على الجغرافيا متمثلة في الموقع الجغرافي؛ الذى أعطاه النيل والصحراء المحيطة بالوادى ميزة الحماية ونعمة الاستقرار، على حين جعله البحر المتوسط والبحر الأحمر من أسباب طمع الآخرين في مصر على مر العصور. وربما كان هذا هو السبب المباشر في أن أية قوة أرادت السيطرة على المنطقة عبر التاريخ، كان لابد لها من أن تصطدم بمصر.

ثالثا: أن العناصر التاريخية المتغيرة في هذه الهوية ليست كلها فاعلة بقدر متساو في تشكيل الهوية المصرية - إذ إن العناصر التاريخية القديمة التي يتغنى بها البعض ربما لا تكون فاعلة بالقدر الذى يتصورونه أو

يحاولون إيهام أنفسهم به. كما أن العناصر التاريخية الباقية في حياتنا الآن والواضحة في الثقافة المصرية (اللغة، نظام القيم والأخلاق، الذوق العام، العادات والتقاليد، النظرة إلى الذات وإلى الآخر، الفهم الاجتماعي للدين، الفنون والآداب، قائمة الطعام... وما إلى ذلك)، ينبغي أن تكون محل اهتمام الباحثين. بيد أن هذا لا يعني تجاهل فترة تاريخية لحساب فترة تاريخية أخرى؛ وإنما يعني أن ننتبه إلى أن المجرى الطبيعي للتطور التاريخي يجعل الشعوب تختار العناصر التي لم تعد تناسب حياتها الحاضرة والمستقبلة.

رابعا: إذا كان البعض يرى أن الماضي يعيش في الحاضر، باعتبار أن الحاضر نتاج لما حدث في الماضي، فإننا ينبغي أن نلاحظ أن بعض عناصر الماضي فقط، وليس الماضي كله، هي التي تعيش في الحاضر.

من بدهيات الجغرافيا المصرية أن «نهر النيل» هو سبب الوجود الحضاري للمصريين. وبغض النظر عن التعبيرات الجاهزة و«المعلّبة»، فإن النهر هو الحقيقة الجغرافية والتاريخية الناصعة في قصة مصر والمصريين. وربما كان النيل من أهم عناصر تشكيل الهوية المصرية قديما، وظل كذلك طوال عصور التاريخ المصري. فحول النهر، ومحاولات تطويعه وترويضه قامت حياة شعب بأكمله. فقد كانت حضارة المصريين حضارة زراعية نهرية اعتمدت على مياه النيل الذي جعل مصر أشبه بواحة فيضية في الركن الشمالي الشرقي من أفريقيا، تحيط بها الصحراء عن شرق وعن غرب، وتحدها مياه البحر المتوسط شمالا وأحراض أفريقيا في الجنوب. وقد وفرت الظروف الجغرافية قدرًا من الاستقرار ساعد المصريين على بناء حضارتهم القديمة.

وكان لابد من ترتيب الحياة المصرية وفقا لأحوال النيل وتقلباته. وقد صاغ المصريون مع النهر دراما تاريخية من نوع فريد. فمن خلال محاولات الفلاح المصري لتطويع نهر النيل اكتسب من الخبرة ما حوله إلى مهندس جغرافي أعاد تشكيل أرض بلاده بفضل شبكة الترع والمصارف والجسور التي بناها لترويض النهر. وفي خضم دراما النيل التاريخية عرف الإنسان المصري الحكومة المركزية، وسار خطواته نحو اكتشاف الدين، وفهم أسرار الفصول وطبيعة المناخ في بلاده. وعرف المصريون الكثير وقدموا للعالم الكثير في سياق صراعهم الملحمي مع النيل. بيد أن أهم ما تعلموه ومارسوه أن يكون نسيجهم الاجتماعي واحدًا متماسكا. ويعني هذا بعبارة أخرى أن يكون التعاون سمة المجتمعات الزراعية، فإذا ما كان مصدر الحياة في مجتمع زراعي - مثل مصر - واحد هو النيل، كان التعاون أكثر إلحاحًا.

كان النيل بفيضانه السنوي محل اهتمام المصريين، ولا يزال. ولأن النيل هو الظاهرة الطبيعية الحاكمة في الحياة المصرية منذ أقدم العصور، فإن خضوع المصريين لهذه الظاهرة من ناحية، وشكل استجابتهم للتحدي الذي طرحته هذه الظاهرة من ناحية أخرى، تركا بصماتهما الواضحة على تكوين الهوية المصرية على مر الأزمنة. كما أن العلاقة بين الإنسان المصري ونهر النيل تركت آثارها التراكمية على الوجدان المصري عبر الزمان؛ ذلك أن أحدا من ساكني مصل لم يكن ليستطيع أن يبتعد عن تأثير النيل على الحياة المصرية سواء من الناحية المادية أو من الناحية الوجدانية. وكان طبيعيًا أن يتمثل تراث الدراما التاريخية، التي تكونت من فصول الصراع الملحمي بين المصري والنهر، في قيام نوع من علاقة الحب والامتنان من جانب المصريين تجاه النهر العظيم. وتمثلت نتيجة ذلك في أن المصريين ألبسوا النهر ثوب القداسة وجعلوه من آلهتهم المعبودة زمن الفراعنة، ثم جعلوه «النهر المؤمن» ومن «أنهار الجنة»، عندما اعتنقوا الإسلام. وسواء كان المصري وثنيا، أو مسيحيا، أو مسلما، فإن علاقته بالنهر كانت تسير في نفس الاتجاه منذ عصور الفراعنة حتى دخول مصر الإسلام.

أيضا.. جعل النيل الزراعة حرفة الغالبية من المصريين، وسادت قيم المجتمع الزراعي العلاقات الاجتماعية للمصريين. وحكمت عاداتهم وتقاليدهم وشكلت أعيادهم واحتفالاتهم. كما حكم النهر علاقة الإنسان المصري بحكامه. وحكمت ثنائية الأرض والمياه طبيعة العلاقة بين السلطة والناس في مصر على مر العصور. إذ إن وجود النهر الذي يحمل المياه من الجنوب إلى الشمال، ليكون مصدر الحياة الوحيد تقريبا في مصر، استدعى أن يخضع الناس في مصر كلها لسلطة مركزية تضبط النهر وتضبط الناس الساكنين على ضفاف هذا النهر. ومنذ توحيد مصر على يد «مينا» لم يحدث أن انقسمت ولا يتصور أحد انقسامها.

لقد كان النظام الإداري يعطي للحاكم حق التصرف في الأرض الزراعية وحصص المياه منذ أيام الفراعنة، وما يزال حتى الآن على الرغم من تغير المسميات والمصطلحات. والناظر في تاريخ الملكية الزراعية المصرية على مر عصور التاريخ المصري، سيجد أنها كانت - دائما - أقرب ما تكون إلى حق الحيازة منها إلى الملكية الخالصة من ناحية، وسيكتشف أن مصر لم تعرف العائلات الأرستقراطية الزراعية التي تتوارث ملكية الأرض الزراعية على مدى القرون، كما هو الحال في أوروبا مثلا. من ناحية أخرى، فقد تصرف الفراعنة باعتبارهم الواسطة بين الآلهة والبشر، وكانت كل الموارد الطبيعية ملكًا للفرعون. وبعدهم أقر البطالمة نفس النظام الإداري على أساس ثنائية الأرض والمياه التي اعتبرها الحاكم حقا له. وورث الرومان، ثم البيزنطيون نفس النظام، بل إن الحكام المسلمون أقروا نفس النظام مع تعديلات غير جوهرية. ألم تكن مصر إقطاعا لباكباك التركي الذي عين أحمد بن طولون نائبا عنه؟ وفي عصر الأيوبيين والمماليك صارت أرض مصر الزراعية كلها إقطاعا للسلطان وأمرائه. وماذا حدث في العصر العثماني؟ ألم يكن استمرارا لفكرة أن الأرض ملك للحاكم؟ ومن ثم تصرف محمد علي على نفس المنوال.

ولم تكن العناصر الثابتة في مكونات الهوية المصرية قاصرة على نهر النيل وحده، وإنما تمثلت أيضا في سواحلها الطويلة الممتدة على البحر المتوسط شمالا والبحر الأحمر شرقا. وكان هذا البحران عوامل اتصال بين مصر وجيرانها أكثر منهما عاملي عزلة وانفصال. فقد شادت مصر حضارتها منذ أقدم العصور، وخرجت لتنقلها إلى كريت ثم بلاد اليونان (على نحو ما أثبتت الدراسات الحديثة)، وأقامت علاقات قديمة وحميمة مع بلاد الشام عن طريق البحر والسواحل، وعن طريق سيناء وفلسطين في البر. ومن هذه المناطق جاء التجار والمهاجرون والغزاة والأنبياء على مر العصور. وتقلبت المناطق الشمالية والشرقية بين مؤثرات حضارية وسكانية متنوعة أكسبتها نوعا من المرونة الحضارية والتسامح، إزاء الآخر على نحو لا يعرفه إلا من عرف اختلاف الأقوام. فمن هذه المناطق جاء الغزاة الذين نجح بعضهم في احتلال مصر ردحًا من الزمان؛ فقد جاء الهكسوس والفرس من الشمال والشرق، وجاء الإسكندر المقدوني وبعده قام

التساؤلات التي تثور الآن حول طبيعة ما جرى في مصر منذ ١٤ قرنا من الزمان عندما دخل الإسلام مصر.. وهل كان «غزوا» أم «فتحا»؟ صلحا.. أم عنوة؟.. مردود عليها في المقابل بأسئلة عن نتيجة الفتح الإسلامي لمصر؟ ألم تستأنف دورها الحضاري في خدمة البشرية؟ هل ظل حالها كما هو؟

لم يبدأ تاريخ مصر وإسهامها الحضاري في تاريخ العالم.. بالمسيحية ولم يتوقف بعدها. كما أن دخول الإسلام إلى مصر لم يكن أبدا نهاية لتاريخها الطويل؛ ولكنه كان بداية لدور حضاري جديد يستوعب ما قبله لكي يعيد صياغة هوية مصر في إطار يجمع بين موروثها الحضاري وما جاءت به الحضارة العربية الإسلامية

أحد ضباطه ببناء أسرة حاكمة انتهت بمصرع كليوباترا السابعة عام ٣٤ ق.م. ثم جاء الرومان ليحكموا مصر قرابة سبعة قرون حتى الفتح الإسلامي ٦٤٠م.

في تصورنا أن اختلاط العناصر السكانية الناجم عن هذه الأحداث، والناجم أيضا عن الهجرات السلمية الكثيرة التي جاءت إلى مصر من شبه الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر وعبر سيناء، والتي جاءت من بلاد الشام أو من بلاد البحر المتوسط، أو مناطق الشمال الأفريقي، كلها أدت إلى هذا النمط من الوسطية والمرونة الذي يميز المصريين، وهو الذي جعل مصر تستوعب كل ما يرد إليها لكي يذوب في بوتقتها، ويتشكل بالشكل الذي يلائمها؛ سواء كان ذلك فكرًا أو دينًا أو بشرًا.

أما العناصر غير الثابتة، أو المتغيرة، في الهوية المصرية فهي تلك التي تشكل تاريخها أو ميراثها الحضاري، وهنا يطرح السؤال نفسه بقوة عن تأثير الفترات التاريخية المختلفة في التكوين الحضاري للمصريين. فقد بدأ الإنسان المصري رحلته الحضارية منذ طفولة التاريخ البشرية؛ فروّض النهر كما روضه النهر، واستأنس الحيوان والنبات، وبنى القرى والمدن، ثم أخذ في كشف الأسرار الأولى في الكون، وطرح أسئلته وإجاباته عن الحياة والموت وما بعد الموت، وأنشأ مجتمعا متحضرا عرف الاستقرار، والسلطة والدين. كما أنتج الفن والأدب والعلم والحكمة؛ فضلا عن سيطرته على عناصر بيئته بشكل نسبي. هذا الإنسان المصري تعلم أن يطوع حياته عبر الزمان، وبمرور الزمن صار تراكم الخبرة الحضارية من عوامل تقدمه. ويقول جيمس هنري برستيد في كتابه «فجر الضمير» (ترجمة الدكتور سليم حسن):

«... وهكذا يمر أمامنا دور عظيم من الخبرة البشرية، كاشفا لنا في مدى ثلاثة آلاف سنة من حوالي سنة ٤٠٠٠ ق.م، عن ظهور أول مجتمع إنساني عظيم، وانتقاله من مرحلة إلى مرحلة أخرى في أطول تطور أخلاقي يمكن للباحث تعقبه في حياة أي مجتمع بشري.. ولابد أن تطور حياة مثل هذه الأمة العظيمة وآدابها خلال ثلاثة آلاف سنة قد أثر تأثيرا عميقا على جيرانها في فلسطين خاصة، بل على كل أنحاء الشرق الأدنى...».

ثم حدث انقطاع تاريخي في حضارة الفراعنة، وجاء زمن خضع فيه المصري للآخر، الهكسوس والفرس والإسكندر وخلفائه، ثم الرومان وامتدادهم البيزنطي. وعلى الرغم من أن هذه الغزوات شكلت منعطفات حادة، وقاتمة أحيانا في التاريخ المصري، فإنها كانت إضافة بشكل ما إلى رصيدهم من الخبرة الحضارية: تعلموا منها لكنهم لم يغرقوا في طياتها ولم يفقدوا هويتهم الحضارية في موجاتها. وكان الإسكندر الأكبر (ت ٣٢٣ ق.م) هو الذي بدأ مرحلة جديدة في التاريخ المصري لعبت فيها المدينة دورا أساسيا؛ فقد كانت الإسكندرية عاصمته التي ورثها البطالمة، ولكنها لم تكن داخلة في النسيج المصري العام، وعادة ما كانت توصف بأنها «الإسكندرية المتاخمة لمصر». والسبب في ذلك أن البطالمة عاشوا في المدن، على حين عاش المصريون عموما كما كان أجدادهم يعيشون من قبل؛ محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم، يعبدون آلهتهم ويخضعون لقوانينهم وأعرافهم الفرعونية. وكان معنى هذا في التحليل الأخير أن مصر لم تتأثر بالحضارة اليونانية ولكن اليونانيين هم الذين تمصروا.

كان المصريون في أثناء الفترة البطلمية، التي استمرت حوالي ثلاثة قرون، يجاهدون في سبيل المحافظة على هويتهم الحضارية. وكانت أطول فترة خضعت فيها مصر لحاكم أجنبي قبل دخول الإسلام، هي الفترة الرومانية وامتدادها البيزنطي (٣٤ ق.م - ٦٤٠م). فمنذ هزيمة الملكة البطلمية الأخيرة كليوباترا في

معركة أكتيوم، وانتحارها بعد ذلك، تحولت مصر إلى ولاية رومانية. فقد صار الإمبراطور الروماني وريثا للفراعنة والبطالمة والحاكم المطلق لمصر. أما الإسكندرية فقد بقيت عاصمة للبلاد وصارت العاصمة الثقافية للعالم الهلينستي، الذي ورثته روما، ومن أهم مراكز التجارة العالمية التي تجتذب العرب والهنود والإثيوبيين وغيرهم. ولكن المصريين عاشوا حياتهم بعيداً عن هذا كله. ولم يتغير في حياتهم شيء اللهم إلا زيادة الضرائب بشكل غير مسبوق، وعاشت روما على القمح المصري بلا مقابل. ومع ذلك ظل المصريون يحاولون الحفاظ على هويتهم الحضارية، وكان الدين وسيلتهم في ذلك، فتمسكوا بدياناتهم القديمة. ولم يلبث الرومان أن تأثروا بهذه الديانة وبالآلهة المصرية، فعبدوها وأقاموا لها التماثيل حتى في روما نفسها. وواصل البيزنطيون سياسة نهب مصر من بعد الرومان.

وعلى الرغم من طول الفترة الرومانية، فإن التأثير الروماني، ثم البيزنطي، على مصر ظل سطحيا وقشريا لم يخضع له سوى تلك الفئة من المصريين المرتبطين بدوائر الحكم والمؤسسات الرسمية في العاصمة (الإسكندرية) وبعض المدن، على حين بقيت غالبية المصريين في الريف تعيش حياتها بمنأى عن الحكام؛ لا يتحدثون لغتهم، ولا يمارسون عاداتهم أو يأخذون بتقاليدهم.

ثم دخلت المسيحية إلى مصر في القرن الأول الميلادي، وانتشرت بشكل كبير في أواخر القرن الثاني. وتعرض المصريون للاضطهادات الرومانية التي بلغت في عصر الإمبراطور الروماني دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥م)، حتى اتخذ الأقباط من هذا التاريخ بداية «لتقويم الشهداء» أو التقويم القبطي. وحينما انتصرت المسيحية بفضل الإمبراطور قسطنطين الكبير، وهدأت نيران الاضطهاد، بدأت الكنائس في العالم المسيحي تناقش العلاقة بين الثالوث المقدس. وكان طبيعيا أن تلعب كنيسة الإسكندرية دورها بفضل تراث مدرسة الإسكندرية في الفلسفة والمنطق والعلوم. وبعد عدة تطورات تبنت الكنيسة المصرية مذهب الطبيعة الواحدة، في مواجهة المذهب الذي حاول أباطرة القسطنطينية فرضه على رعاياهم. وكان ذلك نوعا من بلورة الموقف الوطني المصري حول الكنيسة القبطية ومذهبها. وغرق المصريون من جديد في موجات الاضطهاد المذهبي إلى جانب معاناتهم من النهب المستمر لموارد بلادهم. وانتزعت من الأقباط كنائسهم وأديرتهم وأملاكهم لصالح الكنيسة البيزنطية. وقد أدى هذا بطبيعة الحال إلى المزيد من الشقاق والتباعد بين أهل مصر وحكامهم البيزنطيين.

فهكذا قلى حصاد تلك القرون العشرة التي خضعت مصر في أثنائها «للآخر»؟ لم ينجح البطالمة (من غزو الإسكندر مصر سنة ٣٣٢ ق.م إلى مصرع كليوباترا سنة ٣١ ق.م) في «أغرقة» مصر، على الرغم من نجحت مصر في تمصيرهم تماما. كما لم ينجح الاحتلال الروماني وامتداده البيزنطي الطويل (٣١ق.م / ٦٤١م) في فرض اللغة اللاتينية، أو اليونانية من بعدها، على المصريين. ولأن اللغة إطار حضاري معبر عن الذات والهوية، ولأن اللغة ليست مجرد كلمات تنطق بها الألسنة، أو تجري بها الأقلام، ولأن اللغة أداة تواصل ثقافي ووجداني بين أبناء المجتمع الواحد، ولأن اللغة تحمل المخزون الحضاري للجماعة وتؤثر في طريقة التفكير وفي العقلية الجماعية ـ لهذا كله، وكثير غيره، لم يتخل المصريون لغة «الآخر». واتخذت لغتهم صيغة متطورة عن اللغة الهيروغليفية المقدسة هي اللغة الديموطيقية (الدارجة)، التي اصطلح على تسميتها اللغة القبطية (أي المصرية). وبقيت هذه اللغة بالنسبة لأهل مصر لغة التعامل اليومي، والصلوات في الكنائس، والأغاني والأناشيد، وظلت اللغة المصرية مستخدمة حتى بعد الفتح الإسلامي بدليل وجود برديات مكتوبة بثلاث لغات هي العربية واليونانية والقبطية، يرجع تاريخها إلى القرن الأول والثاني بعد الهجرة.

قبل الفتح إذن كانت مصر سلة الخبز بالنسبة للرومان والبيزنطيين، كما أن الضرائب أثقلت كاهل المصريين، واتخذت العلاقة بين أهل مصر وحكامهم شكلا نهبيا مثيرا، ترك بصماته السلبية على أهل مصر، وأضافت الاضطهادات المذهبية التي مارسها البيزنطيون ضد المصريين بعدا عدائيا جديدا بين الطرفين. وكان طبيعيا أن يرحب المصريون بالفاتحين المسلمين الذين جاءوا بدين مخالف ولكنهم مارسوا سياسة الحرية الدينية.

ويجدر بنا قبل أن نعرض لتأثير الفتح الإسلامي في تكون الهوية المصرية أن نتوقف عند بعض الأسئلة التي تثور الآن حول طبيعة ما جرى منذ أربعة عشر قرنا من الزمان: هل كان «غزوا» أم فتحا؟ وما تأثيرات ما جرى على مصر والمصريين؟ وما جدوى هذه الأسئلة الآن؟ حتى إذا تجاوزنا عن القصد من ورائها.

بداية كانت القرون العشرة السابقة على الفتح الإسلامي فترة تراجع وانحسار في الدور الحضاري لمصر. وتحولت مصر خلال القرون السبعة الأخيرة من تلك الفترة بشكل خاص من دور «الفاعل» الحضاري إلى دور «المفعول به». وكان هم المصريين واهتمامهم منصبا على محاولة التمسك بملامح هويتهم الحضارية في مواجهة «الآخر»: الفرس والبطالمة ثم الرومان فالبيزنطيون. ولم تسهم مصر أثناء تلك الفترة في الحضارة الإنسانية بشيء خطير سوى صياغة بعض المذاهب المسيحية، وابتداع الرهبنة الفردية التي حولتها أوروبا إلى نمط من الديرية الجماعية فيما بعد.

وبغض النظر عن المعنى اللغوي لكلمتي الغزو والفتح، والفارق بينهما؛ فإن المعنى الاصطلاحي للغزو يشي بالتدمير والتخريب والنهب، على حين توحي كلمة الفتح بالبناء والتقدم والبداية الجديدة المثمرة. وهنا نرد على هذه الأسئلة بسؤال يقول: ماذا نتج عن الفتح الإسلامي لمصر؟ ألم تستأنف دورها الحضاري في خدمة البشرية؟ وهل كان حال مصر بعد الإسلام هو نفس حالها تحت حكم الرومان؟ وهل... وهل...؟

إن مثل هذه الأسئلة الجدلية الخطابية تبدو عقيمة إذا لم تسندها حقائق التاريخ. وربما يكون من المناسب أن نحاول مناقشة هذا الموضوع من خلال الكتاب الذي أصدرته الهيئة العامة لقصور الثقافة بعنوان «أثر الإسلام في مصر وأثر مصر في الحضارة العربية الإسلامية»، ضمن احتفالات مرور أربعة عشر قرنا على دخول الإسلام إلى مصر (الطبعة الأولى ـ يوليو ١٩٩٩م).

مع بداية أربعينيات القرن السابع الميلادي، كانت جيوش المسلمين قد أكملت سيطرتها على بلاد الشام وفلسطين واستولت على السواحل الشرقية للبحر المتوسط. وكان لابد من تأمين هذه السيطرة بالاستيلاء على مصر وبقية السواحل الجنوبية للبحر المتوسط. وبغض النظر عن الروايات التي أوردتها المصادر التاريخية عن تردد الخليفة عمر بن الخطاب في فتح مصر، فإن منطق التداعيات العسكرية والاستراتيجية كان يفرض على الجيوش الإسلامية الاستيلاء على مصر لتأمين وجودها في بلاد الشام وفلسطين.

وهكذا تقدم عمرو بن العاص بجيشه لفتح مصر، وكانت هذه حربا مثل أية حرب أخرى بطبيعة الحال. إذ إن فرض السيادة على دولة أخرى، أو إحدى ولايات هذه الدولة لم يكن ليتم بدون قتال وإراقة دماء. ولكن ما ينبغي أن



الاختلاط العرقي بين المصريين والعرب كان موجودا قبل الإسلام، وظل قائما بعده. فقد كان عرب الشمال البدو الرحل يستوطنون المناطق الشمالية والشرقية من مصر، أما عرب الجنوب النازحون من اليمن فكانوا يعبرون البحر الأحمر ليستقروا في الوادي بين الزراع؛ لأنهم كانوا أهل زراعة في بلادهم أيضا. كما لاحظ هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد، وأسترابون في أواخر القرن الأول قبل الميلاد وبداية القرن الميلادي الأول

نلاحظه هو أن تلك الحرب لم تكن ضد المصريين، وإنما كانت ضد البيزنطيين (الروم) من ناحية، كما أن المصريين ساندوا جيش عمرو بن العاص، وقدموا له المساعدة بناء على نصيحة البطريرك بنيامين.

ويخبرنا المؤرخ القبطي يوحنا النقيوسي عن الاضطهاد البيزنطي العنيف ضد الأقباط موضحا لنا ـ وهو شاهد عيان ـ أن تلك الاضطهادات كانت السبب في مساندة الأقباط للمسلمين. ويرى أن الرب انتقم من البيزنطيين عن طريق المسلمين «... ولكن الله الذي يصون الحق لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين ولم يرحمهم لتجرئهم عليه، وردهم إلى يد الإسماعيليين (أي المسلمين). ثم نهض المسلمون وحازوا كل مصر...» (ترجمة الدكتور عمر صابر عن اللغة الحبشية. تحت الطبع). ويشير إلى أن الأقباط نقلوا قوات عمرو بن العاص في قواربهم فوق صفحة النيل من ضفة إلى أخرى، كما أنهم قاموا ببناء الجسور وأقاموا الأسواق لخدمة الجيش الإسلامي منذ دخوله الحدود المصرية عند الفرما (قرب بورسعيد الحالية). ويخبرنا يوحنا النقيوسي أن حسن معاملة القائد عمرو بن العاص لبنيامين بطريرك الأقباط، كانت من أهم أسباب نظرة الأقباط إلى المسلمين، باعتبارهم جيش الإنقاذ الذي يخلصهم من الطغيان البيزنطي. فقد كان بطريرك الأقباط هاربا في كهوف صحراء الصعيد، خوفا من بطش كيرس (المقوقس) الحاكم البيزنطي على مصر طوال ثلاثة عشر سنة. ويقول يوحنا النقيوسي: «... ودخل الأنبا بنيامين بطريرك المصريين مدينة الإسكندرية بعد هربه من الروم لمدة ثلاثة عشر عاما. وسار إلى كنائسه وزارها كلها. وكان كل الناس يقولون: هذا النفي وانتصار المسلمين كان بسبب ظلم هرقل الملك، وبسبب اضطهاد الأرثوذكس على يد البابا كيرس (المقوقس)، وهلك الروم لهذا السبب وساد المسلمون مصر...».

وإذا كنا قد توقفنا قليلا عند هذه النقطة، فإن السبب في ذلك يرجع إلى أننا نريد أن نوضح أن الحرب كانت ضد البيزنطيين من ناحية، وأن المصريين كانوا إلى جانب المسلمين من ناحية أخرى. وقد أخبرنا المؤرخ العربي المسلم عبد الرحمن بن عبد الحكم والمؤرخ القبطي سعيد بن البطريق بروايات تؤكد ما ذكره يوحنا النقيوسي في هذا الصدد وتزيد عليه. ولسنا نقصد أن نتورط في أي نمط من الكتابة التبريرية أو الاعتذارية حول الفتح الإسلامي لمصر، ولكننا نريد أن نوضح الحقائق التاريخية الأساسية التي تقول: إن المصريين تحت الحكم البيزنطي كانوا في أسوأ حال من النواحي السياسية والاجتماعية والدينية: فقد أثقلتهم الضرائب الباهظة ووسائل جبايتها القاسية، كما انتزعت كنائسهم وأديرتهم وأملاكهم الخاصة، وعاش بطريركهم طريدا على مدى ثلاث عشرة سنة. ثم جاء عمرو بن العاص يرفع راية الحرية الدينية، ويطبق شعارها فساعده المصريون لكي يتخلصوا من شرور البيزنطيين، وبفضل مساعدتهم تمت هزيمة الحامية البيزنطية، ويتم تسليم حكم البلاد للمسلمين.

وبعد أن استقرت أمور الفاتحين المسلمين في مصر، استقدم عمرو بن العاص البطريرك بنيامين وأمنه وأعاد إليه ممتلكات الكنيسة القبطية، ولكنه لم يصادر أيضا ممتلكات الكنيسة الملكانية التي كانت تتبع مذهب الكنيسة البيزنطية.

على أية حال، أخذ بنيامين بطريرك الأقباط الذي قضى شطرا كبيرا من حياته في النضال ضد البيزنطيين أعداء الأقباط المذهبيين، يعمل بلا كلل لتقوية الكنيسة القبطية، ويعيد تأسيس الأديرة والكنائس التي كانت قد هدمت قبل الفتح الإسلامي، كما أرسل مطرانا جديدا إلى كنيسة الحبشة التي كانت تابعة للكنيسة المصرية. وكانت آخر أعماله تأسيس كنيسة جديدة للقديس مكاريوس في وادي النطرون.

كان هذا المشهد التاريخي تجسيدا لجوهر العلاقات بين المسلمين والمسيحيين على أرض مصر منذ تلك اللحظة وعلى امتداد تاريخ مصر بعد ذلك. وكانت العلاقة بين المسلمين المصريين والمسيحيين المصريين من أهم عوامل صياغة الهوية المصرية على امتداد أربعة عشر قرنا من الزمان. وتفسير ذلك أن تلك اللحظة التاريخية قد شهدت تعاونا بين المسلمين الذين قادهم عمرو بن العاص لفتح مصر، والأقباط الذين ساعدوا الفاتحين ضد «الآخر» البيزنطي، ثم تعين عليهم أن يصوغوا علاقة جديدة فيما بينهم. وربما

ساعدتنا الوقائع التاريخية على فهم طبيعة هذه العلاقة ومدى متانتها.

فعلى الرغم من اختلاف آراء المؤرخين القدامى حول فتح مصر: أكان صلحًا أم عنوة؟ فالواقع أن الخليفة عمر بن الخطاب أمر بأن يعامل المصريون على أساس أن بلادهم قد فتحت صلحا، وهو ما يعني أن يحتفظ المصريون بالأرض الزراعية وممتلكاتهم الأخرى، ويؤدون عنها الضرائب المعتادة. وربما كان من أسباب هذا الإجراء أن الزراعة مهنة المصريين، وأن الأصوب أن تترك الأرض لمن يزرعونها، وربما يكون من بين هذه الأسباب أيضا، أن الحرب كانت ضد الاحتلال البيزنطي ولم تكن ضد المصريين. وربما كانت المساعدات والإسهامات المصرية وراء قرار الخليفة. بيد أن ما يهمنا أن هذا القرار كان في صالح مستقبل العلاقة بين الطرفين.

وربما يكون من المناسب أن نشير هنا إلى أن الطرفين لم يكونا غرباء. وإنما كانت هناك بعض صلات القربى والدم تربط بين العرب والمصريين قبل الإسلام. فقد أثبتت الدراسات والبحوث الأثرية (في العلا ومدائن صالح بالسعودية)، أن الصلات قديمة بين مصر وشبه الجزيرة العربية: إذ تشير سجلات التاريخ الفرعوني إلى استمرار قدوم القبائل العربية إلى مصر عبر شبه جزيرة سيناء، ثم استقرارها على الأرض المصرية. ويلاحظ كلا من جمال حمدان (شخصية مصر)، وحسين مؤنس (مصر ورسالتها)، وسيدة كاشف (مصر في عصر الولاة)، أن الاختلاط العرقي بين المصريين والعرب كان موجودا قبل الإسلام، وظل قائما بعده. فقد كان عرب الشمال البدو الرحل يستوطنون المناطق الشمالية والشرقية من مصر. أما عرب الجنوب النازحون من اليمن فكانوا يعبرون البحر الأحمر ليستقروا في الوادي بين الزراع؛ لأنهم كانوا أهل زراعة في بلادهم أيضا. وينبغي أن نلاحظ أن جيش عمرو بن العاص كان يضم الكثير من عرب الجنوب. وقد لاحظ هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد، واسترابون في أواخر القرن الأول قبل الميلاد وبداية القرن الميلادي الأول، كثافة الوجود العربي في مصر. وهو ما يعني في التحليل الأخير وجود أساس سكاني تاريخي لعملية المزج السكاني بين العرب والمصريين بعد الإسلام.

وهنا ينبغي أن نشير أيضا إلى أن عملية المزج بين المسلمين والنصارى قد جرت في اتجاهين:

أولهما: أن العناصر العربية الإسلامية التي جاءت مع جيش الفتح واستقرت في مصر قد تمصرت وذابت في النسيج المصري العام لاعتبارات عديدة. وهو ما حدث أيضا بالنسبة للقبائل والبطون العربية التي استمرت في القدوم إلى مصر على مر القرون.

ثانيهما: أن أعدادًا متزايدة من المصريين تحولوا من المسيحية إلى الإسلام لأسباب متنوعة حتى صار المسلمون أغلبية بين المصريين.

ومع هذا، فإن النسيج السكاني والاجتماعي المصري بقي متجانسا وقويا. وربما تؤكد التطورات التاريخية ما ذهبنا إليه.

لقد كان الفتح الإسلامي في نقطة فارقة، ومنعطفا مهما في تاريخ المصريين من جوانب عديدة؛ إذ كانت تلك هي المرة الأولى في التاريخ المصري الطويل، التي يتغير فيها الشكل الحضاري لمصر. فلم يكن المسلمون مجرد قوم من الغزاة الذين عرفهم التاريخ المصري على مدى عصوره الطويلة. كما أن الدين الذي جاءوا تحت رايته كان أساسا لحضارة رائعة، أسهمت في ترقية البشرية وتقدمها على مدى ما يزيد على عشرة قرون. وعلى الرغم من أن المصريين غيروا دياناتهم مرتين: إحداهما، عندما اعتنقوا المسيحية. والثانية، عندما اعتنقت غالبيتهم الإسلام، فإن الفتح الإسلامي كان فاتحة شكل حضاري ودور حضاري جديد لمصر. إذ إن الفتح



الضرائب التي زادت بشكل غير مسبوق دفعت المصريين ـ مسلمين ومسيحيين ـ إلى المقاومة المسلحة. وكانت ثورات المصريين المتكررة فيما بين العام ١٠٧ من الهجرة والعام ١٥٦ بمثابة البوتقة التي ذابت فيها مكونات الشخصية المصرية لتكون سبيكة واحدة

الإسلامي أنهى فترة الرقاد والركود الحضاري من جهة، وغير من طبيعة النسيج الثقافي المصري من جهة ثانية، كما مزج بين الموروث الحضاري العريق للمصريين وما جاء به الإسلام والعروبة من جهة ثالثة ـ فكيف كان ذلك؟

كانت هناك نتائج مباشرة للفتح الإسلامي: فقد كانت سياسة عمرو بن العاص تتسم بالحكمة تجاه المصريين، وتزخر أدبيات الفتح الإسلامي لمصر بأحاديث كثيرة تُنسب إلى النبي (عليه الصلاة والسلام) توصي بالقبط خيرا عند فتح مصر: لأن «... لهم ذمة ورحمًا...» وأن «... منهم أخوال العرب...» وأنهم «خير جند الأرض»، وأنهم سوف يعينون المسلمين في فتح البلاد. وربما تكون هذه الأحاديث قد وضعت في روايات الفتح بأثر رجعي، لكي تزين قصة الفتوح التي ظلت محلا للتداول الشفاهي حتى دونها عبد الرحمن بن عبد الحكم في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي؛ ولكنها تعكس جانبا من الحقائق التاريخية، كما تكشف عن أسباب السياسة التي اتبعها عمرو بن العاص تجاه المصريين. إذ إن الروايات التاريخية تنسب إلى عمرو بن العاص خطبة ألقاها على جنوده غداة الفتح جاء فيها: «... واستوصوا بمن جاوركم من القبط خيرا...». وقد التزم عمرو بن العاص بمبدأ حرية العقيدة بدقة، كما كانت العدالة تميز سلوكه تجاه المصريين جميعا.

وعلى العموم كانت أحوال الأقباط تحت الحكم الإسلامي الباكر أفضل كثيرا منها تحت الحكم البيزنطي، بل إننا نوافق الدكتور إسحق عبيد على ما ذهب إليه من أن الفتح الإسلامي هو الذي حفظ الكنيسة المصرية من الضياع لحساب الكنيسة البيزنطية. فقد أعطى عمرو بن العاص للأقباط مساحة من بركة الجيش لتكون مقابر لهم بعدما كان البيزنطيون ينكرون عليهم هذا الحق، وسمح لهم بترميم كنائسهم وبناء كنائس جديدة. إذ تم بناء كنيسة مارمرقس بالإسكندرية فيما بين عامي ٣٩ و ٥٠ هجرية. كما بُنيت أول كنيسة بالفسطاط في ولاية مسلمة بن مخلد (٤٧ ـ ٦٨هـ).

وقد شجعت هذه السياسة بعض المصريين على اعتناق الإسلام، كما أن أعدادا متزايدة من المصريين أخذوا يعتنقون الإسلام لأسباب متنوعة: فمنهم من بادر منذ البداية إلى اعتناق الإسلام تقربا وزلفى إلى الحكام الجدد، ومنهم من خشي على وظيفته أو مكانته الاجتماعية، ومنهم من آمن فعلا بالدين الجديد. ولكن معدل انتشار الإسلام في مصر ظل بطيئا طوال القرن الهجري الأول / القرن السابع الميلادي. ولم يثبت تاريخيا أن ثمة ضغوطا قد مورست على الأقباط لكي يعتنقوا الإسلام كرها: لأن ذلك ضد مبادئ الإسلام من ناحية، ولأن المسلمين الأوائل آمنوا بحق أهل الكتاب في التمسك بدينهم والبقاء في دار الإسلام من ناحية أخرى.

ولكن تعريب الأداة الحكومية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٥ هـ / ٦٨٤ ـ ٧٠٥م)، ثم توطين بعض القبائل العربية، وزيادة معرفة المصريين بالإسلام، زادت من أعداد المصريين الذين اعتنقوا الإسلام. وفي القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي تصاعد معدل انتشار الإسلام في أنحاء مصر بسبب زيادة أعداد المصريين الذين اعتنقوا الإسلام من جهة، وزيادة بطون القبائل العربية التي سكنت ريف مصر من جهة ثانية. ويذكر المؤرخ تقي الدين المقريزي، نقلا عن مصادر تاريخية قديمة، أن العقود الأولى من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، شهدت تحول المسلمين إلى أغلبية بين سكان البلاد.

وقد نتج عن هذه التحولات في البنية السكانية آثار ونتائج اجتماعية / ثقافية بعيدة المدى على الهوية الحضارية للمصريين. ذلك أن المصريين الذين تحولوا إلى الإسلام، احتفظوا بموروثهم الثقافي الطويل، وحاولوا تبريره في مصطلحات تناسب دينهم الجديد. ولم يكن ممكنا أن يحدث غير ذلك، فالموروث الثقافي لأي مجتمع يكون من القوة بحيث يطوع كل شيء في خدمته؛ وربما يكون هذا هو السبب الأساسي في اختلاف شكل التدين من مجتمع لآخر، فضلا عن أن المذاهب الدينية المختلفة ـ في كل الأديان ـ ليست في حقيقتها سوى تفسيرات للدين يحكمها الموروث الثقافي للمجتمع. وقد كان المصريون في ذلك متوافقين مع قانون التطور التاريخي. ومن ناحية أخرى، ذابت العناصر العربية الوافدة رويدا رويدا في المجتمع، وتمصروا مثلما حدث مع من سبقهم، ولكن ثقافتهم العربية تركت تأثيراتها في المجرى العام للثقافة المصرية. وهكذا، وجدنا أنفسنا في القرن الثالث الهجري أمام مجتمع مصري، يعتنق معظمه الإسلام ويعتنق الباقون المسيحية. كما أن معظم سكانه من المصريين الأصلاء والباقين من العناصر العربية، وغير العربية، المتمصرة. وبدأ هذا المجتمع يواجه ظلم الإدارة الذي تصاعد في عهد الأمويين ثم العباسيين من بعدهم.

وكان السبب المباشر في ذلك أن الأعباء المالية كانت قد زادت على المصريين بشكل غير معقول قرب نهاية القرن الهجري الأول، مما أنتج حركة مقاومة سلبية واسعة النطاق تمثلت في عمليات الهروب بأعداد كبيرة من الريف. وقد حاول قرة بن شريك (والي مصر ٩٠ ـ ٩٦هـ / ٧٠٩ ـ ٧١٤م)، أن يوقف حركة الهاربين، فأنشأ هيئة خاصة لتعقب الفلاحين الهاربين وإعادتهم إلى قراهم. كما أصدر المراسيم التي يطلب فيها مراعاة العدالة في تقدير الضرائب وجبايتها. وقد حفظت لنا أوراق البردي بعض هذه المراسيم. إلا أن محاولة هذا الوالي باءت بالفشل؛ إذ تخبرنا المصادر التاريخية أن زيادة الضرائب قد أخرجت المصريين جميعا: مسلمين ومسيحيين من طور المقاومة السلبية إلى مرحلة المقاومة المسلحة. وكانت ثورات المصريين التي تكررت في سنوات ١٠٧هـ، ١٢١هـ، ١٣٢هـ، ١٥٠هـ، ١٥٦هـ بمثابة البوتقة التي ذابت فيها مكونات الشخصية المصرية وانصهرت لتكون سبيكة واحدة ذات خصائص ثقافية واجتماعية متمايزة. وعلى الرغم من أن حكومة الولاة تمكنت من إخماد هذه الثورات كلها، فإن القرن الثالث الهجري شهد تصاعدا خطيرا في الثورة المصرية ضد ولاة الدولة العباسية. وأحسب أن السبب في شدة ثورات القرن الثالث راجع إلى زيادة تماسك النسيج الاجتماعي المصري بعناصره المسيحية والإسلامية من ناحية، والمصرية والعربية من ناحية أخرى.

ففي عام ٢١٥هـ / ٨٣٠م شارك المسلمون والمسيحيون في ثورة عارمة بسبب ظلم السياسة الضريبية التي انتهجها الولاة العباسيون، وامتنع المصريون عن أداء الضرائب وطردوا موظفي الدولة. ولم تستطع القوات الحكومية إخماد الثورة، واضطر الخليفة المأمون العباسي أن يقود جيشه بنفسه إلى مصر عام ٢١٧هـ / ٨٣٢هـ حيث تمكن قائد جيوشه، المعروف باسم الأفشين، من هزيمة المصريين: فقتل رجالهم، وسبى نساءهم، وباع أطفالهم في أسواق النخاسة. وأعقبت ذلك عمليات تفريغ سكاني في مناطق شمال الدلتا، وعمليات توطين بديلة. وتم ترحيل عدد كبير من المصريين الذين ينحدرون من أصول بيزنطية، ومن ناحية أخرى تم توطين عدة بطون عربية في الريف المصري، كما أن كثيرين من المصريين اعتنقوا الإسلام. وفي هذا يقول المقريزي «... وغلب المسلمون على أماكنهم من القرى ...»، أي أن غالبية أهل الريف صاروا من المسلمين.

وكان هذا تحولا خطيرا حقا، إذ ظل الإسلام حتى تلك اللحظة دينا حضريا، فقد عاش المسلمون في العاصمة ـ التي لم تخل من المسيحيين بطبيعة الحال ـ ولكن أعدادهم في الريف كانت قليلة حتى منتصف القرن الثالث الهجري عندما صار المسلمون أغلبية بين المصريين. ونتج عن هذا تيار اجتماعي / ثقافي، استمر على مدى الأجيال التالية في

صياغة الهوية الحضارية المصرية. فقد امتزج الموروث الاجتماعي / الثقافي المصري بتعاليم الإسلام بشكل جعل بعض عادات المصريين وتقاليدهم تختفي لتعارضها الواضح مع الإسلام، على حين استمرت بعض هذه العادات والتقاليد في الوجود تحت عباءة الإسلام. وكانت العادات والتقاليد المصرية المرتبطة بالموت والمقابر وطقوس الجنائز أبرز العادات والتقاليد الباقية، كما أن بعض العادات والتقاليد المرتبطة بقائمة الطعام والملابس واحتفالات دورة الحياة، والاحتفالات العامة استمرت في شكل حضاري جديد كانت الثقافة العربية الإسلامية إطاره وأساسه. وعلى الرغم من أن المسيحيين تمتعوا بحرياتهم الدينية تحت رئاسة البطريرك القبطي، فإنهم لم يكونوا يشكلون كيانا منعزلا، وإنما شاركوا في جميع نواحي النشاط السياسي والاقتصادي والثقافي باعتبارهم جزءًا عضويا من الكل المصري.

هكذا كان انتشار الإسلام في مصر من أهم عوامل صياغة الهوية: بيد أن مسألة «تعريب» مصر تعتبر مسألة غاية في الأهمية والخطورة. فقد انتشر الإسلام في مناطق شاسعة من العالم آنذاك، ولكنه لم يقترن بالتعريب سوى في المنطقة العربية. ومن ناحية أخرى، كانت تلك هي المرة الأولى التي يتخلى فيها المصريون عن لغتهم طوال تاريخهم الطويل. وهي مسألة تثير الكثير من التساؤلات حول أسبابها ونتائجها. وربما كان من المناسب أن نقول مع الدكتور أحمد مختار عمر إنها قصة «... تستحق التسجيل وتغري بالدرس...»، وأخطر فترة في تاريخ اللغة العربية في مصر هي تلك التي بدأت مع الفتح الإسلامي واستمرت طوال القرون الثلاثة التالية.

لم تكن اللغة العربية غريبة على مصر، إذ كان لها تاريخ طويل يمتد عدة قرون قبل الإسلام، وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن وجود اللغة العربية في مصر كان وجودا حقيقيا مرتبطا بوجود العناصر العربية التي أشرنا إليها من قبل.

وفي تصورنا أن اللغة العربية انتشرت في مصر بعد الإسلام، لأسباب عديدة أهمها: أنها لغة قريبة في بنائها وطرق اشتقاقها من اللغة المصرية، بل إن دراسات علماء اللغة كشفت عن أن هناك قرابة شديدة بين اللغتين اللتين تنتميان إلى عائلة لغوية واحدة، وهو الأمر الذي سهّل من انتشار اللغة العربية في مصر، بحيث صارت لغة المصريين الوحيدة. وعلى الرغم من أن عوامل كثيرة سياسية واقتصادية ودينية وفكرية كانت وراء النجاح الذي كللت عملية التعريب، فإن أهم هذه العوامل في ظني يرجع إلى درجة القرابة بين اللغتين، والاندماج الذي حدث بين العرب والمصريين، قبل الإسلام وبعده، على نحو ما ظهر في الصفحات السابقة.

لقد فرضت الحياة الاجتماعية على البشر اختراع اللغة؛ أي تلك الأصوات التي تحمل معان أو دلالات اصطلحت عليها الجماعة. وبالاتفاق صارت الكلمات تدل على أفعال، أو ترمز إلى أشياء مادية أو غير مادية. وربما كانت كلمات البشر الأولى هي تلك التي تحمل معاني الأشياء الماثلة أمامهم. ويرى بعض علماء اللغة أن شكل الشفاه في نطق بعض الكلمات يشي بمحاولة تقليد معنى الكلمة أو مضمونها: ففي كلمات الشعوب البدائية نجد تشابها بين الكلمات ومعانيها. ولأن اللغة جزء من الموروث الثقافي / الاجتماعي، كما أنها تقوم بنقل هذا الموروث وتشكله. فلا يمكن اعتبارها مجرد وسيلة نقل؛ لأن اللغة لا تكتفي بالنقل. وإنما تؤثر فيما تنقله، ويؤدي هذا بالضرورة إلى أن تكون اللغة من أهم عناصر تكوين الهوية الحضارية.

فاللغة من أهم عناصر رؤية الجماعة الإنسانية لذاتها؛ أي أنها من أهم عناصر تكوين الأيديولوجية التي تتحرك الجماعة الإنسانية في داخلها. والسبب في ذلك أن اللغة لا يمكن أن تكون مجرد نتاج للحياة الاجتماعية، وإنما هي أيضا من عوامل تشكيل هذه الحياة الاجتماعية، كما أن التفكير في معاني مفرداتها ودلالاتها ومغزاها لا يمكن أن يتم بمعزل عن السياق الاجتماعي، فضلا عن أن الأفكار التي تحملها اللغة لا يمكن أن تصبح أفكارا حقيقية، أو أن يكون لها تأثير اجتماعي، دون أن يكون المجتمع متقبلا لها.



أدى تعريب الدواوين في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان (٦٥ إلى ٨٥هجرية) وتوطين بعض القبائل العربية وزيادة معرفة المصريين بالإسلام، إلى زيادة أعداد الذين اعتنقوا الدين الجديد. وبالقدر نفسه تقبل المصريون اللغة العربية واتخذوها لغة لهم؛ لأنها لم تكن غريبة عليهم أو على لغتهم القديمة، لكن الأمر تطلب عدة أجيال قبل أن يكتمل تعريب مصر.

ومن هنا تتضح خطورة تعريب مصر بعد الفتح الإسلامي، وتأثير هذا التعريب على التكوين الحضاري للمصريين. فقد تقبل المصريون اللغة العربية واتخذوها لغة لهم؛ لأنها لم تكن غريبة عليهم. كما أن بناءها وتراكيبها واشتقاقاتها كانت مشابهة للغتهم القديمة، فضلاً عن أنها ارتبطت بالإسلام الذي اعتنقته غالبية المصريين. وأخيرا فإن ظروف المجتمع المصري والتطورات التاريخية التي مرّ بها ساعدت على قبول اللغة العربية من جانب المصريين.

ولم يفرض الفاتحون قيودًا على استخدام اللغة القبطية، بل إنهم سمحوا باستخدامها في الوثائق القانونية، وهو ما لم تسمح به السلطات البيزنطية سوى في أواخر سني حكمهم، وفي نطاق ضيق للغاية يتعلق بالقانون الخاص فقط. وعندما فتح المسلمون مصر لم تكن اللغة المصرية مستخدمة في أية معاملات رسمية، بل إن الصلوات في الكنائس كانت تُتلى باليونانية، ويتم شرحها بالقبطية. وكانت اللغة اليونانية لغة الحكم والإدارة والوثائق. واستمر الحال كذلك إلى أن صارت اللغة العربية اللغة الرسمية بعد تعريب الدواوين في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٥هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥م)، وبدأ والي مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان تنفيذ ذلك منذ سنة ٨٧هـ / ٧٠٦م. بيد أن القبطية ظلت مستخدمة إلى جوار العربية حتى العصر العباسي حين صارت العربية وحدها لغة الوثائق الرسمية والقانونية، وهناك عدد كبير من أوراق البردي التي ترجع إلى تلك الفترة مدونة باللغات الثلاث Trilingual.

ولا شك في أن تعريب الأداة الحكومية في مصر قد دفع عددا من المسيحيين إلى تعلم اللغة العربية؛ لكي يحتفظوا بوظائفهم المتوارثة في الجهاز المالي والإداري، بيد أن هذا العامل لم يكن حاسما في عملية التعريب، وإنما كان للعامل السكاني والاجتماعي إلى جانب العامل الديني الأثر المهم في تعريب مصر على مدى القرون الثلاثة التالية للفتح.

ومن المرجح أن تعريب مصر قد استغرق زمنا أطول من انتشار الإسلام بين غالبية سكانها، إذ إن اعتناق دين جديد يمكن أن يتم في دقائق معدودة بالنسبة للفرد. صحيح أن فهم الدين بشكل صحيح يستغرق زمنا أطول، ولكن اعتناق الدين أو التحول من دين إلى دين آخر، يتم بمجرد انتهاء الطقوس والشعائر الضرورية لاعتناق هذا الدين. أما بالنسبة للغة، فإن الأمر يختلف كثيرا، فإذا كانت هناك لغة جديدة تحل محل لغة قديمة، فلابد أن تحتاج اللغة الجديدة إلى عدة أجيال حتى تبسط سيادتها. إذ إن الجيل الأول يحتفظ بلغته القديمة ويتعلم اللغة الجديدة، وكلما كانت اللغة الجديدة قادرة على توفير الحاجات الثقافية / الاجتماعية، زاد معدل انتشارها بين الأجيال التالية، حتى تصير هي اللغة الوحيدة المعبرة عن المجتمع، والحاملة لموروثه الثقافي. وهي في هذه الحال عبارة عن نتاج اجتماعي من ناحية، كما أنها من عوامل تشكيل المجتمع من ناحية أخرى. وفي تصورنا أن هذا ما حدث في قصة اللغة العربية في مصر.

لقد بدأ انتشار اللغة العربية محدودًا مع الفتح الإسلامي لمصر، ثم أخذ في الازدياد مع زيادة استخداماتها في مختلف جوانب الحياة المصرية، ومنذ القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي على أقل تقدير، صارت اللغة العربية لغة المصريين جميعا، في الحياة اليومية وفي دواوين الحكم وفي ساحات القضاء وفي سطور الوثائق والكتب، فضلا عن الأشعار والأغنيات والتراتيم. وظهرت آنذاك مؤلفات كثيرة كتبها الأقباط باللغة العربية في التاريخ العام وتاريخ الكنيسة، وفي التأليف الديني والأدبي أيضا. وربما كانت التفاعلات الثقافية والفكرية التي شهدها القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي هي السبب في انتصار اللغة العربية بشكل نهائي وحاسم. ذلك أن هذا القرن يعتبر أهم فترة في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية بشكل عام. فقد اكتمل خلال هذا القرن التفاعل بين الإسلام واللغة العربية من جهة، والموروثات الحضارية للشعوب التي اعتنقت الإسلام من جهة أخرى، وقد شهدت فترة التوافق هذه مولد ثقافات فرعية متمايزة في كل بلد من بلدان العالم الإسلامي داخل النطاق العام للثقافة العربية الإسلامية. وقد ساعدت حركة الترجمة المنظمة والنشطة على زيادة معدلات التعريب في مصر وغيرها. ومن ناحية أخرى، ظهرت المدارس الفكرية المتنافسة في كل عاصمة من عواصم دار الإسلام.

ولم تكن مصر استثناء في ذلك بطبيعة الحال، فقد أنجبت عددا من العلماء والمفكرين كانوا قوام مدرسة ثقافية مصرية تتنافس مع المدارس الثقافية الأخرى في أنحاء العالم الإسلامي. وكانت اللغة العربية أداة المصريين في المنافسة العلمية والثقافية. ومن ثم، زادت الحاجة إلى استخدام اللغة العربية في مصر، وزادت أهميتها في صياغة أيديولوجية المجتمع المصري الذي بات نسيجه الاجتماعي والسكاني أشد تماسكا وأكثر تجانسا.

هكذا، نتج عن الفتح الإسلامي صياغة جديدة للهوية المصرية تمت على مدى القرون الثلاثة الأولى بعد الفتح. وهكذا تم بعث الدور الحضاري المصري من جديد بعد الفتح الإسلامي. فقد تحولت مصر من ولاية بيزنطية خاملة في العصر البيزنطي إلى ولاية إسلامية نشطة وفاعلة على مدى قرنين وعقدين من الزمان، ثم عرفت نوعا من الاستقلال زمن الطولونيين، ثم الإخشيديين، استمر حوالي قرن من الزمان. وبعدها قامت الدولة الفاطمية (٣٥٨ - ٥٦٤هـ / ٩٦٩ - ١١٧١م) لتكون مصر مركزا لدولة إقليمية كبرى ذات دور محوري وفاعل في تاريخ المنطقة والعالم الإسلامي، وهو الدو الذي تصاعدت أهميته في العصر الأيوبي، ثم في عصر سلاطين المماليك (٥٦٦ - ٩٢٢هـ / ١١٧١-١٥١٧م).

لقد عادت مصر مرة أخرى فاعلا حضاريا وتخلصت من دور المفعول به. وعلى الرغم من أن مصر في تلك الفترة كانت مركزا للفعل الحضاري بجانب المراكز الحضارية الأخرى في العالم الإسلامي، فإن ظروف الغزو الصليبي (القرن ١١م) والغزو المغولي (القرن ١٣م)، قد جعلت منها حصن الدفاع الأخير عن الحضارة العربية الإسلامية حتى تولى العثمانيون هذه المهمة بعد هزيمة قنصوه الغوري في مرج دابق وطومانباي في الريدانية سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٧م. فهل يجوز طرح السؤال مرة أخرى، أكان غزوا أم فتحا؟

لقد كان سكان مصر في تلك الفترة نسيجا اجتماعيا واحدا، جمعته ثقافة واحدة امتزجت عناصرها فيما بين الموروث المصري عبر العصور، وما جاء به الإسلام واللغة العربية، ثم تداعيات هذا التفاعل بين هذا وذاك طوال تسعة قرون من الزمان. لقد ذاب العرب القادمون تحت راية الإسلام (وكان عددهم قليلا للغاية مقارنة بعدد سكان مصر آنذاك)، كما ذاب أبناء القبائل العرب التي هاجرت بطون منها إلى مصر لأسباب عديدة. كذلك فإن تحول غالبية المصريين إلى اعتناق الدين الإسلامي، على امتداد تلك الفترة الزمنية، جعل العنصر البشري عنصرا واحدا يعتنق ديانتين مختلفتين، ولكن عاداته وتقاليده، ونظامه القيمي والأخلاقي، وإبداعاته الفكرية والثقافية والفنية واحدة.

وهذا في تصورنا هو السبب في أن المصريين جميعا أبناء هوية حضارية واحدة، وهذا هو السبب أيضا في خلو مصر من الأقليات العرقية والصراعات العنصرية، وفي كون نسيجها السكاني الاجتماعي واحداً.

القضاء المسموم على الآخرين



بـــــــروس كــــــاكليك

كان والد وليام باندي مؤلف كتاب «شبكة بالغة التعقيد»، صديقًا مقربًا لهنري شيمسون، الذي يعد من أبرز الدبلوماسيين المنتمين للحزب الجمهوري في الولايات المتحدة خلال النصف الأول من القرن الحالي، كما كان حموه وزير الخارجية الأمريكي الأسبق دين أتشيسون أبرز الدبلوماسيين المنتمين للحزب الديمقراطي في تلك الفترة. وعمل باندي في المخابرات المركزية الأمريكية CIA في الخمسينيات. وأصبح مسئولا كبيرا في وزارتي الخارجية والدفاع إبان عهد الرئيسين الأمريكيين الأسبقين كيندي وجونسون. وأشرف على تحرير مجلة «الشئون الخارجية» Foreign Affairs بين عامي ١٩٧٢ - ١٩٨٤. ومعروف أنها من أكثر مطبوعات مجلس العلاقات الخارجية نفوذًا. وكان شقيقه الأصغر ماكجورج دبلوماسيا بارزا أيضا.

ويتناول كتاب باندي الفترة بين ١٩٦٩ و١٩٧٤ أي بعد أن ترك العمل الحكومي مباشرة، كما يناقش أيضا الدبلوماسية الأمريكية في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية بأكملها، التي انبثقت منها سياسات الرئيس الأمريكي الأسبق نيكسون. وحتى العصر الراهن. ويعتبر هذا الكتاب من أكبر المؤلفات التي تتناول تاريخ الدبلوماسية الأمريكية. لكنه تقليدي للغاية.

وتتميز تغطية باندي لهذه الفترة بأنها شاملة وبالغة التدقيق في التفاصيل الصغيرة، رغم أن منطقة جنوب شرقي آسيا تحظى بمعالجة أكثر توسعًا، ويجد القارئ المهتم تلخيصات جيدة للسياسة الأمريكية تجاه أوروبا أيضا، مثل النزاع الذي نشب بين أعضاء حلف الناتو خلال حرب فيتنام. إضافة إلى سياساتها تجاه جنوب آسيا والشرق الأوسط، مثل ميلها إلى باكستان أثناء حربها ضد الهند في ١٩٧١، والدبلوماسية المكوكية في الشرق الأوسط في ١٩٧٣ و ١٩٧٤. ويجد القارئ أيضا تفاصيل سياسة "الانفتاح" نحو الصين وانفراج العلاقات المتوترة مع الروس، ودبلوماسية توازن القوى بين الصين والاتحاد السوفيتي السابق والولايات المتحدة.

وعلى الرغم من أن باندي متقلم جدا في تفكيره ويكتب بوضوح تام، إلا أن الكتاب حافل بكثير من الأمور المبعثرة غير المترابطة، وتجد الموضوعات متتالية بشكل يمكن التنبؤ به خلال سعي باندي تفهم موقف نيكسون تجاه القضايا التي واجهته، ويفتقر إلى أسلوب التركيب وجمع العناصر المختلفة في الكتاب. وكما يتوقع المرء من دبلوماسي شارك في صنع القرار السياسي وتحول إلى مؤرخ. لم يحاول باندي تجنب حقائق الحرب الباردة وخفاياها مثلما نُشرت في الولايات المتحدة منذ فترة نهاية الحرب العالمية الثانية وما بعدها.

ويلاحظ أن الفتائج النهائية في كتاب باندي قياسية، بمعنى أنه يمكن أن تجدها في معظم النصوص الأكاديمية التي تتناول عهد نيكسون، إلا أن باندي يسهب ويفصّل كثيرًا في كتابه.

ويتسب باندي لكل من نيكسون وكيسنجر فشل إدارة الشئون الخارجية بنجاح، خاصة أنه كان يعتبر كيسنجر لاعبًا في نفس وزن نيكسون. لكن باندي يجد أن هذا الملف عموما يفسده الافتقار إلى الالتفات إلى التفاصيل، والاهتمام الواضح بالمكاسب الدبلوماسية قصيرة المدى. وعدم مقدرة نيكسون خلال ولايته الثانية التركيز على السياسة الدولية بسبب فضيحة ووترجيت. ويرى أن من أهم ما أدى إلى فشل نيكسون ميله المعتاد إلى الخداع والغش والكذب، وافتقاره إلى الحس الإنساني، واللاأخلاقية البغيضة، وكلها نقائص يذكرنا باندي بأنها تنطبق تماما على كيسنجر.

ويمكن مقارنة كتاب باندي «شبكة بالغة التعقيد»، فيما يتصل بهذه الجوانب، بدراسة جيفري كيمبول الأكاديمية «حرب فيتنام التي أشعلها نيكسون»، ويعمل كيمبول أستاذًا للتاريخ في جامعة ميامي في أوهايو، ويركز كتابه على هذه الحرب التي يخصص لها باندي نحو ٢٥٪ من كتابه الكبير. وأجرى كيمبول بحوثا حول المصادر الأولية أكثر مما فعل باندي، لكنه لا يتمتع بسمات الكاتب بشكل واضح، رغم أنه أكثر ذكاءً فيما يتعلق بالجوانب التفسيرية، ويستشهد بعدد من التقلبات والتغيرات المفاجئة لإلقاء الضوء على شخصية نيكسون بصراحة ووضوح. وإذا كان باندي ينتقل من نقطة إلى أخرى بتثاقل وبطء، فإن كيمبول قد يبالغ في الحديث عن محاولات الرئيس لجعل نفسه أسطورة. وهي الحيلة السيكولوجية الجوهرية التي يستخدمها كيمبول لفهم عهد نيكسون. وإذا ما نحّينا هذا الفارق البسيط جانبًا رغم ذلك، فإن كيمبول يصل إلى نفس النتائج التي توصل إليها باندي. فشخصية نيكسون الشريرة عرّضت دبلوماسيته للشبهة والخطر، وأطال بلا ضرورة الحرب في جنوب شرق آسيا. وأضعفت الإجماع المحلي على السماح بالتدخل في الشئون السياسية في الخارج منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

ويبدو لي أن الاهتمام الذي ناله كتاب باندي يرجع إلى موقف المؤلف، أكثر مما يستحقه الكتاب في حد ذاته. ووجدت نفسي أثناء قراءة الكتاب أتساءل: لماذا يريد باندي الكتابة عن نيكسون؟ وما الذي يستحوذ عليه لطاردة شخص هاجمه كثير من المؤرخين بضراوة قبل ذلك؟

وتُلقي إجابات هذه الأسئلة الكثير من الأضواء الكاشفة، حيث تجد بين ثنايا كتاب باندي رؤية تأملية للسياسات الخارجية في فترة ما بعد الحرب بأكملها. والأسلوب الذي استخدمته سياسات نيكسون لتلائم تلك الفترة. وتعبر هذه الرؤية عن وجهات نظر الديمقراطيين الليبراليين التي اتسمت بالقلق، وهم الذين أشعلوا حرب فيتنام في المقام الأول.

وطبقًا لباندي فإن الدبلوماسية الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية كانت مرسومة ومحددة، ليس فقط لبناء عالم يمكن فيه للولايات المتحدة أن تزدهر، بل أيضا لحماية كوكب الأرض من الاتحاد السوفيتي والشرور الأيديولوجية للشمولية الشيوعية. وكانت منطقة جنوب شرق آسيا في حالة عدم استقرار وحكوماتها معرضة للهجوم خلال الخمسينيات وبداية الستينيات، مما جعلها أحد أجزاء الكوكب المهددة بخطر الحركات الثورية الشيوعية. ثم حققت مكاسب كبيرة واستقرارًا وثقة في النفس بسبب الموقف الصارم الذي اتخذته الولايات المتحدة عندما صعدت الحرب في فيتنام في ١٩٦٤/ ١٩٦٥. ويسلم باندي بأن تلك المكاسب كان ثمنها باهظًا للغاية، وأن صانعي السياسة الأمريكية ارتكبوا أخطاء فادحة. ويقول باندي: إنه بعد خوض حرب كان البلاء فيها حسنًا وكانت لمعاونة حليف ضعيف، خطط المسئولون عن الأمن القومي سياسة أمريكية متوازنة ومدروسة للانسحاب من جنوب فيتنام، قبل أن يتولى نيكسون الرئاسة. ولو كانت تلك الخطة قد نفذت لتمكنت فيتنام الجنوبية والدول المجاورة لها من الحصول على فرصة جوهرية، تتغلب على ما يهدد أمنها.

وكان نيكسون أيضا مهتما بـ «الانسحاب المتوازن المرتب»، لكنه أفسد هذا المسعى. وجعل الأمور أسوأ مما كانت عليه. وكانت النتائج الإيجابية التي حققها في النهاية لتخليص الولايات المتحدة من مأزق فيتنام غير متناسبة، حتى مع النتائج السلبية في الفترات المبكرة. ويجد باندي أن الحدث الأسوأ والأكثر شرًا في جنوب شرق آسيا لم يكن ارتكاب جريمة حرب فيتنام. بل عذابات كمبوديا التي يتحمل مسئوليتها نيكسون وكيسنجر وحدهما.

وأخيرًا. فرغم أن باندي يعترف بعدم إلمامه بالسياسات المحلية، فإنه يرفض الرأي القائل بأن تخبط نيكسون الذي أدى إلى فضيحة ووترجيت كان متصلاً بالاضطراب الداخلي الذي ورثه عندما اعتلى سدة الرئاسة في ١٩٦٩، وطبقا لذلك الرأي الذي يرفضه باندي، فإن كثيرًا من الديمقراطيين من أنصار جونسون، مثل دانييل إلزبرج مستشار وزارة الدفاع كان قد خطط للسياسة الأمريكية في فيتنام في أوائل الستينيات، ثم تحول بشكل عاطفي متقلبًا ضدها. وبعد انتخاب نيكسون بذل أولئك الديمقراطيون كل جهودهم لتقويض استراتيجية الرئيس الرامية إلى انسحاب الولايات المتحدة من فيتنام وتشويهها. وجعلت انتقاداتهم غير المسئولة وأفعالهم، مثل تسريب أوراق البنتاجون، وجعلت تنفيذ نيكسون أية سياسات متعقلة أمرًا أكثر صعوبة بالتأكيد.

هذا هو إذن تاريخ الولايات المتحدة في فترة الحرب الفيتنامية طبقا للسيد باندي: وكان دبلوماسيون أمريكيون قد وطدوا العزم مثله على منع منطقة جنوب شرق آسيا من السقوط في أيدي الشيوعيين، وبشكل عام، فإن هذه السياسة عندما وضعت موضع التنفيذ بين الخمسينيات والسبعينيات تصدعت وظهر فيها الخلل. لكن رجالاً مثل باندي اتخذوا قرارات شجاعة. ولو كانت تلك القرارات قد تلتها مفاوضات، وتخفيف لحدة الحرب التي فكر فيها مليا ليندون جونسون في نهاية فترته الرئاسية مثل باندي، لحظيت فيتنام الجنوبية بفرصة جيدة للبقاء. لكن ديمقراطيين من أمثال باندي رفضوا تقديم فرصة لتنفيذ هذه السياسة. وتولى نيكسون المزدوج وتابعه الأمين كيسنجر السلطة في ١٩٦٩، ودفعت منطقة الهند الصينية الثمن عندما انتصر الشيوعيون بطريقة أكثر تدميرًا. وفي الوطن كان تمزق تقدم الديمقراطيين الأمريكيين الذي سبق تعاظم سلطة الحزب الجمهوري. وهناك قليل من التأثير يعزى لانتصار الحزب على جميع المستويات، على اقتراحات نيكسون الخبيثة للفوز بولايته الثانية وتخريب الدستور الأمريكي. ■

عن مجلة TLS، العدد ٥٠٠٢

ترجمة: عبد العظيم الورداني

أهم ما أدى إلى فشل نيكسون ميله المعتاد إلى الخــــداع والغش والكذب. وافتقاره إلى الحس الإنساني، واللاأخلاقية البغيضة، وكلها نقائص يذكرنا باندي بأنها تنطبق تماما على كيسنجر

١- A Tangled Web: The Making of Foreign Policy in the Nixon Presidency
(شبكة بالغة التعقيد: صنع السياسة الخارجية في عهد نيكسون)
William Bundy
Tauris. 1998. £24.50. 647pp.

٢- Nixon's Vietnam War
(حرب فيتنام التي أشعلها نيكسون)
Jeffrey Kimball
University Press of Kansas, 1998. £39.95, 528pp.

الثورة الحقيقية

فى تكنولوجيا المعلومات

بيل جيتس

فى أحدث كتاب له:

شبكات المعلومات تتنافس

هل من الممكن أن تلعب نظم وتكنولوجيا المعلومات والشبكات الإلكترونية دورا مماثلا لما يقوم به الجهاز العصبى داخل الكائن الحى؟ فالجهاز العصبى البشرى هو شبكة اتصالات فائقة الحساسية والسرعة، يقوم بإثارة الإنسان واستجاباته وسلوكياته تجاه متغيرات البيئة المحيطة به، مما يجعله يتفاعل بسرعة ولحظيا مع الخطر والفرص وعلاقاته واحتكاكاته بالآخرين. كما يلعب دورا مهما فى إدراك المشاهدات والمتغيرات وتفهم سلوكياتها ومعناها، والتحكم فى ردود أفعاله إزاءها.

ويدعو بيل جيتس فى كتابه الجديد (دنيا الأعمال بالسرعة الفائقة)، إلى استخدام نفس المفهوم فى شكل نظام عصبى جديد تلعب فيه الحاسبات الإلكترونية وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات الدور الرئيسى فى توجيه النشاط والتحكم فى مساره على كافة المستويات من أفراد وهيئات وشركات ودول. ومن الضرورى أن يصبح هذا النظام العصبى قادرا على توفير البيانات والمعلومات فى غاية السرعة ولجميع المسئولين فى آن واحد، وعلى الاستجابة السريعة للمخاطر والفرص. ويشمل ذلك تقديم الدعم اللحظى اللازم لاتخاذ قرارات سريعة ومؤثرة كالتفاعل بين المنتجين ومنافسيهم، والمستهلكين، والحكومة، ومقدمى الخدمات المتنوعة كالطالب والمدرسة والمريض والمستشفى وغير ذلك.

وبيل جيتس هو مؤسس ورئيس شركة مايكروسوفت العالمية للبرمجيات. وهو أغنى رجل فى العالم وتفوق ثروته الناتج القومى للعديد من الدول النامية. ومن المثير أن ثروته عام ١٩٩٧ كانت فقط ثلث ما هى عليه الآن. وهناك تقدير أن دخله الحالى يبلغ ٣٢ ألف دولار فى الدقيقة الواحدة. ويستطيع قارئ الكتاب أن يستنتج بسهولة الأسباب الكامنة وراء نجاحه المثير. فهى لا ترجع فقط إلى عبقريته التكنولوجية التى لا ينكرها أحد، وإنما فى المقام الأكبر إلى مواهب تسويقية فائقة مكنته من اقتناص الفرص فى الوقت المناسب وتضييق الخناق على منافسيه. وفى هذا الصدد يقول جارى ريفكين فى كتابه: المؤامرة لاغتيال بيل جيتس: «إنه من اللافت للنظر أن العلماء الذين يبتكرون الاختراعات الحديثة لا يحققون هذه الشهرة التى يحظى بها رجال الأعمال المغامرون (Entrepreneurs) أمثال بيل جيتس. فعالم الفيزياء «بيرنرز لى» (Berners Lee) الأستاذ بمعهد MIT الأمريكى والذى ابتكر نظام الشبكة العنكبوتية العالمية (World Wide Web - WWW) وهو من أهم أركان تكنولوجيا المعلومات، لم يحقق مثل شهرة بيل جيتس. فلاتزال الشهرة مرتبطة بقدرة رجل الأعمال مخاطر على التطبيق العملى للابتكار وإفساح المجال لفرصه التسويقية».

وقد استخدم بيل جيتس هذه المهارة الفائقة فى قتال شرس مع منافسيه مما استثار حفيظتهم وتكتلهم فى اتهامه بالنزوع إلى الاحتكار فى قضايا (Anti-Trust) أقامتها فيها المحاكم الأمريكية أخيرا.

ومن هذه المقدمة الطويلة نسبيا عن شخصية مؤلف الكتاب ومكانته الاقتصادية والاجتماعية، فلابد من لمحة سريعة عن شركته العملاقة «مايكروسوفت». فهذه الشركة

Bsisness @ The Speed of Thought
A Digital Nervous System

(إدارة الأعمال وسرعة التفكير. استخدام نظام عصبى رقمى)

Bill Gates
Collins Hemingway
Warner Books, 1999.470pp

العالمية حققت أرباحا سنوية قدرها ٧.٧٩ مليار دولار بزيادة قدرها ٧٣.٥٪ بالنسبة لقيمة مبيعات بلغت ٧٥.١٩ مليار دولار خلال السنة المالية التى اختتمت فى ٣٠ يونية ١٩٩٩، وقد تجاوزت قيمتها السوقية أخيرا (القيمة الحالية لأسهمها) نصف تريليون دولار، وهذه أول مرة فى التاريخ تتعدى فيها أى منشأة هذا الرقم. ومن المهم تفهم نشاط الشركة فى سياق الإطار العام لصناعة الكمبيوتر وتحولها من صناعة متكاملة رأسيا إلى صناعة متكاملة أفقيا. وقد أرجأ جيتس وصف ومناقشة هذا التحول باختصار شديد إلى ملحق الكتاب، بينما كان من الواجب أن يعرضه تفصيليا فى الأجزاء الأولى من الكتاب. ففى النموذج الرأسى يشترى العميل جميع مكونات البرامج من الشرائح الإلكترونية (Chips) إلى نظام التشغيل إلى النظام الشبكى إلى نظام الخدمة من عميل واحد كشركة IBM وديجيتال، NCR وغيرهما. وتحت هذا النظام كانت أسعار البيع مرتفعة وحجم المبيعات متواضعا. وكان التكامل بين هذه المكونات صعبا للغاية وتكاليف التحول من نظام لآخر باهظة. أما فى نظام التكامل الأفقى فتحل الحاسبات الشخصية (PC) مكان النظام القديم بحيث تقوم شركات متخصصة بصناعة كل من مكونات البرنامج مثل نظام الكمبيوتر ونظام حزمة البرامج ونظام التطبيقات التسويقية والنظام الشبكى وغيرها. ويستطيع العميل أن يختار من يشاء من منتجى هذه المكونات. وتلعب شركة مايكروسوفت دورا أساسيا فى هذا النظام التكاملى أفقيا. وبجانب المرونة الكبيرة التى يحظى بها العملاء فى هذا التنظيم الجديد، فقد ساعد على خفض الأسعار واتساع حجم المبيعات بشكل جوهرى.

وقد شهدت السنوات الأخيرة امتدادا ملموسا لظاهرة المكونات والتكامل الأفقى. فبجانب العديد من الشركات المتخصصة فى إنتاج برامج ونظم معلومات عملاقة أو متعددة الوظائف وجاهزة للاستخدام من قبل المستفيدين النهائيين، فقد تخصصت شركات أخرى فى إنتاج العديد من المكونات الصغيرة التى تدخل فى إنتاج النظم العملاقة. وقد غزا تيار المكونات الصغيرة صناعة البرمجيات عالميا خلال السنتين الماضيتين، وهو مرشح لأن يسود هذه الصناعة فى السنوات المقبلة. وتدل المؤشرات الحالية على أن تأثير هذا الاتجاه على صناعة البرمجيات الناشئة فى البلدان النامية - ومنها مصر - سيكون بالغا ويحمل العديد من الفرص المغرية والتحديات الصعبة.

وهناك جوانب كثيرة لمنهج ومضمون الكتاب تثير انتباه واهتمام القارئ. فعنوان الكتاب يعكس المهارة التسويقية والترويجية للمؤلف. فهو لافت للنظر ومثير للفضول والتعجب. فهل من المعقول للمنشأة مضاهاتها بالجهاز العصبى البشرى؟ وهل من الممكن أن تتمتع المنشأة بنفس القدرة على الإدراك (Perceptian) والتفهم (Cognition) وردود الفعل اللحظية التى يتميز بها العقل البشرى؟ وهل من الممكن أن يتأثر نظامها العصبى بمتغيرات نفسية كالحزن والفرح والاكتئاب؟

وبجانب العنوان المثير للكتاب فقد اتخذ المؤلف شكلا له خصوصيته الترويجية فى عرض الموضوعات المختلفة التى اشتمل عليها، ومن ذلك طريقة مجلة «هارفارد» الأمريكية للإدارة فى عرض ومناقشة نقاط معينة داخل مربعات خاصة (Boxes) فى سياق الموضوع الرئيسى. وكذلك ختام كل من فصول الكتاب بعرض للدروس المستفادة من الموضوع وكيفية استخدام مضمون كل فصل فى تشخيص النظام العصبى للمنشأة. وهذا أسلوب مبتكر فى تحديد جوانب القوة والضعف لنظام المعلومات الذى تستخدمه المنشأة.

والكتاب يناقش الموضوعات المختلفة على مستويين: مستوى المنشأة (Micro)، ومستوى المجتمع (Macro)، بعرض خاص فى نهاية الكتاب لتطبيقات تكنولوجيا المعلومات فى مجالات الرعاية الصحية، والتربية والتعليم، والإدارة الحكومية، وربط المجتمعات، وفى فنون الحرب الحديثة. وهو موجه أساسا لرجال الأعمال مع تركيز خاص على أمثلة متنوعة من التطبيقات العملية كما تعكسها تجارب شركة ميكروسوفت وعملائها. ومن هذه الناحية فالكتاب مفيد حتى للفنيين المتخصصين الذين تنقصهم الخبرات العملية والتطبيقية، ويفتح أمام خيالهم المجالات الواسعة لتطبيق ما لديهم من أسلحة ومهارات تكنولوجية. فالكتاب مفيد للمتخصص وغير المتخصص على حد سواء!

والمحصلة النهائية لقراءة الكتاب أنه أساسا محاولة ماهرة لتسويق وترويج منتجات شركة مايكروسوفت. وقد أحصيت عشرات المرات التى يبدأ فيها المؤلف الجملة بعبارة «أنا» - أو مايكروسوفت.

كما أن معظم الأمثلة الشيقة التى وردت فى الكتاب هى من شركات عميلة لمايكروسوفت. على أن هذا لا يقلل من نجاح المؤلف فى إعطاء أفكار سريعة ومفيدة عن الثورة الرقمية وآثارها المرتقبة على عالم الأعمال، وبالتالى تعريف القارئ بالأمثلة العملية وليس بالعرض الجاف لأساليب تكنولوجيا المعلومات والإمكانيات الواسعة لتطبيقها.

وقد خرجت من قراءة الكتاب بتساؤلات أساسية لم يتناولها المؤلف بالبحث والتحليل الكافى. مثال ذلك موقف العلاقات الإنسانية فى مجتمع يدار بالتكنولوجيا الرقمية وتقل فيه المواجهة الشخصية؟ هل يقتضى الأمر إعادة النظر فى العلوم السلوكية وصياغتها فى إطار جديد؟ وكيف ستتأثر العلاقات بين الأمم بهذه الثورة الرقمية؟ هل ستتسع الفجوة؟ وكيف سيكون التعامل بين من يملكون التكنولوجيا الرقمية والذين لا يملكونها؟ وهل سيتحول العالم إلى كواكب منعزلة تتشكل ممن يعرفون والذين لا يعرفون؟

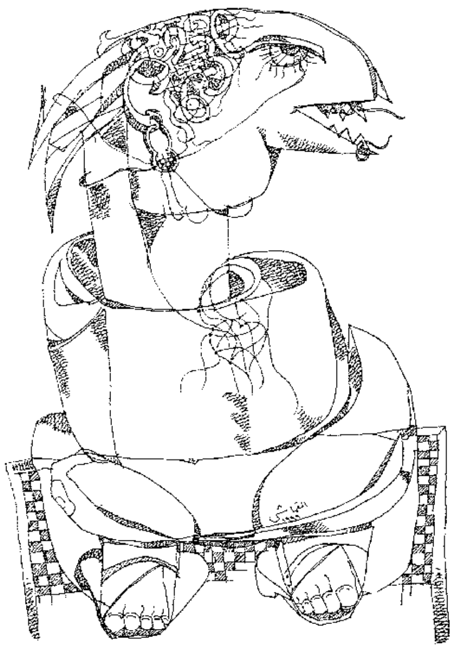
وربما كانت نقطة البداية المناسبة فى توضيح معنى ونطاق تكنولوجيا المعلومات التمييز بين الأرقام فى شكل ورقى (Paper Numbers)، والأرقام فى شكلها الإلكترونى الجديد. فبيان رقمى عن عدد السياح الوافدين وجنسياتهم وعدد الليالى السياحية. بل واتجاهات هذه الأرقام من سنة لأخرى، هو بيان ستاتيكى وتاريخى، إذ هو لا يوضح ما وراء هذه الأرقام. مثال ذلك الغرض من السياحة، وأعمار السائحين، ومستويات تعليمهم، ومهنهم، والشكل الذى أتوا به (كأفراد أو مجموعات)، ومرات تكرار الزيارة، وسبب اختيارهم لمقصدهم السياحى، ووكالات السياحة التى نظمت لهم الرحلة، وقيمة اشتراكهم، وانطباعاتهم فى ختام الزيارة، وجوانب تفضيلهم أو شكواهم. وغير ذلك من البيانات (Data) التى يمكن تحويلها إلى معلومات (Information) حركية ولحظية تكون ذات فائدة كبرى فى رسم استراتيجية الترويج السياحى بالتسديد أو التصويب الدقيق (Targeting) إلى قطاعات مختارة من السوق المستهدفة، واتخاذ القرار المناسب فى الوقت المناسب.

وبجانب شموله لكافة الجوانب الممكنة للظاهرة، يتميز الرقم الإلكترونى بلحظيته وبالإمكانيات الواسعة لتحليله وبالتالى إثرائه للمعرفة وإمكانية تخزينه واسترجاعه بسرعة البرق عند الحاجة، ونشره فى أوسع الحدود بين كل من يعنيهم الأمر، وبالتالى قدرته الديناميكية على التفعيل السريع فى

غزا تيار المكونات الصغيرة صناعة البرمجيات عالميا خلال السنتين الماضيتين. وهو مرشح لأن يسود هذه الصناعة في السنوات المقبلة. وتدل المؤشرات الحالية على أن تأثير هذا الاتجاه على صناعة البرمجيات الناشئة في البلدان النامية - ومنها مصر - سيكون بالغا ويحمل العديد من الفرص المغرية والتحديات الصعبة

الجهـــاز العصبي للإنســـان!

عبد العـــزيز الشـــربيني



المواقف التي تستدعي تدخل الإدارة بسرعة وحسم، وهو ما تعجز عنه الأرقام الورقية. ويعطينا الماسح الضوئي (Scanner) في محلات السوبر ماركت الكبرى - ولها مثيل في مصر. مثالا عمليا لهذه القدرات . وقد حلت هذه الماكينات محل آلة تسجيل النقود في مخارج هذه المحلات وكان هدفها الأول هو سرعة خروج العميل، ولكنها أصبحت الآن سلاحا الكترونيا هاما فهي تسجل لحظيا نوع السلعة المشتراة وماركتها، والكمية المشتراة، وسعرها، ووقت الشراء وطريقة الدفع (شيك - بطاقة ائتمان - نقدا)، بل واسم البنك ومكانه، واسم الشركة المصدرة لبطاقة الائتمان، وغير ذلك. وتسجل هذه البيانات على أسطوانة مدمجة (CD)، ويجرى تحليلها أولا بأول لمعرفة كافة ما يتعلق باتجاهات البيع. ولايخفى ما لهذه المعلومات من فائدة قصوى لإدارة الشركة التي تملك وتدير عدة وحدات للبيع ، وكذلك للمنتجين الذين يتفقون معها على تزويدهم بهذه المعلومات. ولاريب أن هذه الإمكانيات لا يمكن إتاحتها تحت نظام الأرقام الورقية السائد حاليا.

ويتطلب إنشاء نظام إلكتروني للمعلومات ثلاثة أشياء رئيسية هي:

١ - تجهيز مناسب بالحاسبات الشخصية (PC).

٢ - تجهيز مناسب بحزم البرمجة ذات تكلفة مناسبة (Packaged Software) .

٣ - تجهيز مناسب لاستخدام شبكة الإنترنيت، بالإضافة طبعا إلى وسيلة سريعة وفعالة للاتصالات في شكل بريد إلكتروني (E-Mail).

وتبنى هذه التجهيزات عادة على مكونات منمطة بحيث يسهل ربط هذه التجهيزات الثلاثة أي الحاسبات الشخصية، والحزم المبرمجة ، ووسائل الاتصال بعضها ببعض مما يخلق نظاما متكاملا للمعلومات، أو ما يسميه بيل جيتس تجاوزا الجهاز العصبي الرقمي للمنشأة.

ويمر التطبيق العملي لنظام المعلومات المصمم في ثلاث مراحل هي :

أولا: إمداد العاملين المدربين على التكنولوجيا الجديدة (Knowledge Workers) بالحاسبات الشخصية وإقامة نظام للشبكات الداخلية التي تساعد على تبادل المعلومات مع دعمه بنظام للبريد الإلكتروني.

ثانيا : ربط نشاط العاملين في مختلف مجالات عمليات المنشأة والمدعمين إلكترونيا بالنظم العامة لإدارة المنشأة، وذلك بتخزين البيانات بشكل يسمح بتحويلها إلى معلومات تهم الإدارة العليا في رسم سياسات واستراتيجيات المنشأة.

والخطوة الثالثة الهامة هي ربط هذا النظام العام بأنظمة تطبيقية دون أن يقتضي الأمر تغييرات جوهرية في التجهيزات الأساسية لنظام المنشأة. ومن أمثلة ذلك التجارة الإلكترونية التي تسمح بالتعامل المباشر مع العملاء والموردين في أي مكان وأي وقت.

وتحت النظام الشبكي الجديد، تحول العديد من المنشآت الصناعية والتجارية الكبرى من نظام يعتمد على الحاسبات الكبيرة المركزية وكذلك المتوسطة إلى تجهيز شبكي موحد يستند إلى الحاسبات الشخصية (PC)، والخدمات الشبكية المنمطة، ونظام للاتصالات والمشاركة في المعلومات يعتمد على الشبكة العنكبوتية (Web)، وقد أعطى هذا التطور قوة دفع هائلة للحاسبات الشخصية، وجعل إقامة نظام إلكتروني للمعلومات في متناول المنشآت الصغيرة، بل والأفراد على حد سواء. كما أدى إلى تطوير مستمر في قوة وأداء الحاسبات الشخصية وانخفاض سعرها إلى حد مذهل في السنوات الأخيرة.

ويدور الكتاب في المقام الأول حول أهمية التحول إلى الإدارة بالحقائق والمعلومات، وهذه إضافة إلى نظريات الإدارة السائدة مثل الإدارة بالأهداف ، والإدارة بالاستثناء، والإدارة بالأزمات. ولكنها ليست إضافة جديدة تماما. فقد تعددت الكتابات في هذا الموضوع وكثرت مراكز المعلومات ودعم اتخاذ القرار، وإنما الجديد في كتابات جيتس هو التطبيقات العملية على مستوى المنشأة. ولايجب أن ينسينا هذا الاتجاه الكمي الأهمية القصوى للاتجاه السلوكي والذي تخصصت فيه بعض المراكز العلمية في الجامعات المرموقة مثل مركز بحوث سلوكيات القرار بجامعة شيكاجو الأمريكية، الذي يعطي الجوانب السلوكية أهمية تفوق الجوانب الكمية التي يدعو إليها جيتس.

ومما يعزز أهمية هذه الجوانب السلوكية دلالتها بالنسبة للتنظيم السلوكي للمنشأة (Organization Behaviour) كما يتضح في أماكن متناثرة من الكتاب دون ربط أو تحليل كاف.

ويؤكد جيتس في البداية أن المعلومات أصبحت شريان الحياة لأي منشأة وأن الكيفية التي تجمع بها المعلومات وتدار، والتي يجرى بها استخدامها ستحدد في النهاية من الذي يفوز ومن الذي يخسر، وأن تكنولوجيا المعلومات ستكون العامل الحاسم في تميز المنشآت الناجحة. ولاتقتصر هذه الأهمية على مستوى المنشأة ، بل تمتد إلى الاقتصاد الكلي، إذ يقدر البعض أن قطاع المعلومات يسهم بحوالي ٥٠ إلى ٦٠٪ من الناتج القومي للدول الصناعية في الوقت الحالي.

وحتى تحقق تكنولوجيا المعلومات أهدافها، يجب إتاحة المعلومات لحظيا لجميع العاملين في المنشأة. وهذا اتجاه يختلف تماما عن النمط السائد في معظم المنشآت، والذي يقصر النفاذ إلى المعلومات على أفراد الإدارة العليا فقط. فالهدف الرئيسي من إقامة شبكات الكمبيوتر هو نشر المعلومات على نطاق واسع - وخاصة بين الطبقة الوسطى من المديرين - داخل المنشأة، بهدف تكامل أنشطتهم وعملهم كفريق واحد متماسك. وتحت هذا التنظيم يكون تميز المنشأة هو محصلة لمجموع التميز الفردي لكافة العاملين بها. بل إن هذا الاتجاه هو الذي يسهم مباشرة في تحويل العاملين بالخطوط الإشرافية الأولى من عمال عاديين إلى صناع معروفين (Knowledge Workers) بعد تزويدهم بالمهارات اللازمة من حاسبات

شخصية وغيرها واستخدامهم لتكنولوجيا المعلومات.

غير أن جيتس لا يعطي أهمية تذكر للجوانب السلوكية في هذا التحول في السلوك التنظيمي للمنشأة. ففي التنظيمات البيروقراطية قد يؤدي هذا التطور إلى خلخلة جوهرية في خطوط السلطة والمسئولية. فالمشاهد أن البيانات (أو تجاوزا المعلومات) هي مصدر رئيسي للقوة مما يجعل من العسير تقبل نشرها أو التفريط فيها. وهي التي تتيح الاتصال المباشر برئاسة المنشأة كلما احتاجت إلى هذه المعلومات. والميل إلى المشاركة في المعلومات هو ظاهرة نفسية واجتماعية يجدر دراستها وتحليلها قبل الإقدام على استخدام التكنولوجيا الجديدة. كما أظهر ذلك العديد من تجارب الدول النامية.

غير أن أفكار جيتس تعد أساسا مناسبا لإعادة صياغة بعض النظريات الحديثة مثل نظرية «تمكين العاملين» (Empowerment) الفكر التقليدي السائد هو أن «التمكين» يكون بتفويض قدر أكبر من السلطة وما يرتبط به من مسئولية. ولكن تفويض السلطة في اتخاذ القرارات لا يجدي نفعا إلا إذا أمكن تزويد الفرد بمهارات تكنولوجية تمكنه من ممارسة هذه السلطة. ومن هنا تبرز أهمية إعادة تأهيل العاملين لكي يصبح كل منهم جزءا لا يتجزأ من الجهاز العصبي للمنشأة كما يقول جيتس. أي صانع معرفي يجيد استخدام الحاسب الشخصي واستخدام حزم البرامج وغير ذلك من مكونات الجهاز العصبي. وبذلك يمتد مفهوم الصانع المعرفي إلى مختلف المستويات الإدارية في المنشأة، ولا يقتصر على العلماء والخبراء الفنيين كما قد يتبادر إلى الأذهان طبقا للمفاهيم السائدة.

وبالمقارنة بالنظام العصبي للمعلومات، فمن الواضح أن النظام الورقي للمعلومات لا يستطيع أن يحقق هذه الإنجازات. فهو لا ينقل تيارا مستمرا من المعلومات المتدفقة لحظة بلحظة، وهو ليس مستمرا. ويقدم البيانات أو المعلومات حسب الطلب. وهو بذلك بيان تاريخي من حيث طبيعته. وبالتالي فهو قاصر بالنسبة لمعرفة الحاضر واستشراف المستقبل. ونتيجة لذلك. فهو لا يصلح كنظام للإنذار المبكر لوقوع الأزمات وتداركها في الوقت المناسب، أو لرسم خريطة تحليلية للفرص المتاحة أمام المنشأة، وكذلك السيناريوهات اللازمة لاستثمارها وتحقيق قصب السبق في المنافسة.

ويبرز جيتس بمهارة تأثير تكنولوجيا المعلومات والاتصالات على التحول من النظام الورقي إلى نظام اتصالات إلكتروني، بما يطلق عليه اسم «الإدارة بدون أوراق» (A paperless Office) ويرجع استخدام هذه العبارة المثيرة إلى ربع قرن مضى حين صاغتها شركة زيروكس لآلات النسخ والتصوير. ويدعو جيتس إلى هذه الثورة الجديدة التي ستغير جذريا نمط العمل في المنشآت كبيرها وصغيرها. ولا تزال المعاملات الورقية تسود عالم الأعمال في كافة أنحاء المعمورة. حتى في الولايات المتحدة بالرغم من انتشار الحاسبات الشخصية وربط الإنترنت لهذه الحاسبات على المستوى القومي والعالمي. فاستهلاك الورق يتضاعف كل أربع سنوات، و٩٥٪ من المعلومات في الولايات المتحدة يتم تداولها باستخدام الورق، بينما لا تتعدى نسبة تلك المخزنة إلكترونيا ١٪ حاليا.

ويحكي جيتس تجربته مع الورق في شركة مايكروسوفت. فلدهشته وجد أن الشركة قد طبعت في إحدى السنوات ٣٥٠,٠٠٠

في مجتمع يدار بالتكنولوجيا الرقمية وتقل فيه المواجهة الشخصية، هل يقتضي الأمر إعادة النظر في العلوم السلوكية وصياغتها في إطار جديد؟ وكيف ستتأثر العلاقات بين الأمم بهذه الثورة الرقمية؟ هل ستتسع الفجوة؟ وكيف سيكون التعامل بين من يملكون التكنولوجيا الرقمية والذين لا يملكونها؟ وهل سيتحول العالم إلى كواكب منعزلة تتشكل ممن يعرفون والذين لا يعرفون؟

نسخة من تقارير المبيعات، وأنها تستخدم ١١٤ استمارة في عمليات الشراء والتوريد بمفردها. وتساءل عن الأسباب الكامنة وراء هذا الكم الهائل من الورق في الوقت الذي تربط فيه التكنولوجيا الحديثة جميع العاملين بالشركة بعضهم ببعض!

وفي هذا السياق قرر استبدال النظام الورقي بنظام إلكتروني للحفظ والاتصالات والاستغناء عن كم هائل من الأوراق المستخدمة وتحضرني تجربة مماثلة لشركة سيمنز (Siemens) الألمانية في إحلال نظام إلكتروني يعتمد على الأسطوانات المدمجة (CD) محل النظام الورقي العقيم الذي كانت تستخدمه دائرة الجوازات والهجرة البريطانية (منذ سنوات) فالفكرة ليست جديدة تماما ولكن لها دلالتها الهامة.

فمثلا كيف سيكون التعامل بين طرفين أحدهما يستخدم النظام الورقي والآخر النظام الإلكتروني؟ وهل ستؤدي نهاية النظام الورقي في المستقبل القريب أو البعيد بالضرورة إلى القضاء على البيروقراطية كما يتصور جيتس؟ إن الموظف الحكومي البيروقراطي الذي يتعامل بالتكنولوجيا الحديثة مع طالبي الخدمة من المواطنين، يستطيع التخلص منهم بسهولة بحجة أن الكمبيوتر معطل!. وهنا تبرز مرة أخرى أهمية الجوانب السلوكية التي أغفلها جيتس في كتابه. فتغيير أو تطوير السلوكيات هو شرط أساسي لنجاح تطبيق التكنولوجيا الجديدة.

ويفرد جيتس جانبا هاما من كتابه لتأثير تكنولوجيا المعلومات والاتصالات على قطاع التجارة. وتقدر التوقعات الحالية حجم التجارة الإلكترونية على المستوى العالمي بحوالي تريليون دولار بحلول عام ٢٠٠٣. أي بعد ثلاث سنوات فقط. وستكون هذه التجارة بمثابة «حمى» جديدة للتدافع على نوع جديد من الذهب يفوق حمى البترول في الماضي. ولإبراز هذه الأهمية يقول الإمبراطور الإعلامي الشهير روبرت ميردوخ إنه سيتعين على كل منشأة أن تروج أنشطتها في المستقبل عبر الإنترنت، وإلا ستواجه مصيرا محتوما بانهيارها. وتتصدر الولايات المتحدة حاليا أكثر الدول استخداما للتجارة الإلكترونية عبر الإنترنت حيث سيصل حجمها العام القادم إلى حوالي ٣٠٠ بليون دولار.

ويبني جيتس توقعاته على افتراضات محددة عرضها في شكل تساؤلات في محاضرة أمام مجموعة من رجال المصارف الألمان، وهم بطبيعتهم من رجال الإدارة المحافظين الذين يأخذون بعين الحذر كل جديد مثل التجارة الإلكترونية. وقد يكون من الطريف والمفيد عرض هذه التساؤلات:

١ ـ هل تعتقد أن الناس في المستقبل سيستخدمون الحاسبات الشخصية كل يوم في جميع أعمالهم؟ فحتى الصانع المعرفي لا يستخدم الكمبيوتر حاليا إلا في حالات محدودة لإنجاز عمله. وأجابوا بنعم.

٢ ـ هل تعتقد أن النظام الورقي الحالي سيتم استبداله بنظام إلكتروني جديد يعتمد على الـ (CD) وعلى الـ (E-Mail)؟ وأجابوا بنعم.

٣ ـ هل تعتقد أن ملكية الحاسبات الإلكترونية ستنتشر بين كافة الأسر؟ وأكد أن نصف العائلات في الولايات المتحدة تمتلك حاليا كمبيوتر واحدا أو أكثر. وهل تعتقد أن الكمبيوتر سيصبح شيئا عاديا للأسرة مثل الهاتف والتليفزيون؟ وأجابوا بنعم.

٤ ـ هل تعتقد أن يوما ما سيكون في إمكان الأفراد والمنشآت ربط أجهزتهم بالشبكة العنكبوتية العالمية (WWW)؟ وألحوا بالإيجاب.

٥ ـ هل تعتقد أن البريد الإلكتروني (E-Mail) سيكون استخدامه شيئا عاديا مثل الهاتف والبريد الورقي اليوم؟ وأجابوا بنعم.

٦ ـ هل تعتقد أن معظم المعلومات ستصل الناس في المستقبل في شكل أرقام إلكترونية بدلا من الورقية؟ مثال ذلك فواتير الكهرباء. وعمل حجوزات الطيران والفنادق باستخدام الإنترنت. فأجابوا أن هذه التطورات في طريقها إلى الواقع فعلا.

٧ ـ هل تعتقد أن أجهزتك الكهربائية المنزلية كالهاتف والتليفزيون وآلات التصوير ستدار كلها بالأرقام الإلكترونية (Digital)؟ فأجابوا بأن بعض هذا قد حدث فعلا.

٨ ـ هل تعتقد أن مفكرتك اليومية ستتحول قريبا إلى مفكرة كمبيوترية تساعدك على تدوين ملاحظاتك إلكترونيا وعلى تخزين كافة البيانات الشخصية والمهنية التي تحتاجها يوميا في عملك؟ وأجابوا بنعم.

ولما كانت ردود فعل رجال المصارف الألمان على هذه التساؤلات إيجابية بوجه عام، فإن التجارة الإلكترونية تصبح إذن أمرا حتميا في المستقبل القريب لبعض الدول، والبعيد نسبيا للمجتمعات الأخرى الصاعدة. أما بالنسبة لمعظم الدول النامية فالأفق لا يبدو مشرقا، فلا تزال ملكية الحاسبات الشخصية متدنية للغاية. والتحول إلى عالم الاتصالات الإلكترونية حلما بعيد المنال. ومع ذلك فهناك بدايات طيبة: ففي أسرتي (ونحن أسرة مصرية صغيرة من طبقة فوق المتوسطة. ولا أقول ثرية) يشتري ابني كتبه الأجنبية بالاتصال المباشر بالناشر عبر الإنترنت، وحجزت ابنتي أخيرا غرفتها بفندق في مدينة ميلانو الإيطالية في رحلة عمل أيضا باستخدام الإنترنت وليس عن طريق وكالة سياحية!



ويبرز جيتس ثلاث دلالات رئيسية لإنشاء هذه البنية الأساسية (Infrastructure) للتكنولوجيا الإلكترونية في مجال المعلومات والاتصالات والتي ترتكز حول الحاسبات الشخصية (PC):

الأولى: أن معظم العمليات والصفقات بين المنشآت والأفراد سيتم إنجازها بطريقة الخدمة الشخصية (Self-Service) بالتكنولوجيا الرقمية، مما يعني نهاية المنشآت الوسيطة (Middle)، أو ضرورة تحولها لتقديم خدمات جديدة ذات قيمة مضافة عالية.

والثانية: أن خدمة المستهلك ستصبح لها الأولوية كوظيفة أساسية لأي منشأة. وأن يتحول الأمر من خدمات روتينية متكررة إلى خدمات متخصصة عالية القيمة تناسب الاحتياجات الخاصة لكل عميل.

والثالثة: أن سرعة المعاملات والحاجة إلى «تفصيل» الخدمات لتناسب الاحتياجات المتنوعة للعملاء، سيتطلب بالضرورة التحول إلى نمط «تفصيلي» (Customized) للعمليات الداخلية للمنشأة حتى يمكنها مواجهة تغيرات البيئة السوقية المحيطة بها بالمرونة اللازمة. وهذه الضرورة هي التي تملي الحاجة إلى الصانع المعرفي الذي يستطيع استخدام التكنولوجيا الإلكترونية الحديثة لتلبية الطلبات المتنوعة، مع الاحتفاظ في الوقت نفسه بمزايا الإنتاج الكبير.

ويعترف جيتس بأن التجارة الإلكترونية عبر الإنترنت لا تحل تماما مكان الاتصال الشخصي (Face -to - Face)، وإنما الواقع الجديد سيعكس في الحقيقة تفاعلا بين الإنترنت والمواجهة الشخصية. ولكنه لا يشرح بوضوح موقع الإنترنت على مسلسل التسويق ـ والبيع ـ وخدمة ما بعد البيع وكيف سيتم هذا التفاعل. ويلخص تصوره لهذا التفاعل بأن على المنشأة أن تقصر في النهاية عملية الاتصال الشخصي على الأنشطة ذات القيمة المضافة العالية، مثال ذلك المفاوضات النهائية لإنهاء صفقة هامة ما. وفي هذا السياق تتغير وظيفة رجال البيع بحيث يعملون كاستشاريين فنيين في مجالات التسويق، وليس كرجال بيع عاديين.

وتصطدم تصورات جيتس بالنسبة لإمكانية إزالة الوسطاء من تجارة جملة وتجزئة ووكالات إعلان وغيرها، ببعض المفاهيم التسويقية السائدة بين الأكاديميين المتخصصين في العلوم التسويقية، ومنها أنه يمكن الاستغناء عن الوسطاء بشرط أن يقوم المنتج أو المستهلك بالوظائف التي يقومون بها كالبيع والشراء، والنقل، التخزين، والتمويل، والفرز والتدريج وغيرها من الوظائف الهامة التي يقوم بها الوسطاء حاليا. فهل هذا ممكن تماما في ظل التجارة الإلكترونية؟ فربما أتاحت تكنولوجيا المعلومات والاتصالات فرصة تلبية طلبات العملاء لحظيا طبقا لعمليات مبرمجة إلكترونيا، بما يعني تجاوز وظيفتي التمويل والتخزين، ولكن هذا لا يعني التخلص من الوظائف الأخرى كالنقل والتدريج وتحمل المخاطرة وغيرها من الوظائف التي يقدمها حاليا الوسطاء التجاريون.

كما أن تطبيق التكنولوجيا الجديدة للتجارة الإلكترونية يشترط أن يكون كل من المنتج أو المورد (Supplier) من ناحية والمستخدم أو المستهلك (User) من ناحية أخرى مزودا بهذه التكنولوجيا. ولا يوضح جيتس كيف ستتم التجارة أو التعامل بين مستخدم التكنولوجيا الإلكترونية والآخر

المستخدم للنظام الورقي؟ هل سيتوقف التعامل بينهما، أم سيؤدي ذلك إلى ظهور منشآت وسيطة يمكنها حل هذه المشكلة؟

وهناك بداية فعلاً لوجود هذا النوع من المنشآت الوسيطة في بعض البلدان النامية، ومنها مصر، وتنوب هذه المنشآت عن الطرف المستورد أو المصدر في تقديم الخدمات الإلكترونية من معلومات واتصالات. ولكن ربما كان هذا ترتيبًا مؤقتًا لا يغني في النهاية عن الاتصال المباشر بين المورد والمستخدم. كما بدأت بعض الحكومات في الدول النامية في استخدام الاتصالات الإلكترونية عبر الإنترنت في عقد الصفقات التجارية المتكافئة، ومن ذلك مثلا أول صفقة مصرية - فنلندية متكافئة بالتجارة الإلكترونية تحصل مصر بمقتضاها على الأخشاب مقابل توريد الأثاث.

ومن النتائج المهمة التي تتمخض عنها تكنولوجيا المعلومات والاتصالات وإمكانية الاتصال المباشر بين المورد والمستخدم عبر الإنترنت، إعادة هندسة سياسات واستراتيجيات المنشأة، بحيث تركز نشاطها بصفة أساسية على الجزء الرئيسي من مكونات إنتاجها الذي تتمتع فيه بمهارات خاصة (Core Computemcies)، مع الحصول على المكونات الفرعية من مصادر وموردين خارج المنشأة (Out sourcing). وهذه الاتجاهات سائدة فعلا منذ فترة بين المنشآت الصناعية الكبرى. فلشركة سيمنز (Siemens) الألمانية العملاقة مركز في سنغافورة يتعاقد على توريد بعض المكونات مع أكثر من ٤٠٠ شركة منتشرة بين عدة دول في جنوب شرق آسيا. ويتيح هذا التحول فرصًا فريدة أمام الدول النامية الصاعدة، بشرط توافر تكنولوجيا المعلومات والاتصالات المناسبة. فالاتجاه ليس بجديد، ولكن يبرز جيتس حتمية التكنولوجية الرقمية للولوج إلى هذا الميدان.

ويحاول المؤلف أن يحاكي دراماتيكيا تأثير هذه الثورة الرقمية على نمط معيشة الناس، بتأثير اختراع الكهرباء على هذا النمط، ويطلق عليه اسم «نمط المعيشة الشبكي» (Web Li-geslyetc). فنمط المعيشة الذي يشمل الآن الأجهزة الكهربائية المنزلية كالراديو والتليفزيون والثلاجة والغسالة والمكنسة والهاتف وغير ذلك، كان محصلة مباشرة لاختراع الكهرباء. وبالمثل فإن انتشار التكنولوجيا الرقمية سيؤدي لا محالة إلى تحول في نمط المعيشة إلى نمط شبكي يعتمد على الإنترنت والحاسبات الشخصية والبريد الإلكتروني والحزم المبرمجة.. إلخ. ولا يخفى ما لهذا من آثار اجتماعية واقتصادية هائلة.

والنظام العصبي الرقمي هو بمثابة إنذار مبكر يغير سلوكيات المنشأة من مجرد ردود أفعال إلى مبادءات مدروسة. فهو يدعم حواسها اللحظية (Reflexes) مثل الجهاز العصبي البشري. ولكن هذا التطور يتطلب شفافية واسعة داخل المنشأة وخارجها، ومن ذلك انسياب كافة الأخبار وخاصة السيئة لحظيًا إلى جميع العاملين في المنشأة. وإذا تحقق ذلك عمليا، فإنه سيحدث تطويرًا جذريا في السلوك التنظيمي للمنشأة. فالتنظيم «الهيراركي» الحالي السائد تقليديا في معظم المنشآت يجعل من المستويات الإدارية السفلى والوسطى بمثابة مرشحات (Filters) تحجب الأخبار السيئة عن الإدارة العليا، ولا تسمح بمرور إلا الأخبار السارة! ولهذا الاتجاه السلوكي أمثلة كثيرة في المجالات الإدارية والاقتصادية في الدول النامية، بل وفي المجالات السياسية كما حدث في حرب ١٩٦٧!

ويلعب النظام العصبي الرقمي في هذا الصدد دورًا مهمًا في دعم رؤية المنشأة (Corpo-rate Vision)، وبالتالي في تحديد رسالتها ورسم استراتيجيتها، وبحيث يشترك جميع

الجديد في كتابات جيتس هو التطبيقات العملية على مستوى المنشأة. ولا يجب أن ينسينا هذا الاتجاه الكمي الأهمية القصوى للاتجاه السلوكي والذي تخصصت فيه بعض المراكز العلمية في الجامعات المرموقة مثل مركز بحوث سلوكيات القرار بجامعة شيكاغو الأمريكية، الذي يعطي الجوانب السلوكية أهمية تفوق الجوانب الكمية التي يدعو إليها جيتس

العاملين بطريقة أو أخرى في رسم هذه الاستراتيجية، مما كان إلى عهد قريب مقصورًا تمامًا على الإدارة العليا للمنشأة. وفي هذا السياق يقص جيتس تردد الإدارة العليا لميكروسوفت في تركيز استراتيجيتها حول الإنترنت وقت ظهورها، والدور الذي لعبه بعض العاملين في إبراز الفرص البعيدة المتاحة ومخاطر التردد في انتهازها. وفعلا أصبحت الإنترنت هي محور نشاط المنشأة بكاملها.

وتبرز هذه التجربة أهمية رؤية وإدراك نقطة الالتواء في الاتجاه العام للظاهرة في الوقت المناسب. وهذه هي النقطة التي تحدث عندها خلخلة في مسار السوق أو الصناعة. مثال ذلك ظهور البريد الإلكتروني في صناعة الاتصالات التي كانت - ولاتزال إلى حد ما - قائمة على الورق والهاتف. وقد أحدث هذا التطور تغيرًا جوهريًا في الهيكل التنظيمي لبعض المنشآت الكبرى، وتحولها من الشكل الهيراركي إلى الشكل المفرطح (Flat)، بحيث يتغير دور الإدارة الوسطى من مجرد مرشحات لنقل المعلومات إلى دور تفعيلي (Doers) في رسم استراتيجية المنشأة وتطبيقها. ويعكس هذا التطور آثارا نفسية بعيدة للمنشأة وفي تكوينها الثقافي (Corporate Culture)، يضاهي التغير في التكوين الثقافي للمجتمعات. ويحجم جيتس عن طرق هذه الجوانب تفصيليًا في عرض العابر لها في إطار التغير السلوكي التنظيمي للمنشأة.

.. وبجانب دوره كإنذار مبكر للتغيرات الهيكلية في السوق أو الصناعة، يقوم النطاق العصبي بنقل ردود الفعل لحظيًا لأنشطة المنشأة، وهو ما يسمى تقليديا بإرجاع الأثر أو التغذية العكسية (Feedback Loop). وليست هذه أفكارًا مستحدثة، وإنما الجديد فيها هو لحظيتها التي تعتمد في المقام الأول على تكنولوجيا المعلومات والاتصالات الإلكترونية. فعامل الوقت هنا هو عامل حاسم، إذ لا جدوى أو من الصعب إصلاح الخطأ أو انتهاز الفرصة بعد مرور وقت طويل نسبيًا من الزمن.

وبطبيعة الحال فإن التغذية العكسية اللحظية تتطلب أن يكون لدى كل من المورد والمستخدم تجهيزًا إلكترونيًا مناسبًا. ولذلك انصب تعامل ميكروسوفت تقليديا على العملاء المجهزين إلكترونيا تجهيزا كافيا لتلقي خدمات الشركة ومنتجاتها. ولكن الشركة بدأت الآن في طرق الجانب الآخر من السوق الذي يشمل عملاء ليست لديهم مثل هذه الإمكانيات. ولا يخفى ما يقتضيه هذا التحول من مرونة كافية في تصميم المنتجات وتقديم الخدمات إلى جميع العملاء. ويفتح هذا الاتجاه بصيصًا من الأمل أمام المنشآت في الدول النامية التي ليست لديها الإمكانيات الفنية اللازمة.

والملاحظ في الأجزاء الأخيرة من التطورات في إدارة المنشآت أن جيتس يستخدم اصطلاحات جديدة لعرض أفكار ليست بحق جديدة. مثال ذلك، اصطلاح (Data Mining)، أي التحليل الدقيق للبيانات بهدف اكتشاف أنماط (Patterns) يمكن أن تستخدم في زيادة دقة تصويب أنشطة المنشأة إلى قطاعات سوقية متماثلة أو متجانسة مثلا (Market Segment). وقد اعتمد الباحثون في الماضي على الأساليب الإحصائية المعقدة والمتعددة المحاور لاكتشاف هذه الأنماط. والجديد في هذا المجال هو أن التكنولوجيا الإلكترونية تتيح الآن مثل هذا التحليل بيسر وسهولة، وربما بدقة أكبر.

كذلك يستخدم جيتس اصطلاح (Corporate IQ)، وهو يعكس نفس الأفكار السائدة حاليا عن رأس المال المعرفي (Knowledge Capital)، والذي يعكس القدرة التنظيمية للمنشأة على تحقيق تآزر العاملين ودعمهم بعضهم لبعض للعمل كفريق واحد، نتيجة لسهولة الاتصالات الأفقية وتدفق المعلومات فيما بينهم. وهذا محدد رئيسي لقدرة المنشأة على إتاحة الفرصة للتطبيقات العملية للاختراعات والاكتشافات العلمية وعلى نجاحها في مجالات البحوث والتطوير (R & D).

وينهي جيتس حديثه عن النظام العصبي الرقمي المقترح بمناقشة سريعة - وربما سطحية - لدلالاته بالنسبة للسلوك التنظيمي للمنشأة. ويؤكد أن تنشيط دوافع (Motiva-tion) العاملين لها يتأتى ببساطة عن طريق تغيير الهيكل التنظيمي للمنشأة، وإنما بتغيير اتجاهاتهم (Attitudes) نحو المنظمة. ويتم ذلك بتمكينهم من تحمل قدر أكبر من المسئوليات واستخدام معارفهم الجديدة المستندة إلى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات. يضاف إلى ذلك سياسة الباب المفتوح، والتخلص من قيود التحكم والأوامر التي تدار من المركز ومن أعلى إلى أسفل. وفي رأيه أن الأمر لا يقتصر على تغيير هيكل المنظمة، إذ أن ميكروسوفت تتبع تنظيمًا تقليديًا - وربما هيراركيا إلى حد ما - ولكنه يتميز بالانسياب والتدفق السريع للمعلومات بين الجميع. وفي هذا الإطار تقتصر وظيفة الإدارة العليا على رسم الاستراتيجية العامة للمنشأة وتوجيه العاملين عنها. أما جميع القرارات التشغيلية فهي من حق جميع العاملين المزودين بالأسلحة الإلكترونية الجديدة.



غير أن تغيير الاتجاهات يتطلب تحليلاً نفسيا واجتماعيا أعمق بكثير من الطريقة العابرة التي طرحها جيتس. فالنظرية أو الخطة الفكرية ليست مجرد نتيجة مباشرة لتخفيض طرق الإنتاج والأدوات المستخدمة. فهناك الجانب المعنوي الذي أبرزه إلتون مايو في الأبحاث التي أجراها بشركة وسترن إلكتريك في الأربعينيات، عندما قسم العاملين إلى فريقين: أحدهما يعمل تحت ظروف طبيعية، والآخر تحت ظروف متغيرة مثل تخفيض الإضاءة أدى إلى زيادة إنتاجية الفريق الثاني رغم الظروف غير الملائمة، نتيجة لشعورهم بالتحدي وهم تحت الاختبار. وهذا الجانب السلوكي لم يحظ مع الأسف بالاهتمام الكافي من جانب التكنوقراطيين، لا من ناحية، ولا من جانب المتخصصين بالعلوم السلوكية من ناحية أخرى. فالفجوة بين الجانبين لا تزال واسعة وتحتاج إلى مزيد من التأمل والدراسة.

ويختتم جيتس عرضه للنظام العصبي الرقمي المقترح بمناقشة إمكانية تطبيقه في مجالات قطاعية أربعة وهي: الرعاية الطبية، والتعليم، والإدارة الحكومية، وأخيرًا في الحروب الحديثة. فهناك حوالي ٣٠٪ من التكلفة الكلية للرعاية الصحية البالغة تريليون دولار سنويا في الولايات المتحدة في شكل عمليات ورقية يمكن تخفيضها دراماتيكيا باستخدام التكنولوجيا الإلكترونية الرقمية. أضف إلى ذلك الربط الدقيق بين جميع العمليات الطبية مما يؤدي إلى سرعة فائقة في الإسعاف والعلاج، وكذلك التشخيص المبكر للأمراض ومعرفة أسبابها واكتشاف أنماطها. وفي هذا السياق يكشف جيتس عن قصور نظم المعلومات لدى الأطباء الممارسين في أمريكا. فهناك ٥٪ فقط من الأطباء يستعملون الكمبيوتر في عياداتهم. ولابد من الصعب توفيق هذا الرقم مع نسبة الخمسين في المائة من الأسر الأمريكية التي تملك أجهزة كمبيوتر، كما يقول المؤلف في سياق آخر من الكتاب!

وربما كان عرضه لتطبيقات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في مجالات التعليم أفضل العروض القطاعية التي طرحها. فالأمور تتغير بسرعة فائقة على مستوى المدرسة والجامعة والنشر، بل والثقافة العامة، بحيث تبشر بثورة هائلة في نظم التعليم وأساليبه. ففي المعاهد النموذجية لم يعد مكان الكمبيوتر يقتصر على معمل المدرسة، وإنما أصبح جزءًا لا يتجزأ من العملية التعليمية في الفصول المدرسية ذاتها. وقد تأثر بذلك دور المعلم إلى حد بعيد بالإضافة إلى أسلوب التدريس والمادة الدراسية. وينذر هذا بفجوة هائلة في نظم التعليم بين الدول المتقدمة والنامية ستكون وخيمة العواقب إن لم تبادر بتداركها!

ويضيف جيتس بعدًا جديدًا لنظريات الإصلاح الإداري بعرض الإمكانيات الجديدة للإدارة الحكومية التكنولوجية، وتحسين الأداء الحكومي والقضاء نهائيا على البيروقراطية، ولكنه لا يضيف كثيرًا لما جاء في كتاب أوزبورن ذائع الصيت «إعادة اختراع الحكومة من جديد».

أما في العمليات الحربية فيقدم المؤلف عرضا مختصرًا لأحدث تطبيقات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، كما أبرزتها الحروب الأخيرة في الخليج والبوسنة وكوسوفو بيوغوسلافيا. وهي تحاكي في جملتها واستشراف مستقبلها ما جاء في أفلام «حرب النجوم».

والكتاب في الختام هو مزيج من الجدية والطرافة، وثري بالأمثلة الواقعية رغم سمتها الدعائية، ومن الصعب إنكار فائدته للهواة والمتخصصين على حد سواء. ■

حركة دون تقدم!

أشرف البيومي



يبحث هذا الكتاب النادر موضوعا غاية في الأهمية، فهو يتعلق بتحديات العلم والتكنولوجيا في العالم العربي، وندرة الكتاب تعكس قلة الاهتمام بالموضوع والدور الهامشي الذي يلعبه العلم والتكنولوجيا في عالمنا العربي، إذا نحينا جانبا خطابات المسئولين والبث الإعلامي بشأنهما..

يقول المؤلف: «يأتي هذا الكتاب تتويجا لأكثر من ثلاثين عامًا من البحث، وقد كانت الناحية الأكثر صعوبة واستهلاكا للوقت خلال عملية البحث هذه، هي إيضاح جوانب العلاقة بين العلم والتكنولوجيا من جهة، والبرامج الاقتصادية وعملية صنع القرار في الأقطار العربية من جهة أخرى. وعلى الرغم من توافر دراسات تبحث هذه العلاقات في عدد من البلدان الغربية والسوفيتية، فإن مثل هذه الدراسات لم تحظ إلا باهتمام محدود في البلدان النامية».

وأهمية الكتاب في أنه ليس مجرد عرض لآراء وانطباعات المؤلف مستقاة من خبرته الطويلة والغنية في هذا المجال، ومحاولاته المتكررة في عدد من الأقطار العربية لبناء مؤسسات علمية، إنما تقع أهمية الكتاب في الجمع بين خبرة المؤلف لعقود طويلة في مواقع مختلفة واعتماده على دراسات متعددة حول آلية وديناميكية منظومات العلم والتكنولوجيا في الغرب، واستناده إلى الكثير من التقارير والبيانات والإحصاءات عن النشاط العلمي العربي، والتي تبين معدلات نشر الأوراق العلمية في فروع العلم المختلفة وفي مختلف الأقطار العربية، وترتيب الإنتاج العلمي حسب القطر، وأسماء المؤسسات العربية وأنواعها، ومعدلات الاستشهاد بمنشورات علمية حسب الحقل والبلد، ومدى المساهمة العربية في المؤتمرات الدولية والوطنية. وبهذا يصبح الكتاب مرجعًا مهمًا في عملية التقييم الموضوعي لمكانة العلم والتكنولوجيا في العالم العربي بعيدًا عن الادعاءات الإعلامية والسياسية.

لقد حاول المؤلف - بنجاح - تبيان طبيعة التحدي العلمي والتكنولوجيا في إطار تاريخي وكيف أن التواكل الثقافي على الغرب وانتشار القوة العلمية الغربية عبر وسائط عسكرية واقتصادية كانت مصدر خراب على الوطن العربي، وكيف أن هذا ساهم بشكل فعال على تواصل تفكيك الهياكل الاجتماعية والتجارية في الوطن العربي، وعلى تعميق الهيمنة العلمية والسياسية والاقتصادية والعسكرية للغرب عبر القرون الخمسة الماضية... لقد تفاعلت عوامل خارجية مع أخرى داخلية مؤدية إلى «قولبة وجمود العالم العربي».

بين المؤلف كيف «ارتفع عدد الخريجين الجامعيين في الوطن العربي إلى أكثر من الضعفين بين عامي ١٩٨٥ و١٩٩٥. ومع ذلك ظل الناتج الوطني الإجمالي على حاله» «كل هذا على الرغم من استثمار أكثر من ألف مليار دولار خلال الفترة ذاتها في إجمالي تشكيل رأس مال ثابت». و«هذه الحقائق المجردة تشير إلى أن الأقطار العربية تمتلك منظومات علم وتكنولوجيا في أقصى الحالات البدائية إن كان هناك مثل هذه المنظومات». وأن اقتصاديات الوطن العربي حولت «مدخلات ضخمة إلى مخرجات معدومة». ومن هنا جاء عنوان الكتاب: «تقدم من دون تغيير»، وإن كنت أفضل «حركة دون تقدم».

العرب وتحديات العلم والثقافة.. تقدم من دون تغيير

تأليف: أنطوان زحلان

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩.

ويؤكد الكاتب على «أن امتلاك هذه المواهب البشرية الملموسة لا يساهم بشكل بارز في تحسين الحال الوطني إلا إذا عززت الثقافة السياسية تشكيل منظومات وطنية فعالة للعلم والتكنولوجيا»، «وإلا إذا تبنت الحكومات العربية «سياسات علم قوية وناجحة».. وهكذا فإن إنتاج البحث العلمي بحوالي خمسين ألف أستاذ في ١٧٥ جامعة عربية في عام ١٩٩٥، كان ١٠٪ فقط مما يمكن أن نتوقعه. «إن خمسين ألف عالم بحث وتطوير - يعملون في إطار منظومة علم وتكنولوجيا متطورة سينشرون سنويًا حوالي مائة ألف ورقة علمية، بدلا من الستة آلاف ورقة - ستة عشر ضعفًا - التي ينشرونها الآن في الوطن العربي.. ومستوى الناتج الوطني الإجمالي سيكون في هذه الحالة أكبر بخمسة إلى عشرة أضعاف معدل الخمسمائة مليار تقريبا، الذي وصل إليه مجمل إنتاج البلدان العربية في عام ١٩٩٥».. وهنا أود أن أشير إلى أن النشاط العلمي والتكنولوجي يعتمد على الإبداع والابتكار. ولهذا فإن نوعية الأوراق العلمية المنشورة لها أهمية خاصة، وإنه إذا أخذنا ذلك في الحسبان لأصبحت الصورة قاتمة بدرجة أكبر ولكنها أقرب للواقع. أقول ذلك رغم شعوري بالمرارة لإيماني بضرورة مواجهة الحقائق، وللتقني الموضوعية بإمكانية التغيير وضرورته.

قدم المؤلف عرضًا جيدًا لطبيعة وديناميكية منظومة العلم والتكنولوجيا في الغرب، وأبرز العوامل المساعدة والظروف المعطلة لهذا النشاط.. كما تحدث تفصيلاً عن أهمية مثل هذه المنظومة لمواجهة التحديات العسكرية، ولتلبية حاجات الأمن القومي العربي. وناقش في النهاية مستقبل العلم والثقافة في الوطن العربي، ونوّه عن التغييرات القائمة الآن في البيئة الدولية.

نحن بالفعل أمام كتاب يتعلق بقضية محورية لمستقبل العالم العربي. كتاب يستحق الدراسة والتفكير بإمعان حتى نخرج من حالة إنكار الواقع التي تعطل أي تغيير أو تقدم.. ورغم أنه كتاب مؤلم يوضح دون مواربة سوء الوضع العربي الحالي، إلا أنه أيضا يبدد الوهم في استحالة مساهمة متكافئة وفعالة في النشاط العلمي والتكنولوجي الدولي، ويخلع عن هذه النشاطات صفة الإعجاز.

يُعد أنطوان زحلان نموذجًا لعالم عربي امتزجت طموحاته العلمية ورغبته في البحث العلمي في مجال الفيزياء بطموحاته الكبيرة لوطنه العربي وآماله التي لم ينل منها الإحباط رغم الهزائم والنكسات، في أن يستثمر العالم العربي طاقاته الخلاقة والمبدعة في مواجهة التحديات، وعلى رأسها تحديات العلم والتكنولوجيا.. فهو بلاشك نموذج فريد من العلميين العرب الذين ينظرون للعلم كأداة من أدوات التغيير على مستوى الفرد والمؤسسة، والذين يربطون العلم بالمجتمع ومشكلاته في تباين مع نماذج أخرى من علميين عرب عزلوا نشاطهم العلمي عن قضايا المجتمع متذرعين بمقولات زائفة مثل فصل العلم عن السياسة.

١- العلم والتكنولوجيا الوطنية محرك أساسي للتنمية والتغيير

يؤكد الكاتب على حقيقة واضحة، وهي اعتماد النشاط البشري على العلم والتكنولوجيا. فإنتاج الغذاء وشفاء المرضى والدفاع عن الوطن، كل ذلك يعتمد على قدرة المجتمع على تخطيط تطبيقات العلم والتكنولوجيا والتكيف معها واقتباسها وابتكارها وصناعتها وصيانتها وتشغيلها وزيادة تقدمها. كما تعمل منظومة العلم والتكنولوجيا بشكل متناسق ومنظم في تطوير المجتمع وإحداث تغيير اجتماعي واقتصادي هائل يمكن الوطن العربي من المشاركة بدرجة أكثر تكافؤًا في التطورات العلمية والتكنولوجية، وتمكن العالم العربي من أن يكون مساهمًا حقيقيًا لهذه التطورات وليس

مجرد أن يكون مستهلكًا لها. فالعلم والتكنولوجيا قوتان رئيسيتان تدعمان التغيير التاريخي وتحدثان التغيير على المستويات الشخصية والاجتماعية والمتطماتية والوطنية والدولية، وبإمكان مجتمع يتقن التكنولوجيات التي يحتاج إليها أن يتطور بانسجام. أما المجتمع الذي يعتمد على العقود الإنجازية والمشاريع الجاهزة، فإنه ينتهي إلى ثقافة جاهزة: فطائر ماكدونالدز، وأغاني مايكل جاكسون ومنوعات داينستي التيفزيونية، وملابس جوتشي، وسيارات مرسيدس، فمن المستحيل قيام رفاه ثقافي واقتصادي واجتماعي وسياسي من دون الاستفادة من العلم. وفي البلدان الصناعية حيث دخل الفرد يعادل عشرة أضعاف دخل الفرد في البلدان العربية نجد أن أكثر من تسعين بالمائة من الناتج الوطني الإجمالي، إنما هو من نتاج العلم والتكنولوجيا، وعلى العكس من ذلك، فإن الجهل والفقر والفساد والمرض في الوطن العربي يساعد على إبقاء قمع مستمر وتواكل تكنولوجي وعدوان أجنبي. ويحذر المؤلف من أن البلدان التي لا تدعم البحث العلمي - بشكل جدي - ستظل متروكة في الظلام، محكومًا عليها بفقر مستديم للعقل وبتواكل ثقافي.

٢. السلطة السياسية وأولوية العلم:

قد نتساءل عما إذا كانت هناك أصوات عالية توضح أهمية المشاركة العلمية والتكنولوجية، وتدعو لها لدى صانعي القرار! والإجابة عن ذلك أن المحاولات كانت متعددة ومتكررة، ومنذ فترة بعيدة.. الكاتب يذكر مثالا لذلك المفكر اللبناني، شبلي الشميل والذي «نشر في عام ١٨٩٦ كتابًا مفتوحًا إلى السلطان عبد الحميد في استانبول تحت عنوان شكوى وأمل». يحدد فيه ثلاثة أسباب لضعف الإمبراطورية العثمانية وهي غياب «العلم والعدالة والحرية». وبالرغم من أن منشورات الشميل أدت إلى نقاشات واسعة.. إلا أن أثر هذه الأفكار في السياسة العامة كان محدودًا جدًا. وأود أن أضيف إلى ذلك مثالا آخر هو أديب الثورة العرابية عبد الله النديم، ففي «التنكيت والتبكيت» (١٨٨١ - ١٨٨٢)، كان النديم يحث على نقل تكنولوجيا الصنائع من أوروبة إلى مصر، ويتحدث في «الأستاذ» عن هيمنة الأجانب وتدخلهم في شئون البلاد، وبالذات عن محاولاتهم تقويض الصناعة المحلية لصالح البضائع الأجنبية.

وعقب هزيمة ١٩٦٧ تبنت الجامعة العربية عددًا من المحاولات لوضع سيناريوهات لمستقبل الوطن العربي، وقامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بإعداد ونشر استراتيجية عربية للعلوم والتكنولوجيا وُجهت للحكومات والمعنيين في العالم العربي في عام ١٩٨٩، وها نحن في مطلع القرن الواحد والعشرين.. فلماذا ذهبت كل هذه الجهود أدراج الرياح؟ ولماذا لم يكن لها سوى أثر قليل على المستويين القطري والإقليمي؟

٣. التخلف التكنولوجي وتفكك العالم العربي:

يبيِّن الكاتب كيف أن عام ١٤٩٨م شهد تطورًا مهمًا في المواجهات بين الشمال والجنوب، أدى إلى دخول البرتغاليين إلى المحيط الهندي وإلحاق أقصى الضرر بنظام التجارة العربي عن طريق قوتهم البحرية المتفوقة، والتي كانت نتاج «بحث وتطوير في مجال تكنولوجيا الأساطيل والحرب البحرية»، وأصبح الأوروبيون على قدم المساواة مع



ارتفع عدد الخريجين الجامعيين في الوطن العربي إلى أكثر من الضعفين بين عامي ١٩٨٥ و١٩٩٥، ومع ذلك ظل الناتج الوطني الإجمالي على حاله

إن خمسين ألف عالم بحث وتطوير، يعملون في إطار منظومة علم وتكنولوجيا متطورة سينشرون سنويا حوالي مائة ألف ورقة علمية، بدلا من الستة الآف ورقة، ستة عشر ضعفًا، التي ينشرونها الآن في الوطن العربي

الدولة العثمانية - الدولة العظمى آنذاك - تكنولوجيًا بعد أن سدّوا الفجوة التكنولوجية التي أقامها العرب في القرن السابع، والتي استمرت حتى القرن الثاني عشر. تلى ذلك تنامي القوى البحرية الهولندية والإنجليزية والفرنسية التي لم تكن مدعمة بتفوق في القوة البحرية فقط، بل أيضا بوسائل جديدة مكنتها من القيام بممارسات احتكارية في التجارة العالمية، وأدى التآكل المستمر للأمن القومي إلى تمكين شركات الهند الشرقية المستندة إلى القوة البحرية من إخراج العرب من التجارة الدولية واحتكارها للسلع وهيمنتها على التجارة الدولية.. مما أدى إلى انهيار نظام النقل والتجارة العربي اللذين كانا يوفران العمود الفقري لاقتصاد الوطن العربي، والدعامة للوحدة القومية من خلال التحرك الاجتماعي والثقافي للمشاركين في هذا النظام التجاري، وبحلول منتصف القرن السابع عشر كان العرب يشترون المنتجات الآسيوية من تجار أوروبيين متمركزين في حلب والإسكندرية. وكان من الطبيعي أن يؤدي خراب التجارة العربية البعيدة المدى إلى التراجع الثقافي للعرب، فقد كان التجار العرب أيضا «بحاثة ورحالة وعلماء اجتماع بنائين يحملون معرفتهم ودينهم إلى أقاصي آسيا وأفريقيا». بدأت آلية الانهيار والتخلف والتفكك والتباعد بين الدول العربية وضعف العلاقات بينها، ثم التراجع الثقافي وانحسار حرية تعميم المعرفة، وتقلص العلاقات مع الصين والهند وأفريقيا، وبدأ مسلسل التواكل التكنولوجي والتنازلات التجارية والقروض التي عمقت هيمنة الغرب على العالم العربي، والتي وصلت إلى أوجها في العصر الحاضر في شكل مبيعات ضخمة للأسلحة لا علاقة لها البتة بحاجات الأمن القومي العربي، ولكن تعود أساسا إلى طمع الحكومات الغربية في الحفاظ على ربحية صناعاتها الحربية.

أدى تقدم الأوروبيين في مجالات التكنولوجيا الزراعية وصناعة النسيج ووسائل النقل والمواصلات والصناعات الكيماوية في القرن التاسع عشر، إلى خسارة أنشطة اقتصادية مهمة، وإلى تفكيك العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المرتبطة بها، والتي تربط معا مناطق الوطن العربي المختلفة، وجدير بالذكر أن المؤلف أبرز بوضوح العلاقة القوية بين العلم والتكنولوجيا من جهة، والاقتصاد والتجارة والقوة العسكرية والترابط القومي من جهة أخرى.

وأود أن أشير في هذا المجال إلى أن العوامل التي تدفع في اتجاه تبعية أعمق وتخلف أكبر لازالت تفعل فعلها الآن، بل إنها تتعاظم وتتسارع بسبب التقدم الهائل الغربي بما في ذلك الإسرائيلي في الفروع العلمية المختلفة.

٤. الخطر الإسرائيلي:

تحصل إسرائيل على دعم غير محدود من جانب أنظمة التسلح الغربية: التقليدية والنووية والبيولوجية والكيماوية.. كما أن الحركة الصهيونية أنشأت «منذ بدايتها الجامعات ومراكز البحث العلمية ومجمعًا صناعيا، متطورًا ساهم بشكل فعال في تطوير تكنولوجيا الفضاء والصواريخ وأسلحة الدمار الشامل، وكان شيمون بيريز المهندس للكثير من هذه التطورات.

وقد تلقت إسرائيل مساعدة فرنسية هائلة لتطوير مفاعل ديمونا النووي، وحققت القنبلة اليهودية بدعم مباشر من الحكومتين الفرنسية والأمريكية، وبدعم أطلنطي غير مباشر. عندما تحولت شحنة كاملة من مائتي طن من اليورانيوم بشكل غير مشروع إلى إسرائيل، وجرى انتهاك قوانين قومية ودولية لتحقيق هذا التفوق الإسرائيلي، والذي يمثل إحدى

استراتيجيات الغرب المعلنة. ولكن يجب أن يكون مفهومًا للدول العربية أن تأخذ دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية هذه إلى محكمة دولية لمحاكمتها على التواطؤ في حملة واسعة من التدمير والقهر والاضطهاد ومصادرة الممتلكات والتطهير العرقي في فلسطين ولبنان وسوريا، واغتيال الأسرى العرب، واغتيال علماء عرب مثل د. يحيى المشد المصري الجنسية، وغيره من العلماء الأجانب، وفي المقابل «تواصل دول حلف شمال الأطلسي للعقوبات لمعشر الثقافة. فتوجه مدفعه لبلدان إسلامية مثل باكستان وليبيا والعراق ومصر أيام عبد الناصر، والجزائر حديثًا، على اعتبار أنها إما تخطط لاكتساب أسلحة دمار شامل أو امتلاك هذه الأسلحة. ويشير الكاتب إلى مؤلفه المهم «العلم والتعليم العالي في إسرائيل» الذي صدر باللغتين العربية والإنجليزية، والذي أوضح فيه تسخير البحث العلمي الأكاديمي الشامل في خدمة احتياجات المؤسسة العسكرية، كما أشار إلى الصلات الوثيقة القائمة بين الأسرة العلمية الإسرائيلية».

٥. تقسيم الإنتاج العلمي في الوطن العربي:

إن أهم المؤشرات للنشاط العلمي هي الأوراق العلمية المنشورة في مجلات علمية محكمة (حيث لا تقبل الورقة العلمية للنشر إلا بعد تقييمها من اثنين أو ثلاثة من المتخصصين في نفس المجال)، وخصوصًا المجلات ذات الصيت والاحترام التي تنشر الأوراق العلمية المتميزة أو ذات النوعية الجيدة. ومن المؤشرات الأخرى: المؤلفات العلمية، وبراءات الاختراع، والاكتشاف والابتكار، والجوائز الدولية المعروفة.

والمؤلف يعرض في الكتاب نتائج البحث العلمي في الوطن العربي من خلال الأوراق العلمية المنشورة، مستخدمًا ثلاث مواد مرجعية هي: الدوريات العلمية العربية، ولجنة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (أليكسو) عن العلم والثقافة، ونتائج الأبحاث المسجلة في فهرس مؤسسة المعلومات I.S.I، وهي مؤسسة خاصة تحتل مكانا مهما في توفير المعلومات، ويرجع إليها العلماء كثيرًا، وبالرغم من أن المعلومات غير مكتملة، إلا أن معالم الصورة التي تعطيها واضحة تماما ويمكن تلخيصها فيما يلي:

** المعلومات عن الدوريات العربية غير مكتملة وغير كافية، وتعتبر سجلات مكتبة الكونجرس في واشنطن أفضل مصدر للمعلومات حول الدوريات العربية، وهذا نفسه له دلالة سلبية.

** تأسست شبكة إنسنيت (ENSTINET)، وهي شبكة المعلومات العلمية والتكنولوجية الوطنية (المصرية) في عام ١٩٥١ من قبل أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا، ومدعمة من قبل الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية (USAID) لتطويرها «مع التأكيد على الأولويات الاجتماعية - الاقتصادية»، وهذا له دلالة مهمة أيضا! وتضم دليلا لمشاريع البحث الراهنة والجمعيات العلمية في مصر، وملخصات لكتب ومقالات وتقارير مصرية، وهي غير كاملة، ولا تتضمن ما ينشره مصريون في مجلات أجنبية.

** الدوريات المصرية المتعلقة بالعلم تتأخر غالبا في النشر، والأوراق التي ترد لها قد تظل محبوسة مع المحررين بانتظار النشر لعامين أو ثلاثة.

** دراسة «اليكسو» عن العلم والتكنولوجيا الميدانية، والتي انتهت بتقرير عن «الإنتاج العلمي العربي»، تعطي الملامح الأساسية عن هذا الإنتاج، حوالي ٧٧٦ من

المنشورات العلمية جاء من مصر، ونسبة عالية منه نشرت في دوريات وطنية غير مشمولة من قبل ISI، والمعدل الغربي هو ٥٧٪ منشورات في دوريات وطنية. ومن أهم المعلومات الواردة في التقرير: أن معدل نشر أوراق الأبحاث العلمية العربية في دوريات دولية محكمة في الفترة ما بين ١٩٩١ و١٩٩٥ هو ٥٨٠٠ في السنة بالمقارنة إلى ٨٨٦٧ نتاج البحث العلمي الإسرائيلي في نفس الفترة، أي أن نسبة نتاج البحث العلمي الإسرائيلي لما تنتجه جميع الدول العربية هو حوالي مرة ونصف دون أن يؤخذ في الاعتبار نوعية الأوراق العلمية. فإذا أخذنا النوعية في التقييم، وهذا ضروري، فالنسبة تصبح أكثر اختلالا. لمعدل الاستشهاد - وهو معيار يعطي مؤشرا.

** وفي معرض المقارنات الدولية، أسوق بعض الأمثلة من التي ذكرها المؤلف، فبينما نجد أن معدل الإنتاج العلمي للفرد في عام ١٩٩٥ هو ٢٦ للوطن العربي، نجد ١٤٤ لكوريا الجنوبية، و١١٠٢ لهولندا، و١٣٣٠ لإسرائيل. يلاحظ أيضا أن هذا المعدل قفز قفزات كبيرة في كوريا الجنوبية من ٦ عام ١٩٨١ إلى ٤٨ عام ١٩٩١ إلى ١٤٤ عام ١٩٩٥، أي ٢٤ ضعفا في خمسة عشر عاما، مما يدل على أن كوريا الجنوبية بلد في العالم الثالث، بذل حديثا جهدا مصمما وناجحا في بناء قدراته العلمية والتكنولوجية. أما بالنسبة للعالم العربي فلم يتغير معدل الإنتاج العلمي للفرد كثيرا (١١ في عام ١٩٨١ و٢١ في عام ١٩٩١، و٢٦ في عام ١٩٩٥)، حوالي الضعف (٢,٤) في نفس الفترة.

كما يلاحظ المؤلف أن المنتجين الرئيسيين في المجال العلمي في العالم الثالث هم الصين والهند والبرازيل. وقد عززت حكومة الهند منذ استقلالها تطوير وتطبيق العلم والتكنولوجيا، وقدم العلماء الهنود مساهمات مهمة إلى العلم في العالم. وسعى بعض العلماء الهنود إلى تطوير علوم وتطبيقات مباشرة وفورية.

ويحذر المؤلف من أن معدل الإنتاج للفرد لا يعني الكثير كمقياس وحيد، فعلى الرغم من أن للصين معدل إنتاج علمي منخفضا جدا بالنسبة للفرد، فهي قوة نووية وفضائية، كما أنها طورت عددًا من تكنولوجيات مثيرة للاهتمام.

** تجدر الإشارة إلى بعض الحقائق المهمة التي جاءت في الكتاب حول الإنتاج العلمي العربي ونمود وارتباطه بالصناعة: كان معدل نمو الإنتاج العلمي العربي ١٠,٣٪ سنويا والوقت اللازم لمضاعفته ٦,٧ سنة. وكان المعدل في مصر ٨,٣٪ سنويا، والوقت اللازم لمضاعفته ٨,٤ سنة. وأسرع نسبة للنمو سجلت في العربية السعودية (٢٠٪) والكويت (٢٥٪). وتحققت المكاسب الرئيسية للنشاط العلمي خلال السنوات الثلاثين الماضية في بلدان مجلس التعاون الخليجي. وانعكس ذلك في حصتها في الإنتاج العلمي العربي، فارتفعت من ١٧٪ في عام ١٩٨٠ إلى ٣٣٪ عام ١٩٩٥، بينما انخفضت حصة مصر من ٤٦٪ إلى ٣٢٪ في نفس الأعوام. ولكن مصر لاتزال تنتج بحوثا أكثر من نسبتها السكانية في الوطن العربي. كما أن «الجامعات المصرية تظل هي مراكز البحث الرئيسية، إذ إنها تنشر ٨٠٪ من البحوث المذكورة في I.S.I خلال عامي ١٩٩٠ و١٩٩١، على الرغم من العدد الكبير لمراكز البحوث والمستشفيات ومحطات البحوث الزراعية في مصر.

يشير المؤلف أيضا إلى الآثار السلبية المنعكسة على النشاط العلمي في الكويت والعراق نتيجة غزو الكويت. وبينما استردت الكويت بعض عافيتها في هذا المجال، إلا أن



بإمكان مجتمع ينتقي التكنولوجيات التي يحتاج إليها أن يتطور بانسجام. أما المجتمع الذي يعتمد على العقود الإنجازية والمشاريع الجاهزة، فإنه ينتهي إلى ثقافة جاهزة: فطائر ماكدونالدز، وأغاني مايكل جاكسون ومنوعات دايناستي التليفزيونية، وملابس جوتشي، وسيارات مرسيدس.

عقب هزيمة ١٩٦٧ تبنت الجامعة العربية عددا من المحاولات لوضع سيناريوهات لمستقبل الوطن العربي، وقامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بإعداد ونشر استراتيجية عربية للعلوم والتكنولوجيا.. فلماذا ذهبت كل هذه الجهود أدراج الرياح؟

البحث العلمي في العراق لازال في حالة انهيار نتيجة للعدوان والحصار الشامل المستمر عليه.

ويضيف الكاتب أن إنجاز البلدان العربية يبين أنها ضعيفة في العلوم الحاسمة الأهمية لعالم اليوم، والعلوم الحاسمة للمستقبل. وبعبارة أخرى فإن البلدان العربية لم تقم بعد بالانتقال إلى علوم آخر القرن العشرين وتكنولوجيته.

٦- عقبات أمام قيام منظومة علمية وتكنولوجية عربية فعالة:

يذكر المؤلف عدة عوامل تشكل عقبات حقيقية لقيام منظومة علم وتكنولوجيا متطورة وفعالة في الأقطار العربية. أهم هذه العوامل هي: العلاقة غير الفعالة بين منظومة العلم (النشاط العلمي) والاقتصاد الوطني. المستويات العالية من المركزية التي تشل التعاون والتفاعل واتخاذ المبادرة. غياب التنسيق الجيد في مجال العلم والتكنولوجيا بين فروع الحكومة التي تعمل وكأنها وحدات مستقلة لا توافق، أو تزامن بينها: غياب التمويل اللازم رغم أن التمويل وحده لايكفي وليس ضمانة للنجاح في المجال العلمي أو الاقتصادي. فعائدات النفط قد وفرت المفتاح للتنمية في العربية السعودية مثلا.. ولكن استثمارها الصناعي كان مبتسرا وظاهر السلبية: ارتكاز اختيار القيادات على المحسوبية أو الأقدمية والولاء السياسي دون إعطاء الكفاءة والإنجاز المعيار الأساسي في الاختيار: انتشار ثقافة سياسية مناوئة لبناء المؤسسات: منح العقود على أساس ممارسات فاسدة وإتاوات: البيروقراطية وعدم المتابعة متمثلة في كثير من قرارات وتوصيات لاتنفذ وهيئات ولجان لا تعمل مما يضاعف من حالة الإحباط.. ولعل أهم العقبات هي التواكل التكنولوجي والتبعية السياسية والاقتصادية والثقافية..

وشدد الكاتب على الكلفة العالية للإصلاح والصيانة الداخلة في هذه الخدمات رغم أن القدرات المطلوبة في هذا المجال أقل بكثير من تلك المطلوبة لصناعة الناتج الأصلي.. وهذا يعكس عجز الحكومات العربية المستمر في تطوير وتمكين بيئة تكنولوجية، وقد أدى هذا العجز إلى واردات ضخمة من خدمات متصلة بالتكنولوجيا، لايمكن لمعظم الحكومات العربية تحملها ولايمكن تأمين تحسين الكفاءة الاقتصادية الوطنية إلا عن طريق اعتماد المصادر المحلية. لقد تمسكت الأقطار العربية بسياسات التواكل التكنولوجي الكلي إلى حد الأيديولوجيا: فهي تستورد الخدمات، وقطع الغيار والسلع الرأسمالية، والخدمات الاستشارية، وخدمات المقاولة. والتأثير الاقتصادي لمثل هذا الاعتماد الكلي في المدى البعيد يعد بمثابة الكارثة.. هذه السياسة وتجاهل الارتباطات الممتدة خلفيا والمتعلقة بالتكوين الإجمالي لرأس المال الثابت إلى تصدير الوظائف.. والعامل المضاعف المرتبط بمعظم الاستثمارات في الأقطار العربية يكاد يكون صفرا أو سلبيا، هذا الاستثمار الضخم بلغ ٢٥٠٠ مليار دولار خلال الفترة ١٩٨٠-١٩٩٧، وعلى سبيل المثال تصدر صناعة البناء والتشييد العربية وحدها ما يتراوح بين سبعة ملايين إلى تسعة ملايين وظيفة. وتصدر صناعة النفط العربية مليون وظيفة مرتبطة بوارداتها من منتجات وخدمات، ويسود هذا النموذج كل القطاعات الأخرى وبعبارة أخرى أصبح العالم العربي مُصدّرا جيدا للطاقات (النفط) وللوظائف!!

٧- ارتباط منظومة العلم والتكنولوجيا بالاقتصاد:

إن نهوض الأمم الصناعية وسقوطها أمر منتظم الحدوث.. والقاسم المشترك في هذه العملية هو الالتزام بالبحث والتطوير وبمستوى الاستثمار في التعليم ونوعية البنى التحتية الفعلية، وامتلاك الموارد المعدنية لايحمي اقتصاد دولة: فأستراليا التي كانت في وقت من الأوقات أغنى بلد في العالم انزلقت الآن إلى الموقع السابع عشر بين بلدان منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية الأربعة والعشرين. والسبب هو اعتمادها على صناعات منخفضة المستوى نسبيا مثل التعدين والزراعة اللذين يشكلان ٨٠ بالمائة من صادراتها، وتخصيصها «١,٣٠» بالمائة فقط من ناتجها الوطني الإجمالي للبحث والتطوير. إن الاتجاه المستمر لفك ارتباط الاقتصاد بالمادة الخام جعل الاستثمار في التعليم.. له نسبة أعلى في المردود من أي نوع آخر. والسبب كما يذكر هاريس في الفاينانشيال تايمز في عام ١٩٩١، أن هذا هو الشكل الوحيد لرأس المال القابل للتكيف إلى مالانهاية مع الظروف والتكنولوجيات المتغيرة.

كما أن انهيار الاتحاد السوفياتي يعود في جزء منه إلى العلاقة غير الفعالة التي كانت قائمة بين منظومته للعلم والتكنولوجيا والاقتصاد الوطني ويستشهد المؤلف بدراسة تظهر أن الإصلاحات في المنظومة السوفياتية، بدأت في عهد خروتشوف في عام ١٩٥٧، إلا أن النظام السياسي السوفياتي لم يكن قادرا على تقديم المرونة والمعالجة المطلوبة لتمكين منظومة العلم والتكنولوجيا السوفياتية من العمل بكفاءة فضلا عن الإصرار على الإشراف البيروقراطي والسياسي المباشر على عناصر منظومة العلم والتكنولوجيا، وكانت هذه التجزئة معيقة بالنسبة إلى كفاءة الاقتصاد السوفياتي. لقد كانت لدى الاتحاد السوفياتي وفرة في العلماء والابتكارات إلا أنها لم تتمكن من تحويل نتاجها اقتصاديا إلى خدمات ومنتجات مطلوبة.

والوضع في البلدان العربية أشد حدة.. فليس هناك علاقات تكنولوجية مهمة أو بارزة بين أي مؤسسة صناعية ومحيطها الوطني والإقليمي. كما أن البيروقراطية سواء في القطاع العام أو الخاص وعوامل أخرى حالت دون أي جهد جدي لاكتساب التكنولوجيا.

وفي كوريا الجنوبية نلاحظ نجاح الارتباط بين الاقتصاد الوطني ومنظومة العلم والتكنولوجيا مما مكنها من تسريع معدل نموها الاقتصادي، ومن المتوقع أن تنضم الصين إلى «النادي الصناعي» خلال عشر سنوات أو نحو ذلك ولقد أقامت الهند عددا كبيرا من المراكز الصناعية ومراكز البحث والتطوير وتمكنت من تحسين امتصاص خبرتها المهنية.

وبكل بساطة فإن مستقبل الوطن العربي ومستقبل العلم في الوطن العربي يعتمدان على قدرة العرب على تطوير ثقافتهم السياسية. وإذا وُضعت منظومات علم وتكنولوجيا وطنية في مواقعها فعندها يمكن للكفاءة الاقتصادية المرتبطة بالاستثمارات السابقة والجديدة أن تتحسن بشكل واسع. إن على العرب لكي يستفيدوا من العلم أن يقيموا بيئة سياسية تمكن للاقتصاد الصناعي أن ينمو داخلها. وإلا فإن التدهور الاقتصادي للوطن العربي.. سيستمر في الهبوط السريع، ويبين المؤلف أن إنفاق العالم على البحث والتطوير آخذ في الازدياد وأن عاملي ازدياد التعقيد التكنولوجي وكثافة رأس المال سيكون لهما تأثير قوي على سياسات التكنولوجيا العربية لتصدير الوظائف وإفقار الوطن العربي. وسوف يؤدي التقدم التكنولوجي إلى تعميق التواكل

التكنولوجي» بفضل العمولات الثقيلة وسوء الإدارة والمشاريع الخالية من نقل التكنولوجيا.

وأكد المؤلف مرارا أن «مستقبل الوطن العربي سيتقرر بقدرته على الانتقال من اقتصاد ريعي إلى اقتصاد صناعي، وأن إمكانية تأسيس وتطوير منظومات علم وتكنولوجيا وطنية يعتمد على الانخفاض المتزايد للسلوك الريعي في الاقتصاد الوطني».

بعد عرض لنقاط الكتاب الأساسية، يصبح من المهم تسجيل بعض الملاحظات النقدية لمضمون الكتاب:

أولا: غياب إطار هيكلي متماسك يضع النشاط العلمي والتكنولوجي في ارتباط وثيق وتلقائي بالمسار التنموي. فلم يبين الكاتب بوضوح كاف الارتباط العضوي بين طبيعة السلطة السياسية وأولوياتها الاقتصادية والاجتماعية ومن ثم حاجتها الفعلية لمنظومة علم وتكنولوجيا وطنية ومتطورة. ورغم أن الكاتب أكد في مواضع مختلفة من كتابه على أن اتباع أسلوب التكنولوجيا المستوردة والجاهزة والتمركز القوي في آليات صنع القرار والفساد والمحسوبية والبيروقراطية الحادة يمنع قيام منظومة علم وطنية فعالة فكيف إذا في ظل هذا الأسلوب السائد تنشط مثل هذه المنظومة؟

ويشير المؤلف لبيئة سياسية ضرورية حتى يحدث تحول من اقتصاد ريعي إلى اقتصاد صناعي معتمد على العلم ومن ثم يحتاج إلى منظومة علمية متطورة.. إذ يقول بوضوح «إن النشاطات في العلم والتكنولوجيا لاتحدث في فراغ: الثقافة السياسية عامل حاسم للتقدم العلمي. وتعتمد طاقة العلماء والتكنولوجيا في المساهمة في تطوير مجموعاتهم على الثقافة السياسية السائدة». ورغم ذلك فالمؤلف لايتحدث عن البعد الاجتماعي لهذه البيئة السياسية الضرورية، طبيعتها، أولوياتها، نوعيتها، ارتباطاتها الداخلية والخارجية، ظروف نشأتها ومؤشرات ظهورها.. العوامل المساعدة والمعطلة لمثل هذه البيئة السياسية.. قد يعتقد البعض أن هذا خارج موضوع الكتاب ولكن الكتاب لم يكتف برصد حالة العلم والتكنولوجيا في العالم العربي بل يتطرق للخطوات الأولى لتشكيل منظومة العلم وللبعد الدولي والإقليمي والعسكري ومستقبل العلم والتكنولوجيا في الوطن العربي ويتحدث عن أفعال وسياسات من أجل الاختراق وإطار زمني للتغيير..

إذا نحن بصدد تغيير جذري متعلق بالعلم والتكنولوجيا والاقتصاد والثقافة السياسية لذلك، أعتقد أن تعريف الملامح الأساسية للبيئة السياسية وأبعادها الاجتماعية ضروري لأن ذلك يساعد في تحديد الأولويات للذين يعملون جاهدين لتغيير حقيقي في المجالات المختلفة المتشابكة والمتداخلة والمتفاعلة فيما بينها والتي يشكل فيها العلم والتكنولوجيا أحد المجالات المحورية.. هذا الفهم الأكثر شمولا وتكاملا يمنع التقاعس بحجة أن المناخ السياسي ليس مواتيا ويمنع أيضا تشتيت الجهود - النادرة - في جزئيات فرعية أو هامشية.. كالاهتمام بمسألة هجرة الأدمغة العربية على سبيل المثال.

ثانيا: علم وتكنولوجيا في ظل العولمة والمشروع الشرق أوسطي

بالرغم من حديث الكاتب عن التحدي الإسرائيلي العسكري، لم يتطرق الكاتب للمشروع الشرق أوسطي والذي يعتبر حجر الزاوية بالنسبة للترتيبات الإقليمية التي تسعى إليها أمريكا وإسرائيل في ظل ما يسمى بالنظام العالمي الجديد.. وخصوصا أن أحد الجوانب الرئيسية في هذا المشروع هو دور إسرائيل المتميزة علميا وتكنولوجيا لإحكام الهيمنة على العالم العربي. ورغم أن المؤلف تحدث عن تفكيك الوطن العربي من قبل المستعمر الأوروبي في السابق وعن دور التكنولوجيا والتجارة في تحقيق ذلك. إلا أنه لم يناقش في حديثه عن المستقبل التحديات الآتية التي يواجهها العالم العربي خاصة من قبل أمريكا التي تخطط علنا لاستخدام التكنولوجيا لإحكام السيطرة وتعميق الهوة بين الأقطار العربية ورفع كفاءة استغلالها لموارد الوطن العربي وطاقاته.. وفي هذا الإطار سنرى نشاطا تكنولوجيا في إطار الهيمنة الأمريكية دوليا وإسرائيل إقليميا وفي مجالات تخدم مصالحها.

نحن بصدد مرحلة جديدة تستهدف خلق نموذج شرق أوسطي بقيادة إسرائيلية شبيه بنموذج النافتا NAFTA لدول أمريكا اللاتينية سيكون نتيجته - إن تحقق - تعميق الهوة بين الأقطار العربية وزيادة التفاوت الاجتماعي المحلي وتدعيم التبعية لأمريكا أساسا وأوروبا وتحقيق مزيد من الهيمنة الإسرائيلية إقليميا في المجالات الاقتصادية وبالتحديد في مجالات العلم والتكنولوجيا. وهذا يؤكد أن هدف إقامة منظومة علم وتكنولوجيا عربية ذات كفاءة عالية وتعميق التعاون العربي لابد أن يكون مقترنا بإطار اقتصادي وسياسي واجتماعي واضح وإلا فقد نرى منظومة لها مسحة من العلم والتكنولوجيا تعمل في إطار منظومة أكبر إسرائيلية أمريكية.

ثالثا: في مضمار تأكيده على العقبات المفروضة ذاتيا لنقل التكنولوجيا للعالم العربي والتي تشكل دون شك الأهمية القصوى في المرحلة الراهنة، قلل الكاتب من أهمية وحجم العقبات التي يفرضها الغرب على العالم الثالث عموما والعربي بشكل خاص في مجال العلم والتكنولوجيا.. وأن استراتيجية الغرب بقيادة أمريكا في جعل وإبقاء إسرائيل قوة متفوقة إقليميا تعني بوضوح: العمل على إبقاء العالم العربي في حالة ضعف وتخلف دائمة خصوصا في المجالات العلمية والتكنولوجية.

إن تدمير العراق وحصارها المستمر هو جزء من هذه الاستراتيجية وهو لايهدف فقط إلى التخلص من أسلحة دمار شامل بل أيضا إلى تحطيم إمكانيات العراق التنموية لعدة عقود وضمان تآكل القدرات العلمية والتكنولوجية المكتسبة في المرحلة السابقة.

رابعا: حدد المؤلف عددا من العناصر الضرورية لقيام منظومة علم وتكنولوجيا متطورة ولكن أحد العناصر الضرورية لم ينل الاهتمام اللازم.. هذا العنصر هو الثقافة العلمية العامة. وخصوصا أننا نتابع كيف أن الخطاب السياسي في بعض الدول العربية المحورية انتقل من مرحلة عدم الاكتراث بقضايا العلم والتكنولوجيا إلى مرحلة جديدة يستخدم فيها العلم والتكنولوجيا كمادة إعلامية للتدليل على تقدم علمي هائل: مرحلة رُفعت فيها شعارات جذابة مثل «العلم والإيمان»، و«العلم من أجل التنمية»، و«اقتحام مجالات التكنولوجيا المتقدمة» ومن جهة أخرى نجد إعلاما علميا يخلط العلم بالخرافة.. ويغرب العلم بمعنى الغُربة والتغريب وينشر أخبارا علمية متناثرة غالبا ما تكون ناقصة ومشوشة وأحيانا بعيدة عن الصحة تماما، وهذا يعكس الافتقار الشديد للمحررين العلميين المتخصصين في أجهزة الإعلام. لاشك أن هذا الموضوع بالأهمية التي لايمكن بحثها بالتفصيل في هذا المكان ولكن أردت التأكيد على دور الثقافة العلمية العامة الضرورية لخلق وعي علمي وتكنولوجي.

نابكـــــوف:
شـــــعـار «دون كيشـــوت»
هـو الشـفـقـة، ورايتـه الجمـال. وهـــو
يمثـــل كـــل ما هـــو رقيـــق
وبـائـــس ونقـى وغيـر
أنـانى وشـهـم

فارس.. أم مجنون؟

دون كيشـوت.. بطـــل هـزمـه واقـــع البشـــر

سـايمـــون ليـــز

■ إن استخدام كلمة «دون كيشوتي» في أية مناقشة هو في كل الأحوال تقريبا نوع من الإهانة. الأمر الذي يحيرني إذ إنني لا أرى مجاملة أفضل أو أعظم منها. والطريقة التي يشير بها معظم الناس إلى «دون كيشوت» تجعلك تتساءل إن كنت قد قرأت الكتاب حق قراءته أم لا. والواقع أنه من المفيد أن نكتشف إن كانت «دون كيشوت» مازالت تقرأ على نطاق واسع، كما توحي بذلك الشعبية العالمية للشخصية، أم لا؟.

غير أن القيام بمثل هذا البحث أمر محرج؛ إذ إنه بين المتعلمين على وجه الخصوص، غالبا ما يواجه المرء مفهومًا خاطئًا غريبًا مؤداه أن هناك عددًا من الكتب ينبغي أن يكون الإنسان قد قرأها، ومن العار أن يعترف بفشله في هذا الالتزام الثقافي. وأنا شخصيا أختلف مع هذا الموقف؛ إذ أعترف بأنني أقرأ من أجل المتعة فقط.

وأنا هنا، أتحدث بالطبع عن الإبداع الأدبي (الرواية والشعر)، وليس عن الأدب النظري (المعلومات والوثائق) الذي يجب أن يتقنه الباحثون والمهنيون كي يؤدوا عملهم بكفاية داخل فروع تخصصهم. فعلى سبيل المثال، من الطبيعي أن نتوقع أن أي ممارس للطب ينبغي أن يكون قد قرأ مقالات وبحوثا في التشريح والباثولوجي. ولكننا لا نطالبه بأن يكون على دراية كاملة بكل قصص «تشيكوف» القصيرة (رغم ذلك إن فكرت في الأمر فإن من بين كل طبيبين تتساوى مؤهلاتهما الطبية، أعتقد أنني سوف أثق أكثر في ذلك الذي يقرأ تشيكوف).

يقوم نقاد الأدب بدور غاية في الأهمية (كما سأوضح بعد لحظة). غير أن هناك مشكلة على ما يبدو فيما يتعلق بالنقد المعاصر، وخاصة بنوع معين من النقد الأدبي الأكاديمي. فهناك إحساس بأن هؤلاء النقاد لا يحبون الأدب حبًا حقيقيًا. إنهم لا يجدون متعة في القراءة، بل ما هو أسوأ أنهم إذا كانوا يستمتعون بالفعل بقراءة كتاب ما، فإنهم قد يشكون أنه عمل تافه. فهم يرون أن ما هو مسلٍّ لا يمكن أن يكون مهمًا أو جادًا.

وينتشر هذا الموقف انتشارًا غير متعمد في نظرتنا العامة نحو الأدب. ونتيجة ذلك أننا غالبًا ما ننسى أنه حتى عهد قريب كانت معظم الروائع الأدبية مقصودًا بها أن تكون ترفيهًا واسع الانتشار. فبدءًا من رابليه وشكسبير وموليير في العصر الكلاسيكي، وصولاً إلى عمالقة الأدب في القرن التاسع عشر ــ بلزاك، ودوماس، وهيجو، وديكنز، وثاكري ــ لم يكن اهتمام مبدعي الأدب الرئيسي هو الحصول على تأييد المتذوقين رفيعي الثقافة (وهو لا يزال رغم ذلك حيلة سهلة نسبيًا)، بقدر ما هو لمس رجل الشارع وجعله يضحك، وجعله يبكي ــ وهو عمل أكثر صعوبة.

إن فكرة «الكلاسيكيات الأدبية» تحيط بها دائرة من الهيبة. غير أن «دون كيشوت» ــ التي هي كلاسيكية كأحسن ما يكون ــ قد كتبت لغرض عملي صرف: وهو تسلية أكبر عدد ممكن من القراء، بغرض جلب أكبر قدر ممكن من المال للمؤلف (الذي كان في حاجة شديدة إليه). يضاف إلى ذلك أن «سيرڤانتيس» نفسه لا يتناسب وتلك الصورة الضخمة التي يرسمها له معظم الناس في أذهانهم عندما يفكرون في الكُتَّاب الملهمين الذين يبدعون روائع أدبية خالدة، فهو في الأصل جندي من جنود المرتزقة، أصيب في الأعمال القتالية وأصبح عاجزًا عن الحركة، وبعد ذلك أمسك به القراصنة وباعوه عبدًا في شمال أفريقيا. إلا أنه بعد عدة سنوات من الأسر استطاع العودة إلى أسبانيا، حيث عاش في فقر مدقع، وأدخل السجن مرات عديدة. وكانت حياته كفاحًا قاتلاً من أجل البقاء. وقد حاول مرات كثيرة أن يكسب عيشه من الكتابة، ولم يحالفه النجاح قط: في الروايات المسرحية والروايات الرعوية، واختفت كل هذه الأعمال، والقليل الذي بقي منها ليس ذا شأن كبير.

إلا أنه في نهاية حياته العملية فقط ــ وكان وقتها قد بلغ الثامنة والخمسين ــ حقق نجاحًا وثروة كبيرين بـ«دون كيشوت»، التي كتبها سنة ١٦٠٥، وكان الكتاب في وقت من الأوقات أكثر الكتب مبيعًا. وتوفي «سيرڤانتيس» بعد سنة واحدة من نشر الجزء الثاني والأخير من الكتاب (١٦١٥). وحيث إن «دون كيشوت» اعتبرت بحق واحدة من أعظم الأعمال الروائية في أي عصر، وبأية لغة. فمن المفيد أن نشير إلى أنها كانت كذلك ــ بالمعنى الحرفي للكلمة ــ الأثر الأدبي الذي كتبه كاتب أجير عجوز يائس في آخر أيامه.

بل إننا عندما نتدبر ما أطلق العنان لخيال «سيرڤانتيس» سوف تزداد حيرتنا، فقد قصد بكتابه بالكامل أن يكون آلة حربية موجهة ضد هدف بعينه ــ وهو أدب الفروسية والفرسان الجوالين. وهو جنس أدبي كان شائعًا لبعض الوقت. وهذه الحملة الأدبية تبدو الآن غير متناسبة بالمرة، إلا أنها كانت بالنسبة لـ«سيرڤانتيس» سببًا مهمًا، عبأ له أفضل ما لديه من طاقة فكرية. والواقع أن المطاردة التي لا هوادة فيها الخاصة بتلك المعركة التي لا طائل من ورائها، كانت بمثابة العمود الفقري لروايته كلها. وكما نعرف جميعًا، فإن بناء «دون كيشوت» غاية في البساطة، فقد وضعت المقدمة التي تقوم عليها القصة في الصفحات القليلة الأولى من الفصل الأول، وتمثل الصفحات الألف التالية تطبيقات لها على مواقف مختلفة؛ مئات التنويعات على فكرة واحدة بعينها.

كتبت «دون كيشوت»
لغرض عملي صرف: وهو
تسلية أكبر عدد ممكن من القراء.
بغرض جلب أكبر قدر ممكن
من المال للمؤلف

فهل من الضروري هنا أن نتذكر هذه المقدمة؟

إن «دون كيشوت» الرجل الريفي الطيب والحكيم والمتعلم، الذي لديه القليل من المال والكثير من وقت الفراغ (وهما تركيبة خطيرة بالنسبة لشخص ذي خيال خصب) يصبح مدمنًا إدمانًا غير عادي لأدب الفروسية. ويقول «سيرڤانتيس» نفسه:

في الوقت الذي لم يكن لدى هذا الرجل ما يفعله ــ وهو ما كانت عليه الحال معظم أوقات السنة ــ كان يغرق في قراءة كتب الفرسان الجوالين، وهي الكتب التي أحبها واستمتع بها حتى أنه نسي صيده نسيانًا تامًا، بل نسي كذلك الاهتمام بضيعته. والواقع أنه أصبح غريبًا وأحمق بشأن هذا الموضوع، حتى أنه باع أفدنة كثيرة من أراضي الذرة ليشتري كتب الفروسية هذه ليقرأها... [وفي النهاية] دفن نفسه في الكتب، لدرجة أنه كان يقضي الليالي في القراءة من الغسق حتى طلوع النهار، والأيام من الفجر حتى حلول الظلام. ونتيجة لقلة النوم وكثرة القراءة، جف مخه وطار عقله.

وكانت نتيجة ذلك أنه قرر أن يتحول إلى فارس جوال، وخرج إلى العالم الواسع، أملاً في أن يقرن اسمه دائمًا بالأعمال النبيلة والشجاعة. ولكن المشكلة هي أن جولات الفرسان كانت تنتمي إلى عصر آخر، واختفت منذ زمن طويل. وفي العالم الحديث الذي لا يرحم، كان سعيه العنيد من أجل الشرف والمجد مفارقة تاريخية تتسم بالغرابة. والصراع بين رؤيته الضخمة والواقع التافه، يمكن أن يؤدي إلى سلسلة من الأحداث المؤسفة المخالفة للعقل؛ فهو في أغلب الأحيان ينتهي به الأمر ضحيةً للمقالب الشريرة المدبَّرة. إلا أنه في النهاية يستيقظ من حلمه ويدرك أن ما كان



يطارده بتلك البطولة العبثية وَهْمٌ يبعث على الضحك والسخرية. وهذا الاكتشاف هو هزيمته الأخيرة. ويموت أدبيًا، محطم القلب.

وموت «دون كيشوت» في الفصل الأخير هو ذروة الكتاب كله. وأنا أتحدى أي قارئ، مهما كانت صلابته وعدم حساسيته، أن يقرأ تلك الصفحات دون أن تدمع عيناه. ومع ذلك فإنه - حتى في تلك المرحلة المهمة - ما زال «سيرڤانتيس» يجري وراء ناجسه القديم، ومرة أخرى يضطر للتسجيل بضع نقاط ضعيفة أخرى على حساب بعض كتب الفروسية المغمورة. وإقحام هذا الهجوم الذي لا طائل من ورائه في تلك اللحظة بالذات، يحدث هبوطًا مفاجئًا. غير أن «سيرڤانتيس» كانت لديه عادة تدمير أحسن آثاره، وهي ممارسة أثارت غضب الكثير من القراء والنقاد (وسوف أعود إلى هذا فيما بعد).

وما أريد توضيحه هنا، هو ببساطة ما يلي: إنه لأمر غريب أن نلاحظ كيف يمكن لتحفة أدبية تحقق لها هذا القدر العالمي من القبول - متعدية كل حواجز اللغة والثقافة والزمن — أن تُبنى بالكامل منذ البداية على هذه المعركة الأدبية المملة الضيقة التي لا هدف لها.

ولكي نفهم غرابة هذا الموقف فهمًا كاملاً، لا بد أن نترجمه إلى مصطلحات حديثة: فالأمر على سبيل المثال يبدو كما لو كان مارسيل بروست قد كتب «البحث عن الزمن الضائع»، وليس في ذهنه سوى هدف واحد، هو فضح زيف القصص التافهة التي كانت تظهر أسبوعيًا في مجلة L'Illustration أو أية مجلة شعبية أخرى في تلك الفترة.

إلا أن هذا بدوره يثير سؤالاً مهمًا، فمنذ فترة قريبة تعرضت لهجوم نقدي في أستراليا لأنني تجرأت على أن أقول في محاضرة أذيعت في أنحاء البلاد أن الأدب الإبداعي يمكن ألا تكون له رسالة، مادام صالحًا من الناحية الفنية. وهذه ليست وجهة نظر جديدة بالمناسبة، ولا بد أن تكون واضحة. وقد عبر هيمنجواي الذي اقتبست كلامه أحسن ما يكون التعبير عن ذلك، حين سأله أحد الصحفيين عن «رسائل» رواياته؛ ففي ذلك الوقت ردّ عليه هيمنجواي ردًا في منتهى العقل قائلاً: «ليست هناك رسائل في رواياتي، وعندما أريد أن أبعث برسالة ما، سأذهب إلى مكتب البريد».

كان رد فعل بعض النقاد المعترضين ما قلته غاضبًا: «ماذا؟! لا رسائل في روائع عالم الأدب؟! وماذا عن «الكوميديا الإلهية» لدانتي؟ وماذا عن «الفردوس المفقود» لملتون؟»، بل كان يمكنهم أن يضيفوا كذلك: «وماذا عن «دون كيشوت» لـ«سيرڤانتيس»؟».

صحيح أن كثيرًا من الشعراء والروائيين يعتقدون أن لديهم رسائل يبلغونها. وفي أغلب الأحيان يؤمنون إيمانًا قويًا بأهمية رسائلهم الخطيرة. إلا أنه كثيرًا جدًا ما تكون هذه الرسائل أقل أهمية مما كان كتابها يفترضون في الأصل. بل إنه في بعض الأحيان يثبت أنها خاطئة بالفعل، أو سخيفة تمامًا. أو حتى بغيضة، وغالبًا ما تصبح بعد فترة قصيرة غير مناسبة. بينما تكتسب الأعمال نفسها حياتها الخاصة، إذا كانت لها قيمة أدبية حقيقية، حيث تكشف عن مغزاها الحقيقي الدائم للأجيال اللاحقة. إلا أن المؤلف نفسه لم يكن واعيًا بهذا المعنى الأكثر عمقًا. إن معظم قراء دانتي الأكثر تحمسًا الآن يهتمون أقل ما يكون الاهتمام بلاهوت القرون الوسطى، وواقع الأمر أنه ليس بين المعجبين المحدثين برواية «دون كيشوت» من سبق له أن قرأ معظم كتب الفروسية التي هاجمها «سيرڤانتيس» ذلك الهجوم الشرس — هذا إن كان قد سمع أسماءها.

والواقع أنه في هذه الفجوة التي بين القصد الواعي للمؤلف (الذي قد يكون أمرًا عارضًا) والمدلول الأكثر عمقًا لعمله، يمكن للناقد أن يجد الأرضية الشرعية التي يمارس فيها عمله. وقد أوضح تشسترتون هذه النقطة توضيحًا جيدًا (في إحدى المقدمات التي كتبها لروايات ديكنز):

«إن وظيفة النقد - إن كان للنقد وظيفة مشروعة - يمكن أن تكون وظيفة واحدة، إنها وظيفة معالجة الجزء الباطن من عقل المؤلف الذي يمكن للناقد فقط التعبير عنه. وليس معالجة ذلك الجزء الواعي من عقل المؤلف، الذي يمكن للمؤلف نفسه التعبير عنه. والنقد، إما أن يكون بلا أية فائدة بالمرة (وهو موقف يمكن الدفاع عنه دفاعًا قويًا) أو أن يعني النقد أن نقول عن أي مؤلف الأشياء نفسها التي قد تجعله يفتر».

وكلما اقترب أي كتاب من كونه عملاً فنيًا أصيلاً، وإبداعًا حقيقيًا يحيا بحياته هو - كان احتمال أن تكون للكاتب السيطرة الكاملة والفهم الواضح لما كتبه أقل. ولخص هذه النقطة د.هـ. لورانس، الذي كان ناقدًا ثاقبًا بشكل غير عادي، في عبارة استشهدت بها مرات عديدة، وهي عبارة لا يمل المرء من الاستشهاد بها: «لا تثق في الفنان أبدًا. ثق في الحكاية؛ فوظيفة الناقد الحقيقية هي إنقاذ الحكاية من الفنان الذي أبدعها».

إن هذا الحث على «إنقاذ الحكاية من الفنان الذي أبدعها» قد ثبتت قوته بشكل خاص فيما يتعلق بنقاد «دون كيشوت». فالواقع أن بعض هؤلاء النقاد قد أصبح لهم موقف شديد الغرابة، فالأمر يبدو وكأنه كلما ازداد حبهم لـ«دون كيشوت»، كان استياؤهم من «سيرڤانتيس» أشد. قد تبدو هذه المفارقة بعيدة الاحتمال، إلا أن فيها شيئًا من المنطق.

وفي القرن الماضي عندما كانت الفرق المسرحية تجول الريف، حيث تعرض مسرحيات ميلودرامية للمشاهدين القرويين البسطاء، كان لا بد من حماية الممثل الذي يقوم بدور الشرير في المسرحية بعد العرض، حيث كان «البلطجية» المحليون ينتظرونه ليضربوه؛ عقابًا له على الأعمال الشريرة التي ارتكبها للتو بطريقة مقنعة على خشبة المسرح. وبالمثل، فإن «دون كيشوت» أصبح حيًا وحقيقيًا بشكل مكثف بالنسبة لهم، حتى أن بعض القراء لا يمكن لهم أن يغفروا لسيرڤانتيس تعريضه بطلهم لمثل هذه المعاملة القاسية والوحشية.

ومرة أخرى يمكننا أن نجد مثالاً آخر للظاهرة نفسها في رواية مثيرة معاصرة تتمتع بشعبية، وهذه الرواية هي «البؤس» لستيفن كنج (وأنا لم أقرأ الكتاب، ولكني شاهدت الفيلم، وهو رائع إلى حدّ كبير)، وفيها تحتجز إحدى المعجبات كاتبًا، مؤلفاته من الكتب الأكثر مبيعًا، فهذه القارئة - التي تعاني من اضطراب نفسي - غضبت بسبب موت بطلتها المفضلة في الرواية، فراحت تعذب المؤلف الذي لا حول له ولا قوة، وتجبره على إعادة كتابة نهاية روايته.

ونقاد «سيرڤانتيس» المحدثون الأربعة الذين أتمنى أن أستعرض وجهات نظرهم استعراضًا موجزًا، يحتلون مكانًا بين أفضل العقول الأدبية في عصرنا. ولذلك فإنهم - بكل تأكيد - لا ينبغي أن يشبهوا كثيرًا تلك المهووسة التي في قصة «كنج»، أو أسذج الريفيين الذين كانوا يضربون شريري المسرح عند الباب الخلفي. ومع ذلك، فإنه - كما سنرى - يشهد تعقد القارئة وسذاجة المشاهدين القرويين على القوة المؤثرة للسحر نفسه؛ أي واقع الفن الروائي.

أول النقاد الذي ينبغي أن أبدأ بدراسته، هو ڤلاديمير نابكوف. فقد ألقى نابكوف ست محاضرات عن «دون كيشوت» عندما كان محاضرًا زائرًا في جامعة هارڤارد في أوائل الخمسينيات. وبينما كان يعد لسلسلة محاضراته اعتمد في أول الأمر على ما اختزنه في الذاكرة من الرواية التي استمتع بها في شبابه. إلا أنه سرعان ما شعر بضرورة العودة إلى النص، غير أنه في هذه المرة أفزعته فظاظة رواية «سيرڤانتيس» ووحشيتها. وجاء على لسان كاتب سيرة حياته براين بويد أنه «كان يكره تلك القهقهة التي كان سيرڤانتيس يريدها أن تصدر من قرائه بسبب إحباط بطله، وقد قارن مرات عديدة مرح الكتاب الشرير بإذلال المسيح وصلبه، وبمحاكم التفتيش الأسبانية، وبمصارعة الثيران الحديثة».

لقد استمتع استمتاعًا كبيرًا بالهجوم على «دون كيشوت» أمام جمع ضخم من الطلاب. لدرجة أنه أغضب عددًا من الزملاء في الكلية آخر الأمر. وهنا تم تحذيره بأن: «هارڤارد تفكر بشكل آخر». وعندما تقدم بعد عدة سنوات بطلب لأن يكون له كرسي أستاذية في هارڤارد، رُفض ترشيحه، مما يعد ضربة قاسية بالنسبة له. وربما كانت هناك عوامل أخرى أكثر أهمية، إلا أن محاضراته عن «دون كيشوت» قد يكون لها دور في فشل محاولته تلك.



ڤان دورين:
لم يتوهم «دون كيشوت» أنه فارس جوال، بل قرر أن يصبح فارسًا جوالاً. إن ما قام به كان نتيجة تفكير متروٍ واختيار متعمد

وكان نابكوف يجد على الدوام متعة خاصة في تحدي الآراء التي يؤمن بها الآخرون. وفيما يتعلق بـ«دون كيشوت»، فإن فهمه لما هو غير تقليدي ساعده على صياغة ملاحظة مهمة وأصيلة واحدة على الأقل: فعلى العكس مما يعتقده معظم القراء، فإن رواية «دون كيشوت» ليست مكونة من سلسلة رتيبة من الكوارث. وبعد مراجعة دقيقة، حلقة حلقة، استطاع نابكوف أن يبين أن قضية كل مغامرة كان أمرًا غير متوقع بالفعل، بل إنه حصر سجل «دون كيشوت» من الانتصارات والهزائم كما يحدث في مباريات التنس، حيث ظلت زاخرة بالإثارة والترقب حتى النهاية: ٦-٣، ٣-٦، ٦-٤، ٥-٧. إلا أن المجموعة الخامسة لن تلعب أبدًا. لقد ألغى الموت المباراة».

إن كراهيته لمعاملة «سيرڤانتيس» العدائية لـ«دون كيشوت» بلغت نقطة جعلته يستبعد الكتاب في آخر الأمر عن محاضراته المنتظمة عن الأدب الأجنبي في كورنيل، فهو لم يحتمل الانكباب على الموضوع أكثر مما فعل. إلا أن النتيجة الطبيعية لعدائه الشديد نحو الكاتب كانت إعجابًا شديدًا بما أبدعه. وهو ما عبر عنه في كلمة ثناء مؤثرة:

«لقد سافر [دون كيشوت] على ظهر جواده طوال ثلاثمائة وخمسين سنة في غابات الفكر الإنساني وسهوله، وقد اكتسب الحيوية والمنزلة الرفيعة. إننا لم نعد نسخر منه. إن شعاره هو الشفقة، ورايته الجمال. وهو يمثل كل ما هو رقيق وبائس ونقي وغير أناني وشهم».

أما الناقد الثاني الذي أود أن أستشهد به هنا، فهو أونري دي مونترلان. وكان مونترلان، وهو واحد من أبرز الروائيين الفرنسيين في هذا القرن (كما أنه كاتب مسرحي وصحفي مهم)، شديد الاهتمام والتأثر بالثقافة الإسبانية. فقد أمضى معظم وقته في أسبانيا (بل إنه في واقع الأمر تعلم مصارعة الثيران ومارسها)، ومكنته معرفته الكبيرة بالإسبانية من قراءة «دون كيشوت» في نصها الأصلي.

لقد أعاد قراءة الكتاب أربع مرات في حياته، كما أنه كان يشعر بغضب متزايد من معاملة «سيرڤانتيس» القاسية لشخصيته الرفيعة. وهو بالإضافة إلى ذلك كان يشعر بأن الكتاب أطول مما ينبغي، وأنه تضمن الكثير جدًا من المقالب القاسية التي لا معنى لها. غير أن هذا الرفض يمكن أن يرتد على نفسه: أليس هذا على وجه التحديد تعريفًا تامًا للحياة نفسها؟ دعونا نفكر في هذا الأمر. قصته تطول أكثر مما ينبغي، وتزخر بالمقالب القاسية التي لا معنى لها... ولاحظوا أن أسوأ الاتهامات التي يمكن توجيهها لـ«سيرڤانتيس» تتجه في نهاية الأمر دومًا إلى قدرة كتابته الفريدة والمزعجة على استحضار الواقع.

وأخيرًا، فإن أكثر ما أزعج مونترلان، وما لم يمكنه أن يغفره لسيرڤانتيس - هو أنه في الكتاب كله لا يعبر المؤلف بكلمة واحدة عن تعاطفه مع بطله، أو بكلمة واحدة عن لوم للفتوات الأقحاح الذين يسخرون منه ويضطهدونه بلا رحمة. ورد الفعل هذا - وهو شديد الشبه برد فعل نابكوف - يعكس مرة أخرى إحدى المفارقات المألوفة لنا الآن. فما يغضب النقاد من سيرڤانتيس هو على وجه التحديد القوة الأساسية التي يتميز بها فنه، إنها سر تشابهه مع الحياة. وقال فلوبير (الذي كان يعبد «دون كيشوت» بالمناسبة): إن الكاتب العظيم ينبغي أن يقف في روايته كما يقف الإله في خلقه. لقد أبدع كل شيء، لكن أحدًا لا يراه في أي مكان ولا يسمعه في أي مكان. إنه في كل مكان، ومع ذلك لا يراه أحد ولا يسمعه، ويبدو غائبًا وغير مكترث بشيء. إننا نسبه بسبب صمته وعدم اكتراثه. وهما ما نتخذهما دليلاً على قسوته.

ولكن إذا كان على المؤلف أن يتدخل في رواياته - أي أنه بدلاً من ترك الحقائق والأفعال تتحدث عن نفسها، يصبح عليه أن يتحدث بصوته هو - فإن السحر سوف يزول في الحال، وسوف يكون هناك ما يذكرنا فجأة بأن هذه ليست الحياة، وأنها ليست الواقع، أي أنها مجرد حكاية. وعندما نلوم «سيرڤانتيس» على عدم تعاطفه وعدم اكتراثه وقسوته، وعلى وحشية مقالبه، فإننا ننسى أننا كلما كرهنا المؤلف كان اعتقادنا في واقع عالمه ومخلوقاته أكثر.

هذا الواقع المطلق الخاص بـ«دون كيشوت»، قانون إيمان بالنسبة لأقوى معلقيه المعاصرين وأكثرهم أصالة، وهو ناقدي الثالث: ميجيل أونامونو. وكان أونامونو (١٨٦٤-١٩٣٦) عبقريًا متعدد الأوجه، فكان باحثًا وفيلسوفًا وروائيًا وكاتب مقالات وشاعرًا، كما كان باسكيًا وإسبانيًا وأوروبيًا وإنسانيًا عالميًا. وقد كتب كتابًا بعنوان «حياة دون كيشوت وسانشوبانزا»، علق فيه على رواية «سيرڤانتيس» بالكامل، فصلاً فصلاً. وتتميز إعادة صياغته لما كتبه «سيرڤانتيس» بالخيال والمفارقة والعمق. وهي على قدر كبير من المرح كذلك.

ومقولته التي ظل متمسكًا بها على امتداد ما يزيد على أربعمائة صفحة، هي أنه ينبغي إنقاذ «دون كيشوت» فورًا من يد «سيرڤانتيس» الرعناء. إن «دون كيشوت» هو مرشدنا، فهو ملهم، وهو مهيب، وهو صادق. أما فيما يتعلق بـ«سيرڤانتيس» فهو مجرد خيال، فهو لا يكاد يكون له وجود لو حرم من دعم «دون كيشوت»، وهو عندما تهبط به إلى قدراته الأخلاقية والفكرية الضئيلة - تجده عاجزًا عن إنتاج أي عمل له أهمية. فكيف يتأتى له أن يقدر عبقرية بطله؟!

لقد نظر إلى «دون كيشوت» من وجهة نظر العالم؛ لقد وقف في صف العدو. وهكذا فإن المهمة التي ألزم بها أونامونو نفسه، هي أن يعيد الأمور إلى نصابها، أي أن يثبت أخيرًا مشروعية رؤية «دون كيشوت» في مواجهة الحكمة الزائفة الخاصة بالدهاة المهرة، وسوقية «البلطجية»، وضيق أفق المهرجين، وفي مواجهة الفهم المبهم لـ«سيرڤانتيس».

ولكي يقدر المرء مقالة أونامونو حق قدرها، يجب عليه أن يضعها في سياق حياته الروحية، التي كانت عاطفية ومأساوية. فقد كان أونامونو كاثوليكيًا. ظلت مشكلة الإيمان بالنسبة له طوال حياته هي القضية الأساسية، فألا يؤمن أمرٌ لا يمكن تصوره، أمّا أن يؤمن فأمر مستحيل. وقد عبر عن هذا التناقض الدرامي في واحدة من قصائده:

... إني أعاني بسببك،
أيها الرب الذي لا وجود له، فلو كنت موجودًا
لكنت أنا كذلك موجودًا

بعبارة أخرى، الرب لا وجود له. وأوضح دليل على ذلك أنني كذلك غير موجود، كما ترون جميعًا.

وهكذا، فإن كل عبارة كفر تتحول مع أونامونو إلى اعتراف ينطوي على المفارقة. فالإيمان في فلسفة أونامونو يخلق في آخر الأمر الشيء الذي يتأمله، ليس كإيحاء ذاتي زائل، وإنما كواقع موضوعي لا يزول يمكن نقله للآخرين.

وأخيرًا فإن سانشو بانزاس - وكل من هم على شاكلة سانشو بانزاس في هذا العالم - هو من سوف يشهد على هذا الواقع. إن سانشو الواقعي، الذي سار وراء «دون كيشوت» هذه المدة الطويلة، بالشك، وبالتشوش، وبالخوف - قد اتبعه كذلك بالإخلاص. فلم يكن سانشو يؤمن بما كان سيده يؤمن به، غير أنه كان مؤمنًا بسيده. كان ما يحركه في أول الأمر هو الطمع، ولكن الحب كان ما يحركه في آخره. وحتى في أسوأ المحن ظل يتبعه: لأنه أصبح يحب الفكرة. وعندما كان «دون كيشوت» يحتضر، وقد شفي من وهمه الكبير، وتجرد أخيرًا من حلمه - وجد سانشو أنه ورث إيمان سيده: لقد انتقل إليه انتقال المرض للإنسان، من خلال عدوى الإخلاص والحب.

ولأن «دون كيشوت» غيّر حال سانشو، فهو لن يموت.

وهكذا فإن أونامونو يقرأ في جنون «دون كيشوت» وصفًا كاملاً لقوة الإيمان وحكمته. لقد جرى «دون كيشوت» وراء الشهرة الخالدة والمجد الذي لا يزول. ولكي يحقق هذا الغرض اختار أن يتبع ما قد يبدو لمعظم الناس عبثًا وسبيلاً غير عملي. إذ اتبع أسلوب الفارس الجوال في عالم اختفت فيه الفروسية منذ زمن بعيد. ولذلك سخر أولو الألباب المهرة جميعًا من حماقته، إلا أن في ذلك القتال الطويل، الذي أثار الفارس الوحيد وتابعه المخلص ضد العالم، أي طرف هو الذي اكتنفه الوهم في آخر الأمر؟

إن العالم الذي سخر منهما تحول إلى تراب، بينما عاش «دون كيشوت» وسانشو إلى الأبد.

إن إثبات حكمة «دون كيشوت» في آخر الأمر هو النقطة التي كشف عنها ناقدي الآخر بطريقة مقنعة، وأعني به مارك ڤان دورين في مقالته «مهنة دون كيشوت». ومما يؤسف له أن هذه المقالة نفدت، وهي تستحق إعادة الاكتشاف على الفور من جانب كل محبي الأدب.

ويصف ڤان دورين «دون كيشوت» وصفًا مناسبًا بقوله إنها كتاب «البساطة الغامضة»، «فأمارة بساطتها أنه يمكن تلخيصها في بضع جمل، وأما أمارة غموضها فهي أنه يمكن الحديث عنها إلى الأبد. وواقع الأمر أن الناس تحدثوا عنها كما لم يتحدثوا من قبل عن أية قصة أخرى. ذلك أن شيئًا غريبًا يحدث لقرائها، فهم لا يقرأون الكتاب نفسه.. ولم تكن هناك قط تلك الكثرة من النظريات عن أي شيء بمثل ما كانت عن «دون كيشوت». ومع ذلك فقد بقيت بعدها جميعًا، شأن ما يجب أن تفعله أية تحفة، إذا قدر لها أن تعيش».

وتبدأ المقالة بفقرة تستحق أن نوردها هنا بالكامل، فهي تعد نموذجًا مميزًا لڤان دورين، بما لها من إشراق:

في يوم من الأيام اخترع رجل في الخمسين من عمره، لا عمل له، مهنة لنفسه. وكان المحيطون به من أهل بيته وبني قريته يرون أن مثل هذه الخطوة اليائسة لا ضرورة لها، فقد كانت له ضيعة، وكان محبًا للصيد؛ فقالوا إنهما يكفيانه كمهنة، وإن عليه أن يرضى بالروتين المتسم بالهدوء الذي تفرضه عليه.

غير أن الرجل لم يكن راضيًا. وعندما رحل رغبة في أن يعيش حياة مختلفة اختلافًا تامًا، ظن الجميع - في بلده أولاً ثم خارجه - أنه إما غريب الأطوار أو مجنون. وقد رحل ثلاث مرات، وعاد مرة برغبته، غير أنه في المرتين الثانية والثالثة أعاده أشخاص من القرية كانوا قد خرجوا وراءه لهذا الغرض.

وفي كل مرة يعود وقد أخذ منه التعب كل مأخذ؛ لأن المهنة التي أحبها كانت مجهدة وشاقة. وبعد عودته الثالثة مباشرة رقد في الفراش، وكتب وصيته، واعترف بخطاياه، وأقر بأن المشروع برمته كان خطأ.. ومات.

المقولة الأساسية في مقال ڤان دورين (بغض النظر عما قد يظنه «سيرڤانتيس» نفسه بخصوص هذا الموضوع) هي أن «دون كيشوت» لم يكن مجنونًا، لقد خدع فقط عندما حاول تقييم مدى تقدم مشروعه. وهنا، كان هناك دور قاتل للخدع التي راح ضحية لها، فقد

قدمت له تأكيدًا زائفًا على أن تحقيقها ممكن، كما أكدت أمله الخاطئ في أنه سوف ينجح في آخر المطاف. وهكذا فإن هذه الخدع أطالت عمله إطالة مصطنعة. ومع ذلك فإنه كان بإمكانه أن يتخلى عن مسعاه ويعود أدراجه، لولا أن بدا النجاح في متناوله. وكل ما في الأمر هو أن الوهم الذي قام على الخدع شجعه على المضي قدمًا. إلا أنه ظل حرًا على الدوام في أن يقرر الاستمرار أو الكف عما يقوم به. وأي رجل مجنون ليس أمامه هذا الاختيار.. إنه أسير جنونه! فعندما يصبح الأمر غير محتمل، لا يمكنه الإفلات منه ويعود أدراجه بكل بساطة كي يستأنف حياته السابقة.

وهذه المهنة التي يختارها «دون كيشوت» لنفسه هي مهنة الفارس الجوال. وهو لا يتوهم أنه فارس جوال. لا، بل يقرر أن يصبح فارسًا جوالاً. إنه لا يتوهم نفسه شخصًا آخر، كما يفعل الأطفال في ألعابهم. وهو لا يتظاهر بأنه إنسان آخر، شأن أي محتال، أو تقمص شخصية ما، مثلما يفعل الممثل على خشبة المسرح. إنه يتخذ مهنة الفارس بعد تفكير متروٍ، فهذا نتيجة اختيار متعمد. لقد قرر بعد دراسة الخيارات الأخرى أن عمل الفارس الجوال سيكون الأكثر مردودًا من الناحيتين الفكرية والأخلاقية.

ولكن، كيف يصبح المرء فارسًا؟

هذا هو السؤال الذي يطرحه فان دورين.

إنه بالقيام بما يقوم به أي فارس — وهو أمر مختلف جدًا عن التظاهر، أو الاحتيال — وأن يتصرف المرء بالطريقة التي يتصرف بها «دون كيشوت»، أمر يزيد على التقليد. فالتقليد بالطريقة التي يقلد هو بها تلمذة عميقة، فهي الطريقة الصحيحة للتعلم، والمدخل إلى الفهم. ويتساءل فان دورين قائلاً: «ما الفرق بين القيام بما يقوم به أي رجل عظيم، وكون المرء رجلاً عظيمًا؟ أن تقوم بما يقوم به أي شاعر (يعني كتابة القصائد) وأن تقوم بما يقوم به أي سياسي (يعني إعمال الفكر في الخير والعدل) وأن تقوم بما يقوم به أي طالب (يعني الدراسة)، وأن تقوم بما يقوم به أي فارس (يعني التفكير والشعور كما يفكر أي فارس ويشعر)؟».

ولو كان «دون كيشوت» مجنونًا واضح الجنون، أو لو كان قد انغمس في لعبة مطولة من خداع الذات والتخيل — لما كنا نتحدث عنه الآن. ويلاحظ فان دورين «أننا نتحدث عنه؛ لأننا نشك أنه أصبح بالفعل فارسًا في النهاية».

«الإنسان مخلوق يصنع صورًا لنفسه، وبعد ذلك يصبح شبيهًا للصورة».

قدمت أيريس مردوخ هذه الملاحظة في سياق مختلف. إلا أنها تعرف منحًا محددًا للطبيعة البشرية تعريفًا دقيقًا. وإن أوضح مثال لها هو «دون كيشوت» الذي وفر لرواية «سيرفانتيس» عالميتها.

وعلى عكس «دون كيشوت» فإن معظمنا لا تتاح لهم فرصة اختيار وتقرير الشخصيات التي ينبغي أن نصبح عليها. فظروف الحياة هي التي توزع الأدوار؛ إذ إن أدوارنا مفروضة علينا. وآخرون يملون علينا ما نقوله، ويلقنوننا في أثناء التمثيل. وقد جاء توضيح ذلك في واحد من آخر أفلام روسيليني. وهو «الجنرال ديلا روفير» (١٩٥٩). ففي هذا الفيلم يلقي الجستابو القبض على أحد المحتالين في إيطاليا في نهاية الحرب العالمية الثانية. ويجبرونه على انتحال شخصية أحد رجال المقاومة البارزين، وهو الجنرال ديلا روفيري، لكي يمكنهم انتزاع المعلومات من السجناء السياسيين. إلا أن المحتال يؤدي دوره بشكل مقنع يجعل السجناء الآخرين يعبدونه كأنه قائدهم الروحي. وهكذا يضطر شيئًا فشيئًا إلى أن يعيش أعلى بما هو عليه. وأن يحاكي الصورة التي خلقتها آمالهم. وفي النهاية يرفض أن يخون ثقتهم فيه، وبعد ذلك يوضع أمام فرقة الإعدام ويموت ميتة الأبطال. لقد أصبح بالفعل الجنرال ديلا روفيري.

أما بالنسبة لنا، فنادرًا ما تقدم لنا الحياة مثل هذا السيناريو الدرامي. فعادة ما تكون الأدوار التي علينا القيام بها أكثر تواضعًا وابتذالاً. وهو ما لا يعني أنها أقل بطولة؛ فنحن أيضًا لدينا رفاق الأسر بآمالهم الكثيرة جدًا، التي يمكن أن تجبرنا على القيام بأدوار تزيد كثيرًا عن قدراتنا الطبيعية. فآباؤنا يتوقعون منا أن نكون أبناء وبنات، وأطفالنا يتوقعون منا أن نكون آباء وأمهات، وشركاء حياتنا يتوقعون منا أن نكون أزواجًا وزوجات. وأي من هذه الأدوار ليس تافهًا أو سهلاً. إنها جميعًا محفوفة بالمخاطر والتحديات، وبالمحن والكروب والإذلال، وبالهزائم والانتصارات.

وعن التساؤل الأساسي للإنسان، وهو، لماذا لا يتحدث الرب إلينا جهارة، ويجيب علينا مباشرة بصوت واضح؟ ولماذا لا يسمح لنا برؤية وجهه؟

يجيب سي إس ليويس عن ذلك إجابة رائعة: كيف يقابلنا الرب وجهًا لوجه وليست لنا وجوه؟

إننا عندما نظهر على مسرح الحياة لأول مرة، يبدو الأمر وكأننا أعطينا فقط أقنعة تتناسب مع أدوارنا. وإذا أتقنا تمثيل أدوارنا تتحول الأقنعة في النهاية إلى وجوهنا الحقيقية. وبذلك يصبح «دون كيشوت» فارسًا ويصبح محتال روسيليني الجنرال ديلا روفيري، ويمكن لكلٍّ منا أن يصبح في النهاية مَن كان مقصودًا أن يكونه في الأصل.

إن كلمة «كيشوتي» — كما أوضحت في البداية — قد دخلت اللغة الدارجة بحيث يكون معناها «سخيف ومثالي أكثر من اللازم» و«غير عملي بطريقة مضحكة» و«مكتوب عليه الفشل».

واستخدام هذه الصفة الآن بالمعنى الازدرائي المسرف لا يدل فقط على أننا توقفنا عن قراءة «سيرفانتيس» وفهم شخصيته، ولكنه يكشف أساسًا عن أن ثقافتنا قد ابتعدت عن جذورها الروحية.

لا تخطئ! إن رائعة «سيرفانتيس» رغم كل دعابتها، ونكاتها الساخرة، وواقعيتها الفاسقة والداعرة — ترتكز على المسيحية، وبتحديد أكثر على الكاثوليكية الإسبانية باتجاهها الصوفي. وفي هذا الخصوص، أشار أونامونو إلى أن يوحنا الصليبي، وتيريزا الأفيلية، وإجناتيوس الليولي، لم يرفضوا العقلانية، ولم يرتابوا في المعرفة العلمية، فما دفعهم إلى تصوفهم وروحانيتهم هو إدراكهم أن هناك «تفاوتًا لا يمكن تجاهله بين ضخامة رغبتهم وضآلة الواقع».

وفي مسعى «دون كيشوت» من أجل الشهرة الخالدة عانى من الهزائم المتكررة. ولأنه رفض بعناد أن يوفق بين «ضخامة رغبته» و«ضآلة الواقع» قُضي عليه بالفشل الأبدي.

إن ما يجب علينا أن نتذكره — على أية حال — هو ما يلي (إذا جاز لي إعادة صياغة ما قاله برنارد شو): الرجل الناجح يكيف نفسه مع العالم. أما الخاسر، فيصر على تكييف العالم مع نفسه. ولذلك فإن كل التقدم يتوقف على الخاسر.

ترجمة: أحمد محمود



ـــن وحــــى تجـــــربتى

السجن شجع التشتت والتشرذم والانقسام فى صفوف الشيوعيين. وكان النشطاء (الكوادر) يعودون إلى القادة «التاريخيين» الذين ألفوا فى الأصل فصائل الحركة، ويتجمعون حولهم فى صورة شلل متنافرة. وكان كل فريق ينسب إلى نفسه صفة «الثورية»، ويعتبر نفسه «التيار الثورى»، ويتهم الفرق الأخرى بـ «الانتهازية»، والخروج على «الماركسية - اللينينية»

قيل إن أنور السادات، عندما ذهب لموسكو ليدعو - نيابة عن عبد الناصر - الزعيم السوفيتى ليشارك فى حفل افتتاح السد العالى، فوجئ بقول خروتشوف مازحا: «أنا أخاف أروح مصر، لأنكم هناك تعتقلون الشيوعيين». وفهم من هذه العبارة أن خروتشوف كان يشترط بلباقة الإفراج عن الشيوعيين قبل تلبية الدعوة. وكان الإفراج على هذا النحو المفاجئ وغير المرسوم، وقبل انتهاء مدة العقوبة المقررة، مسألة هى الأخرى بحاجة إلى تفسير

لا أكثر من تأليف كتب. وجل جهدى موجه لكتابة مقالات. ولا أحرص على جمعها. وهذا عيب، ذلك أننى أستطيع - بجمعها - أن أكتشف أبعادا لفكرى لا تتضح إلا من خلال عملية تركيبية. ولا بد من يوم أخصص فيه وقتا للقيام بمثل هذا الجهد التركيبى، يكون فى صورة كتب لكل منها مقدمة، وظيفتها تقديم الصورة المركبة، بدلا من عناصر الموضوع الواحد فى صورة مقالات متناثرة، كتبت فى أوقات مختلفة، وبمناسبة أحداث لا يربطها رابط مباشر.

ولكن شاءت الظروف أن أؤلف عددا محدودا من الكتب، فرضت نفسها علىّ فرضا فى ظروف معينة. وأزعم أن كل كتاب منها حمل فى طياته معانى شكلت نقاط تحول هامة فى حياتى. عبرت، فى كل مرة، عن فكر هو بسبيله إلى التكون. وفجأة أجده قد تبلور، وشعرت بحاجة جامحة إلى طرحه كتابة. وقد كان.

مؤلف لم ير النور

أول هذه المؤلفات - التى اعتبرتها «مهمة» - لم ير النور. تناول المؤلف انطباعاتى عن تجاربى فى الحركة الشيوعية. كتبته وأعدت كتابته مرات عدة وأنا فى السجن. ولكن عمليات التفتيش الدورية من قبل إدارة السجن أجبرتنى مرارا على إعدام الأصل. وكان علىّ فى كل مرة أن أبدأ من جديد. وكنت أنسخ المخطوط بقلم الكوبيا على ورق «بفرة»، وهو ورق خفيف للغاية مصنوع لف السجائر. وكنا فى السجن نلجأ إلى ورق «البفرة» فى الكتابة حتى يكون بوسعنا إخفاء المخطوط وحمايته من حملات التفتيش. ومع ذلك، وبسبب كثافة هذه الحملات، وجدت نفسى أعدم بيدى ما كتبته عدة مرات متتالية. وكل مرة وأنا أعيد الكتابة، زاد المخطوط تضخما، لإضافتى مزيدا من المادة إليه.

وقد نجحت ذات مرة فى تهريب المخطوط إلى خارج السجن. كان فى صورة اسطوانة من ورق البفرة طولها ٦ سنتيمترات وقطرها ٢,٥سم. واستعدت الوثيقة بعد إطلاق سراحى، ولكنها شوهت خلال عملية التهريب، وغابت عنها أجزاء. وكادت تكون مستحيلة القراءة، وحاولت فى وقت لاحق أن أعيد نسخها بطريقة طبيعية. ولكن الأصل ضاع، لا أعلم على وجه التحديد كيف. وقد أعثر عليه فى يوم ما. ولكن حتى هذا اليوم، فإن المؤلف فى عداد المفقود.

وأذكر أننى انتهجت نهج الفيلسوف سبينوزا فى طريقة الكتابة. لم أكن أعرف الكثير عن هذا المفكر الكبير وقتذاك، ولكن علمت أنه من الممكن معالجة أطروحة، وكأنها نظريات رياضية تتسلسل وتتداعى، وتنطلق من افتراضات لتنتهى إلى نتائج، أو إلى تناقضات. وبثبت - فى الحالة الثانية - عدم صواب الافتراض الأصلى. وهكذا حددت لنفسى معيارا لتمييز الصواب عن الخطأ.

هذا فعل سبينوزا. وهكذا فعلت وأنا أبحث عن أسباب الفشل التى أصابت الحركة الشيوعية المصرية، وانتهت بنجاح الدولة فى إحالة نشطاء الحزب (جلهم إن لم يكن كلهم) إلى السجن، فى يوم واحد، يوم أول يناير ١٩٥٩. كان المخطوط - ربما - تعبيرا عن حاجة طاغية فى أن أفسر لنفسى لماذا انتهى بى الأمر إلى حبس كان من المقرر أن يدوم سبع سنوات، ولكن كان واردا أن يستمر إلى غير أجل. فكان المحكوم عليهم الذين تنتهى مدة حبسهم لا يفرج عنهم، وإنما يعودون إلى السجن بوصفهم «معتقلين»!

وكان لمؤلفى هذا جانب خرج تماما عن المألوف. فإن السجن قد شجع التشتت والتشرذم والانقسام فى صفوف الشيوعيين. وكان النشطاء (الكوادر) يعودون إلى القادة «التاريخيين» الذين ألفوا فى الأصل فصائل الحركة. ويتجمعون حولهم فى صورة شلل متنافرة. وكان كل فريق ينسب إلى نفسه صفة «الثورية»، ويعتبر نفسه «التيار الثورى»، ويتهم الفرق الأخرى بـ «الانتهازية»، والخروج على «الماركسية - اللينينية». ومثل هذا النهج كان لا بد أن يفضى إلى مزيد من التفتت والتشرذم والانقسام، ذلك أنه كان واردا خروج عناصر على مجموعة معينة وتشكيل مجموعة جديدة، وبمجرد خروجها، سوف تدمغها مجموعتها الأصلية بالانتهازية. فإن الانقسام يولد المزيد من الانقسام، ولا خروج من الدائرة المفرغة.

وقد تعمدت أن انتهج فى مؤلفى نهجا ينطلق من نقيض التفرق والانقسام، من افتراض أن «الحركة الشيوعية» كل لا يتجزأ، ورفضت أن يكون مرجعى فريقا محددا، مهما كان قربى شخصيا إلى أقطابه، أو إيمانى بصحة خط هذا الفريق. كان المرجع فى منهجى هو «الحركة ككل»، بكل أوجه قصورها. وهكذا رفضت الانطلاق من «الخاص» إلى «العام»، حتى مع إيمانى بوجود اتجاهات تمثل «خاصا ثوريا» فى وجه «عام انتهازى». انطلقت من افتراض أن الرفاق جميعا ينتمون إلى الحركة، وأن نقطة البداية فى الحكم عليهم، هى ما يزعمونه عن أنفسهم، وليس ما يقوله خصومهم (أو حتى أنصارهم) عنهم. وقد فوجئت بأن هذه الرؤية مرفوضة من الجميع، حتى من أقرب المقربين إلىّ. وكان هذا لى اكتشافا خطيرا.

إذ كان معنى ذلك أن «الذات»، فى نظر كل «ذات»، تعلو «الموضوع»، وأن الرؤية التى تنطلق من «موقع ذاتى ما» هى المتحكمة. وأن لا إيمان قط «بحقيقة موضوعية» تسمو فوق كل «ذات» على حدة. وإنما كل «ذات» هى التى تلوّن كيفية النظر إلى «الموضوع». وهذا بطبيعة الحال يتعارض تمام التعارض مع الفلسفة الماركسية، القائلة بأولوية «الواقع الموضوعى» على «التصور الذاتى» عنه.

ففى الفترة التى سبقت السجن، وفى ٩ يناير عام ١٩٥٨ تحديدا، كانت المنظمات الشيوعية المصرية قد توحدت، على نحو غير مسبوق فى تاريخ الحركة من قبل. ولكن رغم توحدها، ورغم اندماجها فى قوام تنظيمى واحد وإعلان خضوعها لمبدأ «المركزية الديمقراطية»، ظلت الحركة تتسم بطابع «فدرالى»، بمعنى أن القيادات للفرق التاريخية استمرت تعقد اجتماعات خاصة لها، وتتخذ قرارات لتتحرك وكأنها هى «كتلة» - أو «تكتل»: هكذا سميت هذه الفرق الخاصة التى لم تتنازل حقيقة عن كيانها الذاتى - وكان معنى ذلك ازدواجية التنظيم، بل كيلا للأمور بمكيالين. فثمة تنظيم مشترك يجمع كل المنظمات، وثمة تنظيم آخر، غير شرعى فى نظر التنظيم الأول، يشكل تنظيما سريا داخل الحركة السرية! وفيه يكون الهيكل التقليدى لكل تيار تاريخى (له وجوده الأسبق على الوحدة) هو المحك، وهو المرجع. وكان ذلك تعبيرا عن أن الوحدة بين المنظمات لم تكن كاملة ولا خالصة، وإنما كان هناك ما يلزم بوجود الوحدة فى ظرف ظل للتكتلية «والشللية» فيه. وعموما للتجمع حسب الأصول التاريخية للرفاق، قوام ووجود طاغ وملح.

جاز إذن التساؤل: لماذا كانت وحدة المنظمات لا بد منها؟ والحقيقة أن الفضل فى إنجاز الوحدة رجع إلى عبد الناصر قبل أن يعود إلى قادة المنظمات الشيوعية! كان عبد الناصر قد أصبح يتخذ خطوات قدرت بأنها ثورية وتجاوزت أكثر التقديرات تفاؤلا، بعد أن وصفته بعض المنظمات بـ «الدكتاتورية العسكرية»، و«الفاشية»، وغير ذلك من النعوت. وكانت المنظمات جميعا قد قررت التقارب منه، وإقامة «جبهة وطنية» معه. فكيف تتم إقامة مثل هذه الوحدة مع زعيم يمثل البورجوازية، بينما يظل التفرق هو الذى يميز العلاقات بين ممثلى الطبقة العاملة؟ إن التطلع إلى وحدة مع عبد الناصر، هو الذى ألزم المنظمات بأن تقدم على وحدة فيما بينها!

وأذكر وأنا فى السجن أننى أصبحت أتساءل عن معنى هذه الازدواجية. أى أن نتعامل فى تنظيم رسمى وكأنما نحن كل لا يتجزأ، ونخضع لقواعد المركزية الديمقراطية. ثم نجتمع فى اجتماعات «تكتلية» جانبية، سرية على تنظيمنا السرى! كيف نتحدث عن الثورية وقد أعوزتنا الاستقامة والسلوك القويم المتسق؟ وهل الهزيمة التى ألمت بنا جميعا هى بسبب افتقارنا إلى الاستقامة والاتساق؟ وأخذت أكتب هذا، وأحاول إعمال المنطق لإثبات عدم استقامة سلوكنا. وقد أحدثت كتاباتى هذه غضب القادة التاريخيين للحركة التى كنت أنتمى إليها، ورأوا فيها خروجا على السلوك المتبع، وعلى «اللعبة المرخص بها» فى ظل وحدة لم تكن قد سوت كل أوجه الخلاف، وكانت ما زالت تلاحقها ثغرات وأوجه قصور كثيرة.

والحقيقة أن أوجه القصور هذه قد أشعرتنى بأن هناك ما هو بحاجة إلى إيضاح، بالذات إزاء نفسى. فلم تكن لى مصلحة شخصية فى الانتماء إلى الشيوعية، لا طبقيا، ولا اجتماعيا، ولا من الوجهة المادية، إلا إذا أعطت الشيوعية شيئا يسمو فوق هذا كله، أى أن تكون الشيوعية كما تصورتها، وسنى ١٦، ١٧ سنة، فى أعقاب الحرب العالمية الثانية مباشرة، أمل المستقبل، والنظرية التى تجسد حركة التاريخ. كان لا بد أن تلبى الشيوعية تطلعى إلى الاتساق، الذى يبرر خروجى على عائلتى، وتضحيتى بمواصلة الدراسة بعد الجامعة والحصول على شهادة دكتوراه فى مجال من مجالات المعرفة - كالرياضيات مثلا، التى جذبتنى دائما.

وهكذا اكتشف وأنا فى السجن، ومعرض للبقاء فيه إلى غير أجل، أن الحركة التى أنتمى إليها تسلك سلوكا غير مستقيم. ولكن لم يكن مطروحا قط التخلى عنها، وإنما ظل يشغلنى كيف نتجاوز المأساة. وفجأة جاء الإفراج عنا، ودون مقدمات، فى ظرف تقرر فيه أن خروتشوف سيزور مصر لافتتاح السد العالى.

فإن السد قد تم بناؤه بنجاح كبير بفضل مشاركة الخبراء السوفييت. وقيل إن أنور



محمد سيد أحمد

السادات، عندما ذهب لموسكو ليدعو - نيابة عن عبد الناصر - الزعيم السوفيتي ليشارك في حفل الافتتاح، فوجئ بقول خروتشوف مازحا: «أنا أخاف أروح مصر، لأنكم هناك تعتقلون الشيوعيين». وفهم من هذه العبارة أن خروتشوف كان يشترط بلباقة الإفراج عن الشيوعيين قبل تلبية الدعوة.

وكان الإفراج على هذا النحو المفاجئ وغير المرسوم، أي بعد حبس دام خمس سنوات، وقبل انتهاء مدة العقوبة المقررة، مسألة هي الأخرى بحاجة إلى تفسير. كان الإفراج عنا جماعة، بعد طول تعثر، مدعاة، بعد التشاؤم، للتطرف في الاتجاه العكسي وسيادة النظريات التفاؤلية. وقد كنا، بعد خروجنا من السجن، ما زلنا ملزمين بضرورة التواجد في مكان الإقامة ابتداء من غروب الشمس وحتى شروقها في صبيحة اليوم التالي. وظل وضعنا على هذا النحو لأشهر عديدة حتى تقرر إلغاء الأحكام وإزالة كل آثارها. وكانت هذه مناسبة لي لمحاولة صياغة دراسة مطولة تحمل تفسيرا لما يجرى كما تصورته وقتذاك. وقد عكفت مساء كل يوم على كتابتها، وطبعتها على جهاز «رونيو» على غرار ما كنا نفعله من قبل في طبع المنشورات الشيوعية السرية. كان موضوع الدراسة التحولات الجارية في العالم، لا الإشكاليات التي أفرزها التواجد في السجن. وكان عنوان الدراسة: «حول مفهوم الاشتراكية في عصرنا». وظل المستند في صورة مطبوع على الرونيو ولم يأخذ - هو الآخر - شكل الكتاب أبدا. ولكنه وصل إلى العديد من قيادات الدولة في ذاك الوقت. منهم محمد حسنين هيكل، رئيس تحرير الأهرام. ومنهم كمال رفعت، المسئول عن الدعوة والفكر بالاتحاد الاشتراكي. وكان هذا المستند نقطة البداية لاحتلالي موقعا متميزا ككاتب وصحفي، متاحا له أن يكتب في قضايا الرأي، في صحف ومطبوعات النظام.

كانت الفكرة المحورية في الدراسة أن العالم يمر بنقطة تحول أساسية، من عالم تحاصر فيه الرأسمالية والإمبريالية الاشتراكية، إلى عالم بدأت الاشتراكية فيه تحاصر الإمبريالية والرأسمالية. ومن هنا، فإن الوقت قد حان لاعتبار من هو ليس مع الإمبريالية. على أنه مع الاشتراكية، بدلا من النظر إلى من هو ليس شيوعيا على أنه مع الرأسمالية! هكذا كانت نظرة الشيوعيين في ظل حكم ستالين. ولكن أصبح واردا أن تتغير هذه النظرة مع خروتشوف.

كان خروتشوف قد أقر مبدأ جديدا في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي في فبراير عام ١٩٥٥، خلاصته أن قادة وطنيين مثل عبد الناصر خليقون بأن يتحولوا إلى ماركسيين لينينيين. ومن هذه الوجهة، لا ينبغي أن تقف الأحزاب الشيوعية عقبة في وجه هذا التحول. وقد نجح هذا التحول في كوبا حيث تحول فيدل كاسترو من زعيم وطني إلى زعيم اشتراكي. وهذا وارد أن يتكرر في بلدان أخرى من العالم الثالث. وهذا هو ما اصطلح على وصفه «بالطريق اللا - رأسمالي إلى الاشتراكية».

هذه النظرية قد عبرت أنا - على نحو ما - عنها في دراستي دون أن أعلم عنها شيئا. ودون استخلاصي لكل النتائج المترتبة عليها. كان صاحب النظرية والمروج لها، هو المنظّر السوفيتي البارز أوليانوفسكي (الذي قيل لي إنه قضى ١٩ سنة من عمره في سجون ستالين). وقد جسد طموح خروتشوف في سياسة سوفيتية جديدة، متميزة عن الستالينية، لا

تلتزم موقف التربص والدفاع وحسب، وإنما تتخذ مواقف أكثر انفتاحا، في ضوء الإمكانات التي أصبحت متوافرة بفضل ثورات التحرير في العالم الثالث.

والحقيقة أن الأطروحة، كما طرحتها أنا على الأقل، كانت غاية في التفاؤل. انطلقت من إيمان راسخ بالجبرية التاريخية، مع إغفال أن التاريخ لا بد أن يسير بمقتضى منعرجات كثيرة، وأنه ليس هناك من يستطيع أن يجزم بأن المستقبل سوف يتخذ شكلا معينا وأن يكون له نمط محدد، وبالذات في قضية بتعقيد وخطورة محاصرة الاشتراكية للرأسمالية، كنقيض لماض تميز بأن الرأسمالية كانت تحاصر هي الاشتراكية! فلقد تعلمنا منذ ذاك الوقت أن التقدم لا يتحقق أبدا بمقتضى خط مستقيم، وإنما تحكم مجريات الأحداث منعرجات كثيرة يتعذر التنبؤ بها سلفا.

تأميم الصراع الطبقي:

وقد تقرر بمجرد خروجنا من السجن أن ننضم إلى «التنظيم الطليعي». كان تنظيما سريا يتبع عبد الناصر مباشرة وهو على رأس السلطة. كان تنظيما سريا في أنشطته وإن كان الميثاق قد أشار إليه بتعبيرات مبهمة عامة. وكان وجود هذا التنظيم سببا في إدراكي أنه لم يكن صحيحا أن التخلي عن التنظيم المستقل هو مشكلة خاصة بالشيوعيين وحدهم. لقد تكشفت أنه كان «للتنظيم الطليعي» أفرع متعددة: فرع

مخصص للماركسيين، وفرع للإخوان، وبوجه عام فروع لمختلف القوى التي ظلت متميزة عن النظام، وقبلت بقيادة عبد الناصر وزعامته.

وهكذا شكل هذا التنظيم نوعا من «التأميم» للصراع الطبقي. وقد عرف عن عبد الناصر، منذ بداية الستينيات، عدم توانيه في القيام بتأميمات واسعة للمصانع والمصارف. أما وقتذاك، فلقد أصبح يتجاوز هذا الحد، ويحاول تأميم الصراع الطبقي ذاته، وينشئ تنظيما يجمع في صفوفه رموزا لمختلف أطراف الصراع الاجتماعي. وطولب أعضاء هذه الأفرع بتقديم وجهات نظرهم في السياسات التي ينتهجها عبد الناصر. وهكذا جرى حوار فكري على الورق، بدلا من أن يجرى في المجتمع، وعلى نحو يحول دون خروج العملية من هيمنة السلطة!

وهذا الذي جرى في التنظيم السري جرى أيضا على صفحات الجرائد والمجلات وقتذاك. كانت هناك مجلة «الطليعة» التي مثلت الاتجاه اليساري. وكانت هناك كذلك مجلة «الكاتب». وكانت هناك مجلات أخرى للكتابات ذات النزعة الليبرالية، وأخرى للاتجاه الإسلامي، الخ.. وظل كل اتجاه له مطبوعاته الخاصة بمعزل عن مطبوعات الاتجاهات الأخرى. وأذكر ذات مرة أن أحد المحررين قد طلب

مني أن أكتب مقالا في «الأهرام الاقتصادي»، ولكن فوجئت بأن المقال قد نزع من المجلة بعد طبعها. ذلك أنه كان من المقرر وقتذاك أن أكتب في «الطليعة» أو في «الكاتب» أو في الصحف اليومية. ولكن لم يكن مقررا لي أن أنشر شيئا في مجلة «الأهرام الاقتصادي» التي كان يرأس تحريرها الدكتور بطرس بطرس غالي. وكانت مخصصة وقتذاك لمخاطبة جمهور من نوع آخر!

والحقيقة أنه لم يكن مقررا لي أصلا، بعد خروجي من السجن، أن أصبح صحفيا. فأنا خريج كلية الهندسة جامعة القاهرة قسم الإلكترونيات، وكذلك خريج كلية الحقوق بجامعة عين شمس. وكنت قد انتسبت للدراسة في الكليتين في وقت واحد لأعوض تأخيري في الدراسة بسبب غيابي عن الجامعة طوال سنوات أربع، أمضيت سنتين منها في نشاط سري «تحت الأرض» في ظل الملكية، ثم سنتين أخريين في الحبس من جراء هذا النشاط. هذا كله قبل وقوع ثورة يوليو.

وكنت أنا مبتكر مصطلح «تأميم الصراع الطبقي». والتأميم شكل من أشكال الضبط والربط. والماركسية تتحدث عن تأميم المصانع والمصارف وشركات التأمين، ولكن لا تتحدث أبدا عن تأميم الطبقات الاجتماعية. بل أزعم أن مصطلح «تأميم الصراع الطبقي» مصطلح لا يعبر عن فكرة ماركسية. ذلك أن الصراع الطبقي غير قابل في نظر الماركسية للتأميم. إنه صراع مطلق لا يمكن صده أو وقفه أو إخضاعه لهيمنة سلطة معينة. إن صراع الطبقات، وفق النظرية الماركسية، أقوى من هذا كله، ويتعذر التحكم فيه.

والحقيقة أن مجرد الاعتقاد بأن التحكم فيه وارد، إنما عبر في صورة ما عن إيماني وقتذاك إيمانا مفرطا «بجبرية حركة التاريخ». تمثلت في أن التاريخ يلبي أنماطا يمكن تصورها والتخطيط لها والتحكم فيها مسبقا. كان تصوري هذا هو الذي برر انتمائي أصلا إلى فكر لا يمت بصلة إلى الوضع الاجتماعي الذي نشأت فيه، وحمل في طياته رغبة دفينة في تجميد الأوضاع داخل إطار معين منشود، بغض النظر عما كان يحدث في الواقع. مرة أخرى، تكررت الفكرة التي حكمت دراستي عن الاشتراكية بعد خروجي من السجن مباشرة. فكرة أن حركة التاريخ وارد التحكم فيها وفق مخطط مقرر سلفا، وأنه وارد أن تكون للتصور الفكري أسبقية على ممارسة الصراع.

كان مثل هذا الفكر يؤهلني تماما لما كانت تريده السلطة من أمثالي وقتذاك، أي أن نلبي متطلبات التعامل مع السوفييت في إطار معقد محدد، في إطار «صفقة» ما. كان الشيوعيون السابقون مكلفين بأن يزيلوا العقبات في وجه التعاون مع السوفييت، دون أن يترتب على هذا التعاون كسب للشيوعية في مصر، وإنما أن يكون الكسب كله لنظام عبد الناصر.

«صفقة» حل الحزب:

دفعتني فكرة «تأميم الصراع الطبقي» إلى استنتاج أن خروجنا من السجن، بعد طول تعثر، لم يكن مجرد صدفة، وإنما كان هناك اتفاق أبرم بين عبد الناصر وخروتشوف في هذا الصدد. لا أعلم كيف تمت هذه الصفقة. لا أعلم إن تمت بشكل صريح أو بشكل ضمني. ولكن الذي أؤمن به إيمانا راسخا، رغم أنني لا أملك الدليل

ما زالت هناك علامات استفهام كبيرة حول اندلاع حرب ١٩٦٧. لقد بدأت الحرب إثر بلاغ سوفيتي بوجود حشود إسرائيلية على حدود سوريا. وقد أنكر الجانب الإسرائيلي ذلك، ودعا جهات دولية كي تتحقق بنفسها. وقد اشتعلت الحرب وظلت الأحداث التي أفضت الى نشوبها يكتنفها الغموض حتى اليوم

عليه، هو أن «اتفاقا» ما قد أبرم، وأن الاتفاق كان تعبيرا عمليا عن تصور السوفييت عن موازين القوى وقتذاك، وهو أن حركة التحرير في العالم الثالث بصدد أن تتحول إلى «قوة احتياطية» للاشتراكية العالمية، بدلا من أن تظل تشكل الخطوط الخلفية للإمبريالية العالمية، وقوة احتياطية للرأسمالية العالمية في التحليل الأخير.

لقد أراد خروتشوف حث قادة بلدان العالم الثالث، أمثال عبد الناصر، كي يتحولوا إلى ماركسيين لينينيين، ومن هنا، فإن التنظيمات الشيوعية، مادامت استمرت قوة مستقلة، أصبحت عقبة في وجه هذا التحول، ذلك أن السلطة استمرت تنظر إليها على أن ولاءها للسوفييت، بدلا من أن يكون للتجربة الوطنية.

ومن هنا استنتاجي بأن خروتشوف قد بادر، وعرض على عبد الناصر عرضا مفاده أنه لم يكن ضد حل التنظيمات الشيوعية، بشرط احترام كرامة أعضائها. فلا يتم الحل وهم سجناء ومعتقلون، وإنما بعد إطلاق سراحهم. وحتى يكون الحل وسيلة لتحقيق مواءمة مع النظام تحفظ الكرامة، وتكفل انتماء الشيوعيين إلى النظام الناصري انتماء خالصا ومخلصا. وهذا ربما يفسر أن التنظيمين الشيوعيين الرئيسيين في ذاك الوقت، «الحزب الشيوعي المصري» و«حدتو»، قد حلا تنظيميهما في وقت كاد أن يكون واحدا، وبقرار مستقل من كل منهما. وهذا لا يمكن اعتباره مجرد صدفة.

كان هذان التنظيمان خلال سنوات السجن على طرفي نقيض، فقيادة كل منهما خط يناقض خط التنظيم الآخر على طول الخط. «حدتو» تدافع عن فكرة «المجموعة الاشتراكية على رأس السلطة».وكانت قيادة «الحزب»، على عكس تصور «حدتو»، أميل إلى فكرة أن عبد الناصر يمثل «رأسمالية احتكارية تتبع الإمبريالية العالمية».وكانت جمهرة النشطاء تميل إلى خط وسطي، لا هذا في تطرفه ولا ذاك في تطرفه العكسي. ولكن في نهاية الأمر، خرجت الحركة كلها، بمجرد إتمام عملية الإفراج، بخط وسط يسلم بوطنية القيادة. إن لم يكن باشتراكيتها - ولكن على وجه التأكيد بتقدميتها. وليس برجعيتها «الاحتكارية الإمبريالية».وهذا أمر يكاد يقطع بحدوث «صفقة» ما.

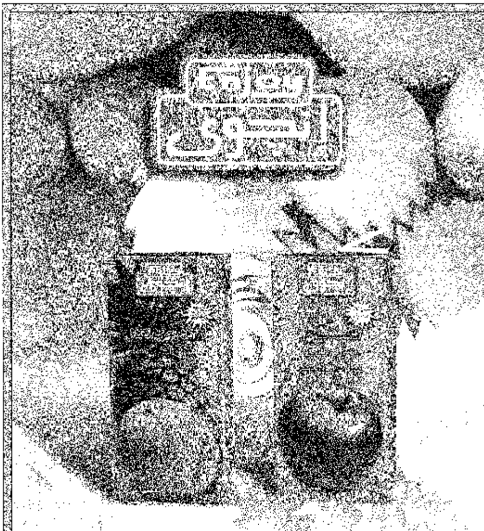
وبعض رذاذ هذه «الصفقة» نالني أنا شخصيا. فأذكر أنني كلفت من قبل عدد من الرفاق بعد خروجنا من السجن بأن أتولى مهمة الاتصال بالحكومة من أجل تسليم كشوف بأسماء المسجونين الذين لم يعودوا إلى العمل، وبالذات العمال منهم. ورتبت لي لقاءات منتظمة بسمير محلج مدير مكتب رئيس الوزراء. وكان رئيس الوزراء وقتذاك زكريا محيي الدين، المنظور له من قبل الشيوعيين على أنه عدو لدود للشيوعية. وقد أراد زكريا محيي الدين أن يتعرف عليّ والتقينا أكثر من مرة. وذات يوم، طلب لقائي فجأة. إذ كان قد علم أنني كنت قد تلقيت دعوة لزيارة تشيكوسلوفاكيا وأخرى لزيارة بولندا. سألني هل هذا صحيح؟ قلت: نعم. قال: «أنا موافق على سفرك إلى بلدين ينتميان إلى الكتلة الشرقية، وأتوقع أنهم سوف يسألونك أسئلة كثيرة عن أحوالك، وكل ما أريده منك هو أن تروي لهم حقيقة أوضاعكم، وحرية الحركة التي تتمتعون بها»!

هذا الحديث دعاني إلى التفكير كثيرا في دلالته، وأشعرني بصحة استنتاجي بأنه كان هناك ترتيب مرسوم. وقد أرادت السلطة المصرية أن تكون هناك شهادة من قبل السجناء الشيوعيين السابقين أنفسهم بأن «الاتفاق» قد احترم من الجانب المصري، وأنه يتعين على الجانب السوفيتي احترامه هو الآخر!

والحقيقة أن هذا «الاتفاق» قد كرس رسميا في المؤتمر الذي عقد بالقاهرة بين «الطليعة» وبين مجلة «السلم والاشتراكية» سنة ١٩٦٦، كانت مجلة «السلم والاشتراكية» تصدر في براج، وتعتبر أهم مجلة نظرية وإعلامية للأحزاب الشيوعية التي كانت تدور في فلك موسكو. وكانت «الطليعة» وقتذاك ترمز للانفتاح المصري على علاقة من نوع جديد مع السوفييت. وقد ترتب على المؤتمر أن نشرت لأول مرة مقالات ليساريين مصريين في مجلة «السلم والاشتراكية».وهذا أمر حمل دلالات كبيرة عن تقارب في طور التكوين وتجاوز حدود مصر بين دول «المعسكر الاشتراكي» الذي تتزعمه موسكو، وطلائع حركات التحرير في أفريقيا وآسيا.

وقد كان لعبد الناصر تعبير شائع وهو يتحدث عن الماركسية. وصفها بأنها «عنصر إثراء وتصحيح».مما كان يحمل - ضمنا - معنى إيجابيا للماركسيين المصريين، وهو أن هذا «الإثراء» يوفر بدائل تفسح المجال «لتصحيح» ما تنطوي عليه الرؤية «القومية» من أوجه قصور. غير أن مقولة عبد الناصر قد حملت أيضا معنى سلبيا للشيوعيين المصريين ولو من باب الحذف وعدم الذكر، وهو أنه لا ينبغي أبدا أن يشكلوا «عنصر قيادة»! شأنهم أن يكونوا فقط «مستشارين» لعبد الناصر ولتوجهه القومي، تحاشيا لارتكاب أخطاء، وأيضا لإحاطة السلطة بأناس كفيلين وهم يتحدثون إلى السوفييت أن يتحدثوا إليهم بـ «الرطانة» الماركسية اللينينية!

كان هناك، باختصار، مخطط «لتوظيف» الشيوعيين المصريين. والحقيقة أنه لم يكن هناك اعتراض من قبل الماركسيين المصريين أنفسهم على فكرة «التوظيف».ذلك أن فكرة «التوظيف» جاز لهم ادعاء أنها في نظرهم فكرة مألوفة، وإن تجنبوا دائما استخدام مصطلح «التوظيف».فما «الجبهة الوطنية» التي ينادي بها الشيوعيون على الدوام إلا عملية يحاول بها كل طرف من أطراف «الجبهة» «توظيف» الأطراف الأخرى. إن «الجبهة» تسعى إلى





تكشف معالم سياسة تشكل القاسم المشترك لأطراف مختلفة. إن الأطراف في أية «جبهة» متباينة ومختلفة، وهذا لا بد أن يفضي، إن عاجلا أم آجلا، إلى انتصار خط على الخطوط الأخرى. إن الخط الذي ينتصر هو الخط الذي نجح في «توظيف» غيره. وإن انتصار إحدى السياسات على هذا النحو هو ـ حسب مصطلح داروين ـ «البقاء للأفضل»، وربما بتعبير أكثر دقة البقاء للأكثر قوة، وربما من وجهة نظر «الماركسية اللينينية» البقاء للأكثر اتساقا في التعبير عن حركة التاريخ. إننا بصدد التسليم بـ «الجبرية التاريخية» إلى غير حدود.

وفيما يتعلق بحل الحزب الشيوعي في مصر، فكان معنى ذلك التسليم بأولوية قيادة عبد الناصر، بصفته هو الأصلح. وبأن حركة التاريخ تؤهله، أكثر من الشيوعيين، بل وفي نظر الشيوعيين أنفسهم،لحسم مستقبل مصر. والجدير بالملاحظة أن اللعبة لم تكن ديموقراطية، لا من وجهة نظر الشيوعيين، ولا من وجهة نظر عبد الناصر، الذي وظف الشيوعيين بوصفهم «عنصر إثراء وتصحيح»، ولا حتى من وجهة نظر السوفييت الذين أرادوا بدورهم «توظيف» عبد الناصر ـ ومصر بوجه عام ـ كطرف محوري في تحويل العالم الثالث من قوة احتياطية للإمبريالية العالمية إلى قوة احتياطية للاشتراكية العالمية.

وقد شاهدنا الإرهاصة الأولى لهذه العملية في اللقاء الذي تم في مصر بين مجلة «الطليعة» ومجلة «السلم والاشتراكية» في عام ١٩٦٦، ثم توّجت المحاولة في اجتماع شهير عقد بالجزائر قبل نشوب حرب ١٩٦٧ بأيام معدودة فقط. انعقد المؤتمر في نهاية مايو، واشتعلت الحرب في بداية يونيو. وقد أريد أن يكون المؤتمر تجسيدا للتصالح بين مختلف الاتجاهات التي نسبت نفسها الى الاشتراكية العربية: الاتجاهات القومية والاتجاهات الماركسية على حد سواء. كانت المحاولة للبحث عن أرضية مشتركة. وقد تصدى بومدين للنهوض بهذه المهمة. أراد بها تثبيت حكمه، وتأكيد صفته الاشتراكية بعد الإطاحة بن بيللا، وإقامة شرعيته على انقلاب داخلي. غير أن لقاء الجزائر الذي بدا وقت انعقاده واعدا، لم تتح له فرصة جني ثماره. ذلك أن الحرب قد اندلعت بعد أيام من انعقاده، وكانت هزيمة يونيو التي ما زلنا نتحمل آثارها إلى اليوم.

وما زالت هناك مسائل تتعلق باندلاع هذه الحرب تحيط بها علامات استفهام كبيرة. لقد بدأت الحرب إثر بلاغ سوفيتي بوجود حشود إسرائيلية على حدود سوريا. ولم يثبت أبدا أن هذه الحشود قد تجمعت بالفعل. وقد أنكر الجانب الإسرائيلي دائما أنه قد أرسل حشودا للحدود السورية. ودعا جهات دولية كي تتحقق بنفسها. وقد اشتعلت الحرب. وظلت الأحداث التي أفضت الى نشوبها يكتنفها الغموض. وتضاربت الأقوال حول من المسئول عما حدث وقتذاك وما زال يلاحقنا حتى اليوم.

وللغرب وأجهزته تفسير لما جرى. هو تفسير لم يكن للأطراف العربية كلمة بشأنه. لا إيجابا ولا سلبا، وهذه مسألة لا يجوز أن تظل على الكتمان إلى غير أجل. قال البعض إن السوفييت أرادوا اختبار الغرب، واختبار الولايات المتحدة تحديدا. فإن العالم الثالث كان بصدد أن يتحرر. وإن موازين القوى كانت بصدد أن تتغير. كان واردا أن يصبح العالم الثالث حليفا احتياطيا للمعسكر الاشتراكي، بدلا من أن يكون تابعا للمعسكر الاستعماري. ثم ها هي أمريكا متورطة في حرب فيتنام. وكان شللها بسبب تورطها هذا مناسبة لتفجير الموقف برمته في الشرق الأوسط بما يعزز الضربات التي كانت تتلقاها أمريكا في فيتنام. وتخلق ظروفا أكثر مواتاة لطرح قضية الوفاق الدولي من منطلق يحقق للمفاوض السوفيتي مركزا تفاوضيا أفضل.

غير أن الحرب لم تسفر عن هذه النتيجة. ونجحت إسرائيل في غزو قطاعات واسعة من الأرض العربية. وقد أغضب السلوك السوفيتي الجانب المصري، كما أغضب أطرافا عربية أخرى بعد الهزيمة. وارتبكت الأطراف المسئولة لما حدث. وأذكر غضبة كبيرة من لطفي الخولي بالذات. وانتهى الأمر بدعوته إلى موسكو للتصارح حول المسئولية عن الحرب ونتائجها. وفقد الاتحاد السوفيتي كثيرا من لمعانه السابق، كطرف كفيل بالدفاع عن العالم الثالث. وحمّل هو الجانب العربي مسئولية الإساءة الى سمعة السلاح السوفيتي، وإظهار السلاح الأمريكي على أنه الأقوى، مما يعرض حركة التحرر الوطني لنكسات خطيرة.

وهزيمة ١٩٦٧ أصبحت تطرح أسئلة كبيرة حول معنى تضحياتي أصلا. معنى التضحية بأهلي وبدراستي، وبانسحابي من الجامعة ومن مواصلة دراسات عليا. هذا كله من أجل مسلك سياسي بدا فجأة وكأنما يقوم كله على أسس مهزوزة. وفي وجه هذه التحديات العاتية. أصبحت قضية العلاقة مع إسرائيل هي التي باتت تفرض أولويتها على قضية الشيوعية ومصير اليسار المصري. وأصبح المؤلف الذي عبر عن همومي ـ ربما دون أن أدرك ـ أكثر من أية قضية أخرى، هو كتابي «بعد أن تسكت المدافع». وقد ترجم إلى ست لغات، وأصبح هو الذي قرر صورتي لدى الناس أكثر من أن يكون أداتي في تقرير ما رغبت أن تكون عليه صورتي.

وأذكر ذات مرة أنني سئلت في اليونسكو أن أعرّف نفسي في دقيقة واحدة. قلت: «درست الهندسة والحقوق، ولم أمارس لا هذه ولا تلك. واعتقدت أنني كرست حياتي لقضية الاشتراكية في وجه الرأسمالية. وتكشفت أن حياتي خصصت لهذا الإعصار الذي يوصف بالصراع العربي في وجه إسرائيل».

عـــروض مــــوجــــزة

القضاء القبطي في مصر

سليمان نسيم جرجس
القاهرة: ميريت للنشر والتوزيع، ١٩٩٩

يقدم هذا الكتاب جانبًا من تاريخ المؤسسة القبطية التي يعتبرها الدكتور وليم سليمان قلادة ـ في تقديمه للكتاب ـ أقدم مؤسسة شعبية مصرية.

يتناول المؤلف في دراسته قضاء القبط الأرثوذكس منذ العصر الروماني حتى عام ١٨٨٣، وهو لم يتوقف عند نصوص التشريعات، وإنما ركز أساسا على تاريخ هذا القضاء وكيفية ممارسته عمليا، مستعرضًا لقضاء أهل الذمة في المجتمع الإسلامي والاختصاصات والصلاحيات والإجراءات ومصادر التشريع التي عمل في إطارها النظام القضائي للقبط الأرثوذكس.

وينتهي في فصل خاص عن قضاء أهل الذمة، إلى أن المذاهب الأربعة المشهورة كفلت للذميين حق الاحتكام إلى أهل دينهم، ليحكموا بينهم وفق شرائعهم، وخاصة في الدعاوى التي هي موضع خلاف بين الشرائع، كأحكام الزواج والطلاق والميراث.

ويرصد في فصل تال، مواقف الحكام من قضاء أهل الذمة. ونلاحظ أن مواقف الحكام تفاوتت من عمرو بن العاص، الذي جعل الفصل في المنازعة بين القبط والمسلمين إلى قضاة من الطرفين، إلى عبد الملك بن مروان الذي تدخل في شئون الأساقفة للمرة الأولى بحسب ما يقول المؤلف، إلى العصر الفاطمي الذي يعد برأي المؤلف «العصر الذهبي لأهل الذمة»، إلى العصر الأيوبي الذي شهد تسامحًا ملحوظًا تجاه القبط، ثم العصر المملوكي الذي جاءت «تدخلات الحكام فيه في قضاء القبط بهدف جمع الأموال»، والعصر العثماني الذي تمتع فيه القضاء القبطي بصلاحيات واسعة، وصولا إلى عهد محمد علي وخلفاؤه.

ويخصص المؤلف في القسم الثاني من الكتاب دراسة لمصادر التشريع القبطي وللهيئة القضائية القبطية وصلاحياتها واختصاصاتها. ويقدم لنا في فصله الأخير، نماذج للوثائق الصادرة عن الهيئة القضائية القبطية في أمور البيع والشراء والتعاقد والميراث والزواج، مما يعطي صورة عن الأحكام القضائية في هذه المنازعات.

قراءات نقدية في أفلام التسعينيات

قصي صالح الدرويش
القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ١٩٩٩

يعترف هنا المؤلف، بأنه لم يكن متحمسًا لإصدار كتاب يضم مقالاته المتفرقة والتي سبق أن نشرها في جريدة الشرق الأوسط، والتي كتبت لاعتبارات صحفية محضة، لا لكي تنتظم بين دفتي كتاب.

ومع ذلك، فإن ثمة ما يفيد في كتاب يمكن اعتباره «نموذجا تطبيقيا» للنقد السينمائي، يجمع الأفلام المصرية في قسمه الأول، والأفلام العربية في قسمه الثاني، وهكذا تتضح الصورة ـ التي ينقصها القليل ـ عن أحوال السينما العربية عبر أعمال ليوسف شاهين، وشريف عرفة، ورأفت الميهي، وعاطف الطيب، وخيري بشارة، وساندرا نشأت. كذلك عبر أعمال هارون بغدادي، وفريد بوغدير، ونبيل المالح، ومرزاق علواش، ونوري بوزيد، وفاضل جعايبي.

وتغيب الخلفية السياسية والصحافية للمؤلف كثيرًا في تعامله مع الفيلم، فهو يغوص خلف الأفكار وتناقضاتها، كما يفعل مع أفلام مرزاق علواش ورشيد مشهراوي مثلاً، في تناولهما للشأن الجزائري والفلسطيني على الترتيب.

كما لا تغيب عنه «هواية السينما»، والوقوف على أوجه التميز والقصور في تقنية الفيلم، كما في مقالاته عن سينما ميشيل خليفي، ورأفت الميهي، وعاطف الطيب، ويوسف شاهين. والبعدان: السياسي والفني لا يختفيان وهو يثني على فيلم ساندرا نشأت الأول «مبروك وبلبل»، أو يكيل النقد لفيلم فريد بو غدير «عصفور السطح». وتبقى الكتابات المختارة من هذا النوع، وثيقة مهمة عن أحوال السينما العربية في زمن أزمتها.

تاريخ إيران السياسي بين ثورتين

د. آمال السبكي
الكويت: عالم المعرفة، ١٩٩٩

تقدم المؤلفة دراسة لأوضاع إيران السياسية منذ بدايات القرن وحتى انتقال الحكم إلى رجال الدين وتوطيد أركان الحكومة الدينية في الفترة من ١٩٧٩ وحتى ١٩٨٩. وفيما كانت الأوضاع الاقتصادية والإدارية المتردية سببًا في الثورة الدستورية الأولى عام ١٩٠٦، التي اضطلعت بها النخبة المثقفة في إيران، التي كانت أكثر شعورًا بوطأة النفوذ الأجنبي في بلادها، والتي سرعان ما اصطدمت بالبلاط الشاهنشاهي والسلطة الحاكمة، كان فساد الشاه وأسرته الحاكمة وتغلغل النفوذ الأجنبي واستغلاله لخيرات البلاد، سببًا في الثورة الخومينية في نهاية السبعينيات كما تذهب المؤلفة.

وفي هذا الإطار تتتبع المؤلفة مسار العلاقات الدبلوماسية الأمريكية الإيرانية في عهد أسرة بهلوي، والصراع الدولي حول إيران منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. وبرغم سقوط إيران في أيدي الحلفاء، حيث القوات البريطانية جنوبًا والقوات الشيوعية شمالاً، فإن الولايات المتحدة الأمريكية لم تنس أبدًا مصالحها في إيران وسعت باستمرار إلى موطئ قدم فيها. وهكذا شجعت محمد رضا بهلوي على الانفراد بالسلطة في إيران، ودعمت توجهاته الأتوقراطية برغم أنها كانت وراء عزل والده رضا بهلوي بزعم دكتاتوريته واستبداده. وهي التي أعادته إلى السلطة عقب فشل ثورة مصدق في عام ١٩٥٣، لكن القوى الدولية التي آزرته سرعان ما اتفقت على عزله حين بدأت مصالحها تتهدد، وواكب ذلك ظهور آية الله الخوميني الذي قاد ثورة «الكاسيت» على مدى عامين من باريس ليعود في عام ١٩٧٩، ويتولى الزعامة الدينية والسياسية في آن واحد.

ومنذ ذلك التاريخ، بدأت دعائم الدولة الدينية تتوطد في إيران، وشهدت تحديات وتطورات، تتناول المؤلفة أغلبها عبر صفحات كتابها، الذي لم يصل بطبيعة الحال إلى ما آل إليه أمر إيران الآن في عهد حكومة سيد محمد خاتمي.

تحديث مصر

شريف دلاور
القاهرة: مؤسسة الأهرام، ١٩٩٩

كما يصفه المؤلف، فإن هذا الكتاب يدور حول المستقبل ويناقش التغيير في الفكر الاقتصادي والتكنولوجيا، وفي أنماط العمل والمؤسسات.

يخصص المؤلف الفصل الأول من كتابه لمفهوم التنمية وصلته بالتحديث، وصلة التحديث بالتغريب، وصلة ذلك كله بالديمقراطية ويضع أولويات خمسة للتقدم والقضاء على الفقر، ولا يرى أن ما يسبب الفقر عوامل مادية، وإنما عوامل غير مادية في الأساس مثل العجز في التعليم وقصور التنظيم والانضباط بين البشر الذين يمثلون موارد الأمة الحقيقية. ويناقش في هذا الإطار دور الدولة في التنمية الاقتصادية، ويقدم نموذج شرق آسيا في التنمية للتدليل على التوازن المطلوب بين مساندة الدولة للقطاع الخاص، والالتزام من جانب القطاع الخاص بمستويات معينة من الأداء وجودة الإنتاجية، كما أن رقابة الدولة على مستوى الأجور، يقابلها التزام الشركات بتدريب العمالة والاحتفاظ بها أثناء فترات الركود الاقتصادي. وخلاصة ما يقرره المؤلف في هذا الإطار، هو أهمية دور الدولة التنموي كمحرك أساسي لتنمية أي مجتمع وفي أي عصر. ومن ثم، يناقش مفهوم العولمة وتأثيراتها على النمو الاقتصادي والاستثمار الأجنبي وتوزيع الدخل، ويعرض للاتجاهات السائدة في الفكر السياسي والاقتصادي وتعاملها مع العولمة، إذ يرفضها بعض المفكرين باعتبارها شرًا مطلقًا واعتداءً على سيادة الدولة، ويعدها آخرون طوق النجاة لاقتصاديات انهارت تحت وطأة نظم قامت على المركزية والتخطيط وبقية المنظومة الاشتراكية وهياكلها. وختامًا يحدد التحديات العشرة التي تواجه الاقتصاد المصري ومنها: ضرورة وجود خطة واضحة للتنمية الاقتصادية وتقييم الصناعة المصرية وتشكيلة إنتاجها وعلاج مشكلات البطالة بما لا يجور على مقاومة التكنولوجيات الحديثة ووضع استراتيجية للتخصصية تحقق نتائج سريعة. واستنباط تشريعات تساند اقتصاد السوق وتشجيع عمليات التصدير، وإسناد إدارة الأعمال إلى النخبة المتميزة من العقول المصرية.

القفز على الأشواك

شكري عياد
القاهرة: دار الهلال، ١٩٩٩

يضم الكتاب مجموعة من الدراسات التي كتبها الناقد الراحل في السنوات العشر الأخيرة. القسم الأول منها والذي يحمل عنوان «المرايا»، يتناول عددًا من الشخصيات التي تأثر بها وعايشها المؤلف. ويشتمل القسم الثاني على مقالات في النقد الأدبي، وهي التخصص الأصيل للمؤلف الذي كتب القصة والدراسة، فضلاً عن كتابات عديدة عنيت بالشئون العامة.

يكتب في القسم الأول عن العلامة الراحل محمود محمد شاكر الذي يسميه «عاشق اللغة العربية»، فيقدم جوانب مضيئة من حياته التي كرسها للبحث اللغوي والدرس الأدبي وتحقيق النصوص، وقد اضطلع بها جميعا في تؤدة واقتدار وإنكار للذات. ويكتب عن سهير القلماوي التي يرى أنها واصلت مسيرة طه حسين (أستاذها)، فصارت جسرًا بين الثقافة العربية والثقافة العالمية. ويكتب عن لويس عوض الذي يصفه بأنه مزيج من المؤرخ والفنان، وكلاهما ـ كما يقول ـ سعى إلى افتراس الآخر... «ولهذا كان لويس عوض في أحسن أحواله حين ينقد، وفي أشد أحواله استفزازًا حين يؤرخ، وفي أقرب أحواله للفن حين ينسى نفسه».

أما عبد الغفار مكاوي فهو عنده: الأديب الحائر بين الفلسفة والفن. ويصف الكاتب الصحفي الراحل أحمد بهاء الدين بالمفكر المسئول الذي لم يغير مواقفه الثابتة الجذرية مع تغيرات العصر والظروف، وينتقد كتابات غالي شكري الذي يعتبره «مثقفا من الجيل الضائع»، ويعني ذلك الجيل الذي تفتح وعيه على شعارات القومية والتحرر والاشتراكية، وحفرت هزيمة يونيو ١٩٦٧ في قلبه جرحًا لم يندمل. ويتعرض لكتابتين من السيرة الذاتية للدكتور حسن فتح الباب والدكتور محمد إبراهيم الفيومي.

أما في القسم الخاص بالنقد الأدبي، فيجول المؤلف بين نصوص من الشرق

عـــــــروض مـــــــوجـــــــزة

والغرب، يكتب عن رواية «في ظلال الرمان» للكاتب الباكستاني المقيم في إنجلترا طارق علي، وعن علاء الدين وكتابه «وقفة قبل المنحدر»، وعن أبو المعاطي أبو النجا وبهاء طاهر ورضوى عاشور ومنتصر القفاش وإدوار الخراط وبهيجة حسين ونورا أمين وعفاف السيد وأمين معلوف.

ومطالعة هذه الأسماء لأجيال مختلفة من الأدباء، تكشف عن متابعة مستمرة وحفاوة بالغة من المؤلف، بكل إبداع أصيل. وبتفاعله المستمر مع المنتج الأدبي حتى آخر أيام حياته.

سيد قطب وثورة يوليو

حلمي النمنم

القاهرة: ميريت للنشر والمعلومات، ١٩٩٩

لا يبدأ المؤلف مما يوحي به عنوان الكتاب، أي منذ يوليو ١٩٥٢ وصدام سيد قطب معها بعد شهور قلائل من قيامها، وإنما يمتد قبل ذلك إلى لحظة الميلاد، ميلاد سيد قطب في قرية «موشا» بأسيوط، في العام ١٩٠٦، عام حادثة دنشواي.

وعبر إطلالة تاريخية على زمن الميلاد ومكانه، يبرهن المؤلف على حجم المعاناة ومقدار الظلم والقمع الذي عاناه سيد قطب كما عاناه أهل مصر، وأهل القرى والفقراء منهم على وجه الخصوص مما كان له عظيم الأثر في توجهاته الفكرية فيما بعد. ويتابع المؤلف إنجاز سيد قطب الإبداعي منذ بحثه الذي نشر في مجلة «المقتطف» عام ١٩٣٩ وعنوانه «التصوير الفني في القرآن» وقبلها ديوانه الأول «الشاطئ المجهول» (١٩٣٥) وكتابين في النقد هما «كتب وشخصيات» و«النقد الأدبي» وصدرا عامي ١٩٤٦ و ١٩٤٨ على الترتيب وروايتان هما «المدينة المسحورة» و«أشواك» لم يثير انتباه أحد. وإزاء هذا التجاهل، اتجه سيد قطب - كما يقول المؤلف - إلى الكتابة الإسلامية، وقد تصور أن بإمكانه أن يحقق ما حققه العقاد وطه حسين والدكتور هيكل حين سلكوا الاتجاه نفسه، لكنه لم يصب نجاحا.

ويتتبع المؤلف مسيرة سيد قطب منذ قيام ثورة يوليو وحتى سجنه ثم الإفراج عنه في أزمة مارس ١٩٥٤ ثم سجنه مرة أخرى من ١٩٥٥ وحتى ١٩٦٤، ثم القبض عليه مرة أخرى في عام ١٩٦٥ والحكم عليه بالإعدام في العام التالي.

ويصل المؤلف عبر تتبعه مسيرة سيد قطب إلى عوالمه التامة المتوترة في بداياتها الأولى ودعوته إلى الضرب بقوة على أيادي الأحزاب القديمة والإقطاع وكل رموز العهد السابق على يوليو ١٩٥٢، حتى أن دعواته للتطهير - كما يقول المؤلف - اتخذت طابعا انتقاميا فجا. أما لماذا اختلف سيد قطب مع الثورة وعاداها، فإن المؤلف يرد ذلك إلى خذلان الثورة له وعدم تعيينه وزيرا أو وضعه في أي منصب رفيع آخر، مما جعله يلقي بثقله كاملا في جانب الإخوان، لتبدأ مسيرته الجديدة وأفكاره التي يرى المؤلف أنهما تشكل العمود الفقري لفكر التطرف منذ الستينيات وحتى اليوم.

حوار الاستشراق

أحمد الشيخ

القاهرة: المركز العربي للدراسات الغربية، ١٩٩٩

أكثر من عشرين مستشرقا يحاورهم المؤلف في كتابه، جميعهم معاصرون، وبينهم كاتبان عربيان هما محمد أركون ومالك شبل، أما الأول فاعتباره مستشرقا ليس اجتهادا من المؤلف، وإنما هو الوصف الذي أطلقه عليه كتاب فرنسيون، فيما اعتبره كتاب آخرون أصوليا، والبون بينهما شاسع كما نرى، أما مالك شبل فهو عربي من أصل جزائري يكتب بالفرنسية، ويمكن أن نضيف إليهما ندى طوميش وهي من أبوين لبنانيين عاشا في القاهرة، وهي نفسها ولدت في القاهرة وكتبت دراسة مهمة عن اللهجة العامية المصرية. وتكشف مطالعة بقية الأسماء عن تعدد في الاتجاهات وتفاوت في الأجيال: بيرك، رودنسون، أرنالديز، لاكوست، بورجا جونزاليس، توبي، ريشارجاكمون...الخ.

ويحقق المؤلف عبر حواراته هدفين مهمين: أولهما أنه يلقي أضواء على مستشرقين معاصرين لم يُلتفت إلى نتاجهم، وربما جاءت سيرتهم عرضا في كتابات عربية عن الاستشراق كما هو الحال فيما كتبه إدوارد سعيد أو حسن حنفي أو أنور عبد الملك، غير أن أيا من هؤلاء لم يتوقف كثيرا أمام مناهج الاستشراق الجديد وأدواته وتوجهاته وهو ما فعله المؤلف.

من ناحية ثانية، فإن الحوار مع المستشرق نفسه يتيح فرصة للتعرف عن قرب على آرائه في القضايا موضوع بحثه، ويصحح كثيرا من المفاهيم الخاطئة لديه أو لدى متابعي إنتاجه.

والصورة الأولى التي تطالعنا هي «لجاك بيرك»، ذلك المستشرق الذي كان يردد دوما أنه كاثوليكي يحب الإسلام، لكنه بقي حزينا حتى مات بسبب الانتقادات الحادة التي وجهت إلى ترجمته لمعاني القرآن الكريم، واتهامه بالتعصب واللاموضوعية. ثم «مكسيم رودنسون» صاحب كتاب «محمد» الصادر في عام ١٩٦١، والذي أثار ضجة في القاهرة قبل عام ومُنع تدريسه على طلاب الجامعة الأمريكية، والمفاجأة أن رودنسون لا يعترف بالاستشراق ويراها كلمة لامعنى لها، ثم «روجيه أرنالديز» الذي يصفه المؤلف بأنه مستشرق مخضرم وإن كانت دراسته تركزت حول ابن حزم القرطبي وحده. ثم «أندريه ميكل» أحد الوجوه الاستشراقية المعاصرة و«جان بول شارنيه» صاحب كتاب الصحيح والوهمي في المجتمع الإسلامي و«أوليفيه كاريه» الذي بدأ اهتمامه بالشرق عبر بوابة القضية الفلسطينية.

الوجوه التي يقدمها المؤلف متعددة، ومناهجها في الاستشراق متباينة ودوافعها إلى الاهتمام بالعرب والمسلمين وتاريخهم متفاوتة، والمحصلة الأهم أن الاستشراق مازال يجري هناك، لكن ناقدي الاستشراق عندنا توقفوا عند مستشرقي نهايات القرن الماضي.

قضايا علمية

مصطفى إبراهيم فهمي

القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٩

يطرح الكتاب قضية الثقافة العلمية إيمانا من المؤلف بأهمية إشاعتها، ولكونها النمط الذي نحتاجه في عصرنا هذا أكثر من أي وقت آخر، فهذا العصر هو عصر المعلوماتية وتدفق المعارف وتراكمها، بصورة لم تسبق من قبل.

يبدأ المؤلف بالتليسكوب الفضائي هابل وإنجازاته المدهشة وتكلفته الأكثر إدهاشًا، والتي بلغت حوالي ثلاثة مليارات من الدولارات، وهو يتكلف في الثانية الواحدة ثمانية دولارات، كي يقوم بدور محطة رصد فلكية في الفضاء، تدرس الكواكب والنجوم وتتابع تحولاتها وتلتقط لها صورًا في كل حالة.

ثم ينتقل إلى المريخ والجهود المستمرة لدراسته، وهي جهود لن تتوقف حتى يهبط الإنسان عليه كما فعل مع القمر في أوائل الستينيات. ويتناول أحلام الوراثيات الحديثة ومشكلاتها، وفي مقدمتها الحلم بإطالة عمر الإنسان، حتى يبلغ في المتوسط ١٧٠ عاما، وليس بصحته وحيويته، أم ستدب فيه أمراض الشيخوخة برغم إطالة العمر؟

ويناقش المؤلف قضية الاستنساخ وأبعادها الأخلاقية والدينية، ويطالب الدول بألا تتسرع في استصدار القوانين التي تجرِّم أبحاث الاستنساخ على الإنسان، انتظارًا لما يسفر عنه التطبيق... «فالعلم يعطي الإنسان إمكانات التطبيق، وعلى الإنسان أن يختار ما يفيده وأن ينبذ ما يضره».

ويستعرض المؤلف لبعض قضايا الثقافة العلمية في بلادنا، وهي ثقافة تخاصمها القناة الثقافية في التليفزيون المصري بحسب قوله، ويجافيها الإعلام الرسمي الذي مازال مشغولا «بالعلاج من عين الحسود بماء استحمامه». وفي رأيه، فإن الثقافة العلمية هي أحد الأسلحة المهمة لمواجهة العولمة التي ستغزونا، شئنا أم أبينا.

الشعر والتصوف

إبراهيم محمد منصور

القاهرة: دار الأمين، ١٩٩٩

استفاد كثير من الشعراء العرب المعاصرين من الصوفية وتجلياتها في الشعر والفلسفة والنثر الأدبي، وهذه الاستفادة لم تقتصر على المتصوفة العرب كالحلاج وابن عربي، وإنما امتدت إلى سواهم من الفرس مثلا، فلا يمكن إنكار تأثيرات الشيرازي وجلال الدين الرومي وغيرهما، على كثير من الشعراء العرب المعاصرين.

هذا ما يؤكده المؤلف في دراسته التي تتتبع هذه التأثيرات بعد مقدمة نظرية تستغرق فصلين، يتناول فيها حدود الصوفية ومعنى الحب الإلهي عندهم ودلالات الغزل الصوفي والرموز التي استخدمها المتصوفة للتعبير عن المرأة والخمر والطبيعة وغيرها، مما يهيم به الشعراء، ويشير في فصل آخر إلى العلاقة بين الصوفية والمدارس الفلسفية والفنية المعاصرة كالرومنتيكية والوجودية والرمزية والسريالية والحداثة، ويدرس المؤلف بعد ذلك هذه التأثيرات على عدد من كبار الشعراء المعاصرين من أمثال محمود حسن إسماعيل، وصلاح عبد الصبور، وعبدالوهاب البياتي، ومحمد الفيتوري، وأدونيس، ومحمد عفيفي مطر، ويؤكد على استلهام هؤلاء في عديد من قصائدهم الشعرية لروح الصوفية ورموزها وأخيلتها وأحيانا ألفاظها، وهو الأمر الذي استمر لدى من يعرفون بشعراء الحساسية الجديدة في مصر، وخصوصا شعراء جماعة «إضاءة ٧٧»، وبينهم حسن طلب، وحلمي سالم، وفريد أبو سعده، وجمال القصاص، ثم شعراء الجيل التالي من أمثال محمد سليمان، ووليد منير، وأحمد الشهاوي وآخرون. ويثير المؤلف قضية التناص بين قصائد هؤلاء الشعراء وسابقيهم من شعراء المتصوفة، وهي جلية ولا ينكرها الشعراء ذاتهم، وتؤكد درجة ما من التواصل مع شعر الصوفية وموضوعاته وأخيلته.

كتب أجنبية

The Basque History of the World

(التاريخ الباسكي للعالم)

Mark Kurlansky

Jonathan Cape, 1999, £15.99

لا يعرف الكثيرون في العالم شيئا عن شعب الباسك، وحتى المعلومات التي تعرفها نسبة كبيرة من الذين سمعوا أو قرأوا عن هذا الشعب لا تتعدى شذرات قليلة عن مجموعة متمردة تريد الانفصال عن إسبانيا تقودها منظمة «إيتا» التي يضاف دائما إلى اسمها كلمة الانفصالية.

ويحاول مؤلف هذا الكتاب إعادة الاعتبار لشعب تعود جذوره، كما يقول

عــــــروض مــــــوجــــــزة

إلى ٤٠ ألف عام، وله تاريخ عريق ولغة مميزة أوسكيرا Euskera. ويشير إلى أنه بينما ستدخل أوروبا الألفية الثالثة من الميلاد، فإننا ستجد أن مليونًا من سكانها يتحدثون لغة تعود جذورها إلى العصر الحجري.

ويعيش شعب الباسك في ٧ مقاطعات، ٤ منها في أسبانيا، والأخرى في فرنسا، ولم يحصل هذا الشعب على استقلاله على مدى تاريخه، إلا أنه لقرون عديدة تمتع بنوع من الحكم الذاتي مع سلطة تشريعية نابعة من عادات وأعراف محلية. وأطلق المؤلف على كتابه عنوان «التاريخ الباسكي للعالم» لأنه يرى أن بقاء الباسك كشعب اعتمد دائما على التدخل الدولي. وساهمت التركيبة الجغرافية الجبلية في استمرارهم عبر العصور. فقد مر عليهم غزاة كثيرون، لكن قليلين للغاية هم الذين بقوا. ولأن الطبيعة وعرة ولا تساعد على كسب العيش، فإن أفراد الباسك في الغالب كانوا يتجهون إلى البحر، ولذلك فإنهم عرفوا بناء السفن، بل إن شخصًا منهم هو الذي كان أول من دار حول العالم ويدعى أيلكانو، وليس ماجلان كما تذكر كتب التاريخ.

ويقول إنه ليس هناك كلمة تقلل من قدر أفراد شعب الباسك أكثر من «انفصاليين». وقد حارب الباسكيون بشجاعة ضد الفاشيين والنازيين في الحرب العالمية الثانية على أمل أن يساعدهم الحلفاء بعد الحرب في إقامة دولتهم، لكن الولايات المتحدة وجدت في الجنرال فرانكو حاكم أسبانيا حليفًا مهمًا، فتناست فضائل أهل الباسك. ورغم تحسن ظروفهم نسبيا في عهد الحكم الديمقراطي في أسبانيا ما بعد فرانكو، فإن الدستور الأسباني يمنع إجراء استفتاء على الاستقلال، ومازالت عمليات التعذيب والاعتقال والقتل مستمرة ضد النشطين منهم. ولا يشعر المؤلف بخجل من أعمال العنف التي تمارسها منظمة إيتا، التي تطالب باستقلال الباسك. ويقول إن الأسبان قتلوا أيضا كثيرين من الباسك ويجب أن يلاموا أيضا.

Islam, Nationalism and The West. Issues of Identity in Pakistan

(الإسلام، القومية والغرب. قضايا الهوية في باكستان)

Iftikhar H. Malik

Macmillan, 1999. 360pp., £47.50

مع قيام الانقلاب العسكري في باكستان في أكتوبر الماضي والقضاء على الحكم المدني، عادت باكستان إلى واجهة الأحداث، وعاد الحديث عن القضايا المتفجرة التي تواجه باكستان منذ نشوئها مع تقسيم شبه القارة الهندية. وقبيل الانقلاب بوقت قصير أصدر المعلق السياسي الباكستاني إفتخار مالك هذا الكتاب، الذي يتناول فيه موضوعات عديدة مثل تغطية الإعلام الغربي لقضايا تدور حول الإسلام والمواقف الباكستانية تجاه الصراع في كشمير والمجتمع المدني في باكستان والسياسة الخارجية الأمريكية والبريطانية تجاه باكستان. والكتاب يحتوي على معلومات غزيرة، تاريخ الإسلام في الهند وعلاقات باكستان الخارجية، وبشكل خاص علاقة الحب والكراهية مع الثقافة الأمريكية. وكذلك أبناء الشتات الباكستاني في الخارج، ومشكلاتهم سواء مع المكان الذي يقيمون فيه ومع الوطن الأم. ويشير إلى أنهم محصورون بين ثقافة أصولية تأتي من الوطن الأم ومحاولات للذوبان في أوطانهم الجديدة.

ومن خلال الكتاب تظهر رغبة المؤلف في قيام مجتمع باكستاني ذي وجه إنساني متسامح تنتهي فيه الصراعات بين أبنائه. وهو يدعو لسياسات ديمقراطية غير مركزية، ويعترف بالحاجة لنوع جديد من القومية تسمح بالتعددية في المجتمع، وبالحوار بين أبنائه وبين باكستان نفسها والغرب، ويبدو المؤلف متشائما من إمكانية أن يحل الحوار والتسامح محل المواجهة، وأن تنتهي حالة عدم التوازن سواء في السلطة.. أو في توزيع موارد البلاد. وكلها قضايا ستواجه الحكام العسكريين الجدد في محاولتهم لإثبات شرعيتهم بعد أن أنهوا شرعية حكومة نواز شريف المنتخبة ديمقراطيا.

Cities and Citizenship

(المدن والمواطنة)

James Holsten, editor

Duke University Press, 1999. 260pp.

خلال معظم فترات القرن العشرين، نظر المفكرون وعلماء السياسة إلى الدولة القومية باعتبارها الحاضن المناسب للمواطنة، وكما يقول مؤلفو هذا الكتاب، فإن عديدًا من الكتاب المؤثرين منذ بداية القرن رأوا المواطنة مرتبطة بشكل وثيق بالثقافة الحضرية والسياسات.

وقد كان من آمال الرئيس الأمريكي الراحل وودرو ويلسون (في الفترة من ١٩١٣ إلى ١٩٢١) أن تصبح المدينة مكان مجتمع إنساني اقتصادي يستطيع فيه الناس من كل الطبقات تطوير مسئولياتهم المدنية.

وبينما شهدت السنوات التالية لحكم ويلسون قوة دور الدولة وسلطاتها، فإن المساهمين في الكتاب لديهم جميعًا اعتقاد بأن المدن ستكتسب أهمية جديدة في تحديد حقوق المواطن. ويقول محرر الكتاب جيمس هولستن في تقديمه للكتاب أن عمليات «العولمة» ستؤدي إلى دق إسفين عميق بين الفضاءات الوطنية وبين المراكز الحضرية، أي بين الدولة والمدينة. ويقتبس الكتاب قول العالم الجغرافي بيتر تيلور أن المدن تحل محل الدولة في بناء الهويات الاجتماعية.

وتوضح الباحثة ساسكيا سبلز في مقالها بالكتاب، كيف تتحدد العلاقة بين المدن والدولة بالطريقة التي تستطيع بها المدينة أخذ مكانها في الاقتصاد العالمي.

فالمدن مقر الشركات الكبرى والتأثير المالي وهي شركات لا ترتاح لمناطق الحرمان والفقر، وبالتالي يحدث الانقسام في المدن، وهو ما درسته تريزا كالديرا في مدينة ساوباولو، فهناك انفصام بين الأغنياء والفقراء بشكل شبه تام، والأسوار والجدران تفصل بين الجانبين وتتساءل كالديرا في النهاية، هل يمكن الحديث عن المواطنة في مدينة الأسوار؟!

Karl Marx

(كارل ماركس)

Francis Wheen

Fourth Estate. 1999, 431pp., £20.00

كثيرة هي الكتب التي تناولت حياة كارل ماركس مؤسس الاشتراكية العلمية أو الماركسية، لكن معظمها كانت إما إنها منحازة إلى ماركس أو متحيزة ضده، وفي الغالب فإن معظم المؤلفات الغربية حول هذا الفيلسوف كانت من بين الصنف الأخير.

والكتاب الجديد للصحفي البريطاني فرانسيس وين نجح في أن يتجنب كراهية ماركس، وبالتالي جاء موضوعيا إلى حد كبير، وهو يقول إنه من المثير للسخرية أن نلوم ماركس على جرائم ارتكبت باسمه، لكنه في الوقت نفسه يشير إلى مدى تقلب ماركس في تعامله مع الناس، فقد كان على استعداد للتعامل مع شخص ما، ثم إسقاط هذا الشخص من حسابه في اللحظة التالية.

ويركز وين على جذور ماركس الألمانية، والتحولات التي أوصلته إلى الشيوعية وحياته في لندن وقدرته الكبيرة غير العادية على النشاط والقراءة والتأليف وقضائه الساعات الطوال في المكتبة البريطانية الشهيرة في لندن للقراءة والتأليف. وقد استقر ماركس في لندن في نهاية الأربعينيات من القرن الماضي إلى أن توفي عام ١٨٨٣. وعندما وصل إلى بريطانيا اعتقد جازمًا أن الثورة الشيوعية على وشك أن تندلع هناك، لكن ذلك لم يحدث. ومع سبعينيات القرن التاسع عشر بدأ يخمن في أن تلك الثورة يمكن أن تحدث في روسيا وهو ما حدث بالفعل عام ١٩١٧.

Memoirs

(مذكرات)

John Major

Harper Collins, 1999, £25.00

In Office

(في السلطة)

Norman Lamont

Little Brown, 1999, £20.00

صدر هذان الكتابان في توقيت واحد وهما يتناولان قضايا واحدة تقريبًا، إضافة إلى السيرة الذاتية للمؤلفين جون ميجور رئيس وزراء بريطانيا السابق، ونورمان لامونت وزير الخزانة في بداية حكم ميجور.

وأثار الكتابان لدى صدورهما ضجة كبيرة نظرًا لأنهما كانا بمثابة نوع من الانتقام الشخصي ضد الآخر، فنورمان لامونت الذي جرت إقالته بشكل مذل بعد أن ظل يراوغ شهورًا عديدة عقب خروج بريطانيا من آلية سعر الصرف الأوروبي في ديسمبر ١٩٩٢، يحمل ميجور المسئولية عن هذا الحدث الذي اعتبره المراقبون أكبر نكسة سياسية واقتصادية أصابت حزب المحافظين منذ وصوله للسلطة عام ١٩٧٩.

ويحاول لامونت في كتابه أن يدافع عن نفسه قائلا: «إن تردد ميجور وعدم قدرته على حسم الأمور والمؤامرات التي حاكها الوزراء ضده (أي لامونت) سبب هذه الأزمة». ومن ناحيته يقول ميجور أن لامونت لم يكن قادرًا على فعل شيء وحده. كما أنه كثيرًا ما كان يهدد زملاءه في الاتحاد الأوروبي بالانسحاب، الأمر الذي أفقد الثقة فيه. ويعتقد ميجور أنه لو استقال لامونت مباشرة عقب الأزمة لكان قد حفظ اسمه في التاريخ بشكل جيد، لكن رغبته في البقاء في السلطة بأي ثمن جعله يخرج غير مأسوف عليه.

ولم ينس ميجور في كتابه أن يوجه سهامه إلى مارجريت تاتشر رئيسة الوزراء السابقة التي جعلت سنوات حكمه جحيما بكثرة انتقاداتها لسياساته، وقد اتهم تاتشر بأنها لم تصدق حتى الآن أنها خرجت من الحكم، ولذلك حاولت بكل وسيلة أن تتدخل في تسيير أمور الدولة وتفرض وجهة نظرها، وعندما اختط ميجور لنفسه منهاجًا مستقلا، أعلنت عليه حربًا غير مشروعة.

والكتابان يسردان تفاصيل دقيقة لسنوات حكم المحافظين واللحظات الأخيرة التي أدت إلى هزيمتهم المذلة في مايو ١٩٩٧ أمام حزب العمال وهما في المحصلة الأخيرة، وجهة نظر يحاول ميجور ولامونت من خلالها أن يقولا كلمتهما للتاريخ عن تلك السنوات التي كانا فيها أبرز رجال الدولة في بريطانيا.

Fortunate Son: George W. Bush And The Making of An American President

(ابن محظوظ.. جورج دبليو بوش وصناعة رئيس أمريكي)

J. H Hatfield
St. Martin's Press, 1999

كتاب فجر ضجة كبيرة في الولايات المتحدة لدى صدوره في نهاية أكتوبر الماضي، إذ حمل اتهامات خطيرة لجورج دبليو بوش نجل الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش، وأحد أبرز الساعين للفوز بانتخابات الرئاسة الأمريكية العام المقبل. ومن أبرز الاتهامات أن جورج بوش الابن حاكم تكساس الحالي ألقي القبض عليه عام ١٩٧٢ بتهمة حيازة مخدر الكوكايين، وخضع لعقوبة بسيطة هي خدمة المجتمع لفترة محددة باعتبار لم يكن بالغًا في ذلك الوقت. ورغم أن هذا الاتهام أثار ضجة كبيرة، إلا أن الضجة الأكبر ظهرت بعد أن سحبت دار النشر الكتاب من الأسواق عندما علمت أن مؤلفه أدين سابقًا بالتآمر لقتل رئيسه في العمل، ثم استقال رئيس تحرير دار النشر على خلفية هذه القضية.

وتثير هذه المسألة قضية مهمة تتعلق بمؤهلات مؤلفي الكتب أخلاقيًا ومدى تحري دور النشر عن ذلك، فمن الواضح أن الدار المذكورة لم تبحث في سجل المؤلف، بل أرادت الحصول على أكبر قدر ممكن من الأرباح في ظل شغف وسائل الإعلام لالتقاط أي اتهامات بشأن المرشحين من الحزبين الكبيرين في الولايات المتحدة (الديمقراطي والجمهوري) في السباق الطويل لانتخابات الرئاسة، والأخطر أن الدار لم تتأكد من المعلومات والاتهامات التي ساقها المؤلف، والتي ثبت أنها لا تقوم على أساس متين.

ويشير أحد نقاد الكتاب في الولايات المتحدة إلى أنه في ظل كثرة المؤلفين بشكل غير معقول، وفي ظل كثرة دور النشر الراغبة في إنتاج الكتاب، فإنه ليس هناك كثيرون على استعداد لبذل الجهد للبحث عن ماضي المؤلفي ومصداقيته.

Humanity: A Moral History of The Twentieth Century

(الإنسانية: التاريخ الأخلاقي للقرن العشرين)

Jonathan JLover
Cape, 1999, 464pp., £18.99

يتعجب مؤلف الكتاب من أنه كلما حدثت مجزرة أو عمليات قتل واسعة النطاق في دولة أو منطقة ما من العالم، يصف الناس ذلك بأنه وحشية تماثل ما حدث في العصور الوسطى، مع أن ما يحدث خلال القرن العشرين ليس له مثيل على الإطلاق في تاريخ البشرية، وبالتالي فإن القول بأن ذلك الفعل أو الجرم وحشية تعود بنا للعصور الوسطى خاطئ.

ويقول المؤلف أن هناك أمرين فيما يتعلق بهذا القرن الذي يودعه العالم بعد أيام، هو أنه الأسوأ في التاريخ البشري، والثاني أن الناس لازالوا يرفضون وصف هذا القرن بأنه الأسوأ.

وحسب رأي المؤلف فإن الحقائق واضحة ولن تعدم الإحصاءات التي تشير إلى أعداد القتلى والجوعى وغيرها في القرن العشرين، وبفضل بشر مثل ستالين وهتلر وبول بوت، فإن عصرنا كان الأكثر قسوة وقتلا بالمقارنة بأي عصر آخر.

ولنتذكر أنه قبل سنوات كانت دول مثل كمبوديا والصين وروسيا وألمانيا النازية تعيش مذابح وحشية غير مسبوقة، لكن مواطني نهاية القرن العشرين لا يريدون على ما يبدو أن يتذكروا.

ويشير جلوفر إلى أن العالم كان في لحظات معينة من القرن يسير وهو نائم، مثلما حدث عند اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، والحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩، وعندما ألقت الولايات المتحدة القنبلة النووية على هيروشيما بدلاً من أن تطلقها على جزيرة غير مأهولة بالسكان.

ويعتقد أن العالم فقد وازعه الأخلاقي بصورة كبيرة خلال هذا القرن، وانزلق إلى البربرية والوحشية، فكانت النتيجة هي كابوس القرن العشرين. ورغم أن القارئ لهذا الكتاب سيشعر في النهاية بإحباط، فإن المؤلف يقول أننا نحتاج إلى فرض قيود محددة على مستوى العالم، ويجب أن يعود الوازع الأخلاقي والقانون الإلهي ليشارك في تسيير مسيرة البشر حتى لا يظهر في القرن الجديد ستالين وهتلر وبول بوت آخرون.

The Yamato Dynasty: The Sercet History of Japan's Imperial Family

(سلالة ياماتو: التاريخ السري للأسرة الإمبراطورية في اليابان)

Sterling Seagrave
Bantam Press, 1999, 426pp., £17.99

كتاب مثير للجدل يخترق محرمات لا يرغب اليابانيون في كشفها، ويتناول نظرة اليابانيين إلى أنفسهم، ونظرة العالم إليهم. ويشير الكاتب إلى أنه رسخ في الأذهان منذ سنوات طويلة قبل وبعد الحرب العالمية الثانية أن الأسرة الإمبراطورية اليابانية بعيدة تمامًا عن السياسة، وأنها ليست سوى واجهة احتفالية لنظام الحكم الياباني تعود لعصور بعيدة مضت. ويقول المؤلف إنه لا شيء بعيد عن الحقيقة مثل تلك المقولة، فالإمبراطور وعائلته - كما يدعي - يمارسان دورًا فعليًا في السلطة، وإن كان من وراء حجاب.

ولمدة تزيد على قرن من الزمان، كانت السلطة الحقيقية في اليابان يسيطر عليها رجال من زاباتيسو، وهي مجموعة من الشركات التي تمتلك عصارة الاقتصاد في البلاد. ومن بين هذه الشخصيات كوداما يوشيشو الذي كان الحاكم الحقيقي لليابان قبل الحرب العالمية الثانية. وهؤلاء الرجال كانوا الداعمين الأساسيين للنظام السياسي. وعلى سبيل المثال فإن الحزب الليبرالي، الذي يعد الحزب الديمقراطي الليبرالي الحالي امتدادًا له، كان يتلقى الدعم من كوداما قبل أن يدخل السجن كمجرم حرب.

واكتسب رجال زاباتيسو الثروة من نهب اليابان للشعوب المجاورة مثل كوريا ومنشوريا والصين وغيرها، وقد جرى إخفاء جزء كبير من هذه الأموال لما بعد الحرب، حيث ظهرت من جديد لتساهم في إعادة بناء البلاد صناعيًا.

وحتى الآن فإن الاعتقاد السائد هو أن الأسرة الإمبراطورية اليابانية إما أنها يتم تجاهلها سياسيًا، أو أنه تنقصها الكفاءة للتأثير السياسي. إلا أن المؤلف ينفي ذلك ويشير إلى أنه على سبيل المثال، فإن شقيق الإمبراطور الراحل هيروهيتو الأمير شيشيبو كان يرأس جهاز المخابرات، وحتى هيروهيتو نفسه كان على علم بكل التطورات التي حدثت في اليابان، وكان بإمكانه منع الهجوم الياباني على ميناء بيرل هاربور الذي أدى لإعلان الولايات المتحدة الحرب على اليابان.

ويتساءل المؤلف.. لماذا إذن لم تتم محاكمة أعضاء الأسرة الإمبراطورية كمجرمي حرب بعد انتهاء الحرب رغم أن القادة الأمريكيين يعرفون تمامًا دورها في الحرب؟ ويرد بأن اليمين الأمريكي أراد بقاء هيروهيتو في السلطة في إطار معركتهم مع الشيوعية، وكوسيلة للتأثير الدائم على اليابان بعد ذلك. ويشير إلى أن التحالف بين اليمين الأمريكي وعلى رأسه الجنرال دوجلاس ماك آرثر والنخبة اليابانية أخفى جرائم الأسرة الإمبراطورية، وجرى تقديم الجنرالات والسياسيين اليابانيين ككباش فداء.

Vaclav Havel: A Political Tragedy in Six Acts

(فاكلاف هافل.. تراجيديا سياسية في ستة فصول)

John Keane
Bloomsbury, 1999, 532pp., £25.00

قبل عشر سنوات فقط، لم يكن فاكلاف هافل الروائي والرئيس الحالي لجمهورية التشيك معروفًا سوى في وطنه تقريبًا. وكانت الأقلية التي تعرفه تنظر إليه على أنه مناضل شجاع رافض للحكم الشيوعي في بلاده وروائي جيد.

ولكن بعد أن جرى اختياره رئيسًا لجمهورية تشيكوسلوفاكيا قبل أن تنقسم إلى جمهوريتي التشيك والسلوفاك، عقب الثورة التي اجتاحت أوروبا الشرقية في نهاية الثمانينيات، صعد هافل سلم المجد وتحول الروائي إلى زعيم دولة بارز.

وقد اختار المؤلف العنوان «فاكلاف هافل.. تراجيديا سياسية في ستة فصول» على هذا الشكل ربما ليحاكي إحدى روايات هافل. وهو يقدم ليس فقط سيرة ذاتية لهافل، بل دراسة في فن الحكم في شكل سيرة ذاتية. ويشير المؤلف إلى أن الفصل الأخير في سيرة هافل بعد النضال والتأليف والسجن والوصول للرئاسة هو الانحدار. فقد عاش حياة أسرية عاصفة عقب وفاة زوجته الأولى أولبجا في بداية حكمه، وتزوج من دابا التي لم تكن تحظى بشعبية أولبجا، وقاد هافل سنوات التحول من الاشتراكية لاقتصاد السوق مع المشكلات التي عانى منها الناس، ثم جاء الانفصال الحضاري الذي تم بين التشيك والسلوفاك. وبدأت منذ شهور صحة هافل نفسه في التدهور إلى درجة خطيرة.

ويتناول المؤلف سياسات هافل من وجهة نظر نقدية، فهو غير مؤيد للتحول إلى سياسات السوق الحرة، ويعتقد أن هافل ربما ركب الموجة ليتقدم الصفوف ويفوز بالرئاسة التي لاشك أن هناك كثيرين غيره يستحقونها.

The Plot to get Bill Gates

(مؤامرة للنيل من بيل جيتس)

Gary Rivlin
Quartet, 1999, £10.00

يتفق الجميع على أن بيل جيتس أحد المؤسسين والرئيس الحالي لشركة ميكروسوفت للكمبيوتر هو أغنى رجل في العالم. وهناك مواقع على الإنترنت حاليًا تتابع تزايد ثرواته على مدار الساعة، كما لو كان الأمر رياضة محببة. ووراء ذلك فإن الآراء تختلف بشدة حول هذا الشخص، فهناك من هو معجب به بشدة، باعتباره مؤسس أفضل شركة تحقق أرباحًا على مستوى العالم. لكن هناك في المقابل من يكره ويخشى منه بأوسع الحدود، وخاصة داخل صناعة الكمبيوتر.

وهذا الكتاب يمثل محاولة جديدة لفهم ظاهرة جيتس متتبعًا جذوره من خلال العودة إلى شخصيته الغريبة أيام الدراسة التي لم تكتمل في جامعة هارفارد، وتأسيسه مع صديقه من أيام المدرسة بول آلان شركة ميكروسوفت. ويحصر المؤلف القصص العديدة التي تصل أحيانًا إلى حد الأساطير حول كيفية تحول جيتس وشريكه إلى عملاق تمكن من إذلال شركة IBM، وموقف الشركات الأخرى في مجال الكمبيوتر من هذا القادم الجديد الذي اكتسح هذه الصناعة. ولأن المؤلف يعرف المحيطين بجيتس جيدًا، فإنه يروي القصة ببراعة وهو لا يحاول أن يضفي على جيتس صبغة شيطانية، كما يصر خصومه، بل يحاول أن يفهمه قائلاً: «إنه رجل أعمال أفضل منه مصمم برامج».

قـــــــــراءات جـــــــــديــدة

اجتمـــاع

التنوع والتعايش

حسن الصفار

بيروت: دار الساقي، ١٩٩٩

يطرح المؤلف فكرة التنوع التي يفترض أنها تقود إلى الاختلاف والصدام، لكنه يبحث من خلالها عن إمكانيات التعايش بين الأضداد والمختلفين.

□□□

مدخل إلى علم الاجتماع

محمد الجوهري، فاطمة عبد السلام

القاهرة: دار غريب، ١٩٩٩

يتضمن الكتاب إطلالة على أهم مدارس علم الاجتماع ورواد هذه المدارس ومناهج البحث التي اتبعوها، وتأثير هذا النوع من المعارف على المجتمع.

□□□

Consuming Desires: Consumption, Culture and The Pursuit of Happiness

(رغبات استهلاكية: الاستهلاك والثقافة والبحث عن السعادة)

Roger Rosenblatt (editor)

Shearwater Books, 1999, 240pp., $24.95

هجوم مدروس على الإدمان العالمي لاستهلاك الأشياء من جانب مجموعة كبيرة من النقاد الاجتماعيين. يناقشون اختفاء قيم أخلاقية مثل التواضع والبساطة، وسيادة الاهتمام بالأشياء المادية باعتبارها مصدرا لتقدير الذات، والخطورة النفسية والاجتماعية من ذلك.

□□□

Multicultural Questions

(قضايا التعددية الثقافية)

Steven Lukes

Oxford University Press, 260pp., $30.00

قام بتأليف هذا الكتاب ثمانية باحثين بارزين من دول مختلفة ناقشوا خلاله التعددية الثقافية من حيث النظرية والتطبيق. ولم يحاول الباحثون إصدار حكم قطعي بتأييد أو رفض التعددية الثقافية، بل فضلوا تحليل الأبعاد التاريخية والجغرافية لظاهرة في عديد من الدول.

□□□

The End of Class Politics

(نهاية سياسات الطبقة)

Geoffrey Evans (editor)

Oxford University Press, 438pp., $40.00

يعتمد الكتاب على فكرة أن الطبقة لم تعد مهمة في تحديد السياسات. ويجمع أدلة من أنحاء العالم على أن دور الطبقة في الحياة السياسية يتضاءل ولم يعد الناخب يصوت لمرشح معين بسبب طبقته. وهي فكرة تحتاج إلى نقاش كبير بالنظر إلى اختلاف التطور السياسي والاجتماعي بين الدول.

اقتصـاد وإدارة

الرأسمالية اليهودية في مصر

نبيل عبد الحميد سيد أحمد

القاهرة: دار ميريت، ١٩٩٩

يتناول المؤلف الدور الذي لعبه اليهود في الاقتصاد المصري منذ أسرة محمد علي، واقتحامهم لميادين الصناعة في مصر، ثم محاولاتهم الحالية بعد التطبيع.

□□□

Accounting Services, The Islamic Middle East and Global Economy

(الخدمات المحاسبية والشرق الأوسط الإسلامي والاقتصاد العالمي)

David L. McKee, Yosra Abuamara McKee

Quorum, 1999, $65.00

يحلل دور الخدمات التي توفرها شركات المحاسبة الدولية في خلق الروابط الاقتصادية بين دول العالم، وفي التوسع المحلي والإقليمي. ويتناول بصفة خاصة دور هذه الشركات في مصر والمملكة السعودية وتركيا وبعض دول الخليج العربي.

□□□

Management Challenges for the 21st Century

(تحديات الإدارة في القرن الحادي والعشرين)

Peter F. Drucker

Harperbusiness, 1999, 207pp., $27.50

أحد مؤسسي علم الإدارة الحديث في الخمسينيات من هذا القرن، يتناول أثر التحولات الاقتصادية والاجتماعية الكبيرة اليوم على استراتيجية إدارة الأعمال في المستقبل. من أهم التغيرات، انهيار معدلات المواليد في العالم المتقدم، وتغير مفهوم الأداء المؤسسي، والمنافسة العالمية. بالإضافة إلى التباعد المستمر بين الواقع الاقتصادي والواقع السياسي. يضع دراكر قواعد جديدة لمتطلبات القيادة الحديثة، وقواعد جديدة في النظر إلى العمالة الذهنية أو المعرفية، لا باعتبارها تكلفة ولكن باعتبارها أحد أصول رأس المال.

□□□

In Praise of Hard Industries: Why Manufacturing, Not the Information Economy, Is The Key to Future Prosperity

(لماذا التصنيع وليس الاقتصاد المعلوماتي هو مفتاح الرخاء المستقبلي)

Eamonn Fingleton

Houghton Mifflin, 1999, 288pp., $26.00

في وجهة نظر مخالفة للخطاب السياسي والأكاديمي السائد في الولايات المتحدة، يعدد المؤلف مساوئ الاعتماد على الأنشطة ما بعد الصناعية، مثل الصناعات المالية والخدمية.. إلخ. ويدعم وجهة نظره من خلال عقد مقارنة بين الاقتصاد الياباني والاقتصاد الأمريكي.

تاريــخ

القدس.. سيرة مدينة

د. محمد غازي

القاهرة: دار الهدى للنشر والتوزيع، ١٩٩٩

يلقي الكتاب أضواء على القدس وتاريخها، مؤكدا عروبتها، من خلال وثائق ودفوع تاريخية، وعبر شهادات لمؤرخين وكتاب عرب وإسرائيليين.

□□□

العرب وثورة الاتصال الأولى

عصام الموسى

عمان: جامعة اليرموك، ١٩٩٩

يبحث المؤلف في اللغات القديمة بوصفها إحدى وسائل الاتصال بين الشعوب والحضارات القديمة، ويقدم تاريخ الحروف العربية، مشيرًا إلى أنها نبطية وليست سريانية.

□□□

تاريخ الإسكندرية عبر العصور

مجموعة من الباحثين

تقديم: محمد عواد حسين

الإسكندرية: الهيئة الإقليمية لتنشيط السياحة، ١٩٩٩

يتحدث الكتاب عن نشأة الإسكندرية منذ عام ٣٣١ ق.م. عندما أرسى الإسكندر قواعدها، وكيف أنها أسهمت في بناء الحضارة الإنسانية عندما اتخذها بطليموس الأول والثاني عاصمة لملكيهما، وزينا بها تاج الدولة الرومانية.

□□□

تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية

جان مازيل

ترجمة: ربا الخش

اللاذقية: دار الحوار، ١٩٩٩

يتتبع الكاتب آثار الحضارة الفينيقية في مساحة تتسع إلى ٥٥ ألف كيلو متر، مبينا أهم هذه الآثار، ومتتبعا أصل الفينيقيين ومعتقداتهم وآثارهم العلمية والروحية.

□□□

المرأة في مصر المملوكية

أحمد عبد الرازق

القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٩

لا يقدم الكتاب فقط توصيفا لما كان عليه حال المرأة في العصر المملوكي من حيث طريقة حياتها وأزيائها وزينتها، وإنما يحلل دورها سياسيا ومدنيا وحربيا.

□□□

رحلة العائلة المقدسة

وزارة السياحة

القاهرة، ١٩٩٩

الكتاب نشرته وزارة السياحة بنفقات مسيحية، وهذه هي المرة الأولى التي يظهر فيها باللغة العربية، ويتناول فيها مسيرة السيدة مريم العذراء ورحلتها في أرض الكنانة.

□□□

إمارة بني صالح في بلاد النكور

الشاهري أحمد

الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٩

يتناول الكاتب التاريخ الإسلامي لمنطقة النكور التي فتحت على يد طارق بن زياد، وبعد صالح بن منصور من أهم مؤسسي هذه الإمارة، التي انتشر الإسلام فيها ومنها امتد إلى باقي أنحاء المغرب، متعرضًا لدورها الثقافي والاقتصادي آنذاك.

□□□

The Sword and The Shield: The Mitrokhin Archive and The Secret History of the KGB

(السيف والدرع: أرشيف ميتروخين والتاريخ السري للكي. جي. بي)

Christopher M. Andrew, Vasili Mitrokhin

Basic Books, 1999, 720pp., $32.50

عمل ميتروخين مديرًا لأرشيف المخابرات الأجنبية في الكي. جي. بي. ومسئولا عن ٣٠٠,٠٠٠ ملف سري، ومع فقدان إيمانه بالنظام، أمضى اثني عشر عاما في تهريب المعلومات السرية من الأرشيفات السوفيتية إلى أن سلمها لسفارة بريطانيا في عام ١٩٩٢. هذا الكتاب يضم معلومات عن أهم العمليات التي قامت بها وخططتها الكي. جي. بي. خاصة ضد بريطانيا والولايات المتحدة.

□□□

World Civilizations: The Global Experience

(حضارات العالم: التجربة الكونية)

Peter N. Stearns, Michael Adas

New York: Longman, 1999, 700pp.

مقدمة شاملة للحضارات الرئيسية في العالم، تعالج تاريخ جنوب وشرق وغرب آسيا، وأمريكا اللاتينية، وأفريقيا، إلى جانب التاريخ الأوروبي.

تراجـم وسيـر

تحية كاريوكا بين الرقص والسياسة

سليمان الحكيم

القاهرة: دار الخيال، ١٩٩٩

لم تكن تحية كاريوكا مجرد راقصة، كانت ظاهرة فنية وتعبيرا عن عصر. عاشت تناقضات عديدة على المستوى الشخصي، فقد تزوجت من وجهاء عديدين، وأحد أزواجها كان من الضباط الأحرار. وقد دخلت المعتقل وتناثرت حولها الشائعات. وعلى المستوى الفني عملت في السينما والمسرح والإذاعة وساهمت في العمل الاجتماعي العام.

□□□

ثمن الحب

رفيق الصبان

دمشق، ١٩٩٩

يتحدث المؤلف عن تاريخ سوريا عبر سيرته الذاتية، وكذلك تاريخ الفن، وخصوصا المسرح وتكوينه لعدة فرق مسرحية منذ بدايات المسرح في سوريا، ويخصص المؤلف جزءا من كتابه للأحداث الكبرى التي شهدتها بلاده وكان شاهدا عليها.

□□□

لطف الله خلاط.. الصحافة بين الدين والسياسة

عاطف عطية

بيروت. دار النهار، ١٩٩٩

يتابع المؤلف السيرة الذاتية للكاتب لطف الله خياط، الذي حرر مجلة الحوادث، ونفي إلى الأناضول أثناء الحرب العالمية الثانية، ومساهمته بالكتابة أثناء الحرب، وجهاده في سبيل تحرره الفكري.

□□□

King of The World: Muhammad Ali And The Rise of An American Hero

(ملك العالم: محمد علي وصعود بطل أمريكي)

David Remnik

Picador, 1999, 536pp., £14.99

عشرات من الكتب تناولت حياة وبطولات محمد علي كلاي. في هذا الكتاب يكتب رئيس تحرير مجلة «النيويوركر» عنها باعتبارها مسرحية أخلاقية تحتوي على دروس إلهية. حيث مثّل كلاي «البطل الطيب» دائما منذ صعوده المدوي وخلال نجوميته، وحتى إصابته بمرض باركنسون. قال عن مرضه إنه يعتبره تذكيراً له بأنه إنسان عادي رغم كونه أقوى ملاكم.

□□□

People of the Century: One Hundred Men and Women Who Shaped the Last One Hundred Years

(شخصيات القرن: مائة رجل وامرأة شكلوا المائة عام الماضية)

Time / CBS News

Simon & Schuster, 1999, 488pp., $35.00

محررو مجلة «تايم» بالاشتراك مع محطة «سي بي إس نيوز»، يختارون أهم مائة شخصية في القرن الماضي من بين القادة والفنانين والمثقفين والأبطال الشعبيين.

ثقافـــة شعبيـــة

الأمثال الشعبية الجزائرية

عز الدين جلاوجي

الجزائر: دار الثقافة، ١٩٩٩

إطلالة على المثل الشعبي في الجزائر، ودوره في الكيان الجمعي للأمة الجزائرية، كونه يمثل خلاصة حكمة الشعب، ويورد المؤلف أحياناً تواريخ شيوع تلك الأمثال والمناسبات التي قيلت فيها.

□□□

DK Illustrated Dictionary of Mythology: Heroes Heroines, Gods, and Godesses from Around the World

(القاموس المصور للخرافات: أبطال وآلهة من جميع أنحاء العالم)

Philip Wilkinson, Neil Philip

DK Publishing, 1998, 128pp., $24.95

يتناول الخرافات التي وجدت في مصر واليابان وأمريكا الشمالية وأستراليا قديما. وعلى وجه الخصوص تلك الخرافات التي كانت تعمد إلى تفسير الكون ومعنى الحياة والموت والظواهر الطبيعية.

روايــــة

المسافر الأبدي

علاء الديب

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٩

مجموعة قصصية تضم نحو ثلاثين قصة كُتبت في مراحل متعددة من رحلة الكاتب التي استمرت أكثر من أربعين عامًا، وتحمل القصص حكمة المؤلف في الإبداع ودروبه، وخبراته المتراكمة عبر تلك السنوات.

□□□

تل الهوى

يوسف أبو رية

القاهرة: دار الهلال، ١٩٩٩

رواية تحكي حالة الصراع داخل قلب وعقل الكاتب بين عالمين، عالم القرية ببساطته وتلقائيته، وعالم المدينة بما يحويه من صخب ومشاحنات. وفي النهاية تظل القرية هي بؤرة اهتمام الكاتب ومفجرة إبداعه.

□□□

حياة وحشية

ريتشارد فورد

ترجمة: كامل يوسف حسين

بيروت: دار الآداب، ١٩٩٩

رواية عن العلاقات الفاسدة التي تفرزها ضغوط اقتصادية واجتماعية حادة، وما يمكن أن تقود إليه من انهيارات وتحولات.

□□□

زواج مدني.. بعل وبلك

طلبن رامز سركيس

بيروت: دار الجديد، ١٩٩٩

عمل أدبي يدور في إطار خيالي، حيث يصور المؤلف زواجا تم بين الإله بعل ومدينة بك. الإله يسعد بحرية المدينة، والمدينة ترى الحرية بلا خبز جوعا، وترى أيضا أن لقمة العيش مع القيود مجاعة تامة، ومن ثم لابد من توازن بين الحرية والخبز.

□□□

غرفة البرتقال

عارف علوان

كولونيا: دار الجمل، ١٩٩٩

رواية هي الثانية للكاتب العراقي المقيم في ألمانيا، وهي ذات طبيعة اجتماعية وإنسانية، لكن مشاعر الغربة لا تغيب عنها، والسياسة دائما بين السطور.

□□□

كل يا طاووس حتى تكبر

جنان جاسم حلاوي

السويد: دار المنفى، ١٩٩٩

مجموعة قصصية يمكن أن تمثل في مجملها سيرة ذاتية عن رحلات المؤلف وذكرياته في الأماكن التي ارتادها وقبع فيها، إما هاربًا أو مختبئًا أو مسجونًا، في لغة مشحونة بالحنين والوصف.

□□□

Fate of A Prisoner and Other Stories

(مصير سجين وقصص أخرى)

Denys Johnson - Davies

Quartet, 1999 / Cairo: AUC Press, 1999.

المجموعة القصصية الأولى للمترجم الإنجليزي، الذي ترجم العديد من الأعمال الأدبية العربية إلى الإنجليزية مثل روايات الطيب الصالح، ومحمود تيمور، وسلوى بكر وأليفة رفعت، ومحمد البساطي. تتناول قصصه زوايا مختلفة من الحياة في مصر والشرق الأوسط بعيون الأوروبي الذي يعيش في تلك المنطقة.

□□□

Gemma Bovery

(جيما بوفاري)

Posy Simmonds

Jonathan Cape, 1999, 100pp., £14.99

المؤلفة تتعمد محاكاة رواية فلوبير الشهيرة «مدام بوفاري»، ولكن في قالب ساخر يعكس مزاج وأسلوب التسعينيات المعاصر.

سياســـة

أبحاث في تاريخ الفكر السياسي المغربي

تحرير: عبد الله ساعف

الرباط: كلية العلوم القانونية والاجتماعية

دراسات في تطور الفكر السياسي في المغرب والتاريخ السياسي للمنطقة، ويضم الكتاب أبحاثا لمفكرين عرب من بينهم عز الدين العلام وزكي مبارك ونجية بن يوسف وآخرون.

□□□

أنا.. والجنزوري

عادل حمودة

القاهرة: الفرسان للنشر، ١٩٩٩

أسرار المعارك التي دارت في كواليس الصحافة والسياسة في عهد حكومة الجنزوري. ويسجل بعض جوانب التجربة من وجهة نظر المؤلف.

□□□

السلام المعلق

أحمد قريع

بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٩

رؤية لمسار السلام الراهن والاتفاقات الموقعة بين إسرائيل من جهة، وأطراف عربية من جهة أخرى. وهي رؤية لا ترى خيرًا كثيرًا فيما يمكن أن تقود إليه الاتفاقات بأوضاعها الراهنة.

□□□

المتدينون والعلمانيون في إسرائيل

نافذ أبو حسنة

بيروت: مركز الدراسات الاستراتيجية والبحث والتوثيق، ١٩٩٩

يتناول الكتاب العلمانية داخل المجتمع الإسرائيلي ومدى تحققها، وموقف الجماعات الدينية في إسرائيل من المفهوم وتطبيقاته ومحاولاتهم للتأثير على التوجهات العلمانية داخل هذا المجتمع.

□□□

المفترون

فهمي هويدي

القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩

يتناول الكتاب مواقف تكتلات ثقافية من الماركسيين والعلمانيين يقفون في معسكر الضد لكل ما هو إسلامي، بعضهم حسبما يرى المؤلف يسيء إلى الإسلام عن قصد، وأكثرهم يعادونه عن جهل، والطرفان يتخذان مخططا غربيا يسعى لاقتلاع الإسلام من بين أهله.

□□□

إيران والخليج

عبد الله النفيسي

الكويت: دار قرطاس، ١٩٩٩

يعرض الكتاب للمشكلات التي يواجهها عرب الخليج وإيران فيما بينهم، والتي يعود بعضها إلى الخلافات القديمة بين الفرس والعرب، وبعضها إلى اختلاف اللغة والثقافة، ويدعو الكاتب إلى إيجاد وسيلة لتجاوز هذه الخلافات في الوقت الراهن.

□□□

جنون العولمة

ترجمة: كمال السيد

القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٩

يناقش المؤلف مصطلح العولمة، والأفكار التي تناولها المؤلفون حوله، وتحليلاتهم للمفهوم في الاقتصاد والسياسة وغيرها من المجالات. ويركز المؤلف على تأثيرات العولمة على الشرق الأوسط ودول المنطقة.

□□□

سؤال الحرية

ماجد السامرائي

دمشق: دار الأهالي، ١٩٩٩

يتساءل الكاتب: كيف اغتال المشروع القومي العربي كل الأحلام، واغتال حرية الكتابة عند المثقفين وأحبط أحلامهم، وكيف ساهم المثقفون أنفسهم فيما آلت إليه الأمور.

□□□

فيض الغربة

حبيبة محمدي

القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٩

دراسات عن الحالة السياسية الراهنة في الجزائر، ومشاعر الجزائريين وآلامهم وتاريخهم النضالي الطويل.

□□□

مشروع التطبيع مع الكيان الصهيوني

حسن جوهر

الكويت: دار البناء، ١٩٩٩

يسعى الكتاب إلى كشف خطط التطبيع التي يعمد فيها العدو إلى بث الخراب والفساد وروح الانهزامية في المجتمعات العربية، عبر سلام خادع لم يتحقق.

□□□

مستقبل مجلس التعاون لدول الخليج العربية

جمال السويدي وآخرون

أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات الاستراتيجية، ١٩٩٩

رؤية لمستقبل مجلس التعاون في ظل المتغيرات الراهنة على الصعيدين المحلي والعالمي، ويعرض فيه المؤلف لإنجازات المجلس في الماضي وخططه للمستقبل.

□□□

من عناوين المجتمع القادم

سهيل العروس

دمشق: دار الأهالي، ١٩٩٩

مقالات عن أهم قضايا مجتمعاتنا العربية في الوقت الراهن وصراعها مع العلمانية والتطرف، وتحدياتها المفترضة لبناء هياكل ديمقراطية وبنى متقدمة صناعيًا وإنتاجيًا، تمكن في النهاية بناء مجتمع ناهض عماده التسامح.

□□□

Ally to Adversary: An Eyewitness Account of Iraq's Fall From Grace

(حليف العدو: رواية شاهد عيان لسقوط العراق من الرحمة)

Rick Francona

Annapolis, MD: Naval Institute, 1999, 216pp

المؤلف عمل ضابطا في القوات الجوية الأمريكية، ونخصص في المخابرات الدفاعية في الشرق الأوسط، ولأنه يتحدث العربية، عمل المترجم الشخصي للجنرال شوارسكوف أثناء حرب الخليج. كما كان ضابط اتصال مع المخابرات السعودية. يتحدث في كتابه عن انطباعاته الشخصية والعلاقة التنافسية المعقدة بين أجهزة المخابرات المختلفة في الإدارة الأمريكية. ومن ضمن ما يذكر أن المخابرات العسكرية الأمريكية علمت بغزو العراق للكويت وحذرت منه. ولكن آخرين تعمدوا تجاهل تلك الإنذارات.

□□□

Corruption and Government: Causes, Consequences and Reform

(الفساد والحكومة: الأسباب والنتائج والإصلاح)

Susan Rose Ackerman

Cambridge UP, 1999, 280pp., £35.00 (HB), £11.95(PB)

تناقش المؤلفة كيف يمكن للمعدلات المرتفعة من الفساد أن تحد من النمو الاقتصادي وفرص الاستثمار، وكذلك من فاعلية الحكومة.

السينما العربية خارج الحدود

صلاح هاشم

القاهرة: المركز القومي للسينما، ١٩٩٩

مقالات في النقد وتحليل لأوضاع السينما العربية الراهنة، والدور الذي تلعبه في أوروبا، وإمكانات تعظيم هذا الدور كي يصبح تأثيره أكبر على المشاهد الأوروبي. كما يتضمن الكتاب حوارات مع فنانين عرب عن قضايا السينما في العالم العربي.

□□□

African Cinema: Postcolonial and Feminist Readings

(السينما الأفريقية: قراءات نسوية وما بعد الكولونيالية)

Kenneth W. Harrow (editor)

Africa World Press, 1999, 400pp., $17.56

يناقش القضايا المعاصرة في السينما الأفريقية: سؤال الهوية القومية بعد الاستقلال وأدوار النساء المتغيرة وسيادة السلطوية. ويستعرض الأفلام التي أخرجها أفريقيون في أوائل الستينيات بعد الاستقلال في كل من نيجيريا والسنغال والجزائر.

□□□

Asian Pop Cinema: Bombay to Tokyo

(السينما الشعبية الآسيوية: من بومباي إلى طوكيو)

Lee Server

Chronicle Books, 1999, 132pp., $16.95

يستكشف المؤلف أهم الأفلام الشعبية التي بزغت في الفترة الأخيرة في كل من هونج كونج والصين وتايوان واليابان وكوريا والفلبين والهند، بالتركيز على أفلام الحركة والرعب والخيال والعصابات، كاشفًا عن الاختلافات والتشابهات في الاقتراب من تلك الموضوعات بين مخرجي هذه الدول. ويتضمن الكتاب كذلك مقابلة مع جون وو، الذي هاجر إلى الولايات المتحدة في التسعينيات ليخرج فيلمين شهيرين هما:

Mission: Impossible و Face / Off

□□□

Matinee Idylls: Reflections on the Movies

(أناشيد الماتينيه الرعوية: أفكار عن السينما)

Richard Schickel

Ivan R. Dee Inc., 1999, 320pp., $26.50

مجموعة مقالات للمحرر السينمائي الرئيسي بمجلة «تايم»، تدور حول نجمات ونجوم الماضي مثل بيتي دايفز، وجريتا جاربو، وفيلليني، وكذلك الفرق بين أفلام وجمهور الخمسينيات وأفلام وجمهور السبعينيات وما تلاها.

□□□

The New York Times Guide to the Best 1000 Movies Ever Made

(دليل النيويورك تايمز لأفضل ١٠٠٠ فيلم صنع)

Vincent Canbey, Janet Maslin (editors)

Times Books, 1999, 1024pp., $25.00

وضع محررو هذا الكتاب قائمة بأفضل ١٠٠٠ فيلم تمت صناعتها منذ بداية السينما، بالرجوع إلى أرشيفات مجلة «التايمز»، حيث أعادوا نشر مراجعات الأفلام التي نشرت منذ ١٩٣١ في المجلة لتسجل كيف كان استقبال هذه الأفلام فور صدورها.

□□□

Writing and Cinema

(الكتابة والسينما)

Jonath and Bignell (editor)

Longman, 1999, 288pp.

مجموعة من المقالات تناقش الطرق المختلفة التي يمكن من خلالها دراسة علاقة الكتابة بالسينما. فيتم تناول أنواع الكتابة التي تنتج من أجل صناعة السينما، والاقتباسات السينمائية من الأعمال الأدبية والمسرحية الكلاسيكية والمعاصرة، إلى جانب مناقشة للتطورات الأخيرة في دراسات السينما التي تتضمن الدراسة الثقافية التحليلية لجمهور السينما.

شعر

أجمل قصائدي في الحب

فاروق جويدة

القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٩

مختارات من دواوين الشاعر عن قصائده التي كتبها في الحب، تعكس سمات العالم الشعري للمؤلف الذي اشتهر بشعره العاطفي.

□□□

الحب شعر وموسيقى

محمود ربيع الملط

القاهرة: دار جروس، ١٩٩٩

كتاب عن الشعر المغنّى، حيث يتناول المؤلف عددًا من القصائد التي غناها مطربون كبار، قصائد لأحمد شوقي وكامل الشناوي وأحمد رامي وإبراهيم ناجي ونزار قباني، وكيف حولت الموسيقى القصائد إلى كلمات سهلة متداولة بين أسماع الناس فأكسبتها شهرة أكبر.

□□□

رماد القمر

برهان مشدوي

أبو ظبي: وزارة الإعلام والثقافة

قصيدة طويلة تستحضر زمن السومريين، وتلقي بظلالها على الواقع عبر مناخ أسطوري وأجواء تاريخية حقيقية.

□□□

صهيل الروح

جويرية الخاجة

الشارقة: المصدر للدراسات والنشر، ١٩٩٩

قصائد أغلبها حزين، لا تقوم على صوت ذاتي بقدر ما تستصرخ العالم ليواجه تحدياته الحقيقية، وتستنفر الإنسانية للاضطلاع بواجباتها.

علوم فلكية

دليل المكتشفات الفلكية

وليام لير

ترجمة: عدنان حسن

دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٩

يتحدث المؤلف عن المكتشفات الفلكية الجديدة، ويرصد الحركات الجديدة في فلكنا بأقلام مجموعة من علماء الفلك، ويضم صورًا عن أحداث فلكية مهمة.

□□□

Magnificent Universe

(الكون البديع)

Ken Croswell

Simon and Schuster, 1999, 224pp., $60.00

الكتاب يحتوي على صور تلسكوبية لم تنشر من قبل لكواكب المجموعة الشمسية، وأجرام فلكية أخرى مكتشفة حديثًا، التقطت بواسطة مكوكي الفضاء «فوياجر» و«مارز باثفيندر»، بالإضافة إلى ست عشرة صورة من صور التليسكوب هابل، معالجة بنظام التشفير الحديث.

فكر ديني

الإسلام.. الثابت الحضاري والمتغيرات السياسية

الكسي مالاشينكو

ترجمة: ممتاز بدري الشيخ

دمشق: دار الحارث، ١٩٩٩

تساؤلات يقدمها المؤلف عن الحضارة والديانة والترابط بينهما، وخصوصًا أن الإسلام هو أكثر الأديان اهتمامًا بتنظيم العلاقات بين البشر وتقنين سلوكهم، ويناقش المتغيرات العديدة المحيطة بثوابت الإسلام، وكيفية تعامله مع هذه المتغيرات.

□□□

الكيان الإسلامي والنضال من أجل العدالة

نعمة حافظ البرزنجي

دمشق: دار الفكر، ١٩٩٩

تتناول الكاتبة في خمسة فصول، بدايات ظهور الإسلام والمفاهيم التي أشاعها بين الناس، ثم صفة العدل التي هي أساس نهضة المؤسسة الإسلامية، وكيف أن الإسلام يتفق مع الديانات الأخرى في مبادئ أساسية تتصل جميعها بفكرة العدل.

□□□

محمد إقبال.. فكره الديني والفلسفي

محمد العربي بن عزيزي

دمشق: دار الفكر، ١٩٩٩

لا ترجع أهمية محمد إقبال إلى كونه شاعرًا أو فيلسوفًا فحسب، وإنما لمعاصرته فترة عصيبة في شبه القارة الهندية هي فترة الاحتلال الإنجليزي، ودوره في رئاسة الرابطة الإسلامية وعمله على توحيد صفوف المسلمين.

□□□

An Invitation to Joy

(دعوة للسعادة)

Pope John Paul II

Additional Text by Greg Burke

Simon & Schuster, 1999, 224pp., $30.00

مختارات من كتابات وأقوال البابا يوحنا بولس الثاني حول المرأة والعمل والأسرة والصلاة والعفو والسيدة مريم العذراء.

عالم الكروموسومات العجيب

فريق من علماء الكيمياء

القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩

كتاب للأطفال يقدم في أسلوب مبسط

رحلة الكروموسوم داخل الخلية، ومعناها وتأثيراتها، وهو يأتي ضمن سلسلة تعنى بتبسيط العلوم للأطفال.

□□□

101 Things Every Kid Should Know About Science

(مائة معلومة و معلومة عن العلم يجب على كل طفل أن يعرفها)

Samantha Beres

Lowell House, 1998, 96pp., $9.95

يحتوي على معلومات علمية أساسية للأطفال من سن تسع سنوات إلى اثنتي عشرة سنة، وينقسم إلى أبواب رئيسية في الكيمياء والطبيعة والأحياء والجغرافيا وعلم النبات... إلخ. ويتناول موضوعات مثل الخلايا والآلات البخارية والزلازل وجسم الإنسان والأشجار.. إلخ، بالإضافة إلى سير مختصرة لبعض العلماء والمكتشفين، وكذلك بعض التجارب العملية اليدوية البسيطة.

□□□

The Magnificent Music Book

(كتاب الموسيقى البديع)

Kate Petty and Jennie Maizels

Random House, 1999, £14.99

كتاب مصوَّر للأطفال في جميع الأعمار يعلمهم كيفية قراءة النوتة الموسيقية، وتفهم أنواع الإيقاع، والنغمات المختلفة، والسلم الموسيقي، والهارموني.

□□□

The Story of Mankind

(قصة الجنس البشري)

Hedrik Willem Van Loon, John M Merriman

Liveright, 1998, 674pp., (HB), $32.95

الكتاب يروي للناشئين تاريخ العالم منذ ٥٠٠,٠٠٠ عام قبل الميلاد. وهو كتاب كلاسيكي شهير صدر لأول مرة عام ١٩٢٢، وحصد جوائز كثيرة، وقد تم تحديثه ليواكب الألفية الثالثة.

لغـــــات

نظام اللغة اليابانية

بسام خالد طيارة

بيروت: مكتبة المعرف، ١٩٩٩

يقدم الكتاب شرحاً للغة اليابانية وتراكيبها وكيفية نطقها، ويضع الكاتب منهجاً لدراسة هذه اللغة وكيفية فهم دلالاتها.

□□□

Arco Toefl Grammer Workbook: Everything you need to Score High (3rd Edition)

(كتاب التمارين النحوية لامتحان التويفل: كل ما تحتاجه لتحقق درجة مرتفعة)

Phyllis L. Lim (editor), et al.

IDG Books, 1998, 256pp., $11.95

□□□

American English Pronunciation Program: For Speakers of English as a Second Language and Native Speakers With Strong Regional Accents

(برنامج نطق الإنجليزية الأمريكية: للمتحدثين بالإنجليزية كلغة ثانية، والمتحدثين الأصليين ذوي اللهجات المحلية الحادة)

Living Language (Editor)

Living Language, 1999, $34.95

(كتاب وشرائط كاسيت)

منوعـــــات

A Century of Fashion

(قرن من الموضة)

François Baudot

Thames& Hudson, 1999, 400pp., £19.95

يتناول تطور الأذواق والموضات خلال القرن العشرين، ويبين كيف كان يرتبط دائماً بتطور المجتمعات الصناعية وعاداتهم ورغباتهم، وكذلك تطور الأساليب التجارية في أوروبا والولايات المتحدة. ويتحدث المؤلف عن المصممين المشهورين مثل شانيل وكالفن كلاين، إلى جانب عمالقة الرياضة مثل نايك وأديداس، والرموز الثقافية التي أثرت في عالم الموضة.

□□□

Crying: The Natural and Cultural History of Tears

(البكاء: التاريخ الطبيعي والثقافي للدموع)

Thomas Lutz

W.W Norton& Company, 1999, 356pp. $27.00

بين علم النفس وعلم وظائف الأعضاء، إلى جانب أمثلة من الأدب والفن. يتناول الكتاب ظاهرة البكاء من زوايا طبية وثقافية واجتماعية. ويحاول شرح الفرق بين دموع الفرح ودموع الفخر ودموع الرثاء ودموع الهزيمة.

□□□

100 Banned Books: Censorship Histories of World Literature

(مائة كتاب ممنوع: تاريخ الرقابة على الأدب العالمي)

Nicholas J. Karolides

Checkmark Books, 1999, 423pp., $18.95

يتناول أهم الكتب التي تم منعها في وقت ما بسبب الرقابة. سواء في الولايات المتحدة أو في العالم. من الكتب التي منعت لأسباب سياسية: «مزرعة الحيوانات»، و«دكتور جيفاجو». ولأسباب دينية: «الإنجيل» و«القرآن». و«التلمود»، و«أوليفر تويست». ولأسباب جنسية: «لوليتا». و«مدام بوفاري»، و«أوليس». ولأسباب اجتماعية: «مغامرات هاكلبيري فين».

□□□

نقـد أدبـي

البؤرة ودوائر الاتصال

نسيمة الغيث

القاهرة: دار قباء، ١٩٩٩

تتناول المؤلفة مصطلح البؤرة في النقد الحديث واستخداماته. وتبين أن البؤرة هي مركز الإحساس بالنص والنواة التي يدور في فلكها، وتقدم نماذج تطبيقية من أعمال امرئ القيس وبديع الزمان وغيرهما.

□□□

شذرات في الأدب الحساني

بويا لعتيك ماء العينين

الرباط: مركز طارق بن زياد، ١٩٩٩

ينفض الكتاب الغبار عن نوع من الآداب الشعبية في المغرب وهو الأدب الحساني، فيتحدث عن موطنه، ويروي بعضاً من أشعاره، ويتناول دوره في المجتمعات الصحراوية القديمة.

□□□

قالت الرواية. حكايات من وجهة نظر المرأة

تحرير: هالة كمال

القاهرة: ملتقى المرأة والذاكرة، ١٩٩٩

يقوم الكتاب على التفكيك وإعادة البناء، بحثاً عن دور المرأة في الحكايات الشعبية، وبناء حكايات أخرى توازي هذه الحكايات.

□□□

مسيرة الرواية في مصر

حامد أبو أحمد

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٩

يتابع الكتاب تطور مسيرة الرواية العربية منذ الثلاثينيات حتى اليوم، ويثمن الإضافات التي قدمها الرواد الأوائل نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس ويوسف السباعي وغيرهم، وصولاً إلى جيل الرواية الحالي في مصر.

□□□

قراءات غير بريئة في التأويل والتلقي

أمنية غصن

بيروت: دار الآداب، ١٩٩٩

تتخير المؤلفة النصوص التي جار عليها بعض النقاد ووصفوها بأنها خارجة بعدما انتزعوها من سياقها. والمؤلفة تعيد هذه النصوص إلى سياقها العام وتعيد قراءتها وتأويلها ونقدها، لتخرج باستنتاجات جديدة.

□□□

تيارات الأدب العربي في القرن العشرين

محمد عبد المنعم خفاجي

القاهرة: رابطة الأدب الحديث، ١٩٩٩

يتناول الكتاب اتجاهات الشعر العربي الحديث، ويعرض لآراء مجموعة من كبار المفكرين في الحركة الشعرية. مثل العقاد ونازك الملائكة وشعراء مدرسة أبوللو.

□□□

عيون الشعر العربي القديم

علي الجندي

القاهرة: دار غريب، ١٩٩٩

يعرض الكتاب بالتحليل للمعلقات السبع الشهيرة في الشعر العربي، موضحاً موقف اللغويين منها وتباين المواقف حولها.

□□□

نظرية الشعر

أحمد يوسف علي

القاهرة: مكتبة الأنجلو، ١٩٩٩

يتتبع المؤلف الإبداعات الشعرية العربية، ويتتبع الرؤى النقدية للإبداع الشعري منذ ابن طباطبا العلوي، الذي كان واحداً من رواد الحركة النقدية العربية.

□□□

لذة النص

رولان بارت

ترجمة: محمود خير البقاعي

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩

يتناول أفكار واحد من نقاد الحداثة الكبار في عصرنا الراهن هو رولان بارت، فيقدم عرضاً لآرائه في العلاقة بين القارئ والنص، ولذة المعرفة التي يكتشفها القارئ بتفاعله مع النص. ويشير بارت في هذا الإطار إلى أن المعرفة امتلاك لنواحي الحياة.

□□□

ماهية الشعر. قراءات في شعر حسن طلب

سعيد توفيق

القاهرة: هيئة الثقافة الجماهيرية، ١٩٩٩

بالإضافة إلى ما يقدمه المؤلف من رؤية نقدية وتحليلية لشعر حسن طلب بوصفه رمزاً لجيل شعري، يحتوي الكتاب على مقالات نقدية كتبت عن الشاعر بأقلام أحمد عبد المعطي حجازي وإدوار الخراط وصبري حافظ وفاطمة قنديل وعباس بيضون وآخرين.

□□□

The Poetics of Science Fiction

(شعرية أدب الخيال العلمي)

Peter Stockwell

Longman, 1999, 256pp.

يستخدم المؤلف علم اللغويات لاستكشاف العالم الأدبي في الخيال العلمي. فيناقش الكلمات والاستعارات الجديدة، وأثر العوالم الخيالية التي يبدعها الأدباء في الارتقاء بالتعبير الشعري والأدبي.

□□□

Writing and Fantasy

(الكتابة والفانتازيا)

Ceri Sullivan, Barbara White (editors)

Longman, 1999, 304pp.

يتناول أسلوب الفانتازيا في الأدب باعتباره استجابة سياسية للفرص والضغوط الثقافية. المقالات تغطي الفترة الكلاسيكية وحتى القرن العشرين، بالتركيز على الفانتازيا كاستراتيجية يستخدمها الفرد لاحتواء أو استغلال لحظات تاريخية أو ثقافية معينة مضت. الكتاب يتجول بين أنواع مختلفة من الفانتازيا من قصص الأشباح إلى اليوتوبيا النسوية.

□□□

كتاب الزاوية

من أجمل قصائد الحب الإلهى

● «إلهى يا سميع» لأحمد البدوى

ـ أبو العباس أحمد البدوى القرشى، ولد بمدينة فاس بالمغرب ثم هاجر إلى مكة مع أهله وتعلم القرآن والعلوم الشرعية، ثم هاجر إلى العراق ومنها إلى مصر فى عصر الظاهر بيبرس الذى استقبله أحسن استقبال.

نزل فى مدينة طنطا وتوفى بها سنة ٦٧٥ هجرية.

إلهى أنت للإحســـــــان أهلٌ
ومنك الجــود والفــضل الجزيلُ
إلهى بات قـلبى فى همــــــوم
وحــــالى لا يُســــرُّ به خليلُ
إلهى تب وجُــد وارحم عُــبـيْــداً
من الأوزار مــدمـعــهُ يسـيـلُ
إلهى ثوب جــســمى دنســتْــهُ
ذنوبٌ حــملها أبداً ثقــيلُ
إلهى جُــد بعــفــوك لى فــإنى
على الأبواب منكســـرٌ ذليلُ
إلهى خُــــفَّنى بالـلطف يا منْ
له الغــفــرانُ والفيضُ الجزيلُ
إلهى خــاننى جَلَدى وصــبـرى
وجاء الشيبُ واقترب الرحيلُ
إلـهى ذاب قــلبى مــن ذنـوبى
ومن فـعْلِ القبـيح أنا القتـيلُ
إلهى زحــــزح الأســـواء عنى
وكن لى ناصـــرا نعْمَ الكفــيلُ
إلهى ســيــدى، سندى وجــاهى
فــمالى غير عفوكَ لى مقيلُ
إلهى صــــرتُ من وجـــدى أُنادى
أنا العــاصى المسىء، أنا الذليلُ
إلهى ضــاع عـــمرى فى غــرور
وفى لهـــو وفى لعب يطولُ
إلـهى طالما أنعـــــــــمتَ منّا
بجــود منك فـضــلا يستطيلُ

جلال أمين يرد على مقال صادق جلال العظم «العولمة كمثال لصناعة الأفكار»

الدكتور صادق جلال العظم كاتب مهم، إذا كتب فلابد أن يقرأ، يتمتع بدرجة عالية من نفاذ البصيرة. كثيرا ما قرأت له ما اختلفت معه فيه، ولكنك دائما، بعد أن تفرغ من قراءة كتبه أو مقالاته، أكثر ثراء منك قبل أن تقرأه.

كذلك كان حالى بعد أن قرأت مقاله فى العدد الأخير من «وجهات نظر» (نوفمبر ١٩٩٩) المعنون: «نقد لمواقف المفكرين العرب من العولمة»، وإن كنت قد لاحظت انشغاله أحيانا بالأقل أهمية على حساب الأكثر أهمية، كما شعرت باستعداد أقل من اللازم لإبداء السخاء فى قراءة ما يكتبون، مما سأحاول توضيحه فيما يلى.

١ ـ «العولمة» لفظ حديث جدا فى العربية، ولكنه ليس من اختراعنا نحن العرب، بل هو ترجمة لكلمة صكت فى الغرب (Globalization) وانشغل الناس بها هناك وعقدوا لمناقشتها الندوات والمؤتمرات، فإذا بنا ننشغل بها بدورنا ونحاول البحث عن معناها الحقيقى وتعريفها الصحيح. وهذه ليست بالطبع المرة الأولى التى يصك فيها الغرب فكرة أو شعارا، فننشغل نحن بهما، ثم يخبو اهتمام الغرب بهما فيخبو بالتالى اهتمامنا. حدث ذلك مثلا عندما اشتعل حماس الاقتصاديين فى الغرب خلال الستينيات لفكرة روستو عن مراحل النمو الاقتصادى وبالذات مرحلة الانطلاق (Take-off)، واعتبروها بديلا عن نظرية ماركس فى التاريخ، فتحمسنا لها نحن أيضا حتى انصرف الغرب عنها فانصرفنا نحن. ثم حدث هذا مع شعار «النظام الاقتصادى الدولى الجديد» فى السبعينيات، ثم مع «التكييف الاقتصادى» فى الثمانينيات، ثم مع «نهاية التاريخ» و«صراع الحضارات» فى التسعينيات.. الخ.

وأنا لا أقول هذا من باب الاعتراض على مناقشة ما يناقشه الغرب، ولكن أقوله فقط من باب التنبيه إلى وجوب الحذر من أن صياغة الأفكار والشعارات تتأثر بالمصدر الذى تنبع منه. فهى تعكس طريقة للنظر للأمور قد لاتكون هى الأكثر ملاءمة لنا. إنها دائما تعكس جانبا من الحقيقة، وقد يكون جانبا مهما منها، ولكن اختيار تعبير دون غيره واختيار صياغة معينة للفكرة دون غيرها من الصياغات، قد يحملان فى طياتهما خطر صرف الذهن إلى نواحى قد لاتكون هى الأجدر بانصراف الذهن إليها.

لم أشعر لدى قراءة مقال الدكتور صادق جلال العظم بأنه يعلق أهمية على هذا الأمر، فهو يقبل على تعبير «العولمة» بكل نشاط وحماس ويشمر عن ساعديه لتقديم التعريف «الصحيح» لها، وكأن هناك تعريفا واحدا صحيحا والتعاريف الأخرى كلها باطلة، وكأن هناك طريقة واحدة لوصف هذه الظاهرة تلغى ما عداها. وهكذا تنجح «صناعة الأفكار» فى الغرب، مرة أخرى معنا، كما نجحت من قبل، المرة بعد المرة، إذ تلقى إلينا بالفكرة أو الشعار فننشغل بها ونشبعها بحثا وتحليلا، بل ونتخاصم حول المقابل العربى «الدقيق» لها، كما ننشغل الآن بشعارات حقوق الإنسان ومكافحة «الأصولية» والإرهاب، حيث يجرى إيهامنا بأن هناك جديدا حيث لا جديد، أو بأن الجديد يكمن فى مكان ما بينما هو فى الحقيقة فى مكان آخر.

إن الدكتور العظم يعرف بالطبع، أن الظاهرة أو الظواهر التى يثيرها فى الذهن لفظ «العولمة» كثيرة ومعقدة، وتمس مختلف جوانب الحياة، اقتصادا وسياسة واجتماعا وثقافة.. إلخ، فلماذا هذا الإصرار على تقديم تعريف جامع ومانع لها، واعتبار كل ما عداه خاطئا أو على الأقل سطحيا ومتسرعا؟ أليس من الأنسب فى التعامل مع ظاهرة كالعولمة، أن يكون الكاتب مستعدا للاعتراف بأنه لم يلمس كل جوانبها وأطرافها، تاركا بعض هذه الجوانب لغيره، أكثر مما يلائمها هذا الإصرار على إدخال كل هذا الجسم الضخم، بكل تعرجاته ونتوءاته فى ثوب ضيق؟ وهذا هو مايبدو لى أنه حدث مع التعريف الذى قدمه لنا الدكتور العظم لظاهرة العولمة (أو بالأحرى لما ينصرف إليه الذهن عندما نسمع هذا التعبير). فهو يقول: «إن العولمة هى حقبة التحول الرأسمالى العميق للإنسانية جمعاء، فى ظل هيمنة دول المركز وبقيادتها وتحت سيطرتها وفى ظل سيادة نظام عالمى للتبادل غير المتكافئ» ويضيف: «مع التذكير أن كلمة عميق تشير هنا إلى عمق نمط الإنتاج الرأسمالى وليس إلى سطحه فقط، كما تم إيضاح ذلك سابقا» (ص ٣٤).

فلنلاحظ أولا على هذا التعريف، أنه يحاول إبراز العولمة فى صورة تجعلها مجرد مرحلة من مراحل تطور «الرأسمالية». صحيح أن الكاتب واع تماما بأن هذه المرحلة تمثل انتقالا مهما وتحولا كيفيا أو نوعيا. ولكنها ما زالت، على أية حال، فى نظره «مرحلة» من مراحل نفس النظام. وهى نظرة قد لاتكون بعيدة عن الصواب، ولكنها أيضا تصادر على حق مشروع تماما لدى أى ملاحظ لما جرى ويجرى فى العالم خلال العقود الثلاثة أو الأربعة الماضية، فى أن يعيد التفكير فى ظاهرة الرأسمالية نفسها وأن يتساءل عما إذا كان هذا الذى يحدث يجعلنا بصدد ظاهرة تستحق اسما جديدا، أو على الأقل أن هذه «الرأسمالية» قد أصابها من التغيير فى نصف القرن الأخير ما يجعل استخدام نفس الاسم الذى كان مستخدما لوصف ظاهرة عمرها أربعة قرون أو أكثر، أقل ملاءمة بكثير مما نظن.

٢ ـ ولكن حتى إذا وافقنا د. العظم على اعتبار العولمة مرحلة من مراحل النظام الرأسمالي، فما هي السمة الأساسية التي تميز هذه المرحلة الجديدة؟

إنها في نظره امتداد سيطرة الرأسمالية من جانب دول المركز، لتشمل ليس فقط عمليات التبادل والتجارة مع دول الأطراف، بل وأيضا دائرة الإنتاج نفسه في هذه الدول الأخيرة. ولكن هذا التصور للسمة المميزة لمرحلة «العولمة»، لايمكن أن يعتبر تصويرا دقيقا. فالاستعمار التقليدي عرف امتداد رأسمالية المركز إلى مجال الاستثمار وتوظيف رؤوس الأموال في عملية الإنتاج نفسها في داخل الدول الأطراف، ولم يقتصر على مجال التبادل (أى التجارة). فاستثمارات دول المركز امتدت إلى إقامة المزارع الواسعة في الدول المستعمرة وإلى استغلال المناجم وبناء الموانئ والسكك الجديدة ومشروعات الكهرباء والمياه وغير ذلك من المرافق، فضلا عن البنوك التجارية ومختلف أنواع الخدمات الأخرى. هل المقصود إذن «الإنتاج الصناعي» في الدول الأطراف، باعتباره السمة المميزة للعولمة؟

ولكن هذا التأكيد على «الإنتاج الصناعي» بدلا من الإشارة إلى «دائرة الإنتاج» بوجه عام لايبدو بدوره كافيا لتمييز عصر العولمة عن غيره. فقد عرف الاستثمار الصناعي من جانب دول المركز في دول الأطراف، ولو بدرجة بسيطة في ظل الاستعمار التقليدي، ثم عرف بدرجة أكبر بكثير في ظل سياسة «الإحلال محل الواردات» قبل هذا العصر الذي ندعوه بعصر العولمة بعدة عقود.

من المؤكد أن عصر العولمة قد اقترن بإعادة تقسيم العمل الدولي بين المركز والأطراف، على نحو يسمح بتخلي دول المركز لدول الأطراف عن بعض الصناعات أو عن أجزاء منها، وأن هذا التغير قد احتاج بالضرورة كما يشير د. «العظم» إلى «تنظيمات وتوابع ولواحق ومؤسسات..الخ». ولكن ليس من الواضح لماذا نعتبر هذه السمة أهم من السمات الجديدة الأخرى التي طرأت في نفس الوقت، على عمليات التبادل نفسها، وخاصة أن هذه السمات الأخيرة (المتعلقة بعمليات التبادل) قد استدعت بدورها «تنظيمات وتوابع ولواحق..الخ». فبالإضافة إلى انتقال بعض الصناعات أو أجزاء منها من دول المركز إلى دول الأطراف، تغيرت أيضا بشدة طبيعة المنتجات التي يجري تبادلها بين المركز والأطراف، فزاد نصيب السلع الإنتاجية في إجمالي صادرات دول المركز إلى دول الأطراف، وطرأت تغيرات مهمة على أنماط السلع الاستهلاكية، ليس أقلها أهمية زيادة نصيب الأسلحة في إجمالي هذه الصادرات، فضلا عما نتج عن ثورة الاتصالات والمعلومات من زيادة أهمية صادرات المعلومات والأفكار وأنماط السلوك ومختلف أدوات غسيل المخ.

ان من الممكن جدا، ومن المشروع تماما، ان يزعم المرء بأن هذه التغيرات التي طرأت على عملية «التبادل» بكل أنواعه، أي سواء كان نقلا لسلعة أو خدمة أو معلومة أو نمط من أنماط السلوك، أهم بكثير وأجدر بالتأكيد، من انتقال بعض الصناعات أو أجزائها إلى دول الأطراف.

٣ ـ في مقال د. العظم يتكرر قوله بأن المطلوب هو التعمق، وتعبيره عن الأسف لأن كثيرا مما يكتب عن العولمة، خاصة من الكتاب العرب، لايتناول إلا ما يظهر على السطح. ولاشك أن التعمق مطلوب وأن الكلام السطحي مذموم. ولكن يظهر من طريقة تناول د. العظم لموضوع العولمة، ومن تعريفه لها، أنه يقصد بالتعمق هنا أمرا معينا هو الوصول إلى السبب، أو مجموعة الأسباب، التي يمكن أن يُفسر بها أكبر عدد من الملامح والسمات التي تتميز بها العولمة. فالتعمق المطلوب في نظره ليس إذن مجرد الكشف عن المستور، أو إيضاح ماكان خافيا، بل هو البحث عن تلك السمة من سمات العولمة التي سببت، على نحو أو آخر، غيرها من السمات، حتى ولو كانت تلك السمة المسئولة عن غيرها، ظاهرة للعيان بنفس الدرجة وبنفس الوضوح اللذين تظهر بهما السمات الأخرى. وهو يختار، كما رأينا، سمة تتعلق «بالإنتاج»، وعلى الأخص الإنتاج الصناعي، تمييزا له عن «التداول والتجارة». ولكن لنفترض أن الدكتور العظم مصيب في اعتبار امتداد نمط العلاقات الرأسمالية إلى مجال الإنتاج، أو إلى الصناعة في دول الأطراف، هو من المميزات الأساسية لعصر العولمة. فهل هو مصيب في اعتباره العامل «الأساسي» أو «الأكثر عمقا»، الذي يصلح لتفسير غيره من سمات العولمة؟ أليس هذا الامتداد إلى ميدان الإنتاج أو ميدان الإنتاج الصناعي، في دول الأطراف، هو نفسه ثمرة التقدم التكنولوجي، وعلى الأخص في ميادين النقل والاتصالات والمعلومات وفي ميدان الإنتاج الصناعي نفسه؟فإذا كان المطلوب هو الذهاب في «التعمق» إلى أقصى مدى، ألاتكون الثورة التكنولوجية وعلى الأخص في هذه الميادين، هي الأجدر باعتبارها السمة الأساسية لعصر العولمة، ومن ثم تكون هي الأجدر بالإبراز والتأكيد في أي تعريف موجز لظاهرة العولمة؟

وخذ مثلا ظاهرة «عصر النهضة الأوروبية»، إننا نعتبر أن أهم سمات هذا العصر هو ما طرأ فيه من تغير على اتجاهات التفكير وأنماط السلوك، مما ظهر في بزوغ النزعة الإنسانية واشتداد ساعدها على حساب التفكير الديني والغيبي، وفي ازدهار الفنون، وظهور أنماط جديدة منها، ونشأة المنهج العلمي الحديث، ونهضة العلوم، ونشأة الدولة القومية.. الخ.

ولكن لنفترض أن أحد المفكرين كالدكتور العظم مثلا، كتب يوبخنا على أن الاهتمام بكل هذا ليس إلا تسطيحا للأمور وتسرعا، إذ لم نتعمق في الأمور بالدرجة الكافية، وأن هذا التعمق كفيل

بأن يدلنا على أن وراء كل هذه التحولات «السطحية»، تكمن «الكشوف الجغرافية» مثلا، أو اختراع البوصلة، أو حتى اختراع المطبعة، ومن ثم فالأجدر بنا تعريف عصر النهضة الأوروبية بأنه عصر الكشوف الجغرافية، أو عصر اختراع البوصلة أو المطبعة.

ألا يكون هذا الموقف مخيبا للآمال؟ ليس لأن الكشوف الجغرافية أو البوصلة أو المطبعة، لم يكن لها هذا الأثر العظيم، ولكن لأن السمات الأخرى، التي قد تكون نتجت عنها، هي الأكثر حسما وأهمية، والأقوى أثرا فيما تلى ذلك من تطورات. ولكن هذا فيما يبدو لي، هو ما فعله د. العظم مع العولمة. أراد مزيدا من التعمق. وقد يكون قد وصل إليه بالفعل، بمعنى من المعاني. فلم يفعل أكثر من صب الماء على النار المشتعلة، فحوّل موضوعا مثيرا إلى ظاهرة عادية. ومن ثم حوّل الانتباه إلى التركيز على أكثر السمات إثارة وحيوية إلى شيء لايزيد كثيرا عن تسارع معدل الإنتاج الصناعي في دول الأطراف.

٤ ـ ولم تكن محاولة د. العظم لإحراز درجة أكبر من «التعمق» أكثر نجاحا في تناوله لموضوع العلاقة بين العولمة ودور الدولة. ذلك أنه بصرف النظر عما طرأ من تغيرات على مضمون العلاقة بين المركز والأطراف، سواء كانت تتعلق بالإنتاج والاستثمار في الصناعة أو بالتبادل والتجارة، فإن د. العظم لايميل إلى تعليق أهمية كبيرة على ما طرأ من تغيرات على الآليات التي تجرى هذه العلاقات من خلالها، مع أن هذه التغيرات الأخيرة قد تشكل بعضا من أهم سمات العصر الجديد، عصر العولمة.

لقد طرأت تغيرات على طبيعة السلع والخدمات المتبادلة، ولكن وسائل الإعلام وحملات الإعلان والترويج للسلع أصبح لها نتيجة لذلك، آثار بالغة الخطورة تمتد إلى أبعد بكثير من مجرد كونها وسائل لتصريف السلع. إن هذا التغير في وسائل الإعلام وحملات الترويج للسلع، وثيق الصلة بالطبع بما طرأ على طبيعة التبادل. ولكن قد يكون في آثاره أهم من التغيرات التي طرأت على أنواع السلع المتبادلة، مما قد يبرر إبرازه أكثر من غيره في توصيف ظاهرة العولمة، أي أن التغير في الآليات التي تتحقق بها ظاهرة ما قد يكون أهم من التغير في مضمون هذه الظاهرة نفسها. وقل مثل هذا على التغير الذي طرأ على دور الدولة، إن التغير الذي طرأ على نمط تقسيم العمل في مجال الصناعة بين دول المركز ودول الأطراف فرض تغيرات مهمة على دور الدولة، سواء كانت من دول المركز أو من دول الأطراف، وقوّى بشدة دور الشركات متعددة الجنسيات، سواء في علاقتها بالدول التي تنتسب مراكزها إليها، أو بالدول التي تمارس فيها نشاطها، وخلق نوعا جديدا من العلاقة بين هذه الشركات وبين دول الأطراف، كما أدى هذا التغير في تقسيم العمل الدولي إلى نوع جديد من العلاقة بين المؤسسات المالية الدولية، كصندوق النقد الدولي والبنك الدولي، التي تعمل اساسا وبدرجة متزايدة بوحي من هذه الشركات متعددة الجنسيات، وبين دول الأطراف.

هذا التغير في دور الدولة، الذي هو قطعا في اتجاه مزيد من الضعف لا مزيد من القوة، قد يعتبر من بين ما طرأ من تغيرات على آليات العلاقة بين المركز والأطراف، أو آليات عمل النظام الرأسمالي، إذا شئت. ولكنه قد يشكل واحدا من أهم سمات هذا العصر الجديد، عصر العولمة.

لهذا السبب لا أجد مبررا مقبولا لإمعان د. العظم في التقليل من شأن ما طرأ على دور الدولة من تغير، والإصرار على قول ما معناه إن الدولة لاتزال قوية كما كانت دائما وكما ستظل دائما. نعم، الدولة كانت دائما في خدمة أصحاب المصالح الاقتصادية الأقوى، ولكن دورها تفاوت قوة وضعفا بحسب تغير هذه المصالح نفسها. والظاهر أن المصالح السائدة اليوم تفضل الدولة الأضعف، وإن كانت دائما على استعداد لاستخدامها، في أي صورة من الصور، عندما تتطلب هذه المصالح ذلك.

نعم، الدولة كانت موجودة دائما ولازالت موجودة، ولكن ألا يرى د. العظم فرقا مهما بين الملك في العصر الإقطاعي الذي كان عديم السلطة ومثار السخرية والاستهزاء، والدولة الاستعمارية في أوج عصر الاستعمار، والدولة في عصر ريجان وكلينتون؟

٥ ـ وأخيرا، ألاحظ أن د. العظم لم تظهر منه، في رأيي، درجة كافية من السخاء في معاملة بعض الكتابات التي يختلف معها، إنني بالطبع لا أطالبه بالصفح عن الأخطاء، ولكن ما أطلبه هو «السخاء في القراءة»، فلا يفرط في تعليق أهمية على بعض الألفاظ المستخدمة، ما دام المعنى الأساسي المقصود صحيحا. إن بعض الكتاب المصريين المساهمين في كتاب «العرب والعولمة»، الذي تناوله د. العظم بالنقد، تعرضوا للعلاقة بين الدولة والشركات



الكتاب
وجهات نظر
رسائل

متعدية الجنسيات فوصفوا دور الدولة بالضعف أو الأفول أو بأنها تتخلى تدريجيا عن بعض سلطاتها لهذه الشركات. كما ذهب د. محمد عابد الجابرى المفكر المغربى، إلى أن العولمة «تتضمن معنى إلغاء حدود الدولة القومية فى المجال الاقتصادى(المالى والتجارى)» واستخدم للتعبير عن هذه الفكرة العبارة الآتية «العولمة عالم من دون دولة». أمسك د. المغلم بعبارة د. الجابرى «العولمة عالم من دون دولة» واعتبر ذلك من قبيل «الطرح المتسرع والسطحى لعلاقة العولمة والدولة»، مع أن من الممكن أن يُقرأ كلام الجابرى فى هذا الصدد بمعنى يجعله وصفا قريبا جدا من الحقيقة.

جلال أمين

كسوف الشمس بين الشرق والغرب

مع أول رسالة لكم يشرفنى أن أعترف للقائمين على أمر «وجهات نظر» بالفضل والجهد الذى لاينكر فى تحريك الماء الراكد فى المجتمعات الشرقية، سدد الله خطاكم، وبارك فيها.

وقد قرأت باستمتاع شديد (ملاحظة) الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل حول ضوء الشمس وظل القمر(العدد الثامن - سبتمبر ١٩٩٩) حيث (لاحظ) أن الممارسة الدينية فى بلاد الشرق أصابها قدر غير قليل من الخلل فانحرفت عن مسارها وعطلت العقل الشرقى عن (الإبداع الحضارى). واتخذ هيكل من حادثة كسوف شمس يوم(١١/٨/١٩٩٩)، وموقف العقلين الغربى والشرقى منها، اتخذ من ذلك (شاهد إثبات) على ما يقول. وقرر قبل أن يبدأ، فى مقالته، ونعم ماصنع، أنه عند الحديث عن (المقدس) لابد من مراعاة والتزام بعض الشروط.

وفى الواقع أنه لايوجد خلاف حول القضية المحورية (للملاحظة) فلكم وددتُ لو صرختُ بها فى الميادين العامة فى عواصم الشرق أجمعين، ومع هذا فقد شعرتُ أثناء القراءة أن الحاجة ماسة لبيان بعض (المفردات) أظنها ستكون بمثابة الإطار لمقالة الأستاذ هيكل وبلورة لبعض (الشروط) التى تحدث عنها فى بداية المقال.

أولا: إن أى حديث عن الممارسة الدينية فى الشرق يحتاج - معه - إلى بيان واضح تظهر فيه براءة الإسلام - كدين - من الحالة المتردية للشرق فى لحظته التاريخية الحاضرة، وتلقى فيه - أى فى البيان - التبعة كاملة على (فهم) الشرقيين للإسلام فهما مشوها، ثم على (التطبيق) أو (الممارسة) الخاطئة له بالضرورة. وخصصت الإسلام بالذكر على اعتبار أنه دين الأغلبية فى الشرق على المحور (جاكرتا - طنجة).

ثانيا: الحديث عن العقل الأوروبى وإنجازاته - فى القرون الأخيرة - بجوار الحديث عن العقل الشرقى وإخفاقاته، بالإضافة إلى ممارساته الدينية غير السديدة - بدون ذكر أو بيان الضابط السابق - إنما يكرس المفهوم الظالم أن (الدين) هو آفة الشرق المستعصية على العلاج، وفى ظنى أن الأستاذ هيكل ما أراد هذا على الإطلاق أو بالأحرى - على إطلاقه.

ثالثا: فيما يتعلق بحادثة الكسوف أو سواها من ظواهر الكون، فإنه ينبغى أن يُعلم أن الإسلام جاء بمنظومة شاملة لبناء الإنسان. ومن ثم الحياة، وعلّم المؤمنين - من ضمن ما علم - أن مايجرى فى الكون لا مكان فيه (للمصادفة) أو (الفوضى)، وإنما بتقدير من الله يقع، وأنه فى وقوعه هذا خاضع لقوانين و(سُنَن). ودعاهم بأصرح دعاء إلى اكتشاف كنه هذه القوانين والتفكر فيها والتعامل معها والانفتاح عليها والتأثر بها وتوجيه أثرها حتى تستقيم بهم الحياة على هذا الكوكب، وفى مسافة زمنية ليست بالقصيرة فقد المسلمون هذا وعلّموا البشرية كيف تكون صناعة الحياة.

رابعا: للمؤمن حسٌ مرهف يتعامل به مع ما يحدث فى الكون من ظواهر كالزلازل والبراكين وغيرها إلا أن هذا لايبرر أن ينقطع عن دراسة هذه الظواهر والتعامل معها. فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم - كما ورد فى الصحيح - إذا هبت الريح يدخل ويخرج ويتغير لونه، ولايقر له قرار، وهو - هو الذى أمر المسلم أن يتفكر فى آيات الله وآلائه.

وأنا أتساءل: ماالذى يمنع أن يفزع المسلمون إلى الصلاة والدعاء وفى ذات الوقت (ينفر) فريق منهم ليرصدوا ويحللوا ويستنتجوا ما يجد ويحدث فى الكون من ظواهر؟!

إننا دائما نقع بين المزلقتين فى الفكر: التهوين أو التهويل، ونقع بين المزلقتين فى السلوك: الإفراط، أو التفريط، وهذا أيضا من آفات العقل الشرقى.

طارق عبد الفتاح السيد
مدرس لغة عربية

“ نـــونُ ”

ماذا ينتظر الإنسان العربى في قـــرن قـــادم؟

تعاقب الفصول يخلع على حياة الناس قدرا من الثبات والتغير فى آن، وتصبح فترة التحول من الصيف إلى الشتاء من أكثر اللحظات المفعمة بالمشاعر الغامضة، والأسى الشجى، الذى يتذكر الإنسان فيه أجمل الأوقات وأصعبها معا.. تمتد الحياة وراءه مثل نهر طويل بغير بداية، وتنبسط أمامه دون أن يدرك ماذا تخفيه وراء أول منعطف يقابله من منعطفات النهر.. ويألف الإنسان فى حياته تلك التحولات الخفية الهادئة بكل ما تحمله من تغيرات داخلية وخارجية، وما تنطوى عليه من تقلبات وصدمات أو أفراح ومسرات، لا ينزعه من الواقع كر الغداة ومر العشى، ولا يمنعه تغير الفصول وتعاقب الشهور وانقضاء السنين وصيرورة الزمن، من أن يحيا حياته بالطريقة التى اعتادها.

ومع ذلك فالناس يحتفلون بنهاية القرن، ولكنهم أكثر احتفالا ببداية قرن جديد، وكأن مرور عشرين قرنا قد أزاح عن كاهلهم شقاء الإنسانية وصراعها من أجل التقدم، وفتح أمامهم مغاليق قرن جديد حافل بالأسرار والاكتشافات.

ولا يستطيع الإنسان أن يتحرر من تاريخه أو ماضيه، وليس بوسعه أن يتجاهل حاضره وظروفه الراهنة، ولكنه يستطيع أن يتجاوزه برؤية مستقبلية كاشفة ومستهدفة.. قد يلجأ البعض إلى الخيال العلمى، يبحث فى إمكانات العلم والتكنولوجيا عن إجابات تلبى أحلام الإنسان وتطلعاته فى مزيج من الواقع والخيال، أو الحقيقة والأسطورة، أو فى أوهام السعادة التى داعبت آمال البشرية منذ فجر التاريخ.. وقد يلجأ البعض الآخر إلى الدراسات المستقبلية القائمة على وضع سيناريوهات مختلفة، تستند إلى إحصائيات وفروض وإلى دراسات واقعية تغطى فترات طويلة نسبيا، تسمح بالوصول إلى استنتاجات أو اتجاهات عامة للمستقبل، تربط بين العناصر المختلفة، وتقدم عددا من الرؤى والاحتمالات الأقرب للممكن.

وإذا استبعدنا أسلوب الخيال العلمى لأنه قد لا يفيد إلا فى شحذ الخيال من خلال القصص والأفلام وحلقات المحاضرات، فإن الأسلوب الثانى الذى يلجأ إلى دراسات مستقبلية تغطى فترة زمنية محددة، ترتكز على الماضى وتنسحب إلى المستقبل هو الأسلوب الأمثل الذى يقوم على مناهج علمية معترف بها، تعززها الإمكانات الهائلة للحاسوب (الكمبيوتر)، وتسفر عن تنبؤات واحتمالات لمسارات أقرب ما تكون للواقع بعد تحليلات دقيقة للبيانات والمعلومات والإحصائيات.

ولا حاجة بنا إلى القول بأننا فى العالم العربى أبعد ما نكون عن استخدام مثل هذه المناهج العلمية والبرامج البحثية لاستقراء المستقبل واستشراف آفاقه. فنحن قد أدمنا النظر إلى الماضى بدرجة مَرَضِيَّة، ولا نملك الأدوات العلمية والكوادر البشرية المدربة لإنجاز مثل هذا الهدف. وباستثناء المشروع الوحيد الذى يقوم منتدى العالم الثالث فى مصر عليه منذ بعض الوقت وعلى وجه التحديد منذ عام ١٩٩٨، بإشراف العالم الكبير إسماعيل صبرى عبد الله، لإنجاز مشروع بحثى عن «مصر ٢٠٢٠» لكى يقدم رؤية مستقبلية بالمعنى العلمى المتفق عليه، تساعد صانعى القرارات على ترشيد قراراتهم وتدير حوارا مع الأطراف الفاعلة فى المجتمع، فإن الصورة المستقبلية للعالم العربى كمجموعة من الشعوب الطامحة إلى نوع من التماسك، والمرتبطة بوشائج تاريخية وجغرافية وحضارية، لم تجد من يقدح ذهنه بحثا عنها أو سعيا إلى الوصول إليها.. اللهم إلا ما تتطرق إليه دراسات المؤسسات البحثية الغربية فى إطار رؤاها ومنطلقاتها الخاصة، ومخططاتها بعيدة المدى، التى يجرى إعدادها لنا فى غيبة عنا وليس لحسابنا.

وإذا كنا لا نستطيع أن نشارك فى مجاهل الخيال العلمى بكل ما فيه من سحر الرؤى وشطحات العقل الإنسانى.. وإذا كنا لا نملك غير انتظار ما تسفر عنه جهود مخلصة ومضنية للقائمين على المشروع البحثى لمصر ٢٠٢٠، فقد لا يبقى أمامنا غير أن نطرح تساؤلات واحتمالات. وهو المجال الذى يمكن أن تشغل الصحافة ووسائل الإعلام نفسها به، استنادًا إلى ما ينشر من أبحاث هنا وهناك.

وقد أغرقتنا الصحافة العالمية بمقالات وملاحق ودراسات عما ينتظر إنسان القرن الواحد والعشرين من رؤى وتطورات فى مختلف جوانب الحياة ومناشطها، وإلى أى مدى سوف تغير التكنولوجيا والعلم أنماط حياته، وشكل المجتمعات التى يعيش فيها إنسان المستقبل ونظمه السياسية والاقتصادية والاستهلاكية، وهل سيبقى للإنسان فى ظل العولمة الكاسحة شىء من إنسانيته، أم تدهسها الآلة الضخمة لقوى لا يملك إزاءها شيئا، تتحكم فيها القبضة الخفية لأصحاب النفوذ والشركات المتعددة الجنسية؟

ماذا ينتظر الإنسان العربى فى القرن الواحد والعشرين؟ أو قل فى العشرين عاما القادمة من القرن الجديد؟

فى الغرب بعد أن بلغت الحرية بالإنسان حد التخمة.. حرية الإرادة والفعل والقول، وتوافرت له معظم الشروط المادية للحياة، وارتقت المجتمعات فى سلم التطور بعيدا عن الدرك الأسفل للاستبداد، وانطلقت الطاقات الذهنية والعقلية تكشف أسرار العلم وتخوض غمار تجاربه.. أصبحت الأسئلة التى يبحث لها الإنسان الغربى عن إجابة هى من نوع: هل ينجح الإنسان فى التغلب على الأمراض المستعصية مثل الإيدز والسرطان؟ وهل يمكن تجديد الشباب لتصل معدلات الأعمار إلى حدود ١٢٥ عاما؟ وهل تختفى القمامة والنفايات من المدن والقرى وتستعيد الطبيعة جمالها ورواءها؟ هل يشهد الإنسان نوعا جديدا من السياحة فى مستعمرات الفضاء؟ هل سيحتاج الإنسان إلى الجنس؟ وهل يمكن التوسع فى قطع الغيار البشرية؟ هل يمكن عن طريق التحكم فى الجينات أن نتتج أطفالا حسب الطلب وبدون حاجة إلى الجنس؟ هل يمكن التنبؤ بالكوارث الطبيعية والأوبئة ومنعها؟ إلى آخر هذه الأسئلة التى أصبحت إجاباتها فى متناول اليد داخل معامل البحث والجامعات بل وفى الواقع!

أما بالنسبة للإنسان العربى فسوف تظل الأسئلة التى تؤرق مضجعه فى القرن القادم من نوع: كيف يمكن القضاء على الأمية فى العالم العربى؟ ما هى البدائل المطروحة للتنمية أمام المجتمعات العربية حين تنفجر المعضلة السكانية، ويُستنزف النفط ولا يبقى لديها شىء من الثروات المدفونة؟ ومتى يتم تحرير الإنسان العربى من نير الاستبداد الذى قال عنه الكواكبى قبل مائة عام، إنه أصل الانحطاط فى العالم العربى والإسلامى؟ كيف يمكن توفير التعليم الأساسى لملايين الأطفال؟ ومتى يختفى الفقر والجوع والتخلف من الشعوب العربية؟ هل بوسع المجتمعات العربية أن ترتقى إلى درجة تسمح باحترام حقوق الإنسان وأن تختفى أدوات القمع المعلنة والخفية لإرادة الحياة والحرية والتطور؟ متى تتوقف موجات تكفير الإنسان العربى ومحاكمته على فكره، وينتفى ذلك التناقض الزائف بين الدين والعلم، وبين الأصالة والمعاصرة، وبين التراث والتحديث؟ متى تسترد المرأة حقوقها فى المجتمعات العربية، فلا تصبح مطية لأهداف السياسيين ورهينة لسجال قديم حديث حول التمييز الجنسى.. بل قل: متى يختفى الرق وتندثر النخاسة التى مازالت قائمة فى بعض أجزاء الوطن العربى؟

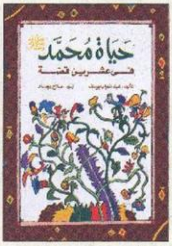
هناك إذن من الأسباب والعلل ما يحمل على الظن بأن إنسان الغرب لديه مبررات تحثه على الاحتفاء بمنجزات قرن قادم، وأن يحتفل بها لنفسه ولأبنائه وأجياله القادمة. أما الإنسان العربى فلو استطاع أن يحقق بعضا من المبادئ الأساسية التى تمثل القاعدة لبناء الحضارة، مثل التحرر من الفقر والجهل والمرض، والتسلح بالحرية والديمقراطية والعلم، فقد ينجح فى تضييق الهوة السحيقة التى تفصل بينه وبين العالم. أما إذا لم يستطع، وغلبه العجز وضعف الهمة وانكسار الإرادة، فلن يبقى له شىء غير ما هو عليه أو فيه. سوف تغلبنا عوامل الاستبداد السياسى، والانهيار الأخلاقى، والإفلاس المعرفى والحضارى لتقودنا إلى مهاوى الانحطاط الذى حذر منه الكواكبى... والمسافة إلى ذلك قصيرة وأقصر مما نتصور!!

سلامة أحمد سلامة

معرض القاهرة الدولى السادس عشر لكتب الأطفال فى الفترة من ٢٤ نوفمبر - ٦ ديسمبر ١٩٩٩ بأرض المعارض الدولية بمدينة نصر

دار الشروق تقدم

باقة من أجمل وأحدث كتب الأطفال الحائزة على الجوائز العربية والدولية



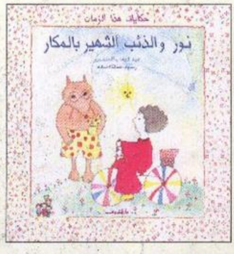
حياة محمد صلى الله عليه وسلم
فى عشرين قصة
تأليف : عبد التواب يوسف
رسوم : صلاح بيصار

افتح ... وحرك ..
واكتشف العجائب
فى كتاب
جسمك

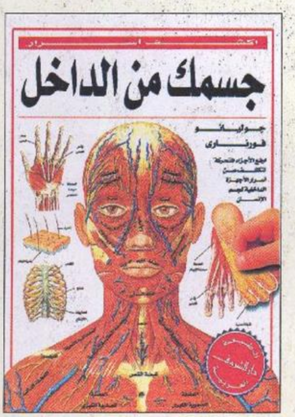




سندريلا وزينب هانم خاتون
عبد الوهاب المسيرى
رسوم : صفاء نبعه



نور والذئب الشهير بالمكار
عبد الوهاب المسيرى
رسوم : صفاء نبعه



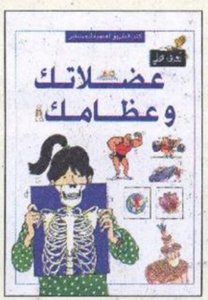
جسمك من الداخل



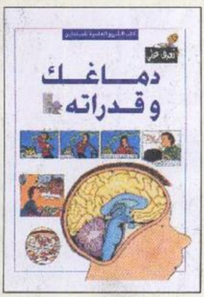
سلسلة
المستكشفون الميكروسكوبيون



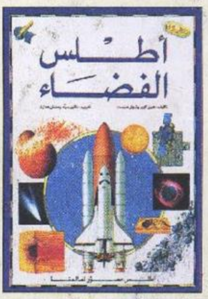
حواسك الخمس



عضلاتك وعظامك



دماغك وقدراتة



اطلس الفضاء
ترجمة : د. سيد رمضان هدارة

تطلب من دار الشروق ٨ شارع سيبويه المصرى . رابعة العدوية . مدينة نصر ت : ٤٠٢٣٣٩٩ ومكتبة الشروق ١ ميدان طلعت حرب ت : ٣٩١٢٤٨٠

ومن المكتبات الكبرى